بيتي راديس

فتح بلاد الغال

يوليوس قيصر

ترجمة

علي زيتون



فتح بلاد الغال

يوليوس قيصر

Betty Radice

Caesar

The Conquest of Gaul

Translated into English
By
S.A. Handford
Penguin Books

Translated into Arabic
By
Ali Zaytoun

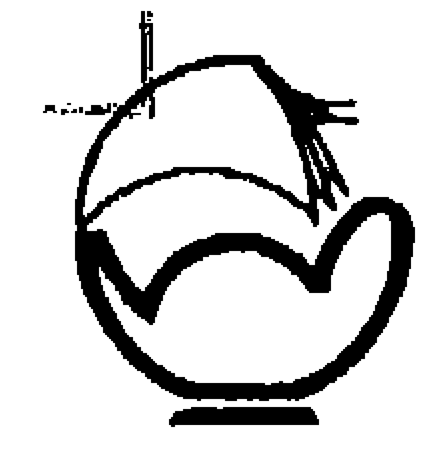
بيتي راديس

فتح بلاد الغال

يوليوس قيصر

ترجمة

علي زيتون



منشورات دار علاء الدين

- **فتح بلاد الغال - يوليوس قيصر.**
- تأليف: **بيتي راديس.**
- ترجمة: **علي زيتون.**
- الطبعة الثانية ٢٠٠٧.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين.**

- الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو.
- التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير.
- الغلاف: م. محمد طه.
- المتابعة الفنية والإخراج: أُسامة راشد رحمة.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

تعريف موجز
بالمؤلف

ولد غيوس يوليوس قيصر *Gaius julius Caesar* عام ١٠٠ قبل الميلاد في عائلة عريقة من الأشراف الرومان، وعايش في مرحلة مراهقته عهد الحرمان – الحرمان من حماية القانون – الذي فرضه ماريوس *Marius* صهر أبيه. كما عايش عهد ديكتاتورية سولا *Sulla* وأوائل عهد بومبي *Pompey*. وكانت عائلة قيصر معادية بصورة تقليدية لحكم الأقلية المتمثل بمجموعة من الأعضاء النبلاء في مجلس الشيوخ الروماني. وجاء قيصر ليتبع ذلك التقليد. أودعه سولا بالسجن لفترة قصيرة لكنه تمكن من المحافظة على علاقات طيبة مع النبلاء لعشر سنوات بعد إطلاق سراحه. حتى أنه تم اختياره زميلاً جديداً في كلية القساوسة عام ٧٣ قبل الميلاد. وقف قيصر إلى جانب بومبي مؤيداً له بصورة صريحة عام (٧١ ق.م) وشكل قيصر وبومبي وكراسوس *Crassus* (الذي كان قد أبعده مجلس الشيوخ) أول حكومة ثلاثية.

وخلال السنوات التسع التي تلت انشغل قيصر بقيادة حملاته في بقاع مختلفة حتى عاد عام (٦٠ ق.م) من وظيفته بوصفه حاكماً لإسبانيا البعيدة ليتم انتخابه قنصلاً. ونصب بعد ذلك حاكماً على بلاد الغال *Gaul* الواقعة وراء جبال الألب، وكانت تلك مهمة شغلته لتسعة أعوام كان خلالها تاركاً لبومبي وكراسوس أمر حماية مصالحه في روما. لكن كانت بينهم خلافات كثيرة عند هذا الوقت جعلتهم يعقدون لقاءً فيما بينهم في لوكا *Luca* عام (٥٦ ق.م) في محاولة لحل تلك الخلافات.

وعُيّن بومبي قنصلاً وحيداً عام (٥٢ ق.م) بعد موت كراسوس الأمر الذي نتج عنه حرباً أهلية وهزيمة لجماعة بومبي في إسبانيا عام (٤٥ ق.م). عاد قيصر بعد ذلك إلى روما ليكون حاكمها الدكتاتوري المطلق. حاول تحسين ظروف حياة المواطنين الرومان وزيادة فعالية الحكومة وجعلها تتبنى مواقف تنم عن صدق واستقامة وأمانة، وأعلن في شباط من عام (٤٤ق.م) عن جعل ديكتاتوريته المطلقة حكماً دائماً على روما، غير أن أعداءه اللدودين الكُثُر دبروا له مؤامرة كانت نتيجتها اغتياله في آذار من عام (٤٤ ق.م).

تعريف بالمترجم

الذي نقل الرواية إلى الإنكليزية

ولد س.أ هاند فورد في مانشستر عام ١٨٩٨، وتلقى تعليمه في مدرسة براد فورد للقواعد، وفي كلية باليول في أوكسفورد حيث حصل على امتياز في الدراسات الكلاسيكية، اشتغل محاضراً في سوان سي*Swan sea* وفي كلية الملك في لندن. نشر العديد من الكتب حول موضوعات كلاسيكية وترجم قيصر وسولست *Sallust* وايسوب *Aesop* لدار النشر بنغوين.

مقدمـــة

آ- السياسة الرومانية خلال القرن الأول قبل الميلاد

شغل فتح يوليوس قيصر لبلاد الغال الأعوام الواقعة ما بين (٥٨ و٥٠ قبل الميلاد). وكان ذلك آخر حروب الفتح التي خاضتها روما الجمهورية. كان يحكم الدولة الرومانية، ولعدة قرون قبل ذلك، نظام اعتمد في نجاحه بصورة رئيسية على توزيع المهام والقيادة. فقد وضعت السلطة التشريعية والانتخابية بيد جمعيات مختلفة من أهالي البلاد، وأوكل جزء من الواجبات التنفيذية للحكام الذين كانت تنتخبهم تلك الجمعيات، وكان أكثرهم أهمية حاكمين رئيسيين وعدداً من القضاة وعشرة أعضاء من عامة الشعب الروماني مهمتهم الدفاع عن حقوق ومصالح عامة الرومان، وقد تمتع هؤلاء بسلطة خاصة تمكنهم من الاعتراض على إجراءات العمل التي كانت تقوم بها أي جماعة رسمية أو حكومية أو حتى الحكام باستثناء الحاكم المطلق أو الديكتاتور. أما الجزء الآخر من الواجبات التنفيذية فقد أوكل إلى مجلس الشيوخ الذي كان يندرج بين أعضائه وعلى نحو اعتيادي كل الحكام السابقين.

وخلال فترة الفتوحات الطويلة التي جعلت روما بادئ ذي بدء سيدة إيطاليا ثم حاكمة لإمبراطورية امتدت من مضيق جبل طارق إلى نهر الفرات كان النظام الحكومي يعمل بصورة حسنة. إلا أنه أخذ يتقوض شيئاً فشيئاً ما بين عام ١٠٠ و١٠٢ قبل الميلاد وهي فترة ولادة يوليوس قيصر. فامتلاك إمبراطورية ضخمة جلب ثروة طائلة ساهمت في إفساد أخلاقيات الطبقة الحاكمة، وحق تلك الطبقة، وبالأخص حق مجلس الشيوخ، في شيء أشبه باحتكار السلطة الإدارية كان يواجه بالتحدي والاعتراض من قبل القادة الديموقراطيين. وقبل أن يبلغ قيصر العشرين من عمره كان الصراع الحزبي قد أدى إلى حرب أهلية شاملة وليس إلى أعمال شغب واضطرابات فحسب. وكان لوسيوس كورنيليوس سولا *Lucius Cornelius Sulla* أول من أعلن في عام (٨٨ ق.م) أن فيالق الجيش الروماني ستسير خلف حركة شعبية مناهضة لبلدها ولأعدائها في الوقت ذاته. والأسوأ من ذلك أن عمليات سفك الدماء والمذابح بين الخصماء السياسيين قد وقعت بعد عودته إلى إيطاليا عام (٨٣ ق.م) بعد حربه ضد ميثريديتز

Mithridates ملك بونتوس *Pontus* في أسيا الصغرى. وكان للإصلاحات التي قام بها سولا بوصفه حاكماً مطلقاً أثر ما في استرجاع هيمنة نبلاء مجلس الشيوخ، إلا أنها لم تفعل شيئاً على صعيد تصحيح ما أصابهم من احتكارية للسلطة اتسمت بالأنانية العمياء، الأمر الذي جعل موضوع الاستقرار السياسي مستحيلاً وموضوع اغتصاب السلطة العسكرية محتوماً وكانت المواطنية الرومانية قد امتدت منذ عهد قريب إلى مختلف أرجاء إيطاليا تقريباً، إلا أن هؤلاء المواطنين الجدد المبعثرين في المدن الصغيرة والأرياف لم يكن لهم التأثير الفعال في استقرار الأمور ورسوخها على نحو ما كان متوقعاً منهم، وذلك لأن حقهم في الانتخاب كان عموماً غير ذي جدوى تبعاً لحاجتهم لمن يمثلهم، سواء في عملية صنع القانون أو في عملية انتخاب الحكام، وعلى اعتبار أن السلطة التشريعية والانتخابية كانت لا تزال بصورة رئيسة في يد المواطنين المقيمين في روما أو على أجنابها فقد كان لبقية سكان إيطاليا اهتمام ضئيل بنشاطات الآلة الحكومية في روما.

لقد تميزت السنوات العشرون الواقعة بين استقالة سولا وبداية الحرب الغالية *The Gallic war* بظهور عدد كبير من الشخصيات التي تحلت بالمقدرة والحماسة والطموح. فمنصب القنصل (الحاكم الرئيسي) عام (٧٠ ق.م) انحصر باثنين من المرشحين كانا من الموالين النشطين لسولا وأحرزا منذ وفاته بعض الامتياز العسكري وهما: ماركوس ليسينيوس كراسوس *Marcus Licinius Crassus*، رأسمالي في غاية الثراء والترف، وينوس بومبيبوس ماغنوس *Gnaeus Pompeius Magnus* وهو المعروف ببومبي الأكبر، وقد عمل هؤلاء معاً ونفذا بعض الإجراءات التي كان من شأنها تحطيم هيمنة مجلس الشيوخ التي كانت قد وفرتها له تشريعات سولا. غير أن قدرة بومبي وعبقريته العسكرية الفذة سرعان ما مكنته من بز كراسوس في موضوع التنافس على السلطة. وفي عام (٦٧ ق.م) مُنح منصب حاكم واسع الصلاحية على كامل أرجاء البحر المتوسط وكل شواطئه ليقوم بتنظيفها من القراصنة الذين كانوا، من خلال غزوهم لهذا البحر وتواجدهم المتواصل فيه، يهددون إيطاليا بالمجاعة. وقد نفذ بومبي مهمته بنجاح في غضون ثلاثة أشهر، وفي السنة التي تلت تسلم بومبي تفويضاً عاماً للقيام بتنظيم شتى شؤون روما في آسيا الصغرى حيث كان هناك القائد العسكري لوسيوس ليسينوس لوكولوس *Lucius Licinius Lucullus* (وهو من اختيار مجلس الشيوخ) يقوم منذ ثماني سنوات بقيادة الحملات في حرب أخرى ضد ميثريديتز *Mithridates* لم يكسب بومبي حصته من التقدير والجدارة فحسب من خلال استكماله للنصر الذي وضع أساسه لوكولوس وإنما أحدث استقراراً شاملاً في سائر أنحاء منطقة

الشرق الأدنى، وأوجدت مقاطعة رومانية جديدة (سوريا، وتم توسيع رقعة مقاطعتين كانتا أصلاً ضمن الدولة، وتمت زيادة مصادر الدخل بشكل هائل جداً.

في الوقت ذاته قام كراسوس *Crassus*، الذي أصابه الحسد الشديد من نجاح بومبي، وانتابته الشكوك حول نواياه، حين عودته إلى روما، بمحاولات عديدة لزيارة قوة الموقع الذي كان فيه. وقام لبعض الوقت بتشجيع لوسيوس سيوجيوس كاتيلينا *Lucius Sergius Catilina* على المضي في طموحاته، وكان هذا واحداً من الأشراف الرومان الذين أصابهم الفقر وانغمسوا بالفسق، وقد صمم على الحصول على العضوية القنصلية (أي أن يصبح أحد الحاكمين الرئيسين لروما)، وكان على أتم الاستعداد لاستخدام قوة غير شرعية لتدعيم أهدافه الخاصة أو تعزيز أهداف أي واحد آخر يرغب في شراء خدماته. إلا أن كراسوس واجهه بالنبذ بعد أن تم رفضه في الانتخابات التي جرت عام (٦٤ ق.م) والتي أثبت فيها ماركوس طوليوس سيسيرو *Marcas Tullius Cicero* المعروف ببراعته الخطابية أنه مرشح ناجح، وبعد هزيمة أخرى لحقت بكاتيلينا عام (٦٣ ق.م) شرع بحياكة مؤامرة تمردية عنيفة سرعان ما سحقها سيسيرو بوصفه أحد الحاكمين الرئيسين في جمهورية روما القديمة وانتهت بموت كاتيلينا وشركائه الأساسيين.

وفي عام (٦٢ ق.م) وهو العام الذي كان فيه قيصر يشغل منصب قاضٍ – عاد بومبي من الشرق وسيسيرو الذي طار تيهاً وابتهاجاً لفوزه بالعضوية القنصلية ولتعامله الحازم والصارم مع الأزمة الكاتيلينارية *Catilinarian Crisis* اعتقد بفكرة تنظيم جميع المواطنين الموالين في عملية الدفاع عن الدستور، وذلك ضمانةً منه ضد أية قلاقل أو اضطرابات سياسية جديدة قد تقع. لذا سعى بشكل خاص لتأمين التعاون السياسي بين طبقة النبلاء في مجلس الشيوخ وطبقة الفرسان التي تألفت من أناس ذوي رؤوس أموال موظفة في الأراضي أو في التمويل، أو مستثمرة في التجارة أو في مشاريع جمع الضرائب. وكان لدى بومبي الأمل في أنه سيلعب دور الزعيم لمثل هذا الائتلاف من خلال قيامه مباشرة بحل قواته ومعاملة مجلس الشيوخ بالاحترام اللائق. غير أن مجلس الشيوخ وبحماقة عمياء قام بصده من خلال إرجائه المتعمد لاستصدار قرار الاعتراف بمستعمرته الشرقية ومنحه الأرض اللازمة ليتمكن من إحالة محاربيه القدماء على التقاعد. وسلم بومبي بهذا الوضع مبدئياً، الأمر الذي دل بوضوح على أن بومبي لم يرغب في استخدام طريقة الانقلاب العسكري في سعيه وراء السلطة، مع أن الحصول على السلطة –أعلى مراتب السلطة – كان أول مقاصده ونواياه، ومع ذلك لم يشأ اللجوء إلى القوة المجردة إلا أنه لم يكن يحمل في طيات نفسه احتراماً شديداً للقيود الدستورية.

وفي عام (٦٠ق.م) عاد قيصر بعد سنة شغل فيها منصب الحاكم الإقليمي على إسبانيا ليرشح نفسه قنصلاً، ورغم أنه لم يكن بعد قد خاض غمار السياسة بالشكل المكشوف، لكن لابد لأعضاء مجلس الشيوخ المحافظين أن يكونوا قد أدركوا أن قيصر كان رجلاً على مستوى من المقدرة الاستثنائية الرفيعة والخطورة الكامنة. والأمر الذي أخفقوا في إدراكه هو أن ما يمكن أن يفجر تلك الخطورة المستترة في شخص قيصر، وبالصورة الأكيدة، هو محاولة تثبيط عزيمته وإحباط طموحاته بنفس الطريقة المستبدة التي أحبطوا بها بومبي من قبله، وقد كان ذلك أسلوباً عكس طغيان وتحكمية مجلس الشيوخ. فلم يسمحوا لماركوس بورسيوس كاتو *Marcus Procius Cato* - وهو الرجل العنيد المعروف بعصبيته وضيق أفقه - بمقاومة رغبة قيصر في تتويج انتصاراته العسكرية في إسبانيا بالفوز على صعيد الانتخابات القنصلية فحسب، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث استخدموا ضده، بعد تيقنهم من احتمال انتخابه كقنصل، حق مجلس الشيوخ في تحديد الأقاليم والواجبات التي سيترتب على القناصل المحتمل نجاحهم في الانتخابات القيام بها وفقاً للتقليد المتبع أن يكونوا قد أمضوا عاماً على شغلهم لمناصبهم في روما. وبدلاً من أن يكلفوهم بمناصب الحكام الإقليميين الاعتيادية ومنحهم الفرصة لتحقيق المكاسب الشخصية والانتصارات العسكرية، فقد كلف هؤلاء القناصل بالذات - خلافاً لما جرت عليه العادة - بالإشراف على القلاع وطرق سير قطعان الماشية في إيطاليا. وكان ذلك كافياً لدفع قيصر نحو القيام بإقناع بومبي وكراسوس (الذي كان مديناً له بمبلغ من المال) بتشكيل ائتلاف غير رسمي معه، عرف بالائتلاف الثلاثي الأول، غرضه تعزيز الأهداف الشخصية لكل منهم عن طريق شل حركة مجلس الشيوخ والحصول على سلطة الدولة. ومما قوى هذا التحالف ورسخه زواج بومبي من ابنة قيصر الوحيدة جوليا *Julia*.

وتم انتخاب قيصر قنصلاً في الموعد المحدد وعلى نحو ما ينبغي، كما تم انتخاب زميل له يدعى ماركوس كالبيرنيوس بيبولوس *Marcus Calpurnius Bibulus*، صمم على بذل قصارى جهده لإعاقة مخططات قيصر. فحينما رفع قيصر طلباً إلى الجمعية التشريعية لتقديم الأرض اللازمة لقوات بومبي، استخدم بيبولوس وآخرون غيره شتى الوسائل لإعاقة تنفيذ طلبه، الأمر الذي اضطر قيصر لإحضار مجموعة من الجند لتقوم بطردهم خارج المجلس، وحصل على الموافقة على الطلب عنوة. وتبع ذلك إجراءات أخرى من ضمنها الاعتراف بالمستعمرة الشرقية لبومبي، وتعيين قيصر في نهاية المطاف - وبقرار وافقت عليه الجمعية التشريعية - حاكماً إقليمياً لفترة غير عادية وهي خمس سنوات امتدت ما بين الأول من آذار

عام (٥٩ ق.م) حتى الأول من آذار عام (٥٤ ق.م) وكان الإقليم الذي صوت أساساً لصالح قيصر هو إقليم سيزالباين غاليا *Cisalpine Gaul* الذي يشتمل على منطقة الشمال الإيطالي الواقعة ما بين جبال الألب *Alps* وسلسلة جبال الابينانيز *Apennines*(١) إضافة إلى اليويا *Illyria* على الجانب الشرقي للبحر الإدرياتيكي وبعد مضي عدة أسابيع ألحق مجلس الشيوخ بقيصر ترانسالباين غاليا *Trans alpine Gaul* التي تشتمل على الساحل الفرنسي للبحر المتوسط ووادي الرون الأدنى *The Rhone valley* وجزء من مقاطعة الباين الغربية *Alpine*(٢). وخصصت لقيصر أربعة فيالق للقيام بإدارة دفة الحكم في هذه المقاطعات التي شكلت مع بعضها المجموعة المؤتلفة التي رغب هو كثيراً في الوصول إليها. وبذلك كان قيصر قادراً على قضاء القسم الأكبر من فصول الشتاء في الشمال الإيطالي حيث كان من السهل عليه البقاء على اتصال دائم بمختلف شؤون روما من خلال أصدقائه وعملائه.

ولما كانت سيزالباين غاليا الأرض الرئيسية التي تمد الجيوش الرومانية بالعناصر والجند والمتطوعين فقد كان ضمن إمكان قيصر زيادة عدد فيالقه، بتشكيل فيالق إضافية، في أي وقت كانت تدعو الحاجة إلى ذلك. وجاء ضم مقاطعة ترانسالباين غاليا للوائه ليقدم الفرصة الملائمة للمباشرة بحرب من الفتوحات خاصة وأن الظروف غير المستقرة والأحوال المتوترة السائدة في بلاد الغال الواقعة خلف الحدود الإقليمية استدعت التدخل العسكري. كما وفر قيصر القاعدة المناسبة التي تمكنه من إدارة وتوجيه هذه الحرب منها. وبعد مضي ثمانية أعوام ظهر قيصر على رأس جيش عرمرم من المحاربين المتمرسين ذوي الخبرة القتالية العتيدة، نتيجة ما خاضوه من حملات، والإخلاص المتميز والوفاء للقائد. وقد أضاف قيصر مقاطعة جديدة، ضخمة وغنية، للإمبراطورية الرومانية وحقق لنفسه ثروة هائلة طائلة ونجاحاً باهراً.

---

(١) يقصد بـ"سيز الباين غاليا" ذلك الجزء من غاليا الواقع على الجانب الإيطالي من جبال الألب. فقد كانت قبائل غالية، ولقرون عديدة تقطن الشمال الإيطالي. لكن في زمن قيصر أصبح الشمال الإيطالي بمعظمه رومانياً والقسم الأكبر من سكانه إما تمتع بالمواطنة الرومانية الكاملة، أو على الأقل حاز على امتيازات المواطن الروماني. ولأسباب أمنية كان يدير الشمال الإيطالي – كمقاطعة – واحد من الحكام الذين يغينهم مجلس الشيوخ الروماني. (ويقصد بالشمال الإيطالي أو إيطاليا في هذه الترجمة مقاطعة سيزالباين غاليا).

الابينانيز *The Apennines*: سلسلة جبال تقطع إيطاليا من شمالها الغربي إلى جنوبها الغربي.

(٢) المقاطعة: *Province* اشتقت اسمها من الكلمة اللاتينية *Province* وتعني في هذه الترجمة مقاطعة ترانسالباين غاليا *Transalpine Gaul* رغم أنها تغطي فقط جزءاً من المنطقة التي تشكل المقاطعة الرومانية.

واستمرت الدولة خلال هذا الوقت كله في ظل حكم وسيطرة الائتلاف الثلاثي على الرغم من أن أواصر الاتحاد فيما بينهم قد ضعفت بمرور الزمن ثم تلاشت في نهاية الأمر. فالتحالف بينهم ارتكز فقط على حجم منفعة وفائدة الواحد منهم للآخر، وكان المعتدلون أمثال سيسيرو *Cicero* والنبلاء المحافظون أمثال كاتو *Cato* تواقين لاستغلال ما ظهر بين أعضاء التحالف – تحالف الثلاثة الكبار – من الحسد وللاستفادة من الشكوك التي كانت تنتاب الواحد منهم تجاه الآخر. والحقيقة هي أن الائتلاف الثلاثي هذا كان من قبل يعاني من خطر السقوط، وبخاصة عام (٥٦ ق.م) لكن في ربيع ذلك العام اجتمع الشركاء في لوكا *Lucca* في مقاطعة سيزالباين *Cisalpine* القيصرية وقاموا بتسوية الخلافات فيما بينهم بصورة مبدئية.

وتم الاتفاق على أن يستمر بومبي وكراسوس بشغل منصبيهما كقناصل مجدداً عام (٥٥ ق.م) وأن تمدد القيادة الإقليمية لقيصر ربما حتى الثالث عشر من شهر تشرين الثاني لعام (٥٠ ق.م) كما اتفق على أن يتولى بومبي قيادة المقاطعتين الإسبانيتين مع منحه إذن خاص لتكليف ممثل عنه ليقوم بممارسة ذلك المنصب بدلاً عنه ون يظل هو في إيطاليا، واتفقت الأطراف على أن يتولى كراسوس قيادة مقاطعة سوريا حيث أمل من خلال إثارته للحرب ضد بارثيا *Parthia*، أن ينال حصته من النصر العسكري. وفي عام (٥٤ و٥٥ ق.م) انجرفت الدولة نحو شيء أشبه بالفوضى السياسية نتيجة فقدان السلطة الحكومية فمنعت الانتخابات مراراً وتكراراً من خلال الاستخدام التعسفي لحق الفيتو (النقض) من قبل التريبيونات *Tribunes* (المدافعون عن حقوق العامة ومصالحها عند الرومان) وأكثر من ذلك، أنه حينها كان يُسمح بإجراء الانتخابات كان يتم تقرير أسماء الفائزين فيها إما بفعل الرشوة الفاضحة أو باستخدام القوة المسلحة لتقوم بأعمال الشغب والفوضى. وأخيراً في عام (٥٢ ق.م) أوصى مجلس الشيوخ بتعيين بومبي قنصلاً وحيداً – دون أي زميل له – بحجة أنهم سيمكنونه من فرض سلطة الدولة وإدارة دفة النظام، الأمر الذي عنى شيئاً ليس ببعيد كثيراً عن الديكتاتورية.

منذ أن شغل قيصر منصب العضوية القنصلية عام (٥٩ ق.م) كانت هناك مجموعة من الأرستقراطيين يقودها كاتو تخطط طوال الوقت لمعاقبته على تحديه لمجلس الشيوخ والدستور وغدوا الآن يأملون باستخدام بومبي لتنفيذ غرضهم وجاء موت جوليا – ابنة قيصر الوحيدة وزوجة بومبي – عام (٥٤ ق.م) ليساند خططهم بعد أن زالت أقوى الروابط الشخصية بين بومبي وقيصر. ليس هذا فحسب، بل إن موت كراسوس في بارثيا عام (٥٣ ق.م) ترك الاثنين في مواجهة بعضهما دون أية أطراف أخرى. وكانت نية كاتو ومناصريه محاكمة قيصر بتهمة الخيانة والابتزاز عند

اللحظة الأولى لنهاية مدة حكمه لبلاد الغال حيث سيعود ثانية مواطناً عادياً غير متول لأية مناصب حكومية أو أعمال رسمية. واعتقدوا أنهم إذ تمكنوا من تحريض بومبي على القيام بدعم ومآزرة مثل هذه المحاكمة لكان لديهم القليل من الشك حول قدرتهم على ضمان إلصاق التهمة بقيصر ووضع حد نهائي لمسيرته. لكن طالما استمر قيصر يشغل منصبه الحكومي ويتربع على قيادة الجيش فهو في مأمن من أية أخطار أو مكائد، وبالتالي فإنه قد يصبح في مأمن من جديد لو أنه يستطيع الفوز بالانتخابات القنصلية، حيث أن من يتم انتخابه حاكماً أو قاضياً يستثنى من الخضوع لأية محاكمات ضده. وقد كان قيصر، من قبل، معفياً – بقانون خاص – من اتباع القاعدة العامة التي تستوجب من المرشحين حضور الانتخابات شخصياً. لكن على اعتبار أنه كان لابد من انقضاء فاصل زمني مدته عشر سنوات كاملة بين الولايتين فإن أول انتخابات سيكون بإمكانه الاشتراك بها قانونياً هي تلك التي ستجري في صيف عام (٤٩ ق.م) حيث ستكون قد انتهت فترة حكمه وولايته الحالية، إلا إذا مددت مجدداً، وسيتم تعيين خليفة آخر بدلاً عنه. وعلى هذا الأساس سيكون هناك فاصل زمني مدته بضعة أشهر سيكون قيصر خلالها عرضةً لهجمات أعدائه ومؤامراتهم.

وانقضى عاما (٥١ و٥٠ ق.م) بمفاوضات متواصلة ومكائد لم تنقطع. وتوقع قيصر من بومبي ومجلس الشيوخ توجيه القوانين الدستورية لمصلحته على نحو ما حصل سابقاً وتم توجيهها لصالح بومبي. غير أن كاتو وجماعته قاما بممارسة ضغوط شديدة على بومبي ليقوم بتسليم قيصر إليهم من خلال إصرارهم على تطبيق القانون بحرفيته. غير أن بومبي تردد وناور لتحاشي التوصل إلى قرار نهائي بهذا الشأن. ثم كسب كاتو الموقف لصالحه ووافق بومبي على القيام بإجراءات من شأنها وضع قيصر بين خيارين: إما الحرب الأهلية وإما التخلي عن مناصبه السياسية. وقد كان ذلك ضد إرادة الجميع عدا زمرة بسيطة من ارستقراطيي مجلس الشيوخ واختار قيصر الحرب. وبعد ثمانية عشر شهراً مات بومبي مقتولاً على يد جندي في مصر بعد معاناته من الهزيمة التي ألحقها به قيصر. وفي ربيع عام (٤٥ ق.م) ضاعت قضية الجمهورية وغدا قيصر سيد العالم الروماني.

وقام قيصر خلال الفواصل الزمنية القصيرة بين الحملات، وخلال السنة الوحيدة التي بقيت أمامه بعد اختتام الحرب، بتنفيذ برنامج واسع من إعادة البناء الاقتصادي والمالي للدولة، اشتمل على الحماية الزراعية لإيطاليا، غير أن الكثيرين من رفاقه المواطنين الرومان، بما فيهم مناصروه القدامى وأتباعه، قد أصبحوا عند ذلك الوقت ينظرون إلى قيصر على أنه طاغية مستبد، ومما عزز رأيهم هذا اتخاذ قيصر لقرار جعل نفسه ديكتاتور البلاد لمدى

الحياة عام (٤٤ ق.م) الأمر الذي بدد أي أمل لهم بعودة الحكم الدستوري لبلادهم. وبعد شهر من هذا التاريخ اضطجع قيصر ميتاً على إثر ثلاث وعشرين طعنة خنجر وجهت إليه من قاتليه.

ب- قيصر الإنسان

كان غيوس يوليوس قيصر أحد أفراد أسرة من الأشراف الرومان برزت مؤخراً منذ عهد طويل اكتنفه الغموض. وكانت تتجلى فيه بوضوح معالم ومواهب ومقدرات الشخصية الأرستقراطية الرومانية. فكلمة "شرف" غالباً ما كانت على شفتيه، و"الشرف" تطلب منه أن يكون مخلصاً وفياً، أبعد حدود الإخلاص والوفاء، إلى أصدقائه ومناصريه ومؤيديه، حتى إلى أولئك الأوضع مقاماً والأقل استحقاقاً ممن يؤدون له خدمة[1]. ومن ناحية أخرى، كان "الشرف" يجعله شديد الحرص على الحصول على موافقة واعتراف مواطنيه بمطالبه الشخصية المتعلقة بالترقيات للمناصب الرفيعة أو حتى بكسب الامتيازات التي لم ينص عليها الدستور. كان لطيفاً مهذباً في علاقاته وتعاملاته الاجتماعية، رجلاً ذا سلوك مصقول، وليونة متميزة، وشخصية مؤثرة. وباستثناء ما كانت عليه نظرته إلى النساء، فقد تمتع بذوق شخصي معتدل لا تطرف فيه.

لم تكن مقدرات قيصر، إذا أخذت بمفردها، غير عادية بين أبناء بلده. فلقد أنتجت روما الكثير من السياسيين ورجال الإدارة والجنرالات والقادة والخطباء والكتاب ذوي المقدرة العالية. إلا أن عبقرية قيصر كانت فريدة لا مثيل لها من حيث تعدد جوانبها وتنوع براعاتها. فما من روماني آخر كان بذات الوقت – وأمثاله قلائل في أي عصر وفي أية دولة – سياسياً ماهراً، ورجل إدارة داهية، وقائداً عسكرياً ناجحاً، وخطيباً لامعاً، ومؤلفاً موهوباً. وكانت كل هذه البراعات موجودة في شخصية قيصر بأعلى درجاتها، إن سيرة كهذه تعتبر برهاناً صريحاً ودليلاً قاطعاً، على أن قيصر قد منح هبةً غير عادية من المزايا والخصائص الشخصية ولربما كانت أبرز هذه المزايا جمعه بين الطاقة النرجسية والمحاكمة العقلية المتزنة التي كانت ملهمة له في كل ما فعله، سواء في أيامه الأولى حين كان يشق طريقه نحو قمة العمل السياسي، أو في فترة نضوجه حينما كان قائداً عسكرياً أو رجل دولة. وثاني هذه المزايا كان تصميمه الأكيد على بلوغ الأهداف التي كان يسعى وراءها. وقد قيل: "إن ما من

---

(١) كان قيصر يقول إنه حتى لو تساعده عصابة من قطاع الطرق وسفاكي الدماء في الدفاع عن شرفه فإنه سيكافئها بنفس الطريقة التي يكافئ فيها أناساً آخرين.

رجل كان نظيراً له في تصميمه على فرض إرادته على الآخرين، وما من رجل وهبته الطبيعة القدرة على تحقيق أهدافه مثلما كان عليه الحال عند قيصر".

لم يكن قيصر وحشياً أو قاسياً بحكم الطبيعة أو الفطرة، إنما على العكس من ذلك، كانت رأفته ورحمته تجاه أبناء البلاد التي كان يفتحها معروفة ذائعة الصيت. حتى في حروبه الخارجية لم يكن قيصر وحشياً بقصد التوحش، لكن كان عليه أن يوفر الغنائم لقواته، وكان يجب إمدادها بما تحتاجه من مؤن وطعام، لذا كان بحكم الضرورة قيامه بنهب وسلب المدن وبيع السكان كعبيد. ولكي ينهي قيصر الحرب قبل انتهاء فترته بوصفه حاكماً عسكرياً على المقاطعة كان لابد له من التيقن بأن الروح المعنوية لأهالي بلاد الغال قد تحطمت، وأنهم قد تعلموا أن لا يتمردوا ثانية. وكان حينما تخفق الهزائم المتتالية من تحطيم الروح المعنوية للشعوب المغلوبة يلجأ إلى سياسة التهويل والترعيب.

ومثال ذلك تنفيذه لحكم الإعدام بحق أعضاء المجلس الاستشاري للفينيتيين *The Veneti* ومذبحة الجرمان رجالاً ونساءً وأطفالاً في راين لاند *Rhineland* (ذلك الجزء من ألمانيا الغربية الواقع غرب نهر الراين) وسفك الدماء في أوكسيلودونوم *Uxellodunum*. لقد تطلب بروزه السياسي من جيوش ضخمة وأعداد هائلة من المناصرين والأتباع تقديم خدمات كبيرة. ولذلك كان يتم استئجار قواتٍ من كل طبقات المجتمع بما في ذلك بعض العناصر ذوي الشخصيات الخلاعية الرديئة، حيث كان يتم استئجار هؤلاء سواء بالدفع النقدي لهم من قروض يتم الحصول عليها بالقوة، أو مما تجنيه المصادرات أو مما يتم الحصول عليه من أعمال النهب والسلب في الحروب. وحالما أودت به خططه إلى المصادمة المباشرة مع الدستور لم يتردد في إلقاء القيود الشرعية للرياح واتخاذ سبيل آخر لم يكن هو في نيته جعله يشعل ثورة، لكنه قاد في النهاية إلى حرب أهلية كانت نتيجتها تدمير جمهورية روما.

لقد تشكلت آراء مختلفة حول أعمال قيصر وأهدافه خلال السنوات الأخيرة من حياته. فشكسبير بنى الكثير على التلميحات التي قدمها كاتب التراجم الإغريقي بلوتارك *Plutarch*، وجسده على أنه رجل عظيم أودى به الانحطاط والفساد إلى مجرد طاغية متبجح هزيل تأثر كثيراً بلطخة من جنون العظمة. إن تصوير قيصر على هذا النحو لا شك مبالغ فيه. فالأعوام التي قضاها قائداً عسكرياً لابد جعلته متغطرساً قولاً وفعلاً وسلوكاً. ولو لم يجعله ذلك النجاح المتواصل مختالاً لكان قد ظل فيه ولو شيء بسيط من إنسانية الإنسان، غير أن قيصر لم تكن لديه أية غرائز الطاغية المستبد المعروفة. فلقد ركز سلطة الدولة كلها في شخصه بالذات، وكان جلياً تماماً أنه قصد الاحتفاظ بها. غير أنه دون شك لم يكن ينوي

التخلي عن الأعراف والتقاليد الرومانية سواء من خلال اتخاذه لأرفع الألقاب أو اعتلائه لأعلى مراتب الشرف الرفيعة أو من خلال ارتدائه لحلي وزخارف الملك التقليدي المطلق. ودليل ذلك رفضه المتفاخر للتاج الذي قدمه له مارك انطوني *Mark Antony* كما أنه لم يقم بوضع خطط لتأسيس سلالة وراثية، والروايات التي تحكي عن أوسمة الشرف الكثيرة التي منحت إلى قيصر خلال الأعوام الأخيرة من حياته، سواء المقدسة منها أو الدنيوية، قد يكون مبالغ فيها كثيراً. ولطالما كانت هذه الروايات تاريخية فإنه من الظاهر أنها قد انبثقت عن التملق المفرط والتزلف المخادع لمجلس شيوخ خانع، وليس نتيجة أي اختيار متعمد من جانب قيصر. لذا فإنه من غير المدهش إصرارهم على معاملته على أنه أكثر من آدمي وهو الرجل الذي قام – إضافة إلى تعزيزه للسلطة الإمبراطورية لروما – بإخضاعهم جميعاً لإرادته، وأمسك بزمام كل منصب في الدولة بالصورة العملية نظراً لما تحلى به من مزايا الهبة الشخصية والقدرات الفذة. فأمطروه بسخاء بمباركاتهم وتمنياتهم الطيبة، واغدقوا عليه الألقاب التي لم يقم هو ولربما لدوافع سياسية، برفض أي منها وحيثما هبط عليه الموت كان يقوم بالتحضير لحملة كبيرة ضد بارثيا *Parthia*، وما من أحد يدري أي خطط كان قد وضعها من أجل سيطرته الدائمة على الدولة حين عودته من الحملة. فلربما كان قد فكر، ودرس بروية، موضوع جعل روما دولة ديكتاتورية، أو لربما ظل انتهازياً يراقب الأحداث ويتعامل مع الأوضاع المستجدة كلما ظهرت. إن ما يبدو واضحاً فقط هو أنه اعتبر الجمهورية ميتة وأظهر القليل من الأسف على زوالها. وكما يقول هو عنها: "فإن الجمهورية قد غدت مجرد اسم دون محتوى" ولقد أثبتت التطورات والأحداث أن حكمه هذا على الجمهورية كان صائباً.

ج- بلاد الغال وسكانها

تشتمل بلاد الغال التي فتحت على يد قيصر كلاً من فرنسا – باستثناء القسم الجنوبي منها الذي كان أصلاً مقاطعة رومانية – والقسم الجنوبي من هولندا وبلجيكا والقطاع الألماني المتوضع إلى الغرب من نهر الراين، إضافة إلى القسم الأكبر من سويسرا. وقد كان الجزء الأكبر من هذه البلاد ومعظم بريطانيا محتلاً ولقرون عديدة، قبل زمن قيصر، من قبل السلتيين *Celts* الذين جاؤوا من أوروبا الوسطى. وليس هناك من شيء مؤكد أو واضح حول الارتباطات العرقية لأهالي بلاد الغال. فكثير من الكتاب القدماء تحدثوا عنهم على أنهم يضمون نسبة كبيرة من الرجال والنساء طوال القامة وذوي شعر أشقر، شأنهم في ذلك شأن الجرمان. ولربما حوالي عام (٢٠٠ ق.م) اجتاحت مجموعة جديدة من المهاجرين، هي مجموعة البلجيين *The Belgae* وهم من السلتيين الذين امتزج دمهم بالدم الألماني (أو الجرماني) ذلك الجزء من بلاد الغال الواقع إلى الشمال من نهر السين *Seine* ونهر المارن *Marne* وبعد حوالي قرن من هذا التاريخ قام بعضهم بعبور القنال *The Channel* والاستيلاء على القسم الجنوبي الشرقي من بريطانيا. وحين تواجد السلتيون والبلجيون في كل من بلاد الغال وبريطانيا تكلما بلهجات مختلفة تتبع لنفس اللغة وهي اللغة التي انحدرت منها الويلزية *Welsh* والاسكتلندية *Gaelic* والأيرلندية *Irish* والبريتونية *Breton*.

كان الغاليون على درجة رفيعة من الرفاهية والتحضر بالمعنى المادي للكلمة، على الرغم من أنهم كانوا متخلفين من الناحية السياسية. وكان المواطنون الأكثر غنى وثراء يمتلكون بيوتاً حسنة البناء في القرى أو في المدن المسورة التي يرتبط بعضها ببعض بواسطة جسور فوق الأنهار وطرق جيدة للعربات.

وقد تمتع سكان بلاد الغال بمهارة عالية بالأعمال الزراعية، حيث اعتادوا إنتاج الحنطة بمعدلات مرتفعة. وكانت هناك صناعة مزدهرة للسيوف وبعض المنتجات المعدنية الأخرى. وكانت القطع النقدية التي أصدرها الغاليون تقليداً للقطع النقدية الإغريقية والرومانية، إضافة إلى قطع قاموا هم بابتكارها في أسواق التداول.

ولا يزال بعض هذه القطع موجوداً يحمل اسم القائد الغالي الكبير فيرسينجيتوريكس *Vercingetorix* وكان لدى القوافل البحرية الغالية أساطيل تألفت من سفن لم تكن على درجة عالية من الإتقان من حيث صناعتها إنما كانت ضخمة وحافظت على الحركة التجارية

مع بريطانيا بصورة حيوية، ومع أن الكهنة الدرويديين *Druids* وتلامذتهم كانوا يستخدمون الأبجدية الإغريقية إلا أن الكتابة، على ما يبدو لم تكن ذات استخدام عام.

يتضمن الفصل الأول من هذا الكتاب وصفاً للتنظيم السياسي الذي كان سائداً في بلاد الغال. في ذلك الفصل كما في غيره من الفصول يبين قيصر كيف أن المكائد الطامعة لذوي السلطة والثراء - بما فيهم بعض الملوك المخلوعين وأسلافهم - قد أبقت العديد من القبائل في حالة من عدم الاستقرار السياسي المزمن، وكيف أن حدة تنافسهم قد قادت البعض إلى التحالف مع الغزاة سواء الجرمان أو الرومان ووقفت في طريق نشوء أي نوع من الإحساس الفعلي بالوحدة القومية. وسيتم الحديث بتفصيل أكثر عن الانطباع الذي شكله قيصر عن الشخصية الغالية التي وصفها بالشجاعة والتهور غير أنها بأمس الحاجة إلى الثبات والجلد في مختلف فصول هذا الكتاب.

كان أول اشتباك وقع بين الرومان والغاليين مع تلك القبائل التي سبق لها واستوطنت في القسم الشمالي من إيطاليا والذي يطلق عليه الرومان سيزالباين غاليا ففي عام (٣٩٠ ق.م) قاموا باجتياح نصف إيطاليا حتى أنهم نهبوا وسلبوا العاصمة روما. وكانت هناك نزاعات ومعارك متقطعة خلال القرنين التاليين مع هؤلاء الغاليين السيزالباين، لكن في عام (١٩٠ ق.م) كانت المنطقة برمتها قد فتحت على يد الرومان، وكان أول اتصال سجلته المخطوطات بين الرومان وسكان بلاد الغال المقيمين خلف جبال الألب في عام (١٢٣ ق.م) حينما سعت قبيلة الايديوويين *The Aedue* الغالية للحصول على دعم ومساندة الرومان في مواجهتها للقبائل المنافسة لها، حيث تم بعد ذلك الاعتراف بهم على أنهم "أصدقاء وحلفاء للشعب الروماني". وبعد عامين من ذلك جعل الرومان أنفسهم سادة على الرون الأدنى *Rhone* بعد هزيمتهم للآرفيرنين *The Arveni* الذين كانوا قد بسطوا سلطتهم فوق كامل غاليا الوسطى وحدث في هذا الوقت تشكيل مقاطعة ترانسالباين غاليا *Transalpine Gaul* وقد أمن هذا التطور ولأول مرة طريقاً برية توصل إلى القسم الأكبر من المقاطعات الإسبانية القديمة، وفسح المجال للحضارة واللغة والتجارة الرومانية بالانتشار إلى غاليا الجنوبية. لكن هذه المقاطعة الجديدة أصبحت بعد بضع سنوات واقعة تحت خطر الانتزاع من روما على يد الغزاة الذين هاجروا إلى أوربا الوسطى من الأقاليم الواقعة على ساحل بحر الشمال. وعبرت القبائل الجرمانية السيمبرية *The Cimbri* والتوتونية *The Teutoni* نهر الراين واجتاحت غاليا السلتية *Celtic* بأكملها (ولم يتمكن من مقاومتهم سوى البلجيين وحدهم *Belgae*) وفي غضون الأعوام الواقعة ما بين (١٠٩ و١٠٥ ق.م) استطاعت قهر ثلاثة جيوش رومانية في تلك المقاطعة ووضعت إيطاليا في مواجهة تهديد حقيقي.

وتم في نهاية المطاف سحق التوتونيين على يد غيوس ماريوس *Gauies Marius* في مقاطعة اكس - آن *Aix – en – prorince* فاتجه السيمبريون نحو معبر برينر *Brenner* وتم إلحاق هزيمة منكرة بهم في إيطاليا الشمالية على يد ماريوس وزميله كوينتوس لوتاتيوس كاتولوس *Quintus Lutatius Catulus*.

وفي عام (٧٧ ق.م) أبدت قبائل مقاطعة ترانسالباين غاليا تعاطفاً ظاهراً مع ثورة كوينتوس سيرتوريوس *Quintus Sertorius* في إسبانيا، واستجرت قبيلة الألوبروجيين القوية الجبارة إلى التمرد والثورة بسبب الضرائب الثقيلة التي فرضها جامعو الضرائب الرومان، وعاد بذات الوقت الخطر الألماني (الجرماني) يتهدد المنطقة من جديد حيث أخذت مجموعة من القبائل عرفت بالسويبين *Suebi* تضغط تدريجياً باتجاه الغرب واستأجر الآرفيونيون *Arverni* والسيكوانيون *Sequani* لفترة من الفترات ما بين عام (٧٠ و٦٥ ق.م) مساعدة أحد الجيوش السويبية *Suebic* بقيادة ملكها الجبار اريوفيستوس *Ariovistus* للقتال ضد أعدائهم القدامى الايدبوويين *Aedui* وقدم اريوفيستوس مساعدته للسيكوانيين من أجل هزيمة الايديوويين وكهدية له على خدماته احتفظ لنفسه بعد ذلك بجزء من الأراضي السيكوانية في الساس *Alsace*، الأمر الذي حذا به إلى استدعاء جماعات جديدة من الجرمان إلى ذلك الجزء قاصداً بوضوح تأسيس مملكة جرمانية في بلاد الغال. لكن، على ما يبدو أن معاملته القاسية الفظة للسيكوانيين أودت بهم في خاتمة المطاف إلى الوقوف ضده، بيد أنه هزمهم كما هزم الايديوويين وحلفاءهم في معركة فاصلة جرت عام (٦١ ق.م) وطلب الايديوويون الحماية من مجلس الشيوخ الروماني إثر ذلك غير أن طلبهم لم يحظَ بالاهتمام المطلوب كما تقدم اريوفيستوس إلى مجلس الشيوخ الروماني بطلب الاعتراف بمقاطعته الجديدة حيث نصح قيصر مجلس الشيوخ، حينما كان يشغل منصب العضوية القنصلية، بعقد صداقة رسمية معه، الأمر الذي ألزم روما ولو مبدئياً الاعتراف بفتوحات اريوفيستوس في غاليا. لم تكن ترانسالباين غاليا في ذلك الحين قد عُهدت إلى قيصر بعد كواحدة من مقاطعاته، ولو رغب قيصر في الانشغال بالقتال في مكان آخر لربما كان قد فكر أنه من الحصافة والحكمة الإبقاء على حيادية اريوفيستوس ومن المحتمل أن قيصر عند هذا الوقت لم يكن قد تدارك بعد مدى الخطورة الكامنة في وجود اريوفيستوس في غاليا.

د- الجيش الروماني

تشكلت القوات التي كانت تحت قيادة قيصر في بلاد الغال من عدد من الفيالق تراوح ما بين ستة إلى أحد عشر فيلقاً، ترافقها قوة من سلاح الفرسان تألفت بكاملها من الأجانب – أي العناصر غير الرومانية هذا بصرف النظر عن العدد غير المعروف للقوات الإضافية التي اشتملت على المشاة الخفيفة الغالية *Gallic* والنومديانية *Numidian* ورماة السهام الكريتانيين *Cretan* ورماة المقلاع من جزر باليريك الصغيرة *Balearic*. وكان عماد قوة الفرسان، التي بلغت في وقت من الأوقات أربعة آلاف فارس كحد أدنى، من الغاليين الذين تم جمعهم من القبائل الصديقة أو من تلك التي خضعت لقيصر. وكان معظم هؤلاء يرسل عائداً إلى أوطانه في ختام كل حملة وتتشكل قوة جديدة في السنة التالية. وفي حملة عام (٥٢ ق.م) كان لدى قيصر بعض سرايا الفرسان الجرمان علاوة على قوة من المشاة الخفيفة تم تدريبها للقتال ضمن صفوف الفرسان.

كان يفترض بالفيالق أن تكون مؤلفة برمتها من رجال يتمتعون بالمواطنة الرومانية، لكن حينما كانت تبدو الحاجة للقوات ملحة كانت تجري دون شك استثناءات كثيرة عن هذه القاعدة. حتى أن قيصر شكل عند حوالي نهاية الحرب فيلقاً كاملاً من أبناء مقاطعة ترانسالباين غاليا، أما بقية القوات التي حشدها قيصر في الحرب الغالية فقد عبئت من إيطاليا الشمالية. كانت عناصر الفيالق عادة من المتطوعين الذين يخدمون لقاء أجر ولمدة محدودة، إنما في زمن قيصر كان يتم جمع عناصر الفيالق بواسطة جنرالات الجيش الذين كانوا يقومون باستدعائهم للخدمة في الحملات والحروب، وغالباً ما كان يُدفع لهم الأجر من الغنيمة أو من الموارد المالية التي كان يجمعها قيصر. وقد كانت رداءة هذا النظام الذي جعل عناصر الفيالق تعتمد على قادتها بدلاً من اعتمادها على الدولة، على نحو ما كان عليه الحال قبل قيصر مسؤولة تماماً عن زيادة حجم السلطة لدى الزعماء العسكريين في تلك الحقبة من الزمن.

كانت القوة الاسمية للفيلق الواحد تبلغ ستة آلاف عنصر تتوزع على النحو التالي: عشر كتائب تضم كلّ منها ستمائة عنصر كان أهمها الوحدات التكتيكية. وكانت كل كتيبة تحتوي على ثلاث شراذم يضم كلّ منها مئتي عنصر، وكانت كل شرذمة تحتوي على مجموعتين كل منها مائة عنصر. غير أن الفيالق نادراً ما تشكلت وفق القوة الاسمية لها. ولم يكن للفيالق في ذلك الوقت قائد دائم، والجنرالات الذين كانوا يعملون تحت إمرة قيصر

كان معظمهم من طبقة الشيوخ (حكام أو قضاة سابقين) ويتم تعيينهم بواسطة مجلس الشيوخ بعد توصية من قيصر نفسه. كان لدى قيصر خمسة من هؤلاء مع بداية الحرب وتطور العدد بعد ذلك حتى أصبح عشرة جنرالات. وكانت الواجبات التي تُلقى على عاتقهم، من حين إلى آخر، من اختيار قيصر وحده. ومن بين ما تضمنته تلك الواجبات:

تولي قيادة الفيالق سواء في المعركة أو في المسير أو في المهاجع الشتوية، تدبير المؤن والإشراف على الأعمال الإنشائية وتجنيد قوات جديدة. وإلى ما هناك من واجبات أخرى تحتمها طبيعة الظروف، ولربما كان بعض هؤلاء من غير ذي تجربة عسكرية معتبرة. وكان لكل فيلق ستة تريبيونات عسكريين *Military tribunes* (التريبيون هو أحد ممثلي الشعب عند الرومان والمدافعين عن مصالح العامة) يتم ترشيحهم، أو ربما تعينهم، من قبل القائد الأعلى للقوات المسلحة. وغالباً ما كان هؤلاء من الشباب الطامحين لبلوغ مناصب عامة، أو كانوا أحياناً ممن يتم اختيارهم على أسس شخصية أو سياسية. وكانوا يقومون بتحريك فيالقهم تبعاً لتوجيهات من أحد الجنرالات، أو يتصرفون بمبادرة منهم أحياناً.

ولاشك في أنهم كانوا يؤدون أيضاً الواجبات الإدارية الروتينية التي تطلب منهم. وربما كانت العناصر الأكثر أهمية من التريبيونات في ميدان القتال (وهم العناصر الذين غالباً ما كان قيصر يجيء على ذكرهم بالمديح والإطراء أكثر من سواهم).

قادة المئة *Centurions*، وهم ضباط سابقون تمت ترقيتهم لما أظهروه من شجاعة عالية ومقدرة فذة سواء في القتال أو في ضبط وقيادة مجموعاتهم.

وكان ينتقى من بين الستين قائد مئة في الفيلق الواحد الستة الذين يتبعون للكتيبة الأولى في كل فيلق (والذين يشار إليهم في هذه الترجمة بقادة المئة الأوائل) ليشغلوا مناصب ذات مسؤوليات خاصة، ويتم استدعاؤهم إلى جانب الجنرالات والتريبيونات العسكريين إلى حضور مجالس الحرب حين انعقادها. ولابد لتلك الواجبات التي كانت تلقى على عاتق هؤلاء بين الحين والآخر، أن تكون بنفس درجة الأهمية للواجبات التي كانت تُبقى على عاتق قادة السرايا في الجيوش الحديثة. وكان أكثر المناصب مسؤولية ذلك الذي يتولاه قائد المئة الأولى في الفيلق: أي قائد مجموعة المئة الأولى في الكتيبة الأولى.

كانت عناصر الفيالق ترتدي ما يُسمى بالتنك، وهو رداء صوفي روماني طويل يُشد بحزام حول الخصر، ومعطفاً جلدياً تحميه حزمة معدنية، ومسماة طويلة – وهي لفافات حول الساق، إضافة إلى عباءة أو بطانية للحماية من البرد أو المطر. وكانت تتألف دروعهم من الخوذة (التي كانت تتدلى فوق الصدر أثناء المسير) وترس كبير مربع الشكل مصنوع من

الخشب ومغطى بالجلد، ودروع الساق وربما درع واقٍ. وكانت أسلحتهم السيوف المسننة من طرفيها والرماح الثقيلة. وكان يبلغ طول الرمح أحياناً قرابة سبعة أقدام، وكان بين مقبض الرمح والرأس المدبب ساق مصنوعة من الحديد المصقول الذي يلتوي حين اختراق الرمح لتروس العدو، وبذلك يكون من غير السهل سحبه ومن غير المفيد إعادة رميه.

كانت العدة التي توجب على الجنود حملها أثناء الزحف أو المسير تشتمل، إضافة لمؤونته، على أوانٍ للطبخ وما شابه ذلك، وشتى الأدوات اللازمة للقيام بأية أعمال إنشائية أو بنائية (وهي أعمال غالباً ما كانوا منهمكين بها) كالمجرفة والبلطة والمنشار. أما بالنسبة للأمتعة الثقيلة فقد كانت تودع في المخازن والمستودعات العسكرية، وتشتمل على قطع المدفعية[1] والمواد الأولية لصناعة الواقيات المتحركة[2]، وأدوات أخرى إضافة إلى الممتلكات الشخصية العائدة إلى الضباط وعامة الجند. ومن أجل حمل هذا كله كان يُخصص عدد كبير من الخيول أو البغال (إضافة إلى عربات النقل، لاشك، رغم أنها ليست مذكورة في كتاب الحرب الغالية *Gallic war*). أما بالنسبة للعناصر غير المقاتلة فقد تألفت من سائقي الحيوانات وخدم الضباط وأصحاب الدكاكين في المعسكر والتجار الذين كانوا يبيعون السلع لأصحاب الدكاكين ويشترون الغنائم من الجند.

هـ- مجرى الحرب

إنه لمن المستبعد أن يكون قيصر، حينما توجه إلى مقاطعة ترانسالباين غاليا في آذار عام (٥٨ ق.م) قد نوى الشروع بتنفيذ خطة كبيرة من الفتوحات في بلاد الغال. فلو أنه كان قد رسم خطة كهذه لما أبقى ثلاثة من فيالقه، من أصل أربعة فيالق، في الشمال الإيطالي. إنما الذي حدث هو أنه عند نهاية ذلك العام بالذات – أي عام ٥٨ ق.م – وبعد رده للمهاجرين الهيلفيتيين *Helvetian* وطرده لآريوفيسيتوس *Ariovistus* من غاليا، صمم بوضوح وبعزيمة أكيدة على القيام بفتح كل أرجاء البلاد.

---

(١) المدفعية: آلات تشبه القوس والنشاب أو المرجام، تستمد طاقتها من ارتداد أوتارٍ من شعر خيول مجدول بشدة، وتقذف الحجارة أو الرماح المكسوة بالريش.

(٢) الواقيات المتحركة: وهي عبارة عن سقائف خشبية ضخمة، عادة بطول ١٦ قدماً وعرض ثمانية أقدام، تنصب على عجلات. كانت توضع ضمن صف طويل بحيث يكون ظهر الواحدة منها للأخرى. وكانت غالباً ما تستخدم لحماية الجنود المنشغلين بتجهيز المواد اللازمة لبناء مصاطب الحصار.

كانت تقف إلى جانب قيصر أصلاً اثنتان من القبائل الهامة: الايديووية *Aedui* في وسط غاليا والريمية *Remi* في الشمال. وفي ربيع عام (٥٧ ق.م) نجح قيصر في قهر كل القبائل البلجيكية تقريباً *Belgic*، حيث أظهرت القبيلة النيرفية *Nervii* أصلب وأعنف المقاومة في وجه قيصر.

وخضعت القبائل البحرية في كل من نورماندیا *Normandy* وبريتانيا *Brittany* عند تلك المرحلة دون قتال. وبهذا فإنه مع نهاية ذلك العام – عام ٥٧ ق.م – كانت كامل غاليا الواقعة بين الراين *Rhine* والجارون *Garonne* - باستثناء المورينيين *Morini* والمينابيين *Menapii* في أقصى الشمال – تحت السيطرة الرومانية مبدئياً.

أما السنوات الست التالية التي قضاها قيصر في غاليا فإنها – باستثناء قيام قيصر بغزو ألمانيا وبريطانيا وهو أمر ليس له علاقة حقيقية بفتح غاليا – قد انقضت بعمليات سحق لسلسلة من أربع ثورات تمردية قامت بها مجموعات مختلفة من القبائل. كان أول من ثار ضد السيطرة الرومانية الفينيتون *Veneti* والقبائل الأخرى المتوضعة على الساحل الأطلسي أو بالقرب منه، وكان ذلك عام (٥٦ ق.م) وكانت هناك بين عام (٥٤ ق. م و٥٣ ق.م) ثورات أخرى انتشرت على نطاق واسع في الشمال الغالي قامت بها القبائل الايبورونية *Eburones* والأتيواتيوسية *Atuatuci* والنيرفية *Nervii* والتريفيرية *Treveri* إضافة إلى ثورات أقل خطورة في وسط غاليا. وكان أكثر هذه الثورات خطورة تلك التي قامت بها قبائل الوسط الغالي عام (٥٤ ق.م) حيث برز لدى الغاليين أخيراً قائد فذ في ريعان الشباب كان اسمه فيرسينجيوريكس *Vercingetorix* تزعم ثورتهم لكن بانتصار قيصر عليه وهزيمته له اكتمل في نهاية المطاف فتح بلاد الغال. وثورات عام (٥١ ق.م) لم تكن سوى إطالة لا جدوى منها لصراع كانت نتيجته قد تقررت من قبل.

على الرغم من صعوبة إعطاء تقدير دقيق لقوة الجيوش الغالية، (حيث أن بعض الأرقام التي يقدمها قيصر نفسه قد يكون مبالغ فيها) لكن كان واضحاً أن لدى الغاليين تفوقاً عددياً متميزاً، إذ يقال أنه بنتيجة الحرب مات مليون غالي وعدد مشابه تم أسره. ومن الواضح أيضاً أن الكثيرين منهم كانوا مقاتلين أشاوس على درجة عالية من البسالة والجرأة. ويمكن أن نعزو السلسلة المتواصلة من الانتصارات الرومانية إلى تفوق جيوش قيصر في كل ناحية عدا ناحيتي العدد والشجاعة الجسدية. فقد كانت جيوش قيصر أفضل خامةً وأحسن تدريباً وأكثر انضباطيةً ونظاماً وأفضل تجهيزاً وأحسن قيادة.

وكانت مشاركة قيصر الشخصية أشبه بمشاركة تكتيكي متفوق وقائد رجال بارع. فما من رجل سبقه كان أدرى منه بكيفية مفاجأة أعدائه وبطريقة إرباك صفوفهم من خلال التحريك السريع لقواته وبكيفية انتزاع النصر في معركة قد تكون أقرب إلى الهزيمة بزجه لقواته الاحتياطية إلى ميدان القتال في الوقت المناسب وفي المكان المناسب. ولم يسبق لرجلٍ قبل قيصر أن نال مثلما نال قيصر من احترام كبير وولاء مخلص من قبل قواته، حيث كانت ولثماني سنوات من القتال المرير والمعيشة القاسية والجهد المضني في بناء التحصينات وشق الخنادق وحفر الأنفاق تقدم لقيصر كل ما يطلبه وتنفذ له كل أمر وتتبع له كل توجيه، ولم يكن هناك ما يشير إلى أن أحداً كان يرغب بالعصيان. وعند نهاية الحرب الأهلية حينما لم تكن لدى قيصر الموارد المالية لدفع الأجور لقواته لم تتردد هذه القوات قط في خدمته بدون أجور. حتى أن كثيرين ممن وقعوا بالأسر على يد بومبي فضلوا الموت على القتال ضد قائدهم السابق مقابل منحهم فرصة الإبقاء على حياتهم وهي فرصة أُعطيت لهم شريطة اشتراكهم بالقتال ضد قيصر. لقد اكتسب قيصر هذه المكانة العالية بين أفراد قواته نتيجة بسالته الشخصية وما تميز به من خصائص بطولية أولاً فقد كان راكب خيول ممتاز وسباحاً ماهراً وجندياً مقداماً يصبر على التعب والعناء كأي رجل آخر في صفوف المقاتلين، قادراً بمفرده على لم شعث قواتٍ أصابها الخوف والهلع، ملقياً بنفسه في طريق الهاربين والمنسحبين كي يقوم بإيقافهم بيديه، وثانياً بسبب جمعه بين الانضباطية الحديدية في وجه أعدائه والانغماسية السهلة بالأهواء والهوايات حين وجوده خارج الخدمة.

كانت عناصر الفيالق لدى قيصر تتمتع بسجل عسكري ناصع وتستند إلى خلفية من التنظيم العسكري الفعال. وكانت دائماً على أعلى مستوى من الجاهزية لتنفيذ مهامها سواء من خلال استعدادها النفسي والشخصي أو من خلال ما تتلقاه من التدريب. كان كل منهم يعرف ما يجب عليه فعله وكيف يجب عليه أن يفعله، وكانت لديهم الأدوات لفعل ما يريدون فعله، وكان لديهم الصبر والجلد والعزيمة على متابعة ما يفعلون حتى استكماله. وفوق هذا كله كان يجمعهم رأي واحد وموقف واحد تجاه كل ما يواجهون. وبالمقابل لم يكن لدى الغاليين أياً من هذه الخصائص. فقد شغلتهم الأحقاد والضغائن، وحسد الواحد منهم للآخر، وصرفتهم النزاعات فيما بينهم عن الاهتمام في مواجهة ما هم فيه، وكانوا من الناحية الفنية للحرب في مستوى أدنى بكثير من خصومهم إلى حدٍ يخيب الآمال. ورغم أنهم امتلكوا الكثير من الحيوية والجرأة إلا أنهم افتقدوا القدرة على الصبر والاحتمال، كما لم تكن لديهم وحدة

الهدف. فلو أنهم تضافروا وتعاونوا وعملوا بانسجام وتنسيق وتابعوا جميعاً المقاومة في ذات الحين لكان بإمكانهم إضعاف الرومان وأعيانهم.

لكن، حتى عام (٥٢ ق.م) كانت قبائل البلجيين *Belgae* والقبائل البحرية متروكة لوحدها تتحمل عبء القتال، حيث أن الكثير من القبائل الرئيسية في البلاد قد خضع للرومان دون بذل أي جهد يذكر في الدفاع عن نفسه. وحينما قام فيرسينجوريكس بإثارة كبريات القبائل الغالية نحو النضال البطولي ضد العدو الروماني ظلت قبيلة البلجيين متحفظة حتى وقت متأخر، ولربما عاد السبب في ذلك إلى حقيقة أنها كانت من قبل قد وصلت إلى مرحلة استنزفت فيها كل طاقاتها.

كان سلاح الفرسان لدى معظم القبائل الغالية هو السلاح الوحيد الفعال في القوات وكان يتألف من النبلاء وخدمهم والتابعين لهم، وكانت عناصر هذا السلاح هي الأكثر انضباطية عسكرية. أما بالنسبة لسلاح المشاة فقد كان الهيلفيتيون *Helvetii* والنيرفيون *Nervii* هم من امتلك من القبائل الغالية المختلفة قوات مشاة ضخمة يمكنهم معها مواجهة فيالق قيصر في معركة ضارية مع شيء من الأمل بالفوز. أما فرق المشاة التي ساهمت بها بعض القبائل الغالية الأخرى فقد كانت مجرد حشود بشرية غوغائية لا جدوى منها على الصعيد العملي وبعيدة كل البعد عن كل ما اسمه حرب أو قتال. وقد كانت الاستراتيجية القتالية لمعظم القادة العسكريين الغاليين خالية من كل عمق عسكري وتحتاج إلى الكثير من التنظيم والنضج، كما كان ما لديهم من فكرة حول ترتيب عملية تزويد الجيش بالمؤن والطعام بسيطاً للغاية. والغالي الوحيد الذي أظهر مقدرة عالية على التنظيم القتالي الاستراتيجي كان فيرسينيجوريكس إلا أن مرؤوسيه أخفقوا في تقديم الكثير من العون له في هذا الشأن من ناحية أخرى، كانت تقدم إلى قيصر الخدمة التي يشاء وعلى أكمل وجه سواء من قبل ضباطه – وبخاصة لابينوس *Labienus* الذي أنقذ ولأكثر من مرة أوضاعاً قتالية يائسة – أو من قبل حلفائه الغاليين، فوقف الريميون *Remi* إلى جانبه طوال فترة الحرب والايديوويون *Aedui* حتى قبيل نهايتها، وخلال فترة التمرد الكبير عام (٥٢ ق.م) قدمت إلى قيصر مساعدات قيّمة من سكان وأهالي المقاطعة نفسها – مقاطعة ترانسالباين غاليا – ومن قوات قيصر الجرماتية الإضافية لذا فالنتيجة لا يمكن إلا أن تكون واحدة في مثل هذه الظروف، حيث لابد للانضباطية والتنظيم من الفوز الحتمي على العجز والفوضى والشقاق.

و- قيصر المؤلف

يعتبر امتلاكنا لكتاب "الحرب الغالية" *Gallic War* لقيصر، وبحق أشبه بامتلاكنا لقطعة فريدة انتقيت من ثروة ضخمة. فما من قائد عظيم آخر عبر العصور القديمة سبق له أن خلف لنا روايته الشخصية عن حملاته. ومن المشكوك فيه أن يكون أي قائد عظيم آخر في أي عصر من العصور وفي أي بلد من البلدان قد امتلك ما امتلكه قيصر من الموهبة الأدبية.

تنقسم النسخة الأصلية لهذا العمل المتميز إلى ثمانية كتب أنجز قيصر منها السبعة الأول فقط، وهي التي تروي لنا الأحداث المتعلقة بهذه الحرب حتى فصل الخريف من عام (٥٢ق.م) أما الكتاب الثامن، والذي كتب عقب موت قيصر في الخامس عشر من آذار عام (٤٤ ق.م) بقليل، فقد ألفه صديق قيصر أولوس هيرتيوس *Aulus Hirtius* الذي رافقه في معظم حملاته والذي يحتمل أن يكون قد خدم لديه كأمين سره. كان هيرتيوس قنصلاً عام (٤٣ق.م) وقُتل في معركة خاضها ضد مارك انطوني *Mark Antony* في مودينا *Modena* في نيسان من ذلك العام. ليس هناك شيء مؤكد حول الأسباب التي منعت قيصر من تأليف كتابه الأخير بنفسه بعد اختتام حملاته عام (٥١ ق.م) فلربما كانت أمامه أمور أكثر إلحاحاً من قيامه بهذا العمل، ولربما اعتقد أنه قد كتب ما يكفيه لخدمة غرضه، خاصة وأن الحملات التي قام بها في السنة الأخيرة كانت أقل أهمية من الحملات التي قام بها قبل ذلك.

يعتقد كتاب كثيرون بأن كل كتاب من الكتب السبعة التي خطها قيصر حول الحرب الغالية قد كتب ونشر منفصلاً عن البقية عند نهاية كل حملة صيف كان يقوم بها قيصر. إلا أن الاحتمال الأكثر ترجيحاً، على وجه العموم، هو أن هذه الكتب قد أُلفت جميعاً في خريف عام (٥٢ ق.م) بعد هزيمة قيصر لفيرسينجوريكس، وأنها اكتملت مع نهاية ذلك العام حينما شرع قيصر بحملة جديدة ضد البيتوريجيين *Bituriges*[1]. ويشير هيوتيوس في مقدمته للكتاب الأخير إلى السهولة والسرعة التي كان يكتب بها قيصر. وبصرف النظر عن تذكراته الشخصية التي يسردها في كتبه فإنه ما من شك في أن قيصر حين تأليفه لكتبه تلك قد جمع أمامه نسخاً من الرسائل التي بعث بها إلى مجلس الشيوخ الروماني بعد كل حملة كان يقوم بها، كما استند إلى التقارير التي كانت ترفع إليه من ضباطه وجنرالاته، وكذلك إلى المذكرات التي كان يعدها بنفسه خلال مجرى الحرب، يُعرف هذا العمل الذي

---

(١) الاحتمال الآخر هو عام (٥٠ ق.م) بين نهاية الحرب الغالية وبداية الحرب الأهلية، لكن في هذه الحالة لابد لقيصر أن يكون قد اختتم روايته عن حملاته لعام (٥١ ق.م).

انجزه قيصر عموماً بكتاب الحرب الغالية إنما يبدو أن عنوان الطبعة الأصلية كان: "آراء غيوس يوليوس قيصر حول إنجازاته" ويقول هيوتيوس وسيسيرو *Cicero* أن قيصر لم يعتبر كتابه عملاً تاريخياً كاملاً بل مجرد جمع لمادةٍ يستفيد منها مؤرخو المستقبل، غير أنهما يضيفان أن قيصر قد دون مؤلفه هذا بصدق متميز بحيث لا يمكن لأي إنسان سليم العقل أن يفكر بمحاولة كتابته ثانية.

إن من الواضح أن قيصر لم يؤلف هذا الكتاب "الحرب الغالية" لمجرد إعطاء معلومات إلى الأجيال القادمة فحسب وإنما كان الكتاب عملاً للدعاية الشخصية هدف منه التأثير على معاصريه. وأدرك قيصر كما أدرك الكثيرون من المعجبين به أن لقيصر أعداءً وديكتاتوريين أقوياء، لذا كان أمراً طبيعياً بالنسبة له قبل ترشيح نفسه للعضوية القنصلية الثانية أن يتمنى لو أنه يخلق لنفسه المسوغ ويثبت جدارته وأهليته أمام الرأي العام، من خلال نشره لرواية تصف الحروب التي خاضها والتي نقلت الجيوش الرومانية منتصرة إلى الأطلسي وبحر الشمال والتي أضافت إلى الإمبراطورية الرومانية أراضي شاسعة أخرى.

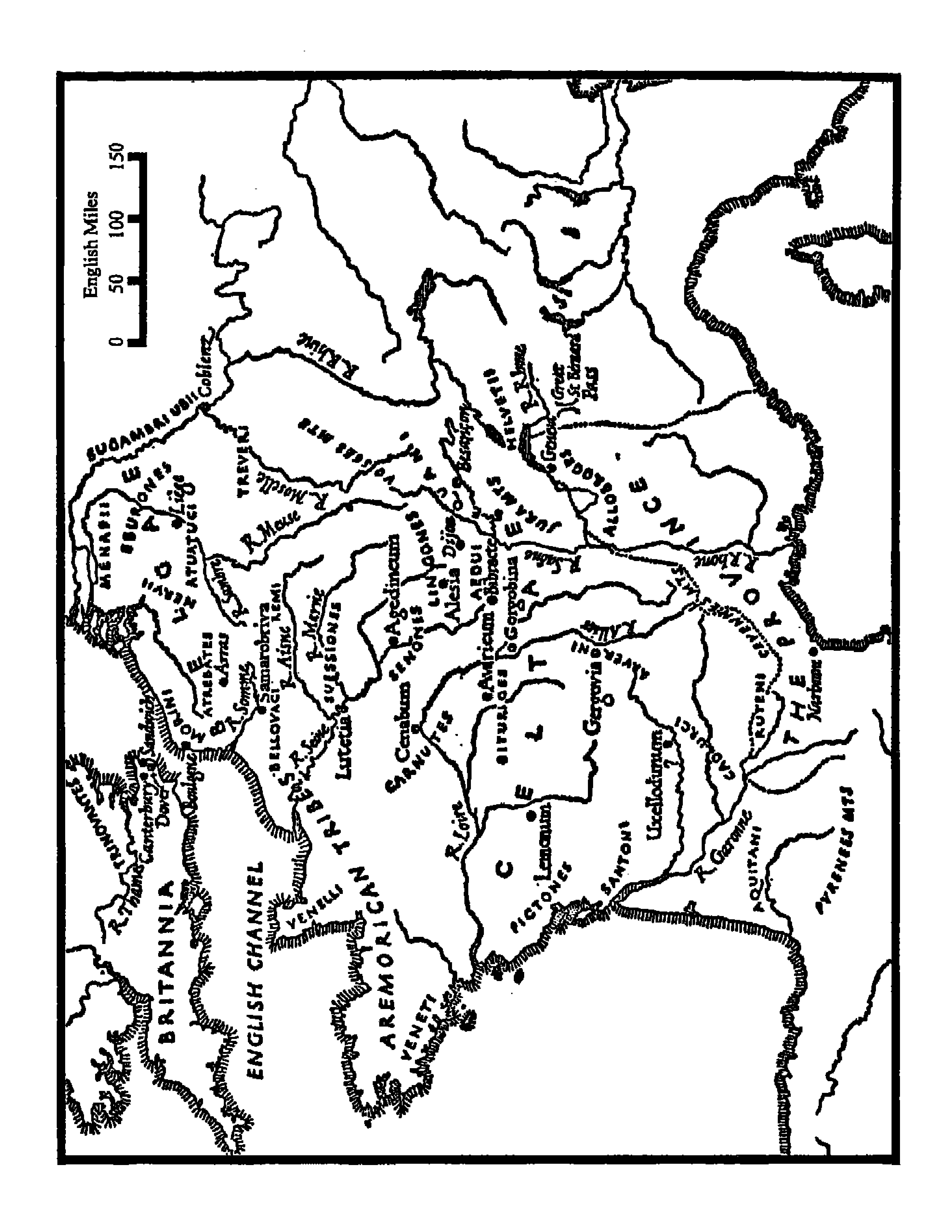
لقد طعن بعض النقاد، قدامى وحديثين بمصداقية رواية قيصر، حتى أن بعضهم لم يتردد البتة في اتهامه بالكذب المتعمد والمتكرر. إنما من الناحية العملية يتفق كل خبراء النقد على أن هذه الاتهامات لا أرضية ولا أساس لها قطعاً، إن مثل هذا الإدعاء المستقل على لسان بعض الكتاب القدامى إنما يؤكد عموماً على صحة ودقة وصدق ما جاء به قيصر في روايته، كما أن التناقضات القليلة والبسيطة التي تظهر في بعض فقرات كتاب "الحرب الغالية" ليست سوى أخطاء عرضية أو هفوات للذاكرة. حيث لابد لقيصر أن يكون قبل شروعه بتأليف كتابه قد وضع أمام عينيه مقداراً كبيراً من الوثائق التي كتبت في أوقات مختلفة سواء من قبله أو من قبل آخرين. وواضح جداً أن قيصر كان في عجلة شديدة من أمره لم يتمكن معها من ملاحظة القضايا التفصيلية الصغيرة التي تتناقض حولها الوثائق. أو حتى لو أنه لاحظها فإنه لم يعتقد دائماً أن موضوع تسوية التناقضات أمر جدير بالاهتمام. وفي الوقت ذاته فإنه من العبث أن نفترض بأن قيصر قد روى لنا كل شيء يستحق أن يروى، فقلائل هم البشر الذين يهتمون بأن ينشروا للعالم دوافعهم الحقيقية وراء أفعالهم، وقلائل هم الذين سبق لهم وكتبوا رواية لأحداث كانوا هم فيها الممثلين الرئيسيين دون اللجوء إلى تلوينها بشكل أو بآخر ولو فقط من خلال حذف ما لا يرغبون بتأكيده أو من خلال المرور به مروراً عابراً. وكما يقول أحد المحررين الحديثين لكتاب "الحرب الغالية" فإن المذكرات ليست اعترافات "*Des Memoires ne sont pas des confessions*" ومن الوارد جداً أن قيصر كان في غاية

الحذر والتحفظ حينما كان يختار ما يريد التحدث عنه. فهو لا يذكر شيئاً عن مطامحه الشخصية التي كانت بوضوح دافعاً قوياً قوة أي دافع آخر وراء شروعه بالحرب الغالية. كما أنه لا يذكر شيئاً عن الثروات الهائلة والطائلة التي جمعها هو وبعض أصدقائه من خلال سلب الغاليين ونهبهم واستغلال ثرواتهم. إن من يقرأ رواية قيصر قراءة عابرة لن يتمكن من التوصل إلى الاستنتاج بأن حملات قيصر إلى ألمانيا وبريطانيا كانت فاشلة من ناحية أنها لن تحرز نتيجة دائمة أو ثابتة.

غير أن مثل هذا التكتم من جانب قيصر في روايته حول النقاط التي ذكرت آنفاً يُعد أمراً مختلفاً عن اتهامه بالتزييف المتعمد للحقائق وهو أمر لم يستطع أحد قط اتهام قيصر به.

لقد أُلف كتاب "الحرب الغالية" باللغة اللاتينية، بوضوح فكر متميز، وبعد نظر متبصر وبأسلوب شيق اتصف بالسهولة والواقعية والاتزان، وقد خلا من أية محاولة مقصودة لجعل الكتابة منمقة أو مزخرفة أو ذات تأثير درامي على الرغم من أن التزاميته بحد ذاتها وتحاشيه الإطناب والمبالغة غالباً ما منحا الكتاب نوعاً من التأثير الكبير. وقد احتوى الكتاب الكثير من الوصف الحي والمفصل للأماكن التي وقعت فيها الأحداث، إلا أن الأحداث نفسها قد سجلت مع أقل قدر ممكن من التعقيب والتعليق، وبدون أية إشارة أو تلميح -- إلا ما ندر -- لمشاعر الكاتب وأحاسيسه تجاه الأحداث التي يكتب عنها والاستثناء الوحيد لهذا الأمر هو المقطع الذي يصف فيه قيصر فرحه الغامر بنجاة صديقه فاليريوس بروسيللوس *Valerius Procillus*. ويمكن القول بشكل عام أن كتاب "الحرب الغالية" قد كتب بأسلوب موضوعي بعيد كل البعد عما هو شخصي، أشبه بالأسلوب الذي يكتب فيه بيان رسمي.

أما بالنسبة للاستطرادات التي تظهر في بعض مقاطع الرواية، سواء المتعلق منها بالجغرافية أو بالتاريخ الطبيعي أو بالتقاليد القومية للشعوب فإنها قد لا تكون من صناعة قيصر شخصياً، لكنه حسبما يبدو واضحاً هو الذي أدخلها على روايته من أجل تنوير القارئ وزيادة ثقافته، والقسم الأكبر من المعلومات التي تضمنتها هذه الاستطرادات -- علماً أن بعضها فيه شيء من الخطأ -- قد اشتق من كتب وخرائط وشائعات، وليس من الملاحظة الشخصية لقيصر نفسه.



مصور لخارطة الفتوحات الرومانية في بلاد الغال

فتح بلاد الغال

تقاليد وأعراف
أهل بلاد الغال والجرمان

١- الغاليون

تشتمل بلاد الغال على ثلاث مناطق قطنها على التوالي البلجيون *Belgae* والأكوتيانيون *Aquitani* ومن ثم شعب أطلق على نفسه اسم السلتيين *Celts*، رغم أننا نُطلق عليه اسم الغاليين. ولكل شعب من هذه الشعوب لغته المختلفة وتقاليده وقوانينه. يفصل السلتيين عن الأكويتانيين نهر الجارون *Garonne* ويفصلهم عن البلجيين نهري المارن *Marne* والسين *Seine*. والبلجيون هم الشعب الأكثر جرأة وبسالة من الغاليين والاكويتانيين، لكن نظراً لبعدهم الجغرافي فهم في منأى عن الحضارة المتقدمة المنتشرة في المقاطعة الرومانية، وقلما يزور بلادهم التجار الذين يحملون معهم الكماليات البديعة ليبيعوها لهم، إضافة إلى حقيقة أنهم الأقرب إلى الجرمان من خلال نهر الراين *Rhine* وهم في حالة حرب دائمة معهم.

وللسبب نفسه فإن الهيلفيتيين *Helvetii* يُعدون أكثر شجاعة وجرأة من بقية السلتيين، وهم في حالة صراع يومي مع الجرمان سواء من خلال محاولاتهم إبقاء الجرمان خارج الحدود السويسرية أو من خلال قيامهم هم أنفسهم بغزو ألمانيا. ويتجه الإقليم الذي يحتله السلتيون بأحد حدوده نحو الشمال ويطوقه كل من نهر الرون والجارون والمحيط الأطلنطي وبلاد البلجيين. ويلامس ذلك الجزء من إقليم السلتيين الذي يقطنه السيكوانيون *Sequani* والهيلفيتيون نهر الراين أيضاً، ويمتد الإقليم البلجيكي المتجه بحدوده ناحية الشمال والشرق من الحدود الشمالية للسلتيين إلى نهر الراين الأدنى. ويطوق أكويتانيا كلٌ من نهر الجارون وسلسلة جبال البيرينيه *Pyrenees* وذلك الجزء من الساحل الأطلسي القريب من إسبانيا. لذا فإنها تتجه ناحية شمال غرب.

وفي بلاد الغال لا تنقسم القبائل والولايات وفروع الولايات إلى زمر وأحزاب متنافسة فحسب بل تجد في كل أسرةٍ خصماء ومتنافسين. وعلى رأس كل زمرة من هذه الزمر رجال ينظر إليهم أتباعهم على أنهم يتمتعون بشأن ونفوذ واعتبار يجعلهم متميزين عن الآخرين. وبيد هؤلاء الرجال القرار الأخير فيما يخص مختلف المسائل التي تحتاج إلى تحكيم، وسائر المناقشات السياسية. ويبدو أن الغرض من هذا التقليد المتوارث هو التأكيد على أنه يجب أن تتوفر للناس العاديين حماية من الأقوياء، ويرى كل زعيم من هؤلاء أن من غير الممكن للمرء أن يتفوق على أتباعه ومناصريه بالقوة أو بالخداع، وأنه إذا أخفق في فعل ذلك لابد سيصبح محل رفض الجميع وتزول ثقة الكل به.

وفي السياسة الداخلية للقبائل يسري مفعول هذا المبدأ نفسه أيضاً حيث تتوزع شتى القبائل إلى زمرتين رئيسيتين كان يتزعمها على التوالي – إبان وصول قيصر إلى البلاد – الايديويون *Aedui* والسيكوانيون *Sequani*.

ولما كان الايديوديون قد حظيوا ولعهد بعيد بنفوذ وشأن كبيرين، وكان لهم الكثير من القبائل التي تدور في فلكهم فقد أصبح السيكوانيون الطرف الأضعف بين الزمرتين إلى حد أنهم غدوا يعتمدون في معيشتهم اعتماداً كلياً على مواردهم الخاصة وثرواتهم ولذلك قاموا بتأمين تحالف لهم مع اريوفيستوس *Ariovistus* والجرمان التابعين له مقابل تضحيات جسيمة قدموها له ووعود قاطعة بتنازلات أخرى. وقد كان ذلك ما بين عام (٧٠ ق.م) و(٦٥ ق.م) ونتيجة لهذا التحالف السيكواني الجرماني أحرزت عندئذ جملة انتصارات قتل فيها جميع الايديوويين ذوي المناصب الرفيعة، وأصبح السيكوانيون أكثر قوة بكثير من منافسيهم إلى حد أنهم كانوا قادرين على اجتذاب قسم كبير من المناطق الايديووية إلى صفهم وجعل الايديوويين يقومون بتسليم أبناء زعمائهم لهم رهائن، وأن يقسموا أنهم لن يشكلوا أي خطط مناوئة للسيكوانيين في المستقبل. كما قام السيكوانيون بالاستيلاء على جزء من الإقليم الايديووي وبالاحتفاظ به لأنفسهم وهو الجزء الواقع بمحاذاة حدودهم، وحققوا لأنفسهم فعلاً سلطة على مختلف أرجاء بلاد الغال. وبعد أن وصل الإضعاف والتصغير بالايديوويِّين إلى هذا الحد قام ديفيسياكوس *Diviciacus* بالتوجه إلى روما وطلب المساعدة من مجلس الشيوخ الروماني، إلا أنه عاد بخفي حنين، وكان ذلك عام (٦١ ق.م) لكن وصول قيصر إلى البلاد غير الموقف رأساً على عقب واستعاد الايديوويون رهائنهم، ولم يسترجعوا الأقاليم التي كانت تابعة لهم فحسب بل ضموا لأراضيهم مناطق أخرى بمساعدة قيصر وعون قواته. والسبب في ذلك يعود إلى حقيقة أن أولئك الذين أصبحوا حلفاءً للايديوويين وجدوا أنهم قد غدوا في حالة

أفضل من ذي قبل وأنهم في ظل حكم أكثر إنصافاً وعدالة. وتعززت بعد ذلك مكانة الايديوويين وقويَ نفوذهم على أصعدة أخرى. وفقد السيكوانيون تفوقهم وسلطتهم وسيادتهم، وحل محلهم الريميون *Remi*، ولما لم يكن سراً أن للريميين مكانة عالية واستحساناً متميزاً عند قيصر، شأنهم في ذلك شأن الايديوويين فقد قامت القبائل التي كان من الصعوبة استمالتها للانضمام إلى الايديوويين – نظراً لحزازات وضغائن قديمة – بوضع نفسها تحت حماية الريميين الذين لم يقصروا بدورهم بتقديم كل رعاية واهتمام بهم، الأمر الذي مكنهم من المحافظة على النفوذ والسلطة غير المألوفة بالنسبة لهم، والتي حصلوا عليها على نحو غير متوقع. فلذلك كان الموقف عند هذا الوقت إلى جانب الريميين الذين احتلوا الدرجة الثانية من حيث الأهمية بعد الايديوويين الذين أقر لهم بالزعامة السهلة على مختلف القبائل الأخرى.

هناك في بلاد الغال طبقتان من الرجال الذين يتمتعون بالأهمية والاعتبار. وتعامل هاتان الطبقتان عامة الناس على أنهم أشبه بالعبيد، حيث لا يمكنهم محاولة التصرف بمبادرة منهم ولا يؤخذ رأيهم أو تتم استشارتهم حول أي موضوع كان والغالبية العظمى منهم، المسحوقة تحت وطأة ديون ثقيلة أو ضرائب باهظة أو اضطهاد أشخاص ذوي سلطة ونفوذ، تربط نفسها بالعمل في خدمة رجال ينتمون إلى منزلة اجتماعية عالية أو ذوي مقامات رفيعة حيث يقوم هؤلاء الرجال بممارسة كافة حقوق السادة على العبيد بحقهم.

والطبقتان اللتان تتمتعان بالامتياز في بلاد الغال هما طبقة الدرويديين *Druids* وطبقة الفرسان *Knights*، حيث ينشغل الدرويديون بمهمة عبادة الآلهة ويقومون بتنظيم موضوع الأضاحي العامة والخاصة وبإعطاء أحكامهم في مختلف المسائل الدينية. وتتوجه إليهم أعداد كبيرة من الشبان بقصد الحصول على الإرشاد والنصيحة والتوجيه، ويحتلون في نفوس الناس مكانة عالية من الاحترام والإجلال. ويتصرفون كقضاة في شتى النزاعات التي تقع سواء بين القبائل أو بين الأفراد. وحينما ترتكب جريمة ما أو تحدث جريمة قتل أو يقع خلاف على تركة أو حدود فإنهم هم أنفسهم من يتدخل لحل المشكلة ويصدر حكمه فيها ويحدد التعويض الذي ينبغي دفعه وتسليمه للأشخاص المعينين ذوي الصلة بالموضوع. وحينما يعترض أي فرد أو أية قبيلة على الحكم الذي يصدره هؤلاء فإن هذا الفرد أو هذه القبيلة تحرم من الاشتراك في الأضاحي، وهي أشد عقوبة يمكن أن تفرض بحق غالي، كما أن من يرزح تحت مثل هذا الحرمان يتجنبه الناس كافة وينظرون إليه كمجرم عاق ويتحاشون التحدث إليه أو الاقتراب منه خشية من أن يلحقهم شيء من الأذى من خلال الاتصال مع من قد اعتبر نجساً وقذراً. وإذا أراد أحدهم رفع الظلم عنه والدفاع عن نفسه فإن العدالة تستنكر له وتجرده من

حق المشاركة بأي عمل شريف. وينضوي الدرويديون تحت جناح زعيم واحد تكون له في نفوسهم مكانة عالية تتميز بالاحترام العميق والتكريم الشديد، وحين مماته يشغل مكانه الشاغر أي واحد من الباقين له أهليته المتميزة وجدارته المعترف بها، وفي حال توفر كثيرين ممن يتحلون بهذه الخصال على نحو متساوٍ يجري الدرويديون عادة انتخاباً عن طريق التصويت، رغم أنهم أحياناً يقومون بحسم الأمر فعلاً بالقتال. وفي موعد محدد من كل عام يعقد الدرويديون اجتماعاً في موقع كُرس لأغراض مقدسة نبيلة في بلاد الكارنوتيين *Carnutes* وهو الموقع الذي يفترض به أن يكون مركز بلاد الغال حيث يحتشد في هذا المكان جميع أولئك الذين تورطوا بنزاعات وخلافات فيما بينهم، وقد جاؤوا من مختلف أنحاء البلاد، ويكون لزاماً عليهم القبول بقضاء وحكم الدرويديويين الذي يصدر بشأن نزاعاتهم.

ومن المعتقد أن الديانة الدرويدية *Druidie* كانت منتشرة في بريطانيا ومن ثم انتقلت إلى بلاد الغال، وحتى يومنا هذا غالباً ما يذهب من يريد التعمق في دراسة العقيدة الدرويدية إلى بريطانيا لهذا الغرض.

يُعفى الدرويديون من الخدمة العسكرية ولا يدفعون الضرائب كبقية المواطنين الآخرين.

ومن الطبيعي أن تكون هذه الامتيازات الهامة التي يحظى بها الدورويديون محط استقطاب أفراد آخرين. ولهذا يقوم الكثيرون بتقديم أنفسهم وبمحض إرادتهم كراغبين في دراسة الدرويدية *Druidism* أو المذهب الدرويدي، ويطمحون من وراء ذلك أن يصبحوا طلاباً في المدرسة الدرويدية، وهناك آخرون يرسلون لهذا الغرض من قبل أهلهم وأقربائهم. ويقال أن على هؤلاء التلامذة أن يحفظوا عن ظهر قلب عدداً هائلاً جداً من أبيات الشعر والقصائد إلى حد أن بعضهم يقضي عشرين سنة في دراسة مذهبيتهم. ويعتقد الدرويديون أن ديانتهم تمنعهم من نقل تعاليمهم إلى الشكل المكتوب ويفضلون دراستها وحفظها شفوياً دون اللجوء إلى الكتابة. هذا رغم أنهم في مجالات أخرى، ولأغراض أخرى، كالتقارير أو البيانات الخاصة أو العامة يلجأون لاستخدام الأبجدية الإغريقية. إلا أني أتصور أن هذه القاعدة قد برزت أصلاً لخدمة أهداف أخرى، فهم لا يريدون لعقيدتهم أن تصبح ملكية عامة يتناولها من يشاء، من ناحية، ولا يريدون من تلامذتهم الاعتماد على الكلمة المكتوبة وإهمال عملية تدريب الذاكرة. حيث من المعروف عموماً أن من يستند إلى النصوص المكتوبة في دراسته يصبح أقل براعة في الحفظ عن ظهر قلب، وتأخذ ذاكرته بالضعف. وموضوع الروح لا تموت بل تنتقل إلى جسد آخر بعد الموت هو الموضوع الذي يبذلون قصارى الجهد لطبعه في الأذهان، ويعتقدون أن

هذا الأمر يعتبر الحافز الأفضل وراء امتلاك الإنسان للشجاعة لأنه يعلم الناس على نبذ الخوف من الموت. كما أنهم يعقدون جلسات تجري فيها مناقشات مطولة حول الأجسام السماوية وحركاتها، وحجم الكون، وحجم الأرض والتكوين الفيزيائي أو المادي للعالم، وقوة الآلهة وصفاتها المميزة. ويقومون بإعطاء علومهم في سائر هذه الموضوعات للشبان والتلامذة.

والطبقة الثانية في المجتمع الغالي هي طبقة الفرسان فحينما تندلع حرب ما وتدعو الحاجة إلى خدماتهم يتسلم هؤلاء الفرسان ميدان القتال محاطين بخدمهم وأتباعهم حيث لكل فارس عدد من الخدم والأتباع يختلف باختلاف منبت كل فارس وثروته، هذا علماً أن بلاد الغال قد اعتادت في فترة ما قبل وصول قيصر خوض غمار حروب دفاعية أو هجومية في كل عام تقريباً. وكان امتلاك مثل هؤلاء الأتباع المعيار الوحيد الذي اعتمده أهل البلاد في تمييز مكانة ونفوذ كل فارس ويعتبر الغاليون كأمة، غاية في الإيمان بالخرافات، لذا فإن من يلم به مرض خطير، أو على وشك التعرض لمخاطر القتال في المعارك والحروب يقوم بتقديم الأضاحي الإنسانية، أو يقسم على تقديمها في وقت لاحق. وكان الغاليون يستخدمون الدرودين لتأدية طقوس تلك الأضاحي حيث اعتقدوا أن السبيل الوحيد لإنقاذ حياة امرئ ما هو من خلال استعطاف الآلهة واسترضاء غضبها عن طريق تقديم حياة بديلة لحياة ذلك المرء.

وعلى هذا الأساس كان للغاليين أضاحٍ رسمية منتظمة للآلهة من هذا النوع. وكان لدى بعض القبائل الغالية تماثيل ضخمة تصنع من الأماليد المجدولة وتحشى أوصالها برجال على قيد الحياة، ثم توضع فوق نيران ملتهبة وتحترق الأضاحي حتى الموت. وقد اعتقد الغاليون أن الآلهة تفضل تنفيذ حكم الإعدام بأناسٍ ضبطوا بسرقة أو لصوصية أو قطع طرق، أو مذنبين بارتكابهم لبعض الآثام والجرائم. لكنهم حينما لا يتوفر لهم مجرمون أو قطاع طرق لتقدمهم كأضاحٍ للآلهة كانوا لا يترددون قط في التعويض عن ذلك بأناس أبرياء.

كان أكثر الآلهة احتراماً وتبجيلاً لدى الغاليين عطارد *Mercury*، حيث لديهم الكثير من التماثيل له. فهم يعتبرونه مبدع كل الفنون، وهو الإله الذي يرشد الناس في سفرهم، وهو العون الأكثر لهم في أعمالهم التجارية وفي عمليات الحصول على المال. ويأتي بعد عطارد الآلهة أبولو *Apollo* ومارس *Mars* وجوبيتر *Jupiter* ومينيرفا *Minerva*، ولا تختلف فكرة الغاليين عن كل من هذه الآلهة عن فكرة بقية الشعوب الأخرى من حيث أن أبولو يداوي المرضى، ومينيرفا يعلم مبادئ الصناعة والحرف، وأن جوبيتر ملك الآلهة ومارس أمير الحرب. واعتاد الغاليون حين اتخاذهم لقرار خوض معركة ما أن يقسموا بإعطاء مارس الغنيمة التي يأملون في الحصول عليها. وكانوا بعد كل نصر في قتال يضحون لمارس بكل

الحيوانات التي تم الاستيلاء عليها ويجمعون بقية الغنائم في نقطة واحدة، حيث كانت ترى أكوام عالية من هذه الغنائم لدى العديد من القبائل مكدسة فوق بقعة أرض موقوفة للأعمال النبيلة ومحاطة بهالة من القداسة.

وكان أمراً لا يمكن أن يخطر لبال أحد أن يتجرأ على تحدي القوانين الدينية وإخفاء شيء من الغنيمة في منزله أو إزالة أي شيء من الأشياء الموضوعة في الأكوام.

فقد كانت عقوبة اقتراف جريمة كهذه الموت الفظيع تحت أشكال مختلفة من التعذيب.

يدعي الغاليون أنهم جميعاً قد تحدروا من الأب ديس *Dis* إله العالم السفلي – ويقابله عند الإغريق والرومان بلوتو *Pluto* إله الموتى والجحيم – ويعلنون أن هذا التقليد قد سار عليه الدرويديون وحافظوا عليه ولهذا السبب فهم لا يقيسون الزمن بالأيام وإنما بالليالي، وفي احتفالاتهم بأيام الميلاد وباليوم الأول للشهر وبالسنة الجديدة يتبعون مبدأ أن النهار يبدأ في الليل، أما بالنسبة للأعراف الأخرى المتعلقة بأسلوب التعامل اليومي فيما بينهم فإنها لا تختلف عن تلك السائدة بين أفراد بقية الشعوب الأخرى عدا أن أبناء الغاليين غير مسموح لهم بالتوجه إلى آبائهم أمام الناس إلا أن يصبحوا ناضجين ما يكفي للذهاب إلى الخدمة العسكرية، كما أنهم يعتبرونه أمراً غير لائق بابن لا يزال صبياً أن يقف على مرأى من عيون أبيه في مكان عام.

وحينما يتزوج أحد الغاليين فإنه يضيف إلى مهر زوجته أو جهازها جزءاً من ممتلكاته الخاصة تقوم هي بإحضاره معها حين مجيئها إلى بيته، ويكون معادلاً من حيث القيمة لذلك الجزء الذي تحضره هي معها من ملكيتها الخاصة. ويحتفظ بحساب مشترك لكلا الجزأين حيث ما يكسبه هذا الحساب من أرباح يوضع جانباً. وفي حال وفاة أحد الطرفين يحق لمن بقي على قيد الحياة منهما أن يتسلم كلتا الحصتين مع كامل الأرباح المستحقة. وللأزواج سلطة الحياة والموت على زوجاتهم وأبنائهم، فحينما يموت رب أسرة كريم النسب يجتمع أقرباؤه وإن وجدوا أن ظروف موته غامضة أو مشكوك فيها يقوموا باستجواب أرملته تحت التعذيب مثلما يتم استجواب أي عبد من العبيد. وإذا تبين ضلوعها في موته وأقرت بأنها مذنبة تسلم إلى السنة اللهب كي تموت نتيجة أقسى ألوان العذاب، أما بالنسبة للجنائز الغالية فإنها جنائز فخمة وباهظة التكاليف مقارنة مع ما يعانيه المجتمع من فقر، ويوضع المتوفى فوق المحرقة (وهي ركام من الحطب لإحراق جثث الموتى) ويوضع معه كل شيء كان فيه مولعاً بما في الحيوانات التي كان يحبها. وحتى زمن ليس ببعيد كان هناك أناس لا يزالون على قيد الحياة

يستطيعون تذكر ذلك الزمن الذي كان فيه العبيد والخدم والتابعون الذين كانوا معروفين بحب أسيادهم لهم يحرقون معهم في ختام الطقوس الجنائزية.

كان للقبائل التي يوكل إليها شأن إدارة شؤون البلاد بالطريقة الأفضل قانون ينص على أن من واجب كل من يسمع بشائعة أو خبر له علاقة بالدولة من بلد مجاور أن ينقله إلى أحد القضاة دون التحدث حوله لأي مخلوق كان. حيث أن التجربة قد أظهرت أن المتهورين والجهلة من الناس غالباً ما ينجرون إلى ارتكاب أعمال هدامة بسبب خوفهم من شائعات كاذبة، ويتدخلون بما لا يعنيهم من أمور الدولة الهامة.

ويقوم القاضي حينئذ بقمع انتشار ما يعتقدون بأنه من المناسب أن يبقى سراً ويسمحون بتفشي ما يرون أن من المناسب أن يطلع عليه الناس فقط. وقد كانت مناقشة الأمور السياسية محرمة إلا ضمن نطاق اجتماعات عامة.

٢- الجرمان

كانت تقاليد الجرمان تختلف تماماً عن تقاليد سكان بلاد الغال. فلم يكن لدى الجرمان درويديون ليسيطروا على الطقوس والشعائر الدينية، ولا يشغل بالهم كثيراً موضوع الأضاحي فهم لا يميلون إلى الاهتمام بمثل هذه الأمور.

وما يعتبرونه آلهة من الكائنات هي فقط تلك الأشياء التي باستطاعتهم رؤيتها والتي يستمدون منها الفائدة كالشمس والقمر والنار. أما الآلهة الأخرى فإنه لم يسبق لأحد منهم أن سمع عنها. كان الجرمان يقضون حياتهم بالصيد والاهتمامات الحربية والعمل على تعويد النفس منذ الصغر على الكد والكدح وتحمل المشقات. ومن منهم يحافظ على عفته وطهارته لمدة أطول ينال مديحاً من أصدقائه ويصبح محل إعجاب الآخرين، حيث أنهم يعتقدون أن كبح النفس عن شهواتها الجنسية يجعل الشاب أطول قامة وأصلب عوداً وأقوى عضلات. وكانت ممارسة الجنس مع امرأة قبل بلوغ سن العشرين تعتبر أمراً مخزياً جالباً للفضيحة. غير أنهم لا يحاولون إخفاء أية حقيقة حول الجنس: فالرجال والنساء يستحمون معاً في الأنهار ولا يرتدون سوى جلود الحيوانات أو أثواب قصيرة من الجلد المكسو بالشعر والتي تبقي القسم الأكبر من الجسم عارياً.

لا يُعد الجرمان من الشعوب التي اهتمت بالزراعة فهم يعيشون بصورة أساسية معتمدين على الحليب والجبن واللحم، وما من أحد منهم يمتلك قطعة أرض محددة بوصفها ملكية شخصية له، إنما يقوم الحكام وزعماء القبائل سنوياً بتعيين قطعة أرض مستأجرة ليعمل عليها

بعض العشائر أو مجموعات من الأقرباء أو آخرون ممن يقطنون معاً، ويحددون لهم مساحتها وموقعها وتوضع تحت تصرفهم لمدة عام كامل حيث يكون عليهم في العام التالي الانتقال إلى موقع جديد وقطعة أرض أخرى. ويقدم الجرمان الكثير من التبريرات والأسباب لاتباعهم هذا التقليد إذ يقولون مثلاً إنهم لا يريدون رجالهم أن يتعودوا على العيش في مكان واحد وأن يفقدوا بالتالي حماستهم القتالية ويتخذوا من الزراعة بديلاً عنها. ويقولون أيضاً إنهم بهذا التقليد لا يجعلون رجالهم يتطلعون إلى اكتساب عقارات ضخمة وتصبح بالتالي للقوي اليد العليا على الضعيف وكذلك كي يصرفوهم عن التفكير كثيراً بموضوع بناء البيوت المستقرة التي تحميهم من البرد والحر ويمنعوهم من أن يصبحوا مولعين بالمال، الأمر الذي غالباً ما كان السبب وراء انقسام الشعوب ونزاعاتها، وكذلك لإبقاء عامة الناس راضين هادئين، مقتنعين بما هم فيه، من خلال جعلهم يرون أن حال الأكثر سلطة والأعظم نفوذاً ليس بأفضل من حالهم هم بكثير.

وتعد مختلف القبائل الجرمانية أن إتلاف أكبر قدر ممكن من الأرض حولها وجعله خالياً من السكان أمر يدعو إلى الفخر العظيم والاعتزاز الكبير. فهم يعدون طرد سكان الجوار من بيوتهم برهاناً على شجاعة وبسالة شعبهم حيث لا يتجرأ أحد على الاستقرار على مقربة منهم، ويعتقدون أيضاً أن ذلك الأمر يمنحهم أمناً أكثر ويزيل من نفوسهم الخوف من وقوع هجوم مباغت عليهم، وحينما يحدث هجوم ضد إحدى القبائل أو حينما تنوي إحدى القبائل القيام بهجوم ضد قبيلة أخرى، يتم اختيار الضباط المناسبين الذين توكل إليهم مهمة تنفيذ الحملة وتعطى لهم سلطة الحياة والموت على جنودهم. وفي زمن السلم، حين لا يتوفر قضاء مركزي، يقوم زعماء المقاطعات والأقاليم المختلفة بإدارة دفة العدالة وبتسوية النزاعات بين أبناء مناطقهم. ولا يلحق الخزي والعار بأية قبيلة إذا قامت بشن إغارات خارج حدودها بقصد السلب والنهب. ويقول الجرمان إنهم يعملون جادين على المحافظة على شبابهم في حالة من التدريب المتواصل كي لا يسمحوا للخمول والكسل أن يتسربا إلى أجسامهم. وعندما يعلن زعيم ما في اجتماع عام عن نيته في قيادة غارة ما ضد منطقة ما ويدعو إلى الحصول على المتطوعين ينهض أولئك الذين يعجبهم الاقتراح على أقدامهم، وبخاصة إذا راق لهم الرجل الذي قدم الاقتراح، ويعدونه بالمساعدة في غمرة استحسان وتصفيق كل الحاضرين. وكل من ينكث بوعده فيما بعد ويتراجع عن كلمته ينظر إليه الناس على أنه خائن وهارب من تأدية الواجب، ويمتنع الناس عن الثقة به مرة أخرى. ويرى الجرمان أن الإساءة للضيف أو التعامل معه باستخفاف وازدراء أمر بعيد عن أي ورع أو تُقى ويقومون بحماية كل من يلجأ إليهم

ويدخل منازلهم لأي غرض مهما كان، ويردون عنه الأذى الذي قد يلحق به، ويعاملونه بقدسية ويتم الترحيب به في بيوتهم وعلى مآدب كل منهم.

كان الغاليون في زمن من الأزمان أكثر نزوعاً نحو الحرب من الجرمان، وقد حدث فعلاً أن قام الغاليون بغزو الأراضي الجرمانية وبإرسال المستعمرين عبر نهر الراين للإقامة في الأراضي الجرمانية لأن بلادهم كانت أصغر من أن تستوعب عدد سكانها الهائل. وبهذه الطريقة بالذات كان قد تم من قبل احتلال أكثر المقاطعات الجرمانية خصوبة وهي الواقعة على مقربة من غابة هيوسينيان *Hercynian forest*[1] والاستيلاء عليها على يد الفولكي

---

(١)غابة هيرسينيان *Hercynian Forest*: أعتقد أن هذه الغابة كانت معروفة من قبل إيراتوس ثينيس *Eratos Thenes* وإغريقيين آخرين يطلقون عليها اسم أورسينيا *Orcynia*. وهي غابة ذات مساحة شاسعة حيث يستغرق عبورها من قبل رحال يحمل عدة سفر خفيفة تسعة أيام كاملة. وقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لدى الجرمان لقياس مساحتها، إذ لم يكونوا على دراية بعد بأي شيء حول وسائل قياس الأطوال. وتمتد هذه الغابة باستقامة واضحة من حدود أقاليم الهلفيتيين *Helvetii* والنيمتيين *Nemetes* والرواسيين *Rauraci* على طول نهر الدانوب إلى بلاد الداشيانيين *Dacians* والأنارتيين *Anarte*، حيث تنعطف عند هذه النقطة نحو جهة شمال شرق بعيداً عن النهر. ونظراً لضخامة طولها فإنها تمتد عبر أراضٍ تتبع لشعوب وأمم مختلفة. وليس هناك من جرماني غربي ادعى أنه بلغ أقصى حدودها الشرقية حتى بعد رحلة سفر دامت شهرين أو سبق له أن سمع شيئاً عن حدود نهايتها. ومعروف عن هذه الغابة أنها تحتوي أنواعاً مختلفة من الحيوانات لم يسبق لأحد رؤيتها في أي مكان آخر، ويستحق بعض هذه الحيوانات الذكر نظراً لاختلافها الكبير من الحيوانات الموجودة في بلاد أخرى. فهناك الثور الشبيه بالإبل، له قرن واحد عند منتصف جبهته بين الأذنين ويبرز هذا القرن نحو الأعلى وباستقامة أكثر من قرون كل الحيوانات التي نعرفها. ويتفرع هذا القرن عند قمته إلى فروع عريضة تتخذ شكل يد الإنسان أو الشجرة. ويشبه الذكر الأنثى ولقرونها نفس الشكل ونفس الحجم. وهنالك أيضاً حيوانات أخرى اسمها الإلكة وهي أيائل أو ظباء تشبه الماعز في شكلها ولونها المرقط، إلا أنها أكبر من الماعز بقليل، ولها قرون قصيرة وأرجل دون مفاصل. لذا فهي لا تستطيع الاستلقاء للاستراحة، وإذا حدث أن سقط واحدٌ منها مصادفة فإنه لا يتمكن من النهوض أو رفع نفسه عن الأرض. وتقدم الأشجار لهذه الحيوانات أماكن للقيلولة حيث تستند إلى جذوع الشجر وتستريح على هذا النحو مع قليل من الميلان بأجسامها نحو الجذوع وحينما كان يكتشف الصيادون أماكن اللجوء الاعتيادية لهذه الحيوانات، بعد أن يتتبعوا خط سيرها، كانوا يقومون بقطع جذوع كل الأشجار المحيطة أو يتسللون متسترين بجذوع الشجر المقطوعة على نحو يجعلهم يبدون وكأنهم جذوع شجر ثابتة. وحينما كانت تجيء الإلكات للإتكاء عليها ظناً منها أنها جذوع أشجار حقيقية على نحو ما تفعل عادة، كان الصيادون يدفعون بثقلهم فوقها ويستلقون على الأرض معها. والنوع الثالث من الحيوانات التي كانت موجودة في غابة هيرسينيان الأوركس *Aurocks* أو الأرخص (وهو نوع من الثيران البرية الأوروبية) حيوان أصغر قليلاً من الفيل، يشبه من حيث مظهره ولونه وشكله الثور. يمتاز بقوة خارقة وحركة رشيقة، يهاجم أي إنسان أو حيوان يقع عليه بصره. وكان أهل البلاد يبذلون قصارى الجهد لإيقاعه في الشرك

تيكتوسيجين *Volcae Tectosages* الذين استمروا يمكثون فيها هذا اليوم، وتمتعوا بسمعة عالية من حسن التعامل والظرافة. وبينما لا يزال الجرمان يتحملون حتى الآن نفس حياة الفقر والحرمان، كما كان عليه حالهم سابقاً دون أن يحصل أي تغيير يذكر في طعامهم أو كسائهم، ينعم الغاليون، نظراً لعيشهم على مقربة من المقاطعة الرومانية وتعرفهم على المنتجات البحرية، بوفرة غزيرة من مختلف السلع والمواد والبضائع. غير أنهم من خلال تعودهم المتواصل على التبعية ودنو المقام والهزائم الكثيرة التي منيوا بها لم يعد بمقدورهم حتى التظاهر بإمكانيتهم على التنافس مع الجرمان في الأمور التي تتطلب شجاعة وجرأة.

وإسقاطه في الحفرة التي خصصت لهذا الغرض وقتله بعد ذلك. وقد كانت هذه الرياضة الصعبة والشاقة تقوي من عود الشبان وتبقيهم في حالة تدريب جسدي مستمر. ومن كان منهم يقتل العدد الأكبر من الأراخص كان يعرض القرون في الساحة العامة وأمام الناس ليبين ما قد صنعت يداه، ويكسب حينئذ أكبر قدر من المديح والثناء. وكان من المستحيل ترويض الأراخص حتى ولو أمسك بها وهي صغيرة، وقرون الأرخص أكبر بكثير من قرون الثيران التي نعرفها وشكلها ومظهرها مختلف كلياً. وكان لهذه القرون قيمة كبيرة عند الجرمان حيث كانوا يطلون حوافها ويستخدمونها كأقداح للشراب في مآدبهم الفخمة.

الاحتـــلال العســكري
لبــلاد الغـــال (٥٨ ق.م – ٥٧ ق.م)

١- صد الغزو الهيلفيتي (٥٨ ق.م) *Helvetian*

كان أورجيتوريكس *Orgetorix* الرجل الأول بين الهيلفتيين سواء من حيث المقام أو من حيث الثروة. وقد استحثه خلال قنصلية ماركوس ميسيلا *Marcus Messala* وماركوس بيزو *Marcus Piso* أمل الحصول على سلطة ملكية نحو تنظيم عصبة متآمرين من النبلاء وإقناع أبناء بلده بالمهاجرة الجماعية، حيث أخذ يقول لهم إنهم أفضل المقاتلين في بلاد الغال وإن بمقدورهم وبسهولة إخضاع كل أجزاء البلاد لسلطتهم. وأخذ هؤلاء بالإصغاء لاقتراحاته عن طيب خاطر وبالغ سرور، لا سيما وأن إقليمهم مطوق بالحواجز الطبيعية من كل الجهات. فمن جهة هناك نهر الراين، وهو نهر عريض وعميق وهو الحد الفاصل بينهم وبين الجرمان، ومن جهة أخرى سلسلة جبال جيورا *Jura* الشاهقة التي تفصل بينهم وبين السيكوانيين، ومن الجهة الثالثة هناك بحيرة جنيف *Geneva* ونهر الرون *Rhone* اللذان يشكلان الحد بين الهيلفيتيين والمقاطعة الرومانية. وقد قيدت هذه العوائق الطبيعية تحركاتهم عبر السنين وجعلت من الصعوبة عليهم مهاجمة جيرانهم. ولطالما أنهم شعب نزاع للحرب فقد أغضبهم هذا الواقع الجغرافي لإقليمهم وأثارت سخطهم تلك القيود كثيراً، وأحسوا أن مساحة إقليمهم التي تبلغ مائتين وعشرين ميلاً طولاً ومائة وستين ميلاً عرضاً صغيرة بشكل غير ملائم بالنظر إلى ضخامة حجم السكان لديهم وإلى ما يتمتعون به من هيبة عسكرية وسجل حافل بالسمعة العالية على صعيد الجرأة والبسالة.

بناءً على هذا الشعور وتأثراً بنفوذ أورجيتوريكس وإقناعه لهم صمموا على الإعداد للهجرة، فأخذوا بشراء كل ما يستطيعون من الحيوانات القادرة على جر الأثقال والعربات،

وشرعوا بزراعة أكبر قدر ممكن من الأرض كي يضمنوا توفير مؤونة كافية من الحنطة من أجل رحلتهم، وأقاموا علاقات ودية وسلمية مع جيرانهم، وحسبوا أنه سيكفيهم عامان من الزمن لاستكمال استعداداتهم للهجرة، واتخذوا قراراً رسمياً يحدد موعد مغادرتهم خلال العام الثالث. وكلف أورجيتوريكس بتنظيم كافة الترتيبات المتعلقة بذلك، وذهب على رأس بعثة إلى الشعوب المجاورة استطاع خلالها إقناع أحد السيكوانيين، اسمه كاستيكوس *Casticus* سبق لأبيه كاتامانتالوديس *Catamantalodis* أن كان ملكاً على قبيلة لعدة سنوات وكان مجلس الشيوخ الروماني قد منحه لقب "صديق الشعب الروماني" بالاستيلاء على السلطة الملكية التي كانت بيد أبيه من قبل. كما قام أورجيتوريكس بتحريض الايديووي دومنوريكس *Dumnorix* - شقيق ديفيشياكوس الذي يتولى الآن منصب الحاكم الرئيسي على قبيلة ويتمتع بشعبية عالية – على القيام بنفس المحاولة، وإعطاء أخته لتكون زوجة له. وتمكن أورجيتوريكس من إقناعها بأن من السهولة إنجاز هذه الخطط من خلال ما نقله لهما عن عزمه وإصراره على اغتصاب السلطة والسيادة في دولته، وهي الدولة التي حسبما قال، لا شك الأعظم سلطة ونفوذاً في بلاد الغال. وأضاف قائلاً لهما إنه سيسخر كل ثروته وكل طاقاته العسكرية ليضمن لهما امتلاكهما لعروشهما. وقد لاقت طروحات أورجيتوريكس آذاناً صاغية من قبلهما وكان لها تأثير فعلي على كليهما. وأدى الرجال الثلاثة القسم بالولاء المتبادل معربين عن أملهم في أنهم عندما يصبحون ملوكاً ستمكنهم القوة الجبارة للشعب المقاتل الذي يحكمونه من السيطرة على شتى أرجاء بلاد الغال.

لكن لسوء حظ أورجيتوريكس كشف المخبرون عن هذه المؤامرة للسلطة الهليفية الحاكمة، واستدعي اورجيتوريكس، وفقاً للتقليد الوطني، للمثول أمام القضاء بوصفه سجيناً، وعلى اعتبار أن إدانته بالجرم الذي اقترفه كانت ستعني بالنسبة له الموت حرقاً بالشد إلى الخازون فقد قام بجمع كل العبيد الذين كانوا يعملون في مختلف ممتلكاته، وكان عددهم قرابة عشرة آلاف، وبإحضارهم إلى مكان انعقاد جلسة محاكمته في اليوم المحدد للتحقيق معه وسماع الشهادات، واحضر أيضاً كل خدمه وكان عددهم هائلاً أيضاً وإلى جانبهم كل المدينين التابعين له. واستطاع من خلال حماية هؤلاء له من الفرار من المحاكمة، وغضب أبناء بلاده من تصرف الدولة معه بهذا الشكل وحاولوا التأكيد على حقوقهم بالقوة المسلحة. لكن، وبينما كان الحكام الهيلفيتيون يقومون بدعوة مجموعة كبيرة من أبناء الريف للالتحاق بالجيش وصل نبأ موت أورجيتوريكس، قاتلاً نفسه على نحو ما يعتقده الهيلفيتيون.

غير أن الهيلفيتيين لم يخففوا من جهودهم نحو تنفيذ هجرتهم التي عقدوا العزم على تنفيذها. فحالما أصبحوا جاهزين للمغادرة قاموا بإحراق الاثنتي عشرة مدينة والأربعمائة قرية التابعة لهم. وأضرموا النار بالأبنية المنعزلة التي تعود ملكيتها الخاصة لبعض الأفراد العاديين وبكل الحبوب التي كانت بحوزتهم ما عدا ما كانوا ينوون -حمله معهم. واعتقدوا أنهم إن يلغوا من تفكيرهم احتمال العودة إلى أوطانهم ستصبح رغبتهم بالهجرة أكثر شدة وتصميمهم على مواجهة المخاطر التي تنتظرهم أكثر تأكيداً وأعطيت التعليمات لكل منهم أن يصطحب معه مؤونة من الحنطة تكفيه لثلاثة أشهر. ونجحوا في إقناع جيرانهم الروراسيين *Rauraci* والطولينجيين *Tulingi* واللاتوفيسيين *Latovici* بالتصرف على نحو ما تصرفوه - أي أن يقوموا بحرق مدنهم وقراهم والذهاب معهم. ورافقهم في هجرتهم أيضاً البويون *Boii*، وهم الشعب الذي استوطن سابقاً على الجهة الثانية لنهر الراين وهاجر مؤخراً إلى النمسا وهاجم مدينة نوريا *Noreia*.

كان أمام الهيلفيتيين طريقان فقط يستطيعون من خلالهما مغادرة بلدهم. واحد بين جبال الجيورا *Jura* ونهر الرون عبر الأراضي السيكوانية، وقد كان هذا الطريق ضيقاً وشاقاً ولا تستطيع العربات المرور فيه إلا ضمن خط سير واحد. وكان يطل على هذا الطريق جبل شاهق يجعل من اليسير على حفنة من الرجال منع اجتيازه وتحويله إلى طريق غير سالكة. أما الطريق الثاني، والذي يمر عبر المقاطعة الرومانية، فقد كان أسهل وأكثر ملائمة من الطريق الأول حيث أن نهر الرون الذي يشكل الحد بين الهيلفيتيين والألوبروجين *Allobroges* (الذين خضعوا لروما مؤخراً عام ٦١ ق.م) يمكن خوضه في أماكن عديدة. ومدينة الألوبروجين الواقعة على الحدود القريبة من سويسرا والتي ترتبط معها بجسر هي مدينة جنيف. ولذلك فكر الهيلفيتيون أن الأمر يقتضي منهم إقناع الألوبروجين بالسماح لهم بالمرور عبرها على اعتبار أنهم كانوا على نحو ما يعتقد ما يزالون على علاقات غير ودية مع الرومان - أو بإجبارهم على فعل ذلك بالقوة. وحينما أصبح كل شيء جاهزاً للتحرك والرحيل حددوا يوماً للتجمع العام على ضفة نهر الرون، وكان ذلك يوم الثامن والعشرين من آذار عام (٥٨ ق.م) في زمن قنصلية لوسيوس بيزو *Lucius Piso* وأولوس غابينيوس *Aalus Gabinius*.

عندما علم قيصر أن الهيلفيتيين يسعون للمرور عبر المقاطعة الرومانية، غادر روما مباشرة وسافر بالسرعة القصوى إلى منطقة مجاورة لمدينة جنيف. وعلى اعتبار أن فيلقاً واحداً فقط كان متمركزاً في غاليا عند ذلك الوقت فقد أمر قيصر بتعبئة أكبر قدر ممكن من القوات الجديدة ومن كل مكان من المقاطعة الرومانية، كما أمر بتدمير الجسر في جينيف،

وحينما وصل نبأ وصول قيصر إلى مسامع الهيلفيتيين أوفدوا له سفارة تألفت من ألمع وأشهر الشخصيات الهيلفيتية ترأسها كلٌ من ناميوس *Nammeius* وفيروكلوتيوس *Verucloetius* ليقولا له إن الهيلفتيين ينوون المرور عبر المقاطعة الرومانية يجبرهم على ذلك عدم توفر طريق آخر سواه يسلكونه في رحيلهم. وقطع الوفد وعداً لقيصر بأن لا يتسببوا بأية أضرار للمقاطعة أثناء مرورهم، والتمسوه الموافقة على طلبهم. وعندما تذكر قيصر أن القنصل لوسيوس كاسيوس *Lucius Cassius* كان قد قُتل على يد الهيلفيتيين وهُزم جيشه هزيمة منكرة وسبق أفراده للمرور تحت نير الخضوع[1] عام (١٠٧ ق.م) لم يشأ منح الهيلفيتيين موافقته على طلبهم. فهو إن يسمح لشعب يكن هذه العدائية والبغضاء لروما بالمرور عبر المقاطعة الرومانية فإنه، بحسب ما ظن قيصر، من المحتمل أن لا يتورع عن إلحاق الأذية والمضرة ببعض الممتلكات أو ببعض الأشخاص التابعين للمقاطعة. إنما كي يحصل قيصر على الوقت اللازم لتجميع قواته التي أمر بتجنيدها طلب من الوفد الهيلفيتي مهلة للتفكير بالموضوع. وقال لهم إن عليهم المجيء إليه ثانية في الثالث عشر من نيسان إن ظلوا راغبين في تقديم الطلب مرة أخرى. وقام قيصر خلال هذا الوقت مستخدماً عناصر الفيلق الذي كان لديه والقوات التي جندها حديثاً في المقاطعة الرومانية بعملية تحصين ضفة نهر الرون لمسافة ثمانية عشر ميلاً بين بحيرة جنيف وجبال الجيورا، وهو الحد الذي يفصل بين الهيلفيتيين والسيكوانيين. وقد كان ذلك التحصين مشتملاً على إقامة سور بلغ ارتفاعه ستة عشر قدماً وحفر خندقاً يسير بمحاذاته. ثم تم تركيز المتاريس عند بعض النقاط على طول التحصين ووضع حامية في كل متراس تضم عناصر للطوارئ كي يتمكن قيصر من إيقاف الزحف الهيلفيتي بسهولة أكثر في حال لجوئهم إلى استخدام القوة لشق طريق لهم. وحينما عاد المبعوثون الهيلفيتون في اليوم الذي حدده لهم قيصر، قال لهم إن منح الموافقة لأي شخص بالمرور عبر المقاطعة الرومانية سيكون سابقة لا مثيل لها ومخالفة للتقاليد والأعراف التي تتمسك بها الدولة الرومانية. وأضاف قائلاً إنهم إذا حاولوا اللجوء إلى استعمال القوة فإنه سيوقفهم ويمنع مرورهم.

وشعر الوفد الهيلفيتي بالخيبة، وطار من بين أيديهم هذا الأمل بحل مشكلتهم وحاول بعض الهيلفيتيين، من حين إلى آخر وتحت جنح الظلام، العبور بواسطة ربط مجموعات من القوارب مع بعضها باستعمال الحبال أو السلاسل أو بواسطة الطوافات. كما لجأ آخرون إلى

---

(١) نير الخضوع عبارة عن قوس تشكله ثلاثة رماح، رمز للنير الذي يوضع على الثور. كان مفروضاً على القوات المهزومة المرور من تحته إشارة لخضوعها للقوات المنتصرة. المترجم.

الخوض عبر الأماكن الضحلة من النهر لإنجاز العبور. غير أن القوات الرومانية كانت لهم بالمرصاد حيث كانت عناصر الجيش الروماني تسرع على الفور إلى نقاط الخطر وتردهم على أعقابهم مستعينة بالتحصينات وبوابل من القذائف إلى أن تم إجبار الهيلفيتيين أخيراً على التخلي عن محاولاتهم.

على هذا الأساس بقي أمام الهيلفيتيين الطريق عبر الأراضي السيكوانية، وكان ذلك الطريق ضيقاً جداً على نحو ما أسلفنا بحيث لا يمكنهم استخدامه دون موافقة السيكوانيين. ونتيجة لإخفاقهم في الحصول على إذن بالمرور من خلال مساعيهم الشخصية فقد أرسلوا إلى الايديووي دومنوريكس *Dumnorix* مبعوثاً آملين منه التوسط لهم لدى السيكوانيين. وكانت شعبية دومنوريكس وسخاؤه قد اكسباه تأثيراً كبيراً على السيكوانيين، إضافة إلى أنه كان يميل كثيراً إلى الهيلفيتيين لأنه كان قد تزوج من امرأة من بلادهم وهي أخت أورجيتوريكس. وقد جعله طموحه نحو السلطة الملكية يفضل حدوث تغيير سياسي ويرغب في وضع أكبر عدد ممكن من القبائل تحت تصرفه وفي عهدته بناءً على ذلك تولى دومنوريكس أمر المهمة التي كلفه بها الهيلفيتيون وأقنع السيكوانيين بالسماح للهيلفيتيين بالمرور عبر بلادهم ونظم عملية تبادل للرهائن بينهما. وتعهد الهيلفيتيون بالمرور دون التسبب بأي ضرر لأي إنسان ودون تخريب أو إتلاف لأية ممتلكات، وتعهد السيكواتيون بالسماح لهم بالمرور دون أي تدخل أو اعتراض.

علم قيصر أن الهيلفيتيين يعتزمون المرور عبر الأراضي السيكوانية والأيديووية ومن ثم دخول بلاد السانتونيين *Santoni* القريبة من بلاد التولوياتيين *Tolosates*، وهم قبيلة تقطن ضمن المقاطعة الرومانية.

ورأى أن من الخطر البالغ على المقاطعة أن يقيم شعب معروف بنزعته القتالية ومعاد لروما على مقربة من حقولها الغنية المليئة بالحبوب والتي لا تحميها أية حواجز طبيعية. ولذلك عهد قيصر لـ تيتوس لابينوس *Titus Labienus*، وهو أحد جنرالاته بمهمة حماية التحصينات التي أقامها وتوجه بالسرعة الكلية إلى الشمال الإيطالي وجند فيلقين جديدين هناك وأرسل خلفه الفيالق الثلاثة التي كانت تمضي الشتاء في مهاجعها الشتوية بالقرب من أكويليا *aquileia*، وأسرع عائداً بالفيالق الخمسة سالكاً أقصر الطرق فوق جبال الألب نحو بلاد الغال. وقام السوترونيون *Ceatrones* والغريوسيليون *Graioceli* والكاتوريجيون *Caturiges* الذين كانوا يستولون على بعض المرتفعات المطلة على خط سير قوات قيصر بعدة محاولات لإيقاف زحفه وزحف فيالقه. وبعد أن أطاح بهم قيصر بنتيجة عدة اشتباكات معهم زحف خلال

ستة أيام من اوسيليوم *Ocelum*، المدينة الواقعة في أقصى غرب المنطقة الآلبية *Alpine* لإيطاليا إلى إقليم الفوكونتيين *Vocontii* داخل المقاطعة الرومانية، ثم تابع زحفه عبر بلاد الألوبروجيين *Allobroges* نحو بلاد السيغوسيافيين *Segusiavi* وهم الشعب الأول الذي يصادفك خلف حدود المقاطعة الرومانية على الضفة الغربية لنهر الرون.

كان الهيلفيتون عند هذا الوقت قد ساروا على طول الطريق وعبروا بلاد السيكوانيين ووصلوا إلى بلاد الايديولويين وأخذوا بنهب وسلب أرضهم. وحينما شعر الايديوويون أنهم غير قادرين على حماية أنفسهم أو ممتلكاتهم مما حل بهم من بلاء توجهوا لطلب العون من قيصر، متذرعين بأنهم كانوا دائماً أوفياء مخلصين لروما، وأنه من غير الصواب أن تترك أراضيهم عرضة للتخريب والنهب أمام عيون جيش قيصر العملاق، وأن يؤخذ أولادهم عبيداً وأن تقتحم مدنهم بالهجمات العاصفة للهيلفيتيين. وقام الامباريون *Ambarri* في الوقت ذاته أيضاً، والامباريون تربطهم بالايدوريين علاقات صداقة ونسب عشائرية، بإحاطة قيصر علماً بأن حقولهم قد نهبت أيضاً وأنهم لا يمتلكون القدرة على صد الهجمات الهيلفيتية ضد مدنهم. وجاء الألوبروجيون إلى قيصر كذلك – وكانت لهم قرى وممتلكات خلف الرون – هاربين بحثاً عن حماية، وقالوا إن الهيلفيتيين قد سرقوا منهم كل شيء عدا قرية جرداء من بلادهم. فأقنعت كل هذه الشكايات ضد الهيلفيتيين قيصر بضرورة تحركه المباشر لأن أي تأخير وتأجيل سيتمخض عن تدمير أكثر لممتلكات حلفائه الذين يناشدونه المساعدة، وسيتمكن الهيلفيتيين من الإفلات دون عقاب حيث أن التأجيل قد يمنحهم الزمن اللازم للوصول إلى السانتونيين *Santoni*.

هناك عبر أراضي الايديوويين والسيكوانيين يجري نهر اسمه الساون *Saone* ويصب في الرون بتيار مياه راكدة جداً حتى أن عين الناظر لا تستطيع معرفة اتجاه مسير الماء فيه. كان الهيلفيتيون عند هذا الوقت يقومون بعبور هذا النهر فوق طوافات وقوارب صغيرة تم ربطها معاً بالسلاسل والحبال وحالما علم قيصر من عناصر دورياته أن قرابة ثلاثة أرباع القوات الهيلفيتية قد اجتازت النهر وأن الربع المتبقي لا يزال فوق الضفة الشرقية، غادر معسكره مع ثلاثة فيالق بعيد منتصف الليل وأصبح على تماس بالحشود الهيلفيتية التي لم تكن قد عبرت بعد. قام قيصر بمهاجمتها مباغتة في وقت كانت فيه منشغلة بالأمتعة التي أعاقت تحركها، وقضى قيصر على عدد كبير من أفراد العدو في حين فرّ الآخرون للاختباء في الغابات المجاورة.

وقد كانت قوات هذه المجموعة من الهيلفيتيين تشكل أحد الزمر الأربع التي انقسم إليها الشعب الهيلفيتي، وكانت معروفة بزمرة التيغورينيين *Tigurini*، وكان رجال هذه

الزمرة قد تركوا وطنهم بشكل مستقل عن الآخرين قبل خمسين عاماً، وبعد خوضهم للمعركة التي قتل فيها القنصل كاسيوس *Cassius* أخذوا جيشه للمرور تحت نير الخضوع. وهكذا شاءت المصادفة أو العناية الإلهية أن تكون هذه المجموعة بالذات من الهيلفيتيين والتي سبق لها أن ألحقت بروما هزيمة نكراء هي أول من يرد له الصاع صاعين. وعلى هذا الأساس، ونتيجة هذه العقوبة الشديدة التي أنزلها قيصر بالتيغورينيين، ثأر لجرح خاص كان يحس به هو نفسه، كما ثأر للجرح الذي أصابه من جراء هزيمة الهيلفيتيين لروما، لأن في تلك المعركة التي قتل فيها كاسيوس قُتل أيضاً قائد روماني آخر كان اسمه لوسيوس بيزو *Lucius Piso* جد لوسيوس بيزو الذي كان حمو قيصر (والد زوجته). ومن هنا جاء الجرح الخاص الذي أصاب قيصر بعد تلك المعركة.

وبعد أن نجح قيصر في القضاء على التيغورينيين أراد ملاحقة بقية القوات الهيلفيتية. لذا قام ببناء جسر على نهر الساون وقاد جيشه عابراً فوقه. أصاب الهيلفيتيين ذعر وهلع لا حدود لهما على أثر وصول قيصر غير المتوقع حيث أدركوا أن قيصر قد أنجز عملية عبور النهر في يوم واحد بينما أخذت منهم وبصعوبة بالغة عشرين يوماً. لذا ما كان أمامهم سوى أن يرسلوا له وفداً برئاسة ديفيكو *Divico* – الذي كان قائد الهيلفيتيين في الحملة ضد كاسيوس – لينقل إليه أن الهيلفيتيين سيتوجهون إلى أي مكان يختاره قيصر لهم إن يتم التوصل إلى سلام بينه وبينهم، لكن إن يُصر على فرض الحرب عليهم فإن عليه أن يتذكر جيداً الهزيمة التي مني بها الرومان سابقاً وما حل بهم من مأساة، وأن يتذكر ما يتحلى به الهيلفيتيون من شجاعة تقليدية. فقد قام هو بالهجوم المباغت على إحدى زمرهم في وقت لم يكن باستطاعة رفاقهم الذين سبقوهم في عبور النهر تقديم أية مساعدة لهم. والأجدر به أن لا يتخذ من هذه الحادثة ذريعة للمبالغة ببسالته الشخصية وبراعته القتالية ويستخف بهم. فهم قد تعلموا من آبائهم وأجدادهم كيف يقاتلون كرجال شجعان دون الاعتماد على الخديعة أو الحيلة، ولذلك عليه أن يكون حذراً كي لا يصبح المكان الذي يقفون فيه معروفاً للأجيال القادمة كموقع لكارثة رومانية ولدمار جيش روماني. وأجاب قيصر على ما نقله المبعوثون بأنه ليس متردداً البتة حول ما ينوي القيام به من فعل، خاصة وأنه لم ينسَ بعد الهزيمة الرومانية التي أشار إليها الوفد والتي ما يزال يمقتها أكثر فأكثر لأنهم لم يكونوا يستحقونها، فلو كان لدى الرومان في ذلك الوقت أدنى احتمال لقيام عمل ظالم ضدهم لكان من السهل عليهم اتخاذ الاحتياطات اللازمة، ولما أخذوا على حين غرة حتى أنهم كانوا بدون مفارز حراسة لأنهم كانوا يعلمون علم اليقين بأنهم لم يرتكبوا خطأً بحق أحد كي يشعروا بالخشية من أي شيء

مرتقب، وكانوا يعتقدون بأنه من غير المسوغ لهم الخوف بدون سبب. لكن حتى لو أنه رغب في نسيان الإهانة القديمة أيستطيع أن يطرد من ذاكرته إهانتهم الجديدة بمحاولتهم شق طريق لهم بالقوة عبر المقاطعة الرومانية؟ متحدّين بذلك حظره وقانونه القاضي بمنع ذلك، علاوة على الهجمات التي قاموا بها ضد الايديوويين والامباريين والألوبروجيين؟ وأضاف قيصر قائلاً: "إن النصر الذي تتباهون به بغطرسة وتعجرف والوقت الطويل الذي أفلتم فيه من العقاب على ما اقترفتموه، وكان بالفعل وقتاً طويلاً إلى حد يثير الدهشة والعجب، كلاهما يعزى لنفس السبب. فالآلهة حينما تشاء أن تجعل شخصاً يدفع ثمن جرائمه فهي غالباً ما تسمح له بالتمتع للحظات بالنجاح وتمنحه فترة طويلة من النجاة من العقاب كي يحس ربما بانقلاب حظه عندما يحل به أخيراً ويكون مترافقاً مع أعلى درجات القوة والعنف. مع ذلك، فإذا كنتم راغبين حقاً في تقديم الرهائن كضمانة على أنكم عازمون على تنفيذ مشروعكم، وتقومون بتعويض الايديوويين والألوبروجيين على ما لحق بهم من ضرر وأذى نتيجة ما فعلتموه في أقاليمهم، وتعويض حلفائهم، فإنني أوافق على إقامة السلام معكم". وأجاب ديفيكو على ذلك بالقول أن العرف التقليدي عند الهيلفيتيين هو أن يطلبوا الرهائن من الآخرين وليس أن يعطوا الرهائن للآخرين أبداً وهو أمر يعرف الرومان أسبابه جيداً وبهذا الرد غادر المبعوثون الهيلفيتيون معسكر قيصر. وفي اليوم التالي ترك الهيلفيتيون معسكرهم وهكذا فعل قيصر أيضاً، حيث أرسل أمامه جميع عناصر فرسانه، وكانوا يعدون أربعة آلاف فارس تم تجنيدها من مختلف أرجاء المقاطعة الرومانية ومن الايديولويين وحلفائهم، كي يكتشفوا وجهة تقدم الهيلفيتيين. قامت قوات الفرسان القيصرية، بتتبع مؤخرة الهيلفيتيين بحماسة متقدة وتلهف شديد واشتبكت مع الفرسان الهيلفيتيين في أوقات متفرقة وعلى أرض غير ملائمة وتكبدت بعض الخسائر القليلة. وابتهج الهيفيتيون لصدهم مثل هذه القوة الجبارة من الفرسان الرومان بالخمسمائة فارس التي كانت لديهم وطاروا تيهاً واغتراراً بأنفسهم، وتمكنوا في مناسبات عديدة من إيقاف الرومان بشجاعة خارقة وجسارة نادرة، وأظهروا تحدياً للرومان بما كان لديهم من قوات في المؤخرة. لم يرغب قيصر بإعطاء الأذن لقواته لتخوض القتال معهم حيث كان يرضيه مبدئياً منع الهيلفيتيين من القيام بأعمال السلب والنهب والتخريب في البلاد التي يمرون بها. وهكذا تابع الجيشان زحفهما بحوالي أربعة عشر يوماً، وكان لا يفصل مؤخرة جيش العدو الهيلفيتي عن طلائع القوات الرومانية أكثر من خمسة أو ستة أميال.

كان قيصر في تلك الأثناء يلح يومياً بطلب الحبوب من الايديوويين ويذكرهم بأن حكومتهم قد وعدت بتأمين المؤونة منها، لأنه نظراً لبرودة الطقس فإن سنابل القمح المنتصبة

في الحقول لم تنضج بعد وليس لدى الجيش الروماني ما يكفيه من القش والتبن لعلف الحيوانات. وكميات الحبوب التي جاء بها قيصر من الحقول المتوضعة عند أعالي نهر اسلون كانت ذات فائدة محدودة ومؤقتة لأن الهيلفيتيين انحرفوا بعيداً عن النهر ولا يريد أن يفقد اتصاله معهم. واستمر الايديوويون في تأجيل قيصر من يوم إلى يوم قائلين أنهم يجمعون الحبوب تارةً أو أنها قد شحنت وفي طريقها إليهم تارة أخرى وإلى ما هنالك من ذرائع وتبريرات. وحينما كشف قيصر أن لا نهاية لهذه المماطلة والتسويف وأن يوم توزيع المؤن والأرزاق على الجند قد اقترب دعى الزعماء الايديوويين الذين كانوا يعسكرون معه، وقد كانوا كُثراً، إلى الاجتماع به. وكان من بينهم ديفيشياكوس *Diviciacus* وليسكوس حاكمهم الرئيسي[1] *Liscus* وقام قيصر بتوجيه توبيخ شديد اللهجة لهم وبتقريعهم بشدة وعنف لإخفاقهم في تأمين المساعدة له في مثل هذه الظروف العصيبة في وقت يقف فيه العدو على مقربة منهم ومن المستحيل شراء الحبوب أو الحصول عليها من الحقول، وأشار قيصر إلى حقيقة أنه قد تولى القيام بهذه الحملة ضد الهيلفيتيين، أساساً، رداً على توسلهم إليه للتدخل لمساعدتهم. وأضاف قائلاً بعبارات أشد قسوة: "إنني أتهمكم بخيانتي نتيجة إهمالكم هذا".

حركت كلمات قيصر أخيراً مشاعر ليسكوس واستحثته نحو التحدث بصراحة ووضوح وإسقاط كل تكتم وتستر، فقال: "هناك في دولتنا عددٌ من الشخصيات المتميزة التي تمارس على جماهير العامة تأثيراً كبيراً، وتتمتع بسلطة ونفوذ أقوى من سلطة ونفوذ الحكام أنفسهم. هؤلاء هم من يثيرون مخاوف الناس بما يلقونه عليهم من خطب تحريضية وعدائية كي يمنعوهم من إحضار الحبوب المتفق عليها. كما أنهم يحاولون إقناع الناس بأنه إن لم يكن بمقدور الايديوويين المحافظة على سيادتهم في بلاد الغال فالأفضل لهم اتخاذ غاليين ليكونوا سادة عليهم وليس روماناً. ويقولون أيضاً إنهم واثقون ومتأكدون من أنك إذا هزمت الهيلفيتيين فإنك تنوي سلب الايديوويين من حريتهم، شأنهم في ذلك شأن بقية الغاليين. وهؤلاء الأفراد أنفسهم هم من يقوم باستمرار بإعلام العدو بخططك وبكل ما يجري في المعسكر الروماني، وليست لدي السلطة كي اضبط تصرفاتهم، ولربما تتساءل لماذا انتظرت إلى هذا الوقت لأنقل إليك هذه المعلومات وهذه الحقائق – إنني بفعلي هذا الآن أدرك بأنني أقوم

(١) كان يدعوه الايديوويون باسم الفيرغوبيرت *The Vergo bert* وهو ضابط ينتخب سنوياً له سلطة الحياة والموت على أبناء بلده.

بمجازفة خطيرة جداً، وهذا هو السبب الذي جعلني ألجم لساني أطول وقت ممكن، إلى أن أحسست أخيراً بأنني لم أعد أطيق الكتمان وأنه أصبح لزاماً علي إطلاعك على حقيقة الأمر.

أدرك قيصر أن من يلمح إليه ليسكوس هو شقيق ديفيشياكوس دومنوريكس *Dumnorix*. ولما لم يرغب قيصر بمناقشة الموضوع بوجود عدد من الحاضرين الآخرين فض الاجتماع مباشرة وطلب من ليسكوس البقاء في المجلس بعد انصراف الآخرين وحينما أصبحا لوحدهما سأله قيصر عما قاله في الاجتماع، فأخذ ليسكوس يتحدث بحرية أكثر وبثقة أكبر. وعندما وجه قيصر نفس الأسئلة للآخرين على انفراد وجد أن ما أفاد به ليسكوس كان صحيحاً وصادقاً، وكان دومنوريكس هو بالفعل الرجل الذي أشار إليه ليسكوس. ودومنوريكس هذا رجل يتمتع بشجاعة فذة وجرأة لا حدود لها، وله شعبيته القصوى بين صفوف الجماهير نظراً لما يتصف به من ليبرالية وسخاء وتسامح وسعة عقل، إضافة إلى أنه ثوري لامع يتقد حماسة وغيرة. وكان قد اشترى لعدة سنوات، وبسعر زهيد، حق جمع ضرائب الأنهار وضرائب الايديويين الأخرى لأنه حينما عرض سعره في المزاد العلني لم يتجرأ أحدٌ على عرض سعر آخر ضده. واستطاع بهذه الطريقة الحصول على ثروة طائلة، وجمع موارد هائلة، ينفقها في أعمال الرشوة. ولديه قوة ضخمة من الفرسان تعمل تحت تصرفه وتقوم بخدمته والعناية به. ولا تقتصر سلطته على أبناء بلاده فحسب إنما تمتد إلى القبائل المجاورة – ولكي يعمق هذه السلطة ويزيد من نفوذه قام بترتيب زواج أمه من أحد النبلاء ذوي النفوذ البيتوريجين *Bituriges*، وكانت زوجته هو من الهيلفيتيين. وقام بتزويج أخته – غير شقيقته – وبعض قريباته الأخريات لرجال ذوي شأن من قبائل أخرى. واعتماداً على ارتباطه الزوجي فقد كان مناصراً متحمساً للهيلفيتيين، وكانت لديه أسباب لكراهية قيصر وسائر الرومان. فوصولهم إلى غاليا قد أضعف من سلطته ونفوذه وأعاد أخيه ديفيشياتوس إلى مركزه السابق بين الأشراف وذوي النفوذ. وهو يشعر بالثقة أنه إن تقع كارثة للرومان فإن العرش سيصبح في قبضته بمساعدة الهيليفيتيين، في حين إن يتولى الرومان أمر غاليا فإن ذلك سيعني بالنسبة له ضياع أي أمل في المحافظة على مكانته الحالية أو في جعل نفسه ملكاً. وعلم قيصر من خلال استقصاءاته أيضاً أنه عندما هزم الهيلفيتون فرسان قيصر قبل بضعة أيام كان دومنوريكس والفرسان الايديويين الموضوعين تحت إمرته، والذين أرسلوا لمساعدة قيصر من قبل السلطات القبلية، هم أول من ولى الأدبار أمام الهيلفيتيين ومن دفع بقية الفرسان لفقدان رباطة جأشهم وشجاعتهم.

وتأكدت الشكوك التي أثارها هذا الكشف الفاضح للحقائق بعدة أدلة ثابتة. فدومنوريكس قد أمن للهيلفيتيين طريقاً عبر الأراضي السيكوانية، ورتب عملية تبادل

الرهائن بينهما. وقد فعل دومنوريكس ذلك بدون موافقة قيصر أو استشارته وبدون موافقة الحكومة الايديوية أو حتى إعلامها وإعلام قيصر بذلك. والحاكم الرئيسي في القبيلة شجب هذا التصرف من قبل دومنوريكس بشدة لذا قرر قيصر، بناءً على ما توفر لديه من المعطيات، أن ما لديه من الأسباب الوجيهة والمسوغات المقنعة كافياً لقيامه بمعاقبة دومنوريكس سواء بنفسه شخصياً أو بتكليف أبناء قبيلته لفعل ذلك. إلا أن المانع الوحيد الذي وقف حيال تنفيذه لهذا الأمر كان معرفته لديفيشياكوس شقيق دومنوريكس بوصفه مناصراً متحمساً للمصالح الرومانية وصديقاً طيباً جداً له شخصياً ورجلاً عُرف بولائه ووفائه النادر وتحليه بالاعتدال ورجاحة العقل والبعد عن الغطرسة والتحيز، لذا كان قيصر يخشى أن يشعر ديفيشياكوس بالاستياء والغضب في حال تم تنفيذ حكمٍ بالإعدام بأخيه. ولذلك أرسل قيصر، قبل أن يقوم بأي تصرف أو إجراء، خلف ديفيشياكوس للاجتماع به. وبعد أن طلب من المترجمين المرافقين إخلاء المكان تحدث إليه بمساعدة غيوس فاليريوس تروسيللوس *Gauis Valerius Troucillus* أحد أبرز وألمع الرجال في غاليا وصديق حميم لقيصر وموضع ثقة كبيرة، وسرد قيصر على مسامع ديفيشياكوس ما كان قد نُقل إليه عن أخيه دومنوريكس وما قاله الآخرون عنه في الاجتماع، وأطلعه على ما أفاده به أشخاص كثيرون التقى بهم على انفراد ورجاه بحرارة أن لا يشعر بالامتعاض أو الغضب بل أن يقبل بعد سماعه للقضية بنفسه إصدار حكمه بأخيه دومنوريكس أو أن يعطي تعليماته اللازمة للايديويونيين لفعل ذلك. انفجر ديفيشياكوس بالبكاء وعانق قيصر وتوسل إليه أن لا يتعامل مع أخيه بقسوة شديدة وقال: "أنا أعرف أن كل الادعاءات والمزاعم التي وجهت ضد أخي صادقة وليست محل شك وما من أحد يأسف على ذلك أكثر مني، لأنني حينما كنت أتمتع بالسلطة والنفوذ في بلدي وفي بقية أنحاء بلاد الغال، في وقت كان فيه شقيقي دومنوريكس لا يزال أصغر من أن يكون له نفوذ أو تأثير، كنت أنا من أنشأه ورباه على العظمة، وكل الثروات والسلطة التي اكتسبها بناءً على ذلك يقوم هو الآن باستخدامها ليس لإضعاف مركزي فحسب بل لتحطيمي والذهاب بي إلى الدمار. لكن مع ذلك فهو شقيقي، وبغض النظر عن مشاعري وأحاسيسي الخاصة فإنني لا أستطيع أن أكون ذا رأي مغاير للرأي العام وأقف موقفاً مخالفاً، ففي حال اتخاذك لإجراءات صارمة وحازمة بحق دومنوريكس سيظن الملأ نظراً لما تربطنا من علاقات صداقة وود، بأنني أنا من يرغب بذلك وبالتالي سأفقد كل شعبيتي في شتى أرجاء البلاد". كان يحاول ديفيشياكوس الاستمرار في مناشدة قيصر لوقت أطول والدموع تنهمر من عينيه حينما أمسك قيصر بيده وأكد أن مناشداته والتماسته بشأن شقيقه مستجابة، وطلب

منه أن يكف عن قول أي شيء آخر. فقال قيصر: "إن احترامي لك يا ديفيشياكوس لشديد جداً بحيث يجعلني اغتفر لأخيك ما سببه من ضرر للمصالح الرومانية وأتغاضى عن أفعاله وازدرد غضبي وسخطي وهي أمور لطالما تمنيتها أنت ورجوتني بحرارة أن أفعلها". وقام قيصر حينئذ باستدعاء دومنوريكس، وبحضور أخيه ديفيشياكوس عبر له عن أسباب شكواه من تصرفاته ذاكراً على مسامعه المعلومات التي كان قد تلقاها والاتهامات الموجهة إليه من قبل حكومته بالذات. وأنذروه أن عليه من الآن فصاعداً تجنب القيام بأي تصرفات تثير الشكوك أو الشبهات وأنه سيتغاضى عما مضى من أجل خاطر أخيه. لكن مع ذلك وضع قيصر دومنوريكس تحت المراقبة كي يتأكد مما يفعل ومع من يتحدث.

ونقلت الدوريات في ذلك اليوم بالذات خبراً إلى قيصر مفاده أن الهيلفيتيين قد توقفوا عند سفح هضبة تبعد ثمانية أميال عن المعسكر الروماني. ولذلك قام قيصر بإرسال مفرزة من قواته لاستطلاع الهضبة ورؤية إمكانية الصعود إليها من الجهة الثانية وأفاد المستطلعون بأن ذلك في غاية السهولة. وبعد منتصف الليل بقليل شرح قيصر خطته للابينوس *Labienus* – ثاني رجل بالقيادة – وانتقاه هو نفسه للقيام بمهمة الصعود إلى القمة مع فيلقين من القوات مصطحبين معهم كمرشدين العناصر التي قامت باستطلاع المكان. وخلال الساعات الأولى من الصباح زحف قيصر نفسه باتجاه العدو سالكاً الطريق الذي كانوا قد سلكوه ومرسلاً كل قوات الفرسان لديه للزحف أمامه. وكانت قد سبقتهم إلى المكان دورية بقيادة بوبليوس كونسايديوس *Publius Considius* الذي كان يتمتع بسمعة عالية كجندي من الدرجة الأولى، وكان قد خدم تحت قيادة سولا *Sulla* وخدم في وقت لاحق تحت قيادة كراسوس *Crassus*. مع مطلع الفجر كان لابينوس قد استولى بالفعل على قمة الهضبة، في حين أصبح قيصر على بعد ميل ونصف فقط من معسكر العدو. وعلم في وقت لاحق من الأسرى الهيلفيتيين أن اقترابه من المعسكر الهيلفيتي لم يُلاحظ من قبل أحد منهم كما أنهم لم يلاحظوا استيلاء لابينوس على القمة.

لكن الذي حدث هو أن كونسايديوس جاء إلى قيصر فجأة عدواً على فرسه ليقول له إن الهضبة التي أرسل لابينوس لاحتلالها مستولى عليها من قبل العدو، وأنه قد عرف ذلك اعتماداً على تمييزه للأسلحة الغالية التي بحوزتهم وريش خوذهم. فانسحب قيصر اعتماداً على ذلك إلى هضبة مجاورة وشكل قواته ضمن خط المعركة. وكان لابينوس قد أعطي التعليمات بأن لا يشتبك مع العدو إلا عندما يرى أن قوة قيصر قد أصبحت على مقربة من معسكره، وذلك كي تتم مهاجمة الهيلفيتيين من كل الجهات وبوقت واحد. وقام لابينوس بعد احتلاله

لقمة الهضبة بانتظار ظهور قيصر دون إبداء أي استعداد ظاهر للقتال. ولم يعلم قيصر بحقيقة هذا الوضع من دورياته إلا في وقت متأخر جداً من ذلك اليوم أي أن من يحتل الهضبة هم الرومان وليس الهيلفيتيين. وعلم أيضاً أن الهيلفيتيين قد نقلوا معسكرهم إلى مكان آخر وأن كونسايديوس قد فقد عقله حينما أفاد بأنه قد شاهد فوق الهضبة ما لم يكن هناك يُشاهد. وتعقب قيصر خلال ذلك اليوم خطى زحف العدو ضمن السرعة العادية، وأقام لنفسه معسكراً على بعد ثلاثة أميال من معسكرهم.

ولما كان توزيع المؤن والأرزاق على الجند سيستحق خلال يومين من الزمن، ولما كان قيصر لا يبتعد سوى سبعة عشر ميلاً عن بيبراكت *Bibract* – أكبر المدن الايديووية وأعظمها غنى وثراء – فقد فكر أن من المستحسن تأمين مؤونته من الطعام والغذاء مستفيداً من ناحية قرب المكان ولذلك انحرف مع قواته بعيداً عن الطريق الذي كان يسلكه الهيلفيتيون وسار باتجاه مدينة بيبراكت. ونقل خبر تحركات قيصر إلى العدو بواسطة بعض العبيد الفارين التابعين للوسيوس اميليوس *Lueius Aemilius* قائد فرسان قيصر الغاليين. وربما ظن الهيلفيتيون بأننا نقطع اتصالنا معهم نتيجة خوفنا منهم خاصة وأننا تجنبنا الاشتباك معهم في اليوم السابق على الرغم من امتلاكنا لميزة الموقع الأفضل، أو ربما كانوا على ثقة بأنهم قادرون على عزلنا عن طريق الإمداد بالمؤن، على أية حال بدل العدو خطته وغير اتجاه زحفه وشرع بمناوشة مؤخرة قواتنا ومضايقتها بإغارات متكررة وبعد أن لاحظ قيصر ذلك قام بالانسحاب إلى هضبة مجاورة وبإرسال عناصر فرسان لمواجهة إغارات العدو. كما قام في غضون ذلك بتشكيل فيالقه الأربعة المؤلفة من محاربيه ذوي الخبرة والتمرس ضمن ثلاثة خطوط انتشرت إلى أعلى منتصف الهضبة، وركز الفيلقين الذين تم تجنيدهما مؤخراً في إيطاليا فوق قمة الهضبة ملحقاً بهما عناصر القوات الإضافية الأخرى كافة، وبهذا أصبح منحدر الهضبة فوقه مغطى بالقوات بأكمله وأصدر قيصر أوامره بأن تجمع الأمتعة والصناديق كافة في مكان واحد، وأن تحفر حولها خنادق دفاعية بواسطة المحاربين المتمركزين في الخط العلوي، أما الهيلفيتيون الذين كانوا يتتبعوننا بكل ما لديهم من وسائط نقل فقد توقفوا الآن جميعاً وشكلوا كتيبة بعدها صدوا فرساننا بخط معركة ترتب الجند بموجبه بصفوف متراصة جداً وتسلقوا الهضبة نحو خطنا الأول.

وأمر قيصر أن ترسل جميع الخيول وعلى رأسهم جواده هو نفسه بعيداً عن الأنظار كي تكون مواجهة الخطر بالنسبة للجميع متساوية، وكي لا تتاح الفرصة لهرب أي واحد من المقاتلين. ثم ألقى برجاله خطبة حماسية وتوجيهية وانضم إلى المعركة. وتمكنت القوات من

خلال رمي الرماح من موقعها المسيطر والمشرف على قوات العدو من الأعلى من تبديد صفوف الكتيبة وتفريق عناصرها، ومن ثم استلت قوات قيصر سيوفها وأخذت بمهاجمة العدو. وكان أكثر ما أعاق حركة الغاليين هو أن الرمح الواحد من رماح قوات قيصر المرمى من موقعها المهيمن، غالباً ما كان يخترق أكثر من ترسٍ واحدٍ من تروس العدو المتشابكة ويغرزها معاً. ولما كان حديد هذه الرماح مصمماً على نحو يجعلها تلتوي حين اختراقها للتروس فقد كان من غير الممكن لهم سحبها من تروسهم. وبهذه الطريقة أعيقت الأذرع اليسرى للمقاتلين الهيلفيتيين عن الحركة الأمر الذي جعل من المستحيل عليهم خوض غمار القتال بالشكل اللائق. ولذلك فضل كثيرون منهم بعد قيامهم بمحاولات متكررة لتحرير أذرعهم من تروسهم المصابة إلقاء تروسهم جانباً ومتابعة القتال دون أية حماية لأجسادهم. وفي نهاية المطاف أتعبتهم الجراح وأخذوا بالتراجع نحو هضبة تبعد قرابة ميل واحد وكانت عناصر العدو قد احتلت الهضبة لتوها وكان رجالنا يقتربون لطردهم منها حينما زحف، وعلى نحو مباغت، خمسة عشر ألف عنصر من البويين *Boii* والطولنيجيين *Tulingi*، الذين كانوا يقومون بحماية مؤخرة رتل العدو، نحو أعلى الهضبة التي تسيطر عليها قواتنا وبدؤوا بمهاجمة ميمنتنا والالتفاف حولنا. وشرع الهيلفيتيون الذين عادوا إلى الهضبة من جديد، بناء على هذا التطور، بالضغط على قواتنا الأمامية وتجديد المعركة. قمنا بتبديل قوات المقدمة لدينا وبالتقدم ضمن فرقتين، حيث كانت مهمة قوات الخط الأول والثاني مواجهة الهيلفيتيين الذين كنا لتونا قد دحرناهم على أعقابهم، وكانت مهمة الخط الثالث التصدي للقوات التي تصل إلى المكان مجدداً.

كانت هذه المعركة المزدوجة طويلة ومريرة. وعندما لم يعد بإمكان الهيلفيتيين تحمل الهجمات الرومانية استأنفوا التراجع نحو أعلى هضبتهم في حين تقدم البويون والطولنجيون إلى المعسكر الذي كدس الرومان فيه أمتعتهم لمتابعة القتال. ولم يشاهد أي رجل منهم خلال مختلف مراحل هذه المعركة، والتي دامت من منتصف النهار حتى المساء، في حالة فرار.. واستقر القتال عند معسكر الأمتعة عملياً وفعلياً حتى وقت متأخر من الليل، وذلك لأن العدو كان قد أقام متراساً من العربات وأخذ يصب قذائفه نحو الأسفل باتجاه كل من يحاول الاقتراب منه. وتمكن بعض عناصر العدو من إصابة رجالنا بجراح بواسطة ما رموه نحوهم من رماح قصيرة وطويلة من بين صف العربات وعجلات العربات. وبعد قتال دام طويلاً استطعنا الاستيلاء على المعسكر والأمتعة التي كان يحتويها واسر ابنة أورجيتوريكس وواحد من أبنائه. أما المائة والثلاثين ألفاً من الهيلفيتيين الذين نجو من الموت في المعركة أو الأسر فقد

سـاروا طـوال تلـك الليلـة وبـدون توقـف حتـى وصـلوا بعـد ثلاثـة أيـام إلى بـلاد اللينجـونيين *Lingones*، ولم يكـن باسـتطاعة قواتنـا ملاحقـتهم مباشـرة لأننـا قضـينا هـذه الأيـام الثلاثـة بالعناية بـالجرحى ودفـن القتلى. إلا أن قيصـر بعـث برسـالة إلى اللينجـونيين يحـذرهم فيهـا مـن تزويـد الهيلفيتـيين بـالحبوب أو مساعدتهم بـأي أسـلوب أو طريقـة تحـت طائلـة اعتبـارهم أعـداءً ومعاملتهم على هذا الأساس. وبعد أيام شرع قيصـر بمطاردة الهيلفيتيين بكامل جيشه.

وأجبر الهيلفيتيون تحت وطـأة الحاجـة إلى كافـة أنـواع المؤن علـى إرسـال مبعـوثين إلى قيصـر ليعرضـوا عليـه استسـلامهم. وقابل هـؤلاء المبعوثـون قيصـر أثنـاء زحفـه نحـوهم، وقـاموا بالركوع أمامه متضرعين إليه، ودموع التوسل تمـلأ أحداقهم، أن يمنحهم السلام.

أمر قيصـر الهيلفيتيين عندئذ عـن طريق مبعـوثيهم، أن لا يبرحـوا المكـان الـذي هـم فيـه حتـى وصـوله إلـيهم، ورضـخ هـؤلاء لأمـره وحـين وصـوله طلـب مـنهم تقـديم الرهـائن وتسـليم أسـلحتهم والعبيـد الـذين فـروا إلـيهم. وأثنـاء جريـان البحـث عـن الأسـلحة والعبيـد وجمعهـا مـن مختلف أرجاء المعسـكر الهيلفيتي ترك المعسـكر ستة آلاف رجل من العشيرة التي كانت تعـرف باسـم الفيربيجينـيين *Verbigeni* خـلال السـاعات الأولى مـن الليـل وانطلقـوا نحـو الحـدود الجرمانية على نهر الراين وقد تصرف هؤلاء على هذا النحو تخوفاً من أن يقوم قيصـر بذبحهم بعد أن يتخلوا عن أسلحتهم، أو أنه كان يحذوهم الأمل بالنجاة مـن العقوبة كلية معتقـدين أن بإمكـانهم الفـرار دون ملاحظـة أحـد لهـم ضـمن مثل هـذا الحشـد الهائل مـن الأسـرى، أو أن الرومان قد لا يعلمون بخبر مغادرتهم على الإطـلاق غير أن الخبر وصـل إلى مسـامع قيصـر علـى الفور فقام بتوجيه رسائل إلى القبائل التي سيمر هـؤلاء الهاربون بأراضيها وطلب منهـا التفتيش عنهم ومطـاردتهم أينمـا كـانوا وإحضـارهم إليـه، وإلا فإنـه سيعتبرهم مسـؤولين عـن إفلاتهـم. وحين تمت إعادتهم إلى قيصر قام بإعدامهم. أما الباقون فقد سمح لهم بالاستسـلام بعد تسـليم الرهـائن والفـارين والأسـلحة وصـدر أمـر قيصـر إلى الهيلفيتـيين والطـولينجيين والاتوفيسـيين *Aatovici* والروراسـيين *Rauraci* بـالعودة إلى أوطـانهم لكـن لمـا كانـت كـل محاصـيلهم الزراعية قد ذهبت هدراً إلى درجة أنه لم يتبق لهم في بلادهـم مـا يعيشـون عليه فقـد أمـر قيصـر الألـوبروجين *Allobroges* بتزويـدهم بـالحبوب، وأمـر الهيلفيتـيين أنفسـهم بإعـادة بنـاء مـدنهم وقراهم التي كانوا قد أحرقوها قبل رحيلهم عنها. وكان مبرر قيصر لفعله ذلك رغبته في عدم إبقـاء بلادهـم الـتي تخلـوا عنهـا خاليـة مـن السـكان كـي لا يسـتحث الجرمـان عبر نهـر الـراين للهجرة إلى سويسـرا تغريهم في ذلك خصوبة التربة، وبذلك يصبحون جيراناً قـريبين مـن المقاطعـة الرومانية، وبشكل خاص من الألوبوجيين. وأعطى البوويون *Boii* وطناً لهم في بلاد الايـديوويين

Aedui الذين طلبوا من قيصر الموافقة على هذا الترتيب لأن البوويين كانوا معروفين على أنهم شعب ذو بسالة استثنائية وشجاعة خارقة. وخصص الايديوويون أرضاً للبوويين ومنحوهم في وقت لاحق المساواة في الحقوق والحريات مع أنفسهم.

عثر في المعسكر الهيلفيتي على بعض الوثائق التي تم إحضارها إلى قيصر. وكانت مكتوبة بحروف إغريقية، واحتوت على سجل بأسماء المهاجرين كافة القادرين على حمل السلاح. كما تضمنت، تحت عناوين منفصلة، قوائم بأسماء الشيوخ والنساء والأطفال، وكان العدد الإجمالي (٣٦٨) ألفاً، اشتمل على (٢٦٣) ألفاً من الهيلفيتيين و(٣٦) ألفاً من الطولينجيين و(١٤) ألفاً من اللاتوفيسيين و(٢٣) ألفاً من الروراسيين و(٣٢) ألفاً من البوويين وتشكلت قائمة الرجال اللائقين للخدمة العسكرية من (٩٢) ألفاً وبناء على طلب قيصر أجري إحصاء لأولئك الذين عادوا إلى الوطن وكان عددهم (١١٠) ألفاً.

٢- طرد اريوفيستوس من غاليا (٥٨ ق.م)

عند اختتام الحملة الهيلفيتية توجه زعماء القبائل من مختلف أنحاء غاليا إلى قيصر لتقديم التهاني له على نجاحه. وقالوا إنهم يدركون أن دافع قيصر لمقاتلة الهيلفيتيين كان عقوبة لهم على ما تسببوا به من ضرر سابق لروما بالدرجة الأولى، إلا أن ما حدث كان لمصلحة الغاليين وفائدتهم بقدر ما كان لمصلحة وفائدة الرومان، حيث أن نسبة الهيلفيتيين من وراء تخليهم عن وطنهم في وقت ينعمون فيه بالازدهار والرفاهية كانت شن الحرب على كامل غاليا كي يصبحوا أسياداً عليها وبالتالي كي تصبح بلاد الغال برمتها في أيديهم وتحت تصرفهم ومن ثم يختارون منها الجزء الذي يعتقدون بأنه الأكثر خصوبة وملائمة لاستيطانهم، وكذلك لإجبار القبائل الأخرى على دفع الضريبة لهم. وطلب المندوبون الغاليون من قيصر السماح لهم بتحديد يوم لعقد اجتماع غالي عام قائلين إن هناك جملة طلبات يودون رفعها إليه عند موافقة الجميع عليها. وبعد أن أعطى قيصر موافقته على عقد ذلك الاجتماع حددوا موعداً لذلك وأقسم الواحد منهم للآخر أن لا يفشي ما سيتضمنه جدول أعمال ذلك الاجتماع دون الحصول على الإذن الخاص بذلك.

وبعد أن انعقد الاجتماع واختتم أعماله عاد إلى قيصر شيوخ القبائل الذين كانوا معه قبل قليل في الاجتماع ليطلبوا منه السماح لهم بمقابلته شخصياً وعلى انفراد وفي مكان منعزل عن الملاحظة لمناقشة مسألة لا تتعلق بمصلحتهم الشخصية فحسب بل تخص مصلحة سائر الغاليين في كل أنحاء غاليا. وحينما منحهم قيصر الموافقة على مقابلته سجدوا أمامه والدموع

تملأ عيونهم وشرحوا له أنهم في غاية الحرص على منع ما سيطلعونه عليه من التسرب إلى أي كان، وهو أمر هام بالنسبة لهم بقدر ما هو هام حصولهم على المطلب الذي جاؤوا إلى قيصر من أجله. وذلك لأن إفشاءه سيجلب عليهم أقسى أنواع العقاب، وكان المتحدث باسمهم الايديووي ديفيشياكوس، حيث قال إن الغاليين ينقسمون إلى فريقين: الأول يهيمن عليه الايديوويون *The Aedui*، والثاني الأرفيرينون *The Arverni* وبعد صراع مرير على السيادة دام لسنوات عديدة استأجر الآفيرينون والسيكوانيون بعض المرتزقة الجرمان ليقوموا بمساعدتهم على حسم الصراع وذلك في الأعوام الواقعة ما بين (٧٠ ق.م و٦٥ ق.م). وعبرت أول مجموعة من هؤلاء نهر الراين وكانت تتألف من خمسة عشر ألفاً لكن بعد أن استساغ هؤلاء الهمجيون البربر طعم العيش في غاليا نظراً لخصوبة أرضها ورفاهة الحياة فوق ربوعها. استقدموا مجموعات أخرى منهم حتى وصل عددهم الحالي إلى قرابة مائة وعشرين ألفاً في شتى أنحاء غاليا. وقاتل الايديوويون وسائر القبائل التي تدور في فلكهم هؤلاء الجرمان أكثر من مرة وقاسوا هزائم مشؤومة وفقدوا بسببها كل النبلاء من مواطنيهم وأعضاء مجالسهم وفرسانهم. وقد قوضت هذه النكبات السيادة التي كانوا يحتفظون بها في غاليا عبر السنين الماضية من خلال ما عرفوا به من شجاعة شخصية ومن خلال روابط وعلاقات المودة وحسن الضيافة التي كانت بينهم وبين الرومان. كما أنهم أجبروا على تسليم مواطنيهم الأكثر تميزاً كرهائن إلى السيكوانيين، وألزموا بتقييد أنفسهم بحلفان اليمين على عدم قيامهم بأية محاولة لاسترجاعهم وعدم التماس المساعدة من روما والخضوع إلى الأبد دون اعتراض السلطة المطلقة للفاتحين وأضاف المتحدث قائلاً: "أنا شخصياً الوحيد من كل الأمة الايديووية الذي لم يكن بالإمكان إقناعه بالإدلاء بالقسم أو بالرضوخ لتقديم أولاده رهائن. وهذا هو السبب الذي اضطرني للهروب من بلدي والذهاب إلى روما لطلب المساعدة من مجلس الشيوخ، لأنني كنت الوحيد الذي لم يلزم أو يقيد بقسم اليمين أو تقديم الرهائن". وتابع المتحدث يقول إن المصير الأسوأ قد أصاب السيكوانيين المنتصرين أيضاً وليس الايديوويين المغلوبين فقط، حيث أن الملك الجرماني آريوفيستوس *Ariovistus* قد استوطن في إقليمهم واستولى على ثلث أراضيهم وهي الأفضل والأخصب في كل غاليا. وهو الآن يصدر لهم أوامره بالجلاء عن ثلث آخر من أراضيهم لأن أربعة وعشرين ألف رجل من الهاروديين *Harudes* قد انضموا إليه منذ بضعة أشهر مضت. وكان عليه إيجاد وطن لهم للإقامة فيه، وخلال بضعة سنوات قادمة سيكون كل سكان غاليا قد نفيوا عن وطنهم وكل الجرمان قد هاجروا عبر الراين، حيث لا يمكن إجراء مقارنة بين التربة الجرمانية وتلك الغالية أو بين مستوى معيشة الجرمان ومستوى معيشة

الغاليين. وبعد انتصار وحيد حققه اريوفيستوس على القوات الغالية المتحدة في آدماجيتوبريقا *Admagetobriga* عام (٦١ ق.م) كشف عن نفسه كطاغية متوحش وديكتاتور متغطرس، إذ أخذ يستدعي بعد ذلك أولاد من علت منزلتهم وارتفع مقامهم من أبناء البلاد كرهائن لينزل بهم أقسى أنواع العذاب ويضرب بهم مثلاً للآخرين إن لم تتم الاستجابة الفورية لأية رغبة أو لذة كان يشير إليها مجرد الإشارة. لقد برهن اريوفيستوس على أنه بدائي وهمجي بكل ما في هاتين الكلمتين من معنى عنيد ومزاجي ولم يعد بالإمكان تحمل طغيانه واستبداده أكثر من ذلك. وعلى هذا الأساس إن يمتنع قيصر والرومان عن تقديم العون اللازم للغاليين، فسيكون لزاماً عليهم التصرف على نحو ما تصرفه الهيليفيتيون أي مغادرة منازلهم وترك أوطانهم والبحث عن مكان آخر يقطنون فيه يكون بعيداً كل البعد عن الجرمان ويأخذون فرصتهم في مواجهة أي مصير قد يكتب لهم. واختتم المتحدث سرده هذا بالقول: "إنه لو تصل كلماتي هذه إلى مسامع اريوفيستوس فإنه لاشك سيقرر إنزال أبشع العقوبات الهمجية بحق الرهائن المنضوية تحت سيطرته. غير أن شأنك العظيم ومقامك الجليل والانتصارات الأخيرة بجيشك والرعب من الاسم الروماني تتكفل بردعه عن جلب مجموعات جرمانية جديدة إلى غاليا وتستطيع حماية غاليا من أعمال النهب والسلب التي يقوم بها في مختلف أرجائها".

ما كاد ديفيشياكوس ينهي حديثه حتى أخذ كل أعضاء الوفد والدموع تنهمر من عيونهم بالتوسل إلى قيصر لمساعداتهم، ومما استرعى انتباه قيصر على كل حال كان أن الممثلين السيكوانيين في الوفد لم يتصرفوا على نحو ما تصرفه البقية إنما نكسوا رؤوسهم في اكتئاب وغم، وأبقوا عيونهم ثابتة النظر إلى الأرض. فسألهم قيصر بعد أن انتابته الدهشة عن سبب تصرفهم هذا، لكنهم ودون تقديم أي توضيح استمروا على النحو نفسه في حالة من الحزن الصامت. وبعد أن كرر قيصر عليهم السؤال مراراً دون التمكن من الحصول على أي كلمة منهم، عاد ديفيشياكوس للحديث ثانية إذ قال مفسراً موقفهم أن السيكوانيين هم الأكثر أسى وبؤساً من البقية لأنهم الوحيدون الذين لا يتجرؤون ولو سراً على الشكوى أو التذمر أو حتى التماس الإنصاف لأنفسهم، فهم يقبعون تحت سقف الخوف من همجية ووحشية اريوفيستوس حتى حينما يكون بعيداً عنهم، ودرجة خوفهم منه تبقى على حالها كما لو أنهم يقفون في حضرته. ففي حين يستطيع الآخرون، مهما تكن الظروف، الهروب بعيداً عن متناول يده إلا أن السيكوانيين لطالما فسحوا المجال له ليكون في وسطهم وسمحوا لمدنهم بالرضوخ لسيطرته ونفوذه فإنه يترتب عليهم الخضوع لأي أعمال وحشية أو شريرة أو فظيعة يختار اريوفيستوس القيام بها ضدهم.

بعد تلقي قيصر لهذه المعلومات عاد وطمأن الغاليين ووعد بأن يهتم بالأمر، مضيفاً أنه يعلق أملاً كبيراً في حل المسألة على الامتياز الذي كان قد أمّنه قيصر لأريوفيستوس أولاً، وعلى حجم نفوذه ووزن سلطته هو شخصياً ثانياً، وهما عاملان سيدفعانه نحو وقف أعماله الاضطهادية ومظالمه ثم فض قيصر الاجتماع. كانت هناك جملة اعتبارات أخرى علاوة على ما كان قد أخبر به أقنعته بضرورة مواجهة هذه المشكلة وبإلحاح اتخاذ إجراء ما إزاءها. وكان أكثر هذه الاعتبارات أهمية هي حقيقية أن الاديوويين، الذين غالباً ما دعاهم مجلس الشيوخ الروماني "بأشقاء وأقرباء الشعب الروماني" في حالة استبعاد وخضوع من قبل الجرمان وأن الرهائن الايديوويين في أيدي اريوفيستوس والسيكوانيين، الأمر الذي اعتبره قيصر بالنظر لسلطة روما العظيمة وقوتها الجبارة عاراً عليه شخصياً وعلى بلاده.

إضافة إلى ذلك فإن يعتاد الجرمان عبور الراين تدريجياً ودخول غاليا بأعداد ضخمة فإن الخطورة التي ستنجم عن ذلك على الرومان كبيرة جداً. وهذا أمر يدركه قيصر تماماً. وإذا احتل هؤلاء البربر كامل غاليا فإن الإغراء سيكون قوياً جداً بالنسبة لهم ليعبروا الحدود إلى المقاطعة الرومانية، على نحو ما فعل السيمبريون *The Cimbri* والتوتوتيون *The Toutoni* من قبلهم ما بين (١٠٩ و١٠١ ق.م) ومن ثم ليزحفوا إلى إيطاليا، والسبب في ذلك هو أن المقاطعة الرومانية تتوضع جغرافياً عبر الرون *Rhone* مباشرة من جهة إقليم السيكوانيين. واعتقد قيصر أنه يجب اتخاذ الإجراءات اللازمة والعاجلة لمواجهة هذا الخطر. أضف إلى ذلك أن اريوفيستوس نفسه يتصرف بغطرسة وغرور وبازدراء للآخرين لا يمكن احتمالها أبداً.

قرر قيصر بناءً على ذلك إرسال مبعوثين إليه ليطلبوا منه اختيار مكان لمؤتمر ينعقد بينهما يكون في نقطة ما بين مواقعهما الحالية. حيث يود مناقشة قضية تهم الدولة على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لكل منهما.

كان جواب اريوفيستوس لوفد قيصر على الشكل التالي: "إنني حينما أريد شيئاً من قيصر فإنه يتوجب عليّ الذهاب إليه، وعلى هذا الأساس، فإنه حينما يريد قيصر شيئاً مني فإنه يتوجب عليه المجيء إلي. وأضاف أنه لا يجرؤ على المجيء إلى ذلك الجزء الذي يحتله قيصر من غاليا بدون حماية جيشه وأن استنفار جيشه لإنجاز هذه المهمة سيعني بالنسبة له القيام بترتيبات معقدة وعسيرة من أجل تزويده بالمؤن. كما وأنه لا يستطيع أن يتخيل أي شأن لقيصر أو للرومان أجمعين في ذلك الجزء من غاليا الذي يعتبر له بحكم الفتح.

أرسل قيصر سفارة أخرى عند ذلك ليذكر اريوفيستوس بالامتياز الهام الذي منح إليه من قبله شخصياً ومن قبل الحكومة الرومانية وليذكره أيضاً أنه خلال فترة قنصلية قيصر

عام (٥٩ ق.م) تسلم من مجلس الشيوخ الروماني لقب "الملك" ولقب "الصديق". وعلى اعتبار أن أسلوبه في إظهار اعترافه بالجميل كان رفضه دعوة لحضور مؤتمر بينه وبين قيصر لمناقشة مسائل تتعلق بالمصلحة المشتركة لكل منهما، فقد أعطى قيصر تعليماته للمبعوثين لتسليم اريوفيستوس إنذاراً نص على ما يلي: أولاً: عليه أن يتوقف عن إدخال أي مجموعات ضخمة أخرى من الرجال عبر الراين إلى غاليا، ثانياً: عليه أن يُعيد الرهائن الايديوويين الذين يحتجزهم إلى أهلهم، وأخيراً عليه أن لا يضطهد الايديوويين أو يشن حرباً عليهم أو على حلفائهم. وبناءً على تنفيذه لهذه الشروط فإن قيصر والحكومة الرومانية سيحتفظان بعلاقات صداقة وود معه. وفي حال رفضه لهذه الطلبات فإنه تطبيقاً لقرار مجلس الشيوخ الروماني الذي صدر أثناء قنصلية ماركوس ميسالا *Marcus Messala* وماركوس بيزو *Marcus Piso* عام (٦١ ق.م)، والذي يأمر حكام مقاطعة غاليا على اختلافهم بالقيام بأي شيء يتفق مع المصلحة العامة لحماية الايديوويين والحلفاء الآخرين لروما، فإن قيصر لن يدع سوء معاملة اريوفيستوس للايديوويين وغيرهم تمر دون عقاب.

وفي رده على هذا الإنذار قال اريوفيستوس إن تقليد الحرب المسلم به هو أن يحكم المنتصرون المهزومين بالأسلوب الذي يشاؤون، وأن الرومان أنفسهم قد تصرفوا وفق هذا التقليد من خلال فرض حكمهم على رعاياهم المغلوبين، وليس وفق تعليمات أو أوامر تلقوها من أي طرف ثالث إنما على هواهم ووفق ما كان يحلو لهم دون قيد أو شرط. وعلى اعتبار أنه – أي اريوفيستوس – لم يملِ على الرومان طريقة ممارستهم لحقوقهم فإنه يفضل أن لا يتدخل به أحد في ممارسته لحقوقه. وقال إنه نظراً لأن الايديوويين قد جربوا حظهم في الحرب وكانوا الخاسرين فقد توجب عليهم دفع الجزية له، وأن قيصر يرتكب بحقه خطأً فادحاً بمجيئه إلى غاليا والتسبب له بخسارة مصادر دخل أخرى، أو أضاف أنه لن يعيد الرهائن إلى الايديوويين إنما سوف يمتنع عن شن أي هجوم جائر ومتعمد ضدهم أو ضد حلفائهم إن يستمروا بالمحافظة على اتفاقيتهم معه ويدفعوا الجزية بانتظام كل عام. وفي حال عدم تنفيذهم لذلك فإن لقب "أشقاء الشعب الروماني" لن يفيدهم ولن ينقذهم من العواقب. واختتم اريوفيستوس رده بالقول: "إنني لست متأثراً بإنذار قيصر بمعاقبة اضطهادي لهؤلاء الناس، فما من أحد سبق له وقاتلني إلا وجلب على نفسه الدمار. فليشن قيصر هجومه ضدي في أي وقت يشاء ولسوف يكتشف ما بمقدور الشجاعة الجرمانية أن تفعل، فنحن لم يسبق لنا أن عرفنا الهزيمة قط وقد خضنا تدريباً رائعاً على استخدام السلاح، ولأربعة عشر عاماً لم نعرف النوم تحت سقف".

وبينما كانت تتلى هذه الرسالة على قيصر وصلت إلى المعسكر الروماني وفود من الايديوويين والتريفيريين *Treveri*. جاء الايديوويون ليشتكوا من أن الهاروديين الذين عبروا إلى غاليا مؤخراً يقومون الآن بنهب وتخريب إقليمهم، وأن تقديمهم الرهائن لهم لم يفلح في إقناع اريوفيستوس على تركهم بسلام. وأفاد التريفيريون بأن مائة عشيرة من السوييين *The suebi* قد أقامت مخيمات لها على ضفة نهر الراين، وأنها تحاول العبور تحت قيادة ناسو *Nasua* وأخيه سيمبيريوس *Cimberius* وأثار هذا الخبر قلق قيصر كثيراً وعقد العزم على ضرورة التصرف حالاً لأنه إذا انضم هذا الحشد الهائل الجديد من السوييين إلى قوات اريوفيستوس المتمرسة المدربة فإن أمر مقاومتهم قد يصبح أكثر صعوبة واتخذ قيصر ترتيباته بناءً على ذلك لتأمين مؤونة قواته من الحبوب بأسرع وقت ممكن، وتقدم بأقصى سرعة نحو اريوفيستوس. وبعد زحف دام ثلاثة أيام وصلت إلى قيصر تقارير مفادها أن الجرماني اريوفيستوس يعاجل على رأس كامل جيشه لاحتلال بيسانسون *Besancon* أكبر المدن السيكوانية وأنه قد سبق له أن تقدم خارج حدوده رحلة ثلاثة أيام. شعر قيصر أن عليه اتخاذ إجراءات ناجعة لمنع سقوط هذه المدينة بيد اريوفيستوس لأنها تحتوي على عدد كبير من المخازن والمستودعات العسكرية من مختلف الأنواع ودفاعاتها الطبيعية قوية جداً حتى أنها توفر كل أنواع التسهيلات لتأخير الأعمال العدوانية. فنهر داوس *Doubs* يشكل حلقة شبه كاملة حولها والفجوة الوحيدة غير المحمية منها لا تزيد عن خمسمائة ياردة عرضاً إلا بقليل تسدها بشكل كامل هضبة مرتفعة جداً تتجه نتوءاتها عند سفحها نحو ضفة النهر مباشرة وتنزل من كلتا جانبيها. ويطوق هذه الهضبة جدار يمنحها قوة القلاع ويربطها بالمدينة. يسارع قيصر إلى هناك بزحف قسري استمر يوماً وليلة واحتل المدينة وركز فيها حامية.

وخلال الأيام القليلة التي أمضوها بالقرب من بيسانسون لادخار مخزون من الحنطة وبعض المؤن الأخرى شرع الجنود باستجواب الغاليين والتجار هناك حول ما لديهم من معلومات عن الجيش الجرماني، فتحدثوا عن القوام الضخم والشجاعة النادرة والتدريب العسكري الفذ لعناصر الجيش الجرماني. وأكد بعضهم أنهم حينما قابلوهم في ميدان القتال، وحدث ذلك كثيراً، كانت تعابير وجوههم بالذات والنظرة الشرسة والمعقدة لعيونهم أكثر مما كان باستطاعتهم تحمله. وقد ألقى هذا القيل والقال رعباً مفاجئاً في مختلف الصفوف الرومانية إلى حد أنهم فقدوا شجاعتهم ورباطة جأشهم واستثيرت أعصابهم تماماً. وكان أول ما بدأ ذلك في

صفوف التريبيونات[1] العسكريين وقادة القوات الإضافية والرجال ذوي التجربة القتالية الضئيلة الذين تبعوا قيصر من روما سعياً وراء صداقته. وابتدع معظم هؤلاء سبباً ملحاً ما للسماح له بمغادرة المعسكر طالباً الإذن من قيصر. في حين ظل بعضهم في المعسكر خجلاً وحياءً من جهة، ورغبة منه في تجنب الشك بجبنه من جهة ثانية. غير أنهم لم يكونوا قادرين على إخفاء حقيقة مشاعرهم حتى أنهم في بعض الأحيان لم يستطيعوا منع أنفسهم عن ذرف الدموع. حيث كانوا يتوارون في خيامهم ويتحسرون على حظهم ويندبون قدرهم، أو ينضمون إلى أصدقائهم في التفجع والعويل خوفاً من الخطر الذي يتهددهم جميعاً على حدٍ سواء. وفي مختلف أنحاء المعسكر كان الرجال يوقعون وصاياهم ويختمونها، حتى أن أحاديث هؤلاء الذين امتلأت قلوبهم خوفاً ورعباً قد أثرت تدريجياً بالعناصر الأخرى المتمرسة بالحملات بما فيهم بعض قادة المئة وبعض ضباط سلاح الفرسان. أما أولئك الذين رغبوا في أن يظن بهم أقل جبناً ورعددة من غيرهم من العناصر فقد قالوا إن خوفهم ليس من العدو إنما من الممرات والشعب الضيقة التي سيكون عليهم المرور بها، والغابات العملاقة التي تفصل بينهم وبين اريوفيستوس أو زعموا بأنهم يخشون أن يصبح من المستحيل المحافظة على مخزون كافٍ من الحنطة للقوات. حتى أن بعضهم ذهب أبعد من ذلك إذ راح يُخبر قيصر أنه عندما سيعطي أمره بترك المعسكر ومباشرة الزحف فإن الجنود الذين صعقت قلوبهم رعباً لن يطيعوا أمره.

بعد أن لاحظ قيصر هذا الواقع للأمور دعا قادة المئة بمختلف رتبهم إلى الاجتماع وبدأ بتقريعهم بقسوة لتجرئهم على التساؤل حول ما سيقودهم إليه قيصر وعلى التنبؤ بما ينوي القيام به ولأي أهداف وبأي دوافع. وقال إنه في زمن قنصليته سعى اريوفيستوس جاهداً وراء صداقة روما، فأي سبب لديكم للاعتقاد إذن بأنه سيرفض بتهور وطيش التزاماته؟ ومن جانبه هو شخصياً - أي من جانب قيصر - فهو مقتنع بأنه حينما يطلع الملك اريوفيستوس على مطالبه ويرى عدالة الشروط التي يقترحها عليه فإنه لن يرفض الصداقة المعروضة عليه من قبل الحكومة الرومانية ومن قبله هو بالذات، لكن، إن يقوده دافع جنوني نحو شن الحرب فأي مسوغ لديكم بعد ذلك للخوف؟ فشجاعتكم واهتمامي الشديد والمتيقظ بواجباتي عاملان هامان يوفران أرضية جيدة لمتحكم الشعور بالثقة. وتابع قيصر يقول: "لقد واجه أبناء بلادنا هذا العدو في زمن آبائنا حينما أحرزت جيوش غيوس ماريوس *Gaius Marius* النصر على السيمبريين *Cimbri* والتوتونيين *Teutoni* ذلك النصر الذي كسب من خلاله الجيش الروماني

---

(1) التريبيون *Tribune*: المدافع عن حقوق العامة وعن مصالحها عند الرومان. المترجم.

بأكمله – كما يتفق الجميع – المفخرة والمجد بقدر ما كسبهما قائده كما واجهوهم مرة أخرى منذ عهد ليس ببعيد في إيطاليا حينما دحروا العبيد المتمردين على الرغم من أنهم كانوا متسلحين بالتدريب العسكري الفذ والانضباطية العسكرية اللازمة اللذين سبق لهم أن اكتسبوها من سادتهم الرومان. وهذا يبين أية ميزة عظيمة هي الشجاعة المبنية على العزيمة الموطدة فلوقت طويل كان لدى الرومان تخوف شديد من العبيد في وقت كان فيه هؤلاء ما يزالون عزلاً من السلاح إلا أنهم فيما بعد أنزلوا بهم هزيمة نكراء في وقت لم يكونوا فيه مسلحين فحسب وإنما يتوهجون انتصاراً ويطيرون تباهياً أيضاً.

زيادة على ذلك فإن هؤلاء الجرمان هم نفس الرجال الذين قابلهم الهيلفيتيون في ميادين القتال ليس في سويسرا فقط وإنما في ألمانيا وغاليا أيضاً وأطاحوا بهم. والهيلفيتيون كما تعرفون لم يبرهنوا على أنهم في مستوى جيشنا أو يمكن لهم أن يكونوا مثيلاً له. فإذا كان أي منكم مصاباً بالذعر أو قد صعقه الرعب من حقيقة أن الجرمان قد هزموا الغاليين وأجبروهم على الفرار فالأجدر به أولاً أن يتحرى ظروف تلك الهزيمة وسيجد أن الهزيمة قد حصلت في وقت كان فيه الغاليون منهمكين بحرب طويلة. وقد بقي اريوفيستوس ولعدة شهور متخفياً في معسكره وفي السبخات والمستنقعات المحيطة كي يفوت على الغاليين فرصة مقاتلته وبعد ذلك شن عليهم هجومه المفاجئ في وقت يئس فيه الغاليون من جره إلى ميدان القتال وقد تفرقوا إلى مجموعات مشتتة هنا وهناك. فانتصاره عليهم على هذا الأساس، كان نتيجة استراتيجيته المخادعة والماكرة أكثر مما كان نتيجة بسالة قواته وجرأتهم. إن استخدامه لمثل هذه الاستراتيجية كان أمراً ممكناً ضد مواطنين أغرار ذوي تجربة قتالية ضحلة، لكن حتى اريوفيستوس لا يستطيع أن يمتلك الأمل بالقدرة على الاحتيال على جيوشنا بأساليب كهذه". وأردف قيصر يقول: أما بالنسبة لأولئك الذين يحاولون إخفاء جبنهم بالتظاهر بأنهم قلقون حول مؤونة الحنطة أو صعوبات الطريق فإنهم يتصرفون على نحو الوقاحة والتمادي، لأن من الواضح أنهم إما قد فقدوا الثقة بإحساس قائدهم بالواجب أو أنهم قصدوا أن يملوا عليه معلومات هو في غنى عنها. فهو مهتم بشتى هذه الأمور. فالسيكوانيون *Sequani* واللوسيون *Leuci* واللينجونيون *Lingones* يمونوننا بالحنطة اللازمة والمحصول قد نضج في الحقول. أما بالنسبة للطريق فإنهم سرعان ما سيكونون في وضع يمكنهم فيه من أن يحكموا بأنفسهم، أما بالنسبة لمن اقترح أن الجند لن يطيعوا أوامره بالزحف فهذا أمر لم يزعجه على الإطلاق لأنه يعرف أنه في مختلف الحالات التي رفض فيها جيش ما إطاعة الأوامر

كان السبب أما أن قادته لم يكونوا ذوي كفاءة وأهلية وعدوا منحوسين ذوي حظ مشؤوم أو أنهم اثبتوا بتضليلهم وانعدام شرفهم لما كشف عنهم من سوء الإدارة وإهمال القيام بالواجب.

أما بالنسبة له أي لقيصر فأمانته الشخصية واستقامته المعهودة تشهد عليها حياته كلها وقدرته على النجاح الغامر والفوز الكاسح تثبتها حملته ضد الهيلفيتيين لذلك فإنه سيقوم في تلك الليلة بالذات بفعل ما كان قد نوى إرجاءه إلى وقت لاحق. فسيحرك جنده خلال الساعات الأولى من الصباح كي يكتشف وبأقل قدر ممكن من التأجيل ما إذا كان إحساسهم بالشرف والواجب هو الأقوى، أم أن إحساسهم بالخوف هو كذلك، فإن لم يرغب أحد منهم أن يتبعه فإنه سيمضي في طريقه وتنفيذ خطته مصطحباً معه الفيلق العاشر[1] فقط. وهو الفيلق الذي لا يشك قيصر أبداً بولائه ووفائه وإخلاصه وسيكون بمثابة حرس له.

كان لهذه الخطبة وقعاً دراميا على مختلف صفوف القوات حيث أشعلت بهم الحماسة المتقدة والشوق المتلهف للقيام بالعمل. وكان أول ما حصل أن رجال الفيلق العاشر فوضوا تريبيوناتهم العسكرية بتقديم الشكر إلى قيصر على ما لديه من فكرة عالية عنهم، وبالتأكيد له بأنهم على أتم الاستعداد والجاهزية للتحرك معه في أية لحظة نحو ميدان القتال وقامت بعد ذلك بقية الفيالق بإقناع تريبيوناتها وقادة المئة الأوائل لديها لإجراء المصالحة بينهم وبين قيصر معترفين بأن أي شكوك أو مخاوف لم تساورهم أبداً تجاهه، كما أنهم لم يتصوروا مطلقاً أن من مسؤوليتهم أمر توجيه الحملة وهو الأمر الذي يدركون تماماً أنه مسؤولية قائدهم.

وبعد أن قبل قيصر أعذارهم طلب من ديفيشياكوس دراسة الطرق والممرات والمعابر المتوفرة، حيث أن ديفيشياكوس كان موضع ثقة قيصر أكثر من أي غالي آخر، ونصح ديفيشياكوس قيصر بالتحول عن الطريق المباشر والانعطاف لمسافة خمسين ميلاً، الأمر الذي سيمكنهم بعد ذلك من الزحف عبر أراض مكشوفة. وبدأ قيصر في الساعات الأولى من الصباح - على نحو ما سبق له أن قال إنه سيفعل - زحفاً استغرق ستة أيام دون انقطاع حيث أعلمته دورياته عندئذ أن قوات اريوفيستوس لا تبعد عنه سوى ثلاثة وعشرين ميلاً.

حالما سمع اريوفيستوس أن قيصر قد أصبح قريباً منه بعث إليه برسالة يقول فيها إنه ليس لديه أي اعتراض على ترتيب اللقاء بينهما، وهو اللقاء الذي طلبه منه قيصر سابقاً، وذلك

---

(١) لقد وضع قيصر أرفع درجات الثقة بهذا الفيلق نظراً لما عرف عنه من شجاعة وبسالة، وكان قيصر يبدي له دائماً تفضيلاً خاصاً وتحيزاً ظاهراً.

لأنـه يعتقـد أن بإمكانـه الآن فعـل ذلـك دون مخـاطرة أو مجازفـة. لم يـرفض قيصـر عـرض اريوفيسـتوس هـذا ظنـاً منـه أن اريوفيسـتوس قـد عـاد الآن إلى رشـده وصـوابه واختـار الطريـق السوي من جديد لأنه وافق الآن بمحض إرادته على القيام بما كـان قـد رفض القيـام بـه سـابقاً حينما طلب إليه ذلك. كما حذا قيصر الأمل بأن تذكير اريوفيستوس بالخدمات العظيمة التي تلقاها منه شخصياً ومن الحكومة الرومانية سيجعله يتخلى عـن موقفـه العنيـد ويصـغي إلى مـا هو مطلوب منه. وتم ترتيب اللقاء على أساس أن يكون بعد خمسة أيام واستمر الرسل خلالها بالذهاب والإياب بين الطرفين. وأصر اريوفيستوس على أن قيصـر يجب أن لا يحضـر معـه إلى المؤتمر أية قوات مشاة حيث قال إنه يخشى أن يقع في شرك ويتم الإمساك به في مصيدة مـدبرة. واقترح أن على كل منهما المجيء بصحبة مرافق واحد فقط على ظهر جواده. وإلا فإنـه لـن يحضر أبداً. ولما لم يرغب قيصر في منحه أية أعذار لإلغاء اللقاء، رغم أنه لم يكـن يجـرؤ علـى إعهاد سـلامته للفرسـان الغـاليين، فقـد قـرر أن التصـرف الأفضـل بهـذا الشـأن هـو إبعـاد جميـع خيوله والطلب مـن عناصـر المشـاة التـابعين للفيلـق العاشـر اعـتلاء ظهورهـا، وهـم الرجـال الـذين يكن لهم الثقة التامة واصطحاب مرافق واحد معه يمكنه الاعتماد على وفائه وإخلاصـه حـين الحاجة. وأثناء تنفيذ ذلك أبدى أحد رجال الفيالق ملاحظة ذكية إذ قـال: "إن مـا يفعلـه قيصـر أفضل مما يقولـه، فقـد وعـد بـأن يجعـل الفيلـق العاشـر حرسـاً لـه وهـا هـو الآن يرفعنـا إلى رتبـة فرسان".

تبـرز في سـهل شاسـع رابيـة ترابيـة مرتفعـة تبعـد نفـس المسـافة عـن معسـكري قيصـر وآرفيستوس، تم الاتفاق بين الجانبين على عقـد مؤتمرهمـا فـوق هـذه الرابيـة الـتي حضـر إليهـا كل منهما. وتمركزت قوات فيلق الفرسـان الـتي أحضـرها قيصـر معـه في منطقـة تبعـد حـوالي ثلاثمائـة يـارد عـن الرابيـة، كمـا أخـذت فرسـان اريوفيسـتوس مواقعهـا في مكـان يبعـد نفـس المسافة. واشترط الملك الجرماني اريوفيستوس على أن يتم تباحـث القضـايا بينهمـا وكـل منهمـا ممتطياً ظهـر جواده وأن يرافق كـلاً منهمـا عشـرة رجـال. وحـين وصـولهما إلى المكـان المحـدد للاجتماع شرع قيصر بتذكير اريوفيستوس بالفضائل والخدمات التي أغدقها عليه هو شخصياً ومجلس الشيوخ الروماني، وكيف كرم بمنحه لقب "ملك" ولقب "صـديق"، وكيـف أنـه تلقـى الهدايا الضخمة والسخية مشيراً إلى حقيقة أن قلة قليلة جداً من الأمراء سبق لها أن منحت مثل هذه الألقاب والامتيازات، والتي يحتفظ بها عادة إلى أولئك الذين يقدمون خدمات هامـة وجليلـة لروما. وأضـاف قيصـر: "لم يكـن لـديك أي حق في أن تتقـدم إلى مجلس الشيوخ بطلب أي مـن هذه الفضائل لولا دعمي لك ومساندتي، لذا فإنـك مـدين بهـا لكرمـي وسـخائي وطيـب وكـرم

وسخاء مجلس الشيوخ. إن الصداقة التي ترتبط بها بلادي مع الايديوويين قديمة العهد، وترتكز على أرضية صلبة. وقد تضمنت القرارات التي صدرت عن مجلس الشيوخ أجمل كلمات المديح والإطراء للايديوويين وعبرت باستمرار عن الاحترام الشديد لهم. ويحتل الايديوويون مكانة من السيادة في كل أرجاء غاليا منذ عهد طويل وقبل سعيهم وراء صداقتنا. ولطالما أن سياستنا الدائمة كانت ولا تزال تسعى جاهدة لرؤية حلفائنا وأصدقائنا يمتلكون السمعة الحسنة والاحترام الشديد والأهمية المتزايدة دون أن يفقدوا أي شيء كان لديهم سابقاً، كيف سيكون بإمكاننا السماح لأي طرف آخر بالقيام بسرقتهم ونهب ديارهم وتخليصهم مما كانوا يمتلكونه وهم الآن في وقت يرتبطون فيه بعلاقات صداقة معنا؟" وكرر قيصر حينئذ المطالب التي سبق له أن زود بها مبعوثيه لتقديمها إلى اريوفيستوس والتي اشتملت على أن لا يقوم اريوفيستوس بشن أي حروب ضد الايديوويين أو حلفائهم، وأن يعيد الرهائن إليهم وأن يمنع أي جرمان آخرين من عبور الراين من جديد إذا لم يكن بإمكانه إعادة الجرمان الذين سبق لهم وعبروه هجرة من أوطانهم.

لم يكن لدى اريوفيستوس الشيء الكثير ليقوله رداً على هذه المطالب إنما تحدث أخيراً عن مزاياه الشخصية وقال إنه لم يعبر الراين طوعاً واختياراً إنما رداً على الدعوة التي وجهها إليه الغاليون أنفسهم، وقد استدعى الأمر منهم عرض حصوله على مكافأة ثرية منهم كي يحثوه على مغادرة وطنه وأقربائه. فالممتلكات التي في حوزته في غاليا قد تخلى عنها الغاليون أنفسهم لإعطائها إليه. أما الرهائن فقد قدمت له من قبلهم بصورة إرادية وبطيبة خاطر، أما بالنسبة للضريبة التي يجنيها منهم فقد قال إنها الحق الطبيعي والتقليدي للمحارب المنتصر. فلم يكن هو المعتدي إنما الغاليون أنفسهم هم من هاجموه، وزحفت ضده كل قبائلهم ونزلت إلى ميدان القتال وباشرت المعركة. أما هو فقد أطاح بكامل القوة الغالية وهزمها هزيمة منكرة بعد معركة قتالية واحدة. فإذا كان الغاليون يرغبون بتجريب حظهم ثانية فهو على أتم الاستعداد لمقاتلتهم من جديد أما إذا كانوا يريدون السلام فالأجدر بهم أن لا يعترضوا على الضريبة التي يدفعونها منذ ذلك الوقت ودون أي تردد أو احتجاج. أما بالنسبة لصداقة الشعب الروماني فإنها ينبغي أن تكون امتيازاً وحماية له، وليس فرصة تودي به إلى الخسارة، وأنه وفق هذا المنظور وقد سعى وراء تلك الصداقة. فإذا كان رعاياه سيتمنعون من خلال التدخل الروماني عن دفع الضريبة، ويخرجون عن سلطة فإنه سيكون على أتم الاستعداد والجاهزية لنبذ هذه الصداقة بنفس الحماسة التي سعى بها إليها. أما الأعداد الضخمة من الجرمان التي يحضرها إلى غاليا عبر الراين فإنه يستدعيها ليضمن سلامته وليس

لتقوم بأي عدوان. ودليل ذلك هو أنه لم يأت إلى غاليا إلا بعد أن طلب منه ذلك، وأنه قد قاتل دفاعاً عن النفس، مع ذلك فإنه قد جاء إلى غاليا قبل مجيء الرومان إليها وفي وقت لم تكن الجيوش الرومانية قد زحفت خارج حدود مقاطعتها بعد. إنما الذي يقصده قيصر بقوله إنني أغزو ممتلكاته وأغير على أراضٍ تابعة لسيطرته وسيادته؟ وقال: "إن هذا الجزء من بلاد الغال هو مقاطعتي، تماماً مثلما أن الجزء الآخر هو مقاطعتك. فأنا لا أستطيع أن أتوقع منك السماح لي بالقيام بالإغارة على إقليمك والإفلات من العقاب، لذا فإنه أمر ينطوي على الكثير من الجور والبعد عن العدالة أن تسمح لنفسك بالتدخل في شؤوني وفي كيفية ممارستي لحقوقي الشرعية. تقول إن مجلس الشيوخ قد أطلق على الايديوويين لقب "أخوه"، حسناً فأنا قد أكون "بربرياً" إلا أنني لست بربرياً إلى الحد الذي يجعلني جاهلاً بمجريات الأحداث، حيث أنني أعرف تماماً أنك لم تتلق أي مساعدة من الايديوويين حين قمت بكبح ثورة الألوبروجيين الأخيرة عام (٦١ ق.م) كما أنهم لم يقوموا بطلب أية مساعدة منك في الحرب التي شنوها لتوهم ضدي وضد السيكوانيين. لذا فأنا أشك في أن الحديث عن الصداقة بين الرومان والايديوويين ليس سوى مجرد مزاعم وتظاهر، وأن هدفك من إبقاء جيشك في غاليا ليس إلا لسحقي وتدميري. فإن لم تقم بالرحيل عن هذه البلاد وجيشك معك فإنني لن أعاملك معاملة الصديق، والحقيقة هي أنني إن أقم بقتلك فإن الكثيرين من النبلاء والسياسيين في روما سيشكرونني على ذلك. أنا أعرف هذا جيداً لأن هؤلاء أنفسهم قاموا بتكليف عملائهم بإخباري بذلك. لذا فإنه بإمكاني أن أجعل منهم أصدقاء ممتنين شاكرين لي من خلال وضع نهاية لك. لكن، إن تقم بالرحيل بعيداً وتتركني امتلك غاليا دون أي ازعاجات أو تشويش فإنني سأكافئك بشكل سخي وكريم، وفي أي وقت تريد لحرب أن تشن فإنك سترى أن المهمة قد أنجزت من أجلك دون أن ترفع إصبعاً أو تخوض مغامرة".

شرح قيصر عندئذ بشيء من التفصيل سبب عدم قدرته على التراجع عن تنفيذ غرضه وما كان قد عزم وصمم عليه. فهو امرؤ يتناقض مع مبادئه الشخصية ومبادئ الحكومة الرومانية أن يتخلى عن صديق وفي عرف بإخلاصه وولائه، كما أنه لا يستطيع القول أن غاليا تتبع لأريوفيستوس أكثر مما تتبع لروما. فأقاليم الأفيرنيين *Arverni* والروتينيين *Ruteni* قد فتحت على يد كوينتوس فابيوس ماكسيموس *Quintus Fabius Maximus* عام (١٢١ ق.م) هذا على الرغم من أن الشعب الروماني قد غفر لهؤلاء فيما بعد أعمالهم العدائية وامتنع عن ضم أرضهم أو فرض الضريبة عليهم فإذا كانت الأسبقية في الوصول إلى غاليا هي المعيار فإن حق الرومان الشرعي في حكم غاليا يعد أمراً لا يرقى إليه الشك أو الاتهام، وإذا كان عليهم

الالتزام بقرار مجلس الشيوخ فإن غاليا ينبغي أن تكون مستقلة على اعتبار أن مجلس الشيوخ قد عقد العزم على السماح لها بالحكم الذاتي على الرغم من أنها بلاد مفتوحة.

وبينما كانت تتم مناقشة هذه المسائل بين الطرفين وصل خبر إلى قيصر مفاده أن فرسان اريوفيستوس يقومون بالاقتراب من الرابية الترابية ويتحرشون بالجنود الرومان ويقذفونهم بالرماح القصيرة ويرمونهم بالحجارة. قطع قيصر حديثه وتوجه إلى رجاله ومنعهم من رمي أي قذيفة رداً على ما يقوم به الطرف الآخر من أعمال فعلى الرغم من أنه يعلم جيداً أن بإمكان فيلق من القوات المنتقاة منازلة فرسان اريوفيستوس دون أدنى درجة من المجازفة إلا أنه لم يشأ إعطاء الفرصة لأي واحد أن يقول إنه قد نقض كلمته ونكث بعهده واستخدم أسلوب الخديعة وهاجمهم أثناء المفاوضات. وحينما انتشر في مختلف صفوف القوات الرومانية خبر أن اريوفيستوس يحذر الرومان من البقاء في أي بقعة من غاليا وأن قوات فرسانه قد أعاقت استمرار المؤتمر من خلال مهاجمتها لقواتنا ودبت الحماسة في نفوس الجند وأصبح تلهفهم للمعركة لا يعرف أي حدود.

وفي اليوم التالي أرسل اريوفيستوس مبعوثين إلى قيصر لينقلوا له رغبة اريوفيستوس في استئناف المناقشات التي قطعت في اليوم السابق وأن يطلبوا منه تحديد يوم للقاء شخصي آخر بينهما، وأن يرسل ضابطاً يمثله في حال عدم رغبته في الحضور بنفسه. لم يرَ قيصر أن بالإمكان إحراز أي تقدم من خلال معاودة اللقاء مع اريوفيستوس، خاصة وأن اريوفيستوس لم يكن قادراً في اليوم السابق على كبح رجاله عن مهاجمة القوات الرومانية واعتقد قيصر أنها ستكون مجازفة خطيرة ومغامرة لا تعرف نتائجها إن يقم بإرسال ضابط روماني لينوب عنه إلى اريوفيستوس يضعه تحت رحمة مثل هؤلاء المتوحشين الهمجيين.

لذا قد قرر أن أفضل خطة ينتهجها لإزالة هذا الموقف هي أن يرسل إلى اريوفيستوس غيوس فاليريوس بروس *Gaius Valerius Procillus* شاب يتمتع بشخصية نبيلة ويحتل مرتبة رفيعة ويتحلى بثقافة واسعة، وقد سبق لأبيه غيوس فاليريوس كابوريوس *Caburus* أن منح المواطنية الرومانية من قبل غيوس فاليريوس فلاكوس *Flaccus*. كان بروسيللوس رجلاً موضع ثقة عميقة عند قيصر، وكانت معرفته باللغة الغالية أمراً ذا فائدة كبيرة على اعتبار أن اريوفيستوس نتيجة الممارسة الطويلة أصبح يتقن التحدث بالغالية بطلاقة، ووفق هذا الظرف لن يكون لدى الجرمان أي دافع للتصرف بالشكل اللا أخلاقي أو استخدام العنف، وأرسل قيصر مع بروسيللوس ماركوس ميتيوس *Marcus Metius* الذي كان يرتبط مع اريوفيستوس بعلاقات من حسن الضيافة. وأعطيت لهما الأوامر بأن يستمعا لما يريد

اريوفيستوس قوله، ثم أن ينقلا ذلك إلى قيصر، لكن ما إن رآهما اريوفيستوس عند مقر قيادته في المعسكر حتى صاح بهما بأعلى صوته وأمام عناصر جيشه كافة قائلاً: ما الذي جئتما لأجله؟ لتلعبا دور الجواسيس على ما اعتقد؟ وحينما حاولا التكلم أوقفهما وطلب تقييدهما بالسلاسل. وقام بذات اليوم بالزحف لاحتلال موقع عند سفح جبل يبعد ستة أميال عن معسكر قيصر. وفي اليوم التالي سير جيشه أمام المعسكر وعسكر هو نفسه على بعد ميلين من جيشه بهدف اعتراض إرساليات الحبوب إلى القوات الرومانية القادمة من السيكوانين والايديوويين. وخلال الأيام الخمسة التي تلت قاد قيصر قواته إلى أمام معسكره وأبقاهم لبعض الوقت ضمن تشكيل خطوط المعركة، وذلك كي يعطي اريوفيستوس الفرصة لمهاجمتهم إن رغب بذلك. غير أن اريوفيستوس أبقى قواته الرئيسية خلال تلك الأيام ضمن معسكرها، واكتفى بمجرد القيام بمناوشات بواسطة سلاح فرسانه[1].

وجد قيصر أن الجرمان لا ينوون الخروج من معسكرهم وأنه لم يعد يحتمل قطع إمدادات المؤن لقواته أكثر من ذلك، فاختار موقعاً ملائماً لإقامة معسكر خلف موقع العدو بحوالي ألف ياردة، وسير قواته نحو ذلك المعسكر ضمن تشكيل قتالي من ثلاثة خطوط. وطلب من الخطين الأول والثاني أن يكونا على أهبة الاستعداد للدخول في القتال وتحت السلاح، وأن يقفا على مقربة من المعسكر، وطلب من الخط الثالث القيام بالتحصينات اللازمة للمعسكر. ولما كان موقع هذا المعسكر لا يبعد عن اريوفيستوس سوى ميلٍ واحد أو أقل فقد قام اريوفيستوس بإرسال مجموعة من ستة عشر ألفاً من عناصر المشاة الخفيفة لترافق كامل سلاح فرسانه في عملية لترهيب جنودنا وتهويلهم ومنعهم من متابعة عملهم. إلا أن قيصر لم يغير على إثر ذلك خطته الأساسية، حيث وجه أوامره لقوات الخط الأول والخط الثاني للقيام بصد العدو وتشتيت قواته إلى أن تفرغ قوات الخط الثالث من أداء مهمتها. وعندما استكملت أعمال التحصين وحفر الخنادق حول المعسكر الجديد ترك قيصر اثنين من فيالقه

---

(١) كان الجرمان قد دربوا على استخدام تكتيك قتالي خاص. فقد كانت لديهم قوة من الفرسان يبلغ تعدادها ستة آلاف عنصر، قام كل عنصر فيها باختيار واحد من جنود المشاة تميز بشجاعة فذة وبسرعة سير نادرة، انتقاه من بين كل أفراد الجيش من أجل حمايته الشخصية في المعركة والتصرف كداعمين معززين لهم حيث يمكنهم اللجوء إليهم عند الحاجة. وفي المواقف الحرجة كانت مسؤوليتهم الإسراع لإنقاذ أي فارس كان يسقط عن جواده بسبب جرح بليغ أصابه والالتفاف حوله حماية له، وقد اكتسب هؤلاء مثل هذه الرشاقة في الجري وخفة الحركة من خلال التمرين والممارسة، حتى أنهم كانوا يستطيعون خلال المسير الطويل أو التقهقر السريع التعلق بشعر أعناق الخيول ومجاراتها في عدوها.

وألحق بهما كتيبة من القوات الإضافية لتقوم بشغل المعسكر والانتشار في مختلف أجزائه وفوق تحصيناته، وانطلق على رأس الفيالق الأربعة الأخرى عائداً إلى المعسكر الكبير. وتابع في اليوم التالي نشاطه الروتيني الاعتيادي بإحضار قواته من كلا المعسكرين ونشرها في حالة جاهزية قصوى ضمن مسافة لا تبعد كثيراً عن المعسكر الكبير واستعراض العضلات والحث على المنازلة لكن، لما وجد قيصر أن ذلك لن يجدي نفعاً ولن يحرض قوات العدو على الخروج من معسكرها عاد إلى معسكره عند حوالي منتصف النهار. وعلى أثر ذلك قام اريوفيستوس أخيراً بإرسال كتيبة من قواته لتقوم بمهاجمة المعسكر الصغير الجديد ووقعت معركة كانت حامية الوطيس استمرت حتى المساء. وعند غروب الشمس وبعد تكبد خسائر فادحة من الطرفين تراجع اريوفيستوس وعندما استجوب قيصر الأسرى الجرمان الذين تم الإمساك بهم حول سبب عكوف اريوفيستوس، عن خوض معركة شاملة علم منهم أن العرافات الجرمانيات اللاتي اعتدن سحب القرعة واستخدام طرق أخرى في التنبؤ وعلم الغيب لتقدير ما إذا كان أمراً مستحسناً دخول المعركة قد أعلن أن الجرمان لن يكتب لهم الفوز إن يقاتلوا قوات قيصر قبل ظهور القمر الجديد.

في اليوم التالي وبعد أن أبقى حاميات كافية في كلا المعسكرين قام قيصر بتركيز كل قواته الإضافية أمام المعسكر الصغير بحيث تكون مرئية من قبل العدو وتعطي انطباعاً عن قوة وضخامة قوات قيصر لطالما أن قوات المشاة لديه كانت أقل عدداً إذا ما قورنت به بمشاة الجرمان. ورتب قيصر حينئذ فيالقه ضمن تشكيل قتالي مؤلف من ثلاثة خطوط وتقدم مباشرة نحو معسكر اريوفيستوس.

اضطر العدو إذ ذاك إلى إخراج قواته من داخل المعسكر وترتيب مختلف فرق القبائل لديه ضمن مسافات متساوية في بعدها عن بعضها البعض:

الهاروديون *Harudes* فالماركومانيون *Marcomani* فالتريبوسيون *Triboci* فالفانجيون *Vangiones* فالنيميتيون *Nemetes* فاليودوسيون *Eudusii* وأخيراً السوبيون *Suebi* ولكي لا يكون أي أمل لأي منهم بالنجاة هروباً من ساحة الوغى أقامت قوات العدو حاجزاً من العربات والمركبات على طول مؤخرة خط القوات، وقد وضعت داخل هذه العربات والمركبات نساء العناصر المقاتلة اللاتي مددن أيديهن، حين غادر الرجال إلى الميدان وأخذن يتضرعن لهم ويتوسلن إليهم والدموع تنهمر من عيونهن أن لا يجعلوهن يُستعبدن من قبل الرومان.

وضع قيصر على رأس كل فيلق من فيالقه قائداً من قادته الخمسة، واختار قسطوره (وهو ضابط يُعنى بالإدارة المالية) لتولي أمر قيادة الفيلق المتبقي، وذلك كي يدرك كل جندي

أن هناك ضابطاً بمرتبة عالية يراقب شجاعته وطريقة تصرفه وبسالة مواجهته. وقام قيصر بعد ذلك بقيادة الجناح الأيمن ليكون البادىء بخوض غمار المعركة نظراً لأنه قد لاحظ أن خط العدو كان الأضعف من ذلك الجانب، وعندما أعطيت الإشارة اللازمة قامت قواتنا بهجومها الصارخ حيث كان كل جندي يتقد حماسة ونشاطاً، كما قامت قوات العدو بالاندفاع متقدمة نحو الأمام بمباغتةٍ وسرعة مذهلة حتى أن قواتنا لم يكن لديها الوقت لرمي رماحها ضد العدو. فلذلك ألقى رجالنا برماحهم جانباً وأخذوا يقاتلون بسيوفهم يداً بيد. تمكن الجرمان من خلال تبنيهم السريع لتشكيل الكتيبة الاعتيادي من الصمود أمام ضربات سيوف قواتنا، غير أن الكثيرين من جنودنا كانوا يقومون فعلاً بإلقاء أنفسهم فوق جدار التروس الذي كان يتصدى لهم، وينزع هذه التروس من أيدي العدو ومن ثم بطعنه من الأعلى. وتم سحق ميسرة العدو وهزيمة قوات هذا الجانب هزيمة ساحقة، إلا أن الجناح الأيمن لديهم أخذ بالضغط على قواتنا بصورة قاسية بواسطة زجه لحشود ضخمة من الجند في القتال. وشد هذا الوضع الحرج الذي كان يواجه قواتنا انتباه الشاب بيبليوس كراسوس *Publius Crassus* الذي كان مسؤولاً عن سلاح الفرسان وقادراً على التحرك من مكان إلى آخر لرؤية ما كان يجري هنا وهناك أفضل من أولئك المنخرطين في صفوف القتال، فأرسل لنجدتهم قوات الخط الثالث. وحول هذا الإجراء المعركة لمصلحتنا من جديد، وتشتت قوات جيش العدو ولاذت بالفرار دون أن تتوقف حتى وصلت إلى نهر الراين الذي كان يبعد مسافة خمسة عشر ميلاً تقريباً. وحاولت قلة من جندهم كانت قوية البنية السباحة عبر النهر في حين تمكنت قلة أخرى منهم من النجاة بنفسها من خلال عثورها على قوارب تقطع بها النهر، وكان من بين هؤلاء اريوفيستوس نفسه، الذي حالفه الحظ في العثور على مركب صغير كان راسياً على الضفة. أما ما تبقى منهم فقد تمت مطاردته وقتله على يد قوات الفرسان. وكان من بين من أنزل به الهلاك خلال الفرار زوجتا اريوفيستوس. الأولى كانت امرأة من السويبين *Suebic* جلبها معه من ألمانيا، والأخرى كانت نوريكانية *Norican* أرسلها له أخوها الملك فوكسيو *Voccio* أثناء وجوده في غاليا. أما بالنسبة لابنتي أريوفيستوس فقد تم قتل واحدة منها وأسر الأخرى. أما فاليريوس بروسيللوس فقد كان حراسه يقومون بجره بين اللاجئين الجرمان وهو مقيد بثلاث سلاسل حينما وصل إليه قيصر نفسه الذي كان في تلك الأثناء مع عناصر فرسان المطاردة.

وأفرجت هذه المصادفة الجميلة قلب قيصر بقدر ما أفرحه انتصاره الفعلي على اريوفيستوس لأن بروسيللوس الذي أنقذته هذه المصادفة من براثن العدو وأعادته إليه كان

الأشرف والأنبل والأكفأ من بين كل أبناء المقاطعة الرومانية. إضافة إلى كونه ضيفه وصديقه الشخصي. هذا إضافة إلى أن موته الذي لم تشأ العناية الإلهية حدوثه، كان سيفسد تلك البهجة وذلك الفرح الذي رافق مثل هذا الانتصار العظيم. وروى برسيللوس لقيصر كيف أنه قد رأى بأم عينه الجرمان وهم يلقون القرعة ثلاث مرات ليقرروا ما إذا كان عليهم حرقه حتى الموت حالاً أو الاحتفاظ به كي ينفذ حكم الإعدام في وقت لاحق. وكيف أنه مدين بحياته إلى ما جاءت عليه نتائج تلك القرعة. وعثر أيضاً على ميتيوس *Metius* وأحضر إلى قيصر. وحينما وصلت أنباء المعركة إلى الطرف الآخر من نهر الراين ارتد السوبيون *The suebi* الذين كانوا متجهين نحو ميدان القتال لتقديم المساعدة لآريوفيستوس وقد بلغوا ضفة الراين عائدين إلى أوطانهم، إلا أن قبائل منطقة الراين لاحقت عدداً كبيراً منهم وقتلتهم بعد ما رأت ما قد دب في قلوبهم من رعب وهلع.

وبهذا يكون قيصر قد أكمل في فصل صيف واحد حملتين هامتين توجه في ختامها بجيشه إلى نزله الشتوية الكائنة في بلاد السكوانيين في وقت أبكر بقليل مما اعتادوه كل عام. وبعد أن ترك أمر القيادة إلى الابيسنوس *Labienus* شرع برحلة إلى إيطاليا الشمالية لعقد جلساته الدورية.

٣- سقوط الائتلاف البلجيكي (عام ٥٧ ق.م)

بينما كان قيصر في إيطاليا وفيالق الجيش في مقراتها الشتوية وصلت إلى مسامعه شائعات متكررة تزعم أن كل القبائل البلجيكية والتي تشتمل أراضيها على ثلث أراضي غاليا تقوم بالتآمر ضد الرومان وتتبادل الرهائن. وجاءت إلى قيصر رسائل من لابينوس ورسائل حملها مبعوثوه إليه تؤكد صحة الأمر. وقد قيل أن تصرف هذه القبائل على هذا النحو يعود مرجعه إلى سببين اثنين: الأول: هو أن تلك القبائل البلجيكية تخشى أن تتقدم قواتنا نحوها في حال خضوع كل الجزء المتبقي من غاليا للرومان. والثاني: هو أن عدداً من السلتيين الغال *Cellic* قد قام بتحريض هذه القبائل على تصرفها هذا باستخدام مجموعة من الحوافز المختلفة. هذا بالإضافة إلى أن بعض هؤلاء البلجيكيين قد تضايق كثيراً واستثيرت حفيظته لرؤية الجيش الروماني يمضي شتاءه في غاليا، ويوطد نفسه فيها ويرسخ أقدامه فوق أرضها بقدر ما كان متضايقاً من الوجود المستمر للجرمان في البلاد. في حين أن الآخرين، وهم من المتقلبين الذين لا يثبتون على موقف، لم يتطلعوا إلا إلى شيء من التغيير في الزعامات والحكام. كما كان هناك بعض المغامرين الذين رأوا أن في ظل الحكم الروماني لن يكون

من السهل عليهم اغتصاب العروش – وفقاً لما كان عليه الحال عموماً في غاليا – من قبل رجال ذوي سلطة ونفوذ أو من قبل أولئك الذين كان بإمكانهم استئجار المرتزقة.

حثت هذه التقارير المنذرة بالخطر قيصر على تعبئة فيلقين جديدين في إيطاليا، وإرسالهما في فصل الربيع إلى غاليا تحت قيادة كوينتوس بيديوس *Quintus Pedius*، وهو أحد جنرالاته. وحالما بدأ علف الماشية يزداد وفرة وغزارة التحق قيصر نفسه بالجيش وطلب من السينونيين *Senones* والقبائل الأخرى المتاخمة حدود أراضيها مع البلجيين معرفة ما يجري على صعيدهم وإعلامه بذلك. ولما اتفقت كل تقاريرهم على أن البلجيين يجندون قواتهم ويقومون بتركيزها وحشدها قرر قيصر أن من الضروري اتخاذ موقف الهجوم في الحال. وبعد أن رتب موضوع الإمداد بمؤونة الحبوب قوض خيام المعسكر واستأنف الرحيل مع جيشه حتى وصل في غضون أسبوعين إلى الحدود البلجيكية.

كان وصول قيصر إلى هناك بالنظر إلى سرعة زحفه أمراً غير متوقع إطلاقاً ضمن تلك الفترة الزمنية القصيرة. لكنه ما إن حط رحاله فوق الحدود البلجيكية حتى قام الريميون *The Remi* وهم أقرب البلجيين *Belgae* إلى غاليا السلتية بإرسال أكسيوس *Iccius* وانديكومبوجيوس *Andecombogius*، صاحبا الزعامة في قبيلتهم إلى قيصر لينقلا له أنهم يضعون أنفسهم وكل ما يملكون تحت حماية وتصرف الشعب الروماني. وشرحا له أن الريميين لا علاقة لهم ولا دور لهم في المؤامرة التي خططها بقية البلجيين ضد الرومان، وأنهم مستعدون لتقديم الرهائن له وإطاعة أوامره والسماح له بدخول قلاعهم وحصونهم وتزويده بكل ما يحتاجه من الحنطة والمؤن الأخرى. وأضافا قائلين إن بقية البلجيين في حالة من الغليان والاستعداد للقتال، وقد انضم إليهم الجرمان القاطنون على ضفة الراين من جهة غاليا. وأضاف المبعوثان أن كل الريميين ينتابهم غضب شديد من أن السوسيونيين *Suessiones* – أقرباؤهم الحميميون الذين يتمتعون بحماية نفس القانون ويطيعون نفس الملك ونفس القضاة – قد رفضوا الإصغاء إليهم عندما حاولوا ثنيهم عن الانضمام إلى حركة البلجيين.

وحينما سأل قيصر المبعوثين عن أسماء القبائل المتأهبة للقتال وعن بعض المعلومات الخاصة المتعلقة بعدد أفرادها وطبيعة قوتها العسكرية قالا إن القسم الأعظم من البلجيين كان قد انحدر من قبائل سبق لها منذ عهد بعيد أن جاءت من ألمانيا عابرة نهر الراين لتستقر في ذلك الجزء من غاليا نظراً لما يتمتع به من خصوبة في التربة، وقامت بطرد سكانه السابقين. وقالا إن البلجيين هم الشعب الوحيد الذي قام منذ قرابة نصف قرن – حينما كانت بقية أرجاء غاليا تخضع للتوتونيين *Teutoni* والسمبريين *Cimbri* – بمنع الغزاة من دخول إقليمه. وأن

ترسخ هذا الأمر في ذاكرتهم يجعلهم يفترضون لأنفسهم أهمية كبيرة ويحيطونها بالتية والغرور اعتماداً على ما يمتلكونه من قوة عسكرية. أما بالنسبة لأعدادهم فقد اعترف الريميون أن في حوزتهم معلومات مفصلة عن ذلك الموضوع موضحين أنهم يرتبطون مع مختلف القبائل البلجية الأخرى بروابط الدم والزواج، ولذلك فهم يعرفون قوة كل فرقة كانت قد وعدت بتقدمها كل قبيلة خلال مجلس المداولة العامة الذي عقده البلجيون. وقالوا إن أكثر الفرق قوة وجبروتاً من بين جميع الفرق الأخرى هي فرقة البيلوفاسيين *The Bellovaci* استناداً إلى ما يعرف عنهم من هيبة وبسالة ونفوذ واعتماداً على ضخامة عدد سكانهم، فبمقدورهم تجنيد وحشد مائة ألف من القوات المقاتلة، وقد وعدوا بزج ستين ألفاً من خيرة ونخبة رجالهم، وطالبوا أن يوكل إليهم أمر توجيه الحملة بأكملها. أما السوسيونيون، جيران الريميين المقربين، فإنهم يمتلكون إقليماً شاسعاً واسعاً في غاية الخصوبة وجودة التربة. وقد حكمهم ديفيشياكوس الذي لا زال يذكره من هم على قيد الحياة وكان أكثر ملوك غاليا نفوذاً وقوة وجبروتاً، وهو الذي لم يسيطر على جزء كبير من الإقليم البلجيكي فحسب بل وصلت سيطرته إلى بريطانيا أيضاً. وقد أوكلت إلى ملكهم الحالي، وهو حالياً *Galba* نظراً لما يتمتع به من استقامة وحيادية ومقدرات، الإدارة العليا للحرب بالإجماع الكامل والموافقة الشاملة حيث أن لدى جالبا اثنتي عشرة قلعة وحصناً، وقد تعهد بتقديم خمسين ألف مقاتل. ووعد النيرفيون بتقديم عدد مماثل، وهم الذين يعتبرونهم البلجيون أنفسهم أشرس المقاتلين وأكثرهم ضراوة وعنفواناً، ويقطنون في إقليم يعتبر الأبعد باتجاه الشمال.

وكان على الاتريباتيين *The Atrebates* تقديم خمسة عشر ألف مقاتل، والامبيانيين عشرة آلاف *Ambiani*، والمورينيين خمسة وعشرين ألفاً، والميناپين تسعة آلاف والكاليتين *caleti* عشرة آلاف، والفيليوكاسيين *Veliocases* والفيرومانديين *Vironanui* عشرة آلاف يجمعونها فيما بينهم، والأتيواتيوسيين *Atuatuci* تسعة عشر ألفاً. أما الكوندروسيون *Condrusi* والايبوديون *Eburones* والكيروسيون *Caerosi* والبيمانيون *Paemani* (الذين يعرفون جميعاً على أنهم قبائل جرمانية) فقد أفادوا بأن بإمكانهم تعبئة جيش بقوة أربعين ألف مقاتل.

خاطب قيصر الريميين بعبارات طيبة ومطمئنة اتسمت بالكياسة والتهذيب وطلب منهم إحضار كافة أعضاء مجلس قبيلتهم إليه ووضع أبناء مواطنيهم الأوائل وزعمائهم بين يديه كرهائن. وقد تمت إطاعة كل هذه الأوامر وتنفيذها بعناية واهتمام ودقة. وأقنع قيصر ديفيشاكوس الايديووي بأهمية منع تضامن فرق العدو العسكرية المختلفة بغية تجنب ضرورة

مقاتلة مثل هذه القوات الضخمة مجتمعة وبذات الوقت، وذلك لمصلحة روما ولمصلحة سلام غاليا على حد سواء. وشرح قائلاً إن أفضل وسيلة لتنفيذ هذا الأمر: أي تجزئة قوات العدو، هي تكليف الايديوويين بالإغارة على منطقة البيلوفاسيين *Bellovaci* والشروع بتدميرها، وصرف ديفيشياكوس محملاً إياه الأوامر اللازمة للقيام بذلك. لكنه حينما علم من دورياته ومن الريميين أن البلجيين قد استكملوا حشد قواتهم وأنهم آخذين بالتقدم نحو الرومان سارع بعبور نهر ايسن *Aisne* الواقع ضمن حدود الريميين وأقام معسكره هناك. وقد مكنه هذا التحرك من حماية جانب من جوانب معسكره بواسطة النهر ومن تأمين مؤخرته وضمان سلامة قوافل المؤن التي كان من المقرر إرسالها من قبل الريميين وغيرهم. وكان يمتد فوق النهر جسر ركز قيصر عند مقدمته مجموعة حراسة قوية تاركاً أحد قادته، وهو كوينتوس تيتوريوس سابينوس *Quiutus Titurius sabinus*، فوق الضفة اليسرى وبرفقته ست كتائب. وأمر أن يبنى حول المعسكر سور استحكام بارتفاع اثني عشر قدماً وأن يحفر خندق بعرض ثمانية عشر قدماً.

كانت تتوضع على بعد ثمانية أميال منهم مدينة صغيرة للريميين تدعى بيبراكس *Bibrax*، وهي المدينة التي بلغها البلجيون أولاً وقاموا بالانقضاض عليها بعنفوان ووحشية وقسوة، حتى أن حاميتها وجدت من الصعوبة عليها الصمود في وجههم إلى نهاية النهار. وكان للبلجيين نفس أسلوب بقية الغاليين في مهاجمة الحصون والقلاع حيث كانوا يبدأون بتطويق السور الخارجي للمكان بكامل دائرته مستخدمين أعداداً ضخمة من الرجال، ثم يشرعون بقذفه بوابل من الحجارة من كل الجوانب وبعد أن يخلوه من المدافيعن يثبتون تروسهم فوق رؤوسهم ويتقدمون بصفوف متراصة ويضربون طوقاً حوله. وكان من السهل عليهم استعمال هذه الطريقة عينها في الموقف الراهن حيث لم يكن بإمكان أحد الصمود فوق السور في مواجهة قوة عرمرمة كهذه يقوم عناصرها برمي الرماح وقذف الحجارة. وحينما أوقف الليل الهجوم قام اكسيوس *Iccius*، حاكم المدينة وهو من النبلاء الريميين ذوي السلطة والنفوذ على أبناء بلاده، وكان واحداً من المبعوثين الذين أرسلوا إلى قيصر لطلب السلام منه، بإيفاد رسل يحملون كتاباً منه إلى قيصر مفاده أنه لن يتمكن من الصمود أكثر من ذلك إن لم يتحرك لنجدته. ولذلك أرسل قيصر بعيد منتصف الليل بعض النيوميديين *Numidians* ورماة السهام الكريتيين *Cretan* وضاربي المقلاع الباليريكيين *Balearic* لتقديم المساعدة له مستخدماً الرجال الذين أحضروا إليه رسالة اكسيوس كمرشدين للطريق. وأعاد وصول

هؤلاء الروح المعنوية للريميين وملأ نفوسهم بحماسة ملتهبة وغيرة تتقد حرارة نحو الدفاع عن المدينة، هذا بينما فقد العدو الأمل في الاستيلاء عليها.

قام البلجيون على إثر ذلك، وبعد أن مكثوا في المدينة لوقت قصير، بالتقدم نحو ريف المدينة الذي أشبعوه نهباً وتخريباً وإتلافاً للمحاصيل وحرقاً لكل القرى والمساكن التي كان بإمكانهم بلوغها، وزحفوا بعدئذ بكامل جيشهم نحو معسكر قيصر حيث أقاموا معسكراً لهم في موقع لا يبعد سوى ميلين اثنين عن معسكر قيصر. وظهر من خلال الدخان وألسنة اللهب التي كانت تنبعث من نيران حراسهم أن معسكرهم كان يمتد لمسافة تزيد على ثمانية أميال.

ولما كانت القوات البلجيكية غاية في القوة والضخامة وتتمتع بسمعة ذائعة السيط على مستوى الشجاعة والإقدام، فقد قرر قيصر بادئ ذي بدء عدم خوض معركة شاملة معها. لذا أخذ يشغلها يومياً ببعض المناوشات بسلاح الفرسان كي يكتشف ما كان بإمكان العدو القيام به فعلاً، ولكي يكتشف أيضاً إلى أي حد كان باستطاعة رجاله هو التصدي لهم والصمود أمامهم. وسرعان ما وجد قيصر أن قواته تتمتع بدرجة البراعة القتالية والكفاءة الشخصية نفسها التي تتمتع بها القوات البلجيكية. كانت الأرض الممتدة أمام معسكر قيصر نموذجية لنشر قوات الجيش ضمن تشكيلات قتالية. وكانت الهضبة المنخفضة التي أقيم عليها المعسكر ضمن الاتساع المطلوب تماماً من الجهة المواجهة للعدو بغية تركيز الفرق فوقها وفق الترتيب القتالي للمعركة. فكل جانب منها كان ينحدر بصورة حادة نحو السهل في حين أنها شكلت فوق صدرها حافة سطحية ناتئة ثم عاودت الانحدار بخفة وانسيابية نحو الأسفل. وأصدر قيصر أوامره لحفر خندق عند كل جانب من جوانب الهضبة يمتد حوالي ستمائة وخمسين ياردة بزاوية قائمة مع الخط الذي ستصطف القوات على طوله.

ووضع حواجز دفاعية ومتاريس ومدفعية عند نهايتي كل خندق لمنع العدو من استخدام تفوقه العددي لتطويق الجنود الرومان من الأجنحة أثناء انشغالهم بالقتال. وترك الفرقتين اللتين تم تشكيلهما حديثاً داخل المعسكر للاستفادة منهما كقوات داعمة إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، ورتب الفرق الست الأخرى أمام المعسكر ضمن خطوط قتالية. وقام العدو أيضاً بإخراج قواته من المعسكر ونشرها استعداداً للقتال.

كان بين الجيشين مستنقع مياه صغير، انتظر البلجيون آملين أن تحاول قواتنا القيام بعبوره في حين وقف رجالنا والسلاح في أيديهم جاهزين للانقضاض على جنود العدو وهم ضمن ظرف معوق إذا حاولوا عبور المستنقع أولاً. واستمرت في تلك الأثناء مناوشة بين عناصر سلاح

الفرسان بين خطوط الجيشين. ولما لم يقم أي من الطرفين بالمبادرة بالتحرك أولاً لحظة فراغ سلاح الفرسان من مناوشته (وكانت الكفة في تلك المناوشة لصالحنا)، فقد قاد قيصر قوات مشاته عائداً بها إلى المعسكر. وقام البلجيون حينئذ بالزحف مباشرة من مواقعهم القتالية نحو نهر ايسن *Aisne* الذي كما سبق لي أن أشرت، كان عند مؤخرة معسكرنا. وجدوا مخاضة وحاولوا نقل جزء من قوتهم عبرها نحو الطرف الآخر من النهر وذلك بقصد الانقضاض على حاجز دفاعي لنا بقيادة سابينوس *Sabinus* ثم تدمير الجسر أو في حال إخفاقهم القيام بذلك، حرماننا من أحد مصادر المؤن المفيدة جداً بالنسبة للحملة وذلك من خلال تخريب أرض الريميين وقطع اتصالاتنا معهم. حينما علم قيصر بذلك من سابينوس اجتاز الجسر مع كامل سلاح الفرسان لديه يرافقه النيوميديون ذوو الأسلحة الخفيفة وضاربو المقلاع ورماة السهام وتقدم ضد العدو وجرت معركة كانت ضارية حقاً. هاجمهم قيصر وهم في النهر يعبرون المخاضة التي أعاقت حركتهم وقتل عدداً كبيراً منهم، في حين قام آخرون منهم بمحاولة جريئة جداً لعبور النهر فوق أجساد قتلاهم إلا أنهم صدوا إلى الوراء وعلى أعقابهم بواسطة وابلٍ من القذائف انصب فوق رؤوسهم. هذا بينما تم تطويق بعض من نجح منهم في اجتياز النهر ممن وصل إلى المكان أولاً وتمت إبادتهم على يد عناصر سلاح الفرسان. أدرك البلجيون الآن أن أملهم في عبور النهر عقيم ومن العبث الاستمرار في المحاولة تماماً مثلما كان عليه الحال بالنسبة لاستيلائهم على بيبراكس *Bibrax* وأن الرومان لن يتقدموا نحو موقع غير موات للقتال. وكانت مؤونتهم من الحبوب تزداد تناقصاً يوماً بعد يوم، فدعوا إلى عقد مجلس حرب فيما بينهم وقرروا أن الأفضل لهم في الوضع الراهن العودة إلى أوطانهم والانتظار ليروا أي إقليم من أقاليمهم سيقوم الرومان بالإغارة عليه أولاً، حيث سيكون لزاماً على كل منهم أن يهرع حينئذ، كل من إقليمه لنجدة الإقليم الذي وقع عليه الهجوم والدفاع عنه. وبذلك يكسبون ميزة القتال في أرض صديقة وتتوفر لهم إمدادات الحبوب التي سترسل إليهم من أقاليمهم وقبائلهم. ومما ساهم في انقيادهم نحو اتخاذ هذا القرار، إضافة إلى جملة أسباب ودوافع أخرى، معرفتهم بأن ديفيشياكوس ورجاله الايديوويين يقتربون من حدود البيلوفاسيين *Bellovaci* الذين كان جنودهم يتوهجون حرارة لمساعدة أبناء بلادهم وقد غمرتهم حماسة متقدة إلى درجة أنه لم يكن بالإمكان إقناعهم بالبقاء في أماكنهم، مكتوفي الأيدي، أكثر من ذلك.

وهكذا غادر البلجيون، بعد اتخاذهم لقرارهم هذا، معسكرهم قبل منتصف الليل بوقت قصير وهم في حالة من الاهتياج والصخب والاضطراب دون تنظيم أو انضباط حيث أراد

كل منهم الوصول إلى بلاده قبل غيره، وحاول الحصول على موطئ قدم لنفسه على الطريق قبل غيره من الآخرين، وبنتيجة ذلك كان رحيلهم أشبه بهزيمة منكرة. ونقلت أخبار تحركهم هذا إلى قيصر مباشرة بواسطة عناصر كشافته، إلا أنه خشي في بادئ الأمر أن يكون هذا التحرك خداعاً يراد منه نصب كمين أو مصيدة لقواته لأن أسباب تراجع البلجيين في تلك الظروف لم تكن بعد قد اتضحت، لذا استبقى عناصر جيشه كافة في المعسكر، لكن أفراد دورياته بددت له شكوكه عند الفجر وأقنعته بأن العدو يقوم فعلاً بالانسحاب حيث قرر بناءً على ذلك إرسال الجنرال كوينتوس بيديوس *Quintus Pedius* ولوسيوس اورنكوليوس كوتا *Lucius Aurnculeius cotta* على الفور مع كل عناصر الفرسان للقيام بإعاقة سير حرس مؤخرتهم وتأخير تراجعهم. وأصدر أوامره إلى لابينوس *Labienus* كي يتبعها وبصحبته ثلاث فرق. وقامت هذه القوات بمهاجمة رتلهم من الخلف ومطاردته لعدة أميال وقتل عدد كبير من أفراده أثناء فرارهم. وبينما قامت قوات حراسة مؤخرتهم التي اشتبكت معها قواتنا بقتال فعلي بالتوقف وإظهار مقاومة شجاعة قام من كانوا في مقدمة رتلهم بتبديد صفوفهم وتشتيت عناصرهم في مختلف الاتجاهات لحظة سماعهم لصراخ وصياح المقاتلين في مؤخرة الرتل، وحاولوا الهرب والنجاة بأنفسهم ظانين أنهم بعيدون ما يكفي عن موقع القتال من أجل سلامتهم، وأنهم ليسوا تحت وطأة أية ضرورة ملحة للدفاع عن أنفسهم أو تحت سلطة أي واحد يملك الصلاحية بتوجيههم. لذا كانت قواتنا قادرة دون أدنى درجة من المجازفة على قتل أعدادٍ كبيرةٍ منهم ضمن ما سمحت به الفرصة للقتل. وعندما أجبرهم هبوط الليل على التوقف عن المطاردة والإبادة عادوا إلى المعسكر وفقاً لما صدرت لهم من أوامر.

٤- الإخضاع التدريجي للقبائل البلجيكية عام (٥٧ ق.م)

في اليوم التالي وقبل أن يتمكن العدو من الشفاء من حالة الذعر والهلع التي أصيب بها في اليوم السابق تقدم قيصر نحو إقليم السوسيونيين *Suessiones* المحاذي لإقليم الريميين ووصل بزحفه المسلح إلى قلعة نوفيودونوم *Noviodunum* وبعد أن علم بأنها خالية من أي حامية للدفاع عنها حاول اقتحامها بهجوم عاصف لحظة وصوله إلى هناك إلا أن عرض الخندق المحفور حولها وارتفاع السور المحيط بها مكن المدافعين القلة عنها من صد هجومه. ولذلك قام بعد أن شيَّد معسكراً له ولقواته حول القلعة بتشكيل خط من الجدران الخارجية التي تقود إلى أعلى سور القلعة واتخذ استعداداته الاعتيادية لضرب حصار حولها. لكن في الليلة التالية وقبل أن يستكمل قيصر ترتيباته كافة جاء جيش السوسيونيين الهارب بأكمله يتدافع جرياً

نحو المكان. وحينما شاهدت عناصر هذا الجيش الجدران المنتصبة إلى الأعلى حتى تصل إلى قمة سور القلعة والخندق الذي جرف إليه التراب حتى امتلأ وأبراج الحصار التي انتصبت بارزة في أماكن متفرقة، ذعرت كثيراً أو أصابها الهلع لحجم هذا الجهاز المخيف وهذا التركيب الذي لم يسبق لأحد منهم قط أن سمع عنه أو رآه في أية بقعة من غاليا، وللسرعة الخيالية التي أنجز بها الرومان بناء هذا العمل الجبار لذلك قاموا بإرسال مبعوثين إلى قيصر يطلبون منه السماح لهم بالاستسلام. وهو طلب أستجاب له قيصر بناءً على توسط وشفاعة الريميين الذين التمسوا قيصر وناشدوه المحافظة على حياة أقربائهم. وأخذ زعماء السوسيومينين رهائن إضافة إلى اثنين من أبناء الملك جاليا *Galla* ووافق على استسلام القبيلة بعد أن تم تسليمه كل الأسلحة الموجودة في القلعة.

زحف قيصر بعد ذلك ضد البيلوفاسيين *Bellovaci* الذين لجؤوا مع كل ممتلكاتهم إلى قلعة براتوس بانتيوم *Bratus Pantium* وعندما أصبح جيشه على بعد حوالي خمسة أميال منهم خرج كل شيوخهم وكبار السن فيهم ودللوا بإيماءات تضرعية وتوسلية بالصياح والصراخ على أنهم يضعون أنفسهم تحت رحمته، وأنهم لن يبدوا أية مقاومة. وبنفس الطريقة قامت النسوة والأطفال، حينما زحف قيصر بجيشه حتى أصبح على مقربة من القلعة وبدأ بإقامة معسكره، بالظهور فوق سور القلعة وأيديهم ممدودة إلى الأمام بأسلوبهم المعهود بالتوسل والتضرع ورجوا قيصر أن يمنحهم السلام.

وقد دعم طلبهم هذا ديفيشاكوس الذي حمل القوات الايديووية بعد أن تقهقر البلجيون وعاد إلى قيصر. وقال إن البيلوفاسيين قد عاشوا دائماً تحت الحماية الودية والصديقة للايديوويين إلى أن حرضهم زعماؤهم على قطع العلاقة بينهما وحمل السلاح ضد روما من خلال من نقلوا إليهم حول أن الايديوويين قد استبعدوا من قبل قيصر وأن عليهم تحمل كل أنواع المعاملة السيئة والمذلة منه. وتابع يقول: "إن المسؤولين عن تبني هذه السياسة قد أدركوا الآن أي كارثة قد جلبوا على بلادهم، وفروا إلى بريطانيا. فإلى صلوات البيلوفاسيين نحن الانديوويون نضم صلواتنا ونناشدك معاملتهم بما عرف عنك من إنسانية ورأفة وشفقة. وبفعلك هذا ستعزز من هيبتنا ونفوذنا أمام كل القبائل البلجيكية وهي مسألة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لنا لأننا نعتمد دائماً على قواتهم ومواردهم في مواصلة أي حرب نتورط بها". فقال قيصر إنه سيصفح عن البيلوفاسيين ويقبل خضوعهم واستسلامهم احتراماً منه لديفيشاكوس والايديوويين. لكن لما كانت قبيلة البيلوفاسيين هي الأكثر سلطة ونفوذاً بين القبائل البلجيكية والأضخم سكاناً فقد طلب منهم تقديم ستمائة رهينة. وبعد أن تم تسليم هذه

الرهائن وتم جمع كل الأسلحة الموجودة في القلعة زحف قيصر نحو إقليم الامبيانيين الذين سرعان ما أعلنوا استسلامهم دون أي شروط.

كان البيرفيون هم جيران الامبيانيين الذين أجر قصير حولهم بعض الاستقصاءات المتعلقة بعاداتهم وتقاليدهم وبما يتصفون به من مزايا وخصائص شخصية. وعلم أنهم لا يسمحون بدخول التجار إلى إقليمهم كما أنهم يرفضون فكرة استيراد الخمر والكماليات الأخرى لأنهم يعتقدون أن مثل هذه الأشياء تجعل رجالهم أقل صلابة وقوة وتأخذ من حدة شجاعتهم. وعلم قيصر أيضاً أنهم شعب مولع بالحرب، قاسي القلب يلوم بقية البلجيين ويؤنبهم على إضاعتهم هبة الشجاعة التي توارثوها عبر الأجيال من خلال خضوعهم للرومان، وأنه قد أقسم على عدم طلب السلام أو قبوله وفق أي شروط. وبعد أن زحف قيصر مع قواته لمدة ثلاثة أيام داخل الأراضي النيرفية *Nerivan* علم من بعض الأسرى أن نهر سامبر *Samber* لا يبعد أكثر من عشرة أميال عن المكان الذي أقاموا فيه معسكرهم، وأن كل القوات النيرفية قد تمركزت على الطرف الأخر من النهر تنتظر وصول الجيوش الرومانية. وقيل له أيضاً أن من يقف مع النيرفيين في الميدان هم جيرانهم الاتريباتيين *Atrebates* والفرومانـدويين *Veromandui* الذين قام النيرفيون بإقناعهم بتجريب حظهم بالقتال جنباً إلى جنب معهم. وأنهم يتوقعون انضمام قوات الأتيواتوسيين *Atuatuci* الذين هم في طريقهم إليهم. وأنهم على نحو من العجلة والسرعة دفعوا بنسائهم وبكل من لا يسمح له سنه بالمشاركة بالقتال كبيراً كان أم صغيراً نحو مكان لا يمكن أن يصله أي جيش بسبب ما يحيط به من مستنقعات وسبخات مائية.

عند تلقي قيصر لهذه المعلومات أرسل أمام قواته مجموعة استطلاع يرافقها بعض قادة المئة لاختيار موقع مناسب لإقامة معسكرهم. وقد التحق بقيصر عددٌ كبيرٌ من الغاليين من ضمنهم بعض البلجيين الذين كانوا قد استسلموا له وأخذوا بالزحف مع قواته. ووفق ما تم تأكيده لاحقاً من قبل الأسرى فإن عدداً من هؤلاء بعد أن لاحظ ترتيب زحف جيشنا خلال الأيام السابقة شق طريقه تحت جنح الظلام نحو النيرفيين وشرح لهم أن كل فرقة من فرقنا المقابلة تنفصل أثناء الزحف عن الفرقة التي تليها بواسطة قافلة طويلة من الأمتعة والعتاد. وعلى هذا الأساس حينما تصل الفرقة الأولى إلى المعسكر تكون بقية الفرق خلفها لا تزال بعيدة كثيراً عنها، وبالتالي يكون من السهل مهاجمتها في وقت يكون فيه الجند ما يزالون مثقلين بحمولاتهم، وحينما تتم هزيمة هذه الفرقة هزيمة منكرة ويتم نهب أمتعتها لن تتجرأ الفرقة التالية على الصمود خوفاً من ملاقاتها المصير نفسه. وقد اقترح هؤلاء الفارون فكرة واحدة

عـززت تنفيـذ الخطـة. فعلـى اعتبـار أن النيرفـيين لا يمتلكـون عمليـاً قـوةً مـن الفرسـان[1] فقـد ابتدعوا منذ زمـن طويل طريقـة لإعاقـة فرسـان جيرانهـم حـين قيامها بإغـارات نهـب وسلب علـى أراضيهم حيث كانوا يقطعون رؤوس الشجيرات ويقومون بلويها ثم يحيطونها بأغصـان فرعيـة على نحو كثيف جداً ويزرعـون فيمـا بينهـا كتلاً متشـابكة مـن الـورد الـبري والشـوك وبـذلك كانوا يشكلون سياجات أشبه بالأسوار تمنحهم حماية جيـدة حتـى أن المرء لا يسـتطيع الرؤيـة مـن خلالها أو اختراقهـا وحالما ستعيق هـذه الحوائـل زحـف أرتـال قواتنـا سـيعتقد النيرفيـون أن عليهم تجريب خطتهم المقترحة.

في المكان الذي اختاره الرومـان لإقامـة معسـكرهم هضـبة تنـدر مـن قمتهـا إلى سـفحها بصورة مستوية وتتجه في انحـدارها هـذا نحـو سـامبر *Sambre*. وفي الجهـة المقابلـة لهـذه الهضـبة وعلى الطرف الآخر من النهر تظهر هضبة أخرى لها نفس الميلان توجد فوق منحـدراتها السـفلية قطعة أرض مكشوفة مسـاحتها ثلاثمائة ياردة تقريباً، في حين يتغطى القسم العلـوي منهـا بغابـة كثيفة تصعب الرؤية من خلالها. كان القسم الأعظم مـن قـوات العـدو يحتشـد متخفيـاً في تلـك الغابة، بينما كان بالإمكان مشاهدة بعض مفارز الفرسـان فـوق الأرض المكشـوفة علـى طـول ضفة النهر. وكان عمق النهر حوالي ثلاثة أقدام.

كان قيصر قد أرسل قـوات فرسانه لتتقـدم بقيـة قواتـه الأخـرى بعـض الشـيء، في حـين راح هـو يتبعهـا مـع سـائر فيالقـه الأخـرى. غـير أن قيصـر شـكل أرتـال قواتـه الزاحفـة بطريقـة مختلفة عن تلك التي كان الفارون البلجيكيون قد وصفوها للنيرفيين. وطبقاً لما كان يقـوم بـه عادة حين اقترابه من العدو زحف قيصر على رأس طابور قواته المؤلف مـن سـتة فيـالق لا تعيقهم أية أمتعة أو حمولات ثقيلة. وتلا ذلك رتل عربات ومركبات نقل الأمتعة محمياً بأكمله من قبـل الفيلقين اللذين تمت تعبئتهما مؤخراً واللذين كانا يرافقـان مـؤخرة رتـل القـوات. وكـان أول مـا قامت به عناصر الفرسـان عبور النهـر مـع رمـاة السـهام وضـاربي المقـلاع والاشـتباك مـع فرسـان العدو الذين واصلوا تراجعهم نحو الغابة حيث يتمركز رفاقهم، ومن ثم الظهور مجدداً لمهاجمـة قواتنا التي لم تتجرأ على ملاحقتها خلف حدود الأرض المكشوفة. وقامت في تلك الأثنـاء الفـرق السـتة الـتي كانـت الأولى بالوصـول بقيـاس الأرض وشـرعت ببنـاء المعسـكر. أمـا الغـاليون المختبئـون في الغابـة فقـد كـانوا قـد اتخـذوا سلفاً التشـكيل القتـالي لقـواتهم وكـانوا في حالـة

---

(١) حتى ذلك اليوم لم يعر النيرفيون أهمية لهذا النوع من السلاح، حيث كانت كل قوتهم العسـكرية تتـألف من المشاة.

انتظار لخوض المعركة تمتلئ نفوسهم ثقة وتصميماً. وحالما لمحت أبصارهم مقدمة قافلة الأمتعة الرومانية - وهي اللحظة التي تم الاتفاق عليها فيما بينهم لبدء المعركة – اندفعوا على نحو مفاجئ هابطين من الغابة بكامل قوتهم وانقضوا على فرساننا وتمكنوا من هزيمتهم هزيمة منكرة، وأسرعوا بعد ذلك نازلين إلى النهر بسرعة البرق حتى أنهم ظهروا في الوقت ذاته عند حافة الهضبة وفي النهر وفوق قواتنا. بالسرعة نفسها صعدوا الهضبة نحو معسكرنا لمهاجمة رجالنا الذين كانوا منشغلين بأعمال التحصين وحفر الخندق اللازم حول المعسكر.

كان على قيصر حينئذ القيام بأشياء كثيرة في الحال: رفع العلم الذي كان إشارة إلى قواته لتحمل السلاح، استدعاء الجند الذين كانوا يقومون بأعمال تشيد المعسكر، وإعادة الذين كانوا قد ذهبوا بعيداً بحثاً عن المواد الضرورية لبناء السور حول المعسكر، وتشكيل خط المعركة، ومن ثم مخاطبة رجاله وإطلاق الأبواق لإعلان بدء التحرك نحو ساحة الوغى. وقد كان من غير الممكن تنفيذ القسم الأكبر من هذه الإجراءات ضمن الوقت القصير الذي وفره له الهجوم الخاطف الذي شنته قوات العدو. إلا أن الوضع تم إنقاذه من خلال عاملين اثنين: الأول معرفة وخبرة الجنود الذين مكنهم تدريبهم في معارك سابقة وتجريتهم العملية في ساحات القتال من اتخاذ القرار بأنفسهم تجاه ما ينبغي القيام به تبعاً للتطورات الحينية وفي مثل هذه اللحظات الحرجة دون الحاجة لانتظار تلقي الأوامر.

والعامل الثاني: هو الأمر الذي أصدره قيصر لجنرالاته وقادته أجمعين والقاضي بعدم ترك العمل وضرورة بقاء كل منهم مع فيلقه إلى أن تستكمل مختلف أعمال التحصين في المعسكر من إقامة سور حوله وشق خندق يحيط فيه. ولما كان العدو على مقربة شديدة منا ويقوم بالتقدم بشكل سريع جداً فإن قادة جيوش قيصر لم تنتظر وصول أي أوامر أخرى، إنما اتخذوا الإجراءات التي اعتقدوا أنها مناسبة وعلى مسؤوليتهم الشخصية.

وبعد أن وجه قيصر إلى قواته الحد الأدنى من الأوامر الأساسية سارع نازلاً إلى ميدان القتال ليخاطب أفراد قواته وقادتهم، وحدث أنه التقى الفرقة العاشرة أولاً حيث وجه إليها خطبة قصيرة فقط حثهم فيها على الصمود في وجه العدو والمحافظة على عُرف الشجاعة والبسالة الذي يميزهم عن بقية الجيوش، والمحافظة على رباطة الجأش وتمالك الأعصاب ومواجهة هجوم العدو بكل جرأة وجسارة وإقدام. ثم أعطى لهم الإشارة عندئذ للبدء بالمعركة على اعتبار أن النيرفيين كانوا قد أصبحوا ضمن مدى أسلحة قوات قيصر. وحين توجه إلى الطرف الآخر من الميدان لمخاطبة قواته هناك وجد أنهم من قبل قد باشروا اشتباكهم مع قوات العدو. وقد أربكهم في بادئ الأمر ضيق الوقت نظراً لحماسة قوات العدو نحو القتال إلى

حد أنهم لم يتمكنوا من نزع أغطية تروسهم أو وضع الخوذ على رؤوسهم. (ولا حاجة للقول أنهم لم يتمكنوا من تثبيت شاراتهم فوق خوذهم أو تعليق أوسمتهم). وكان كل جندي من جنود قيصر عند فراغه من عمله في المعسكر ينزل إلى الميدان ويلتحق بالقتال تحت أول راية يشاهدها كي لا يضيع الوقت بحثاً عن الوحدة العسكرية التي يتبع لها، ولم تتشكل جبهة القتال وفقاً لقواعد النظرية العسكرية لكن تبعاً لما اقتضته الحالة الطارئة وطبيعة الأرض المنحدرة لطرف الهضبة. كانت الفرق في مواجهة فنون قتالية مختلفة وكانت تخوض غمار نشاطات قتالية منفصلة، وقد أعاقت السياجات الكثيفة مجال رؤيتهم وبالنتيجة لم يتمكن قيصر من تحديد النقاط التي كانت بحاجة إلى زج القوات الاحتياطية فيها، أو القوات النظامية وفقاً لما كانت تدعو إليه الحاجة في كل جزء من أجزاء الميدان، ولذلك كانت وحدة القيادة أمراً مستحيلاً. ومن الطبيعي في مثل هذه الظروف المغايرة أن تكون فرص النجاح أو الإخفاق متأرجحة بين الصعود والهبوط.

كانت الفرقة التاسعة والفرقة العاشرة تقاتلان على الميمنة وقد أطلقتا وابلاً من الرماح ضد الترايباتيين *Atrebates* الذين حدث أن كانوا في مواجهتهم. ونظراً لأن الاتريباتيين كانوا منقطعي الأنفاس وفي غاية الإرهاق من الجري وقد أصيب العديد منهم بجروح فقد انجرفوا هابطين سريعاً نحو النهر، وحينما حاولوا عبوره انقضت عليهم قواتنا بالسيوف وهم في حالة غير مواتية وحطمت عدداً كبيراً منهم. وقام جنود بأنفسهم بعبور النهر دون أدنى تردد ودفعوا بالاتريباتيين أمامهم صعوداً نحو منحدر الهضبة وجددوا القتال، في حين شرع العدو بإظهار المقاومة من جديد ومرة أخرى أجبرتهم قواتنا على الفرار. في تلك الأثناء وفي جزء آخر من ميدان القتال وفوق جهة ذات وجهة أخرى كانت الفرقتان الحادية عشرة والثامنة تشتبكان مع الفيرومانديين *Veromandai* حيث دفعتا بهم نحو أسفل الهضبة وأخذتا الآن بخوض القتال فوق ضفتي النهر تماماً، لكن عند ذلك الوقت أصبح المعسكر الروماني برمته تقريباً مكشوفاً من الجهة الأمامية ومن الميسرة. وكانت الفرقتان السابعة والثانية عشرة اللتان تمركزتا على مقربة من بعضهما البعض فوق الميمنة تواجهان هجوماً تشنه كامل القوات النيرفية التي بدت وكأنها كتلة ضخمة مكتنزة من المقاتلين بزعامة قائدهم بودوغناتوس *Bodougnatus*. شرع بعضهم بتطويق فرقنا المتمركزة في الجناح الأيمن في حين شق الباقون طريقهم نحو قمة الهضبة حيث يتوضع معسكرنا.

كان سلاح الفرسان الروماني في الوقت نفسه مع قوات الأسلحة الخفيفة التي حدث وهزمت، نتيجة الهجوم الأول لقوات العدو في حالة تراجع نحو المعسكر حينما وجدوا أنفسهم

وجهاً لوجه مع النيرفيين حيث لم يكن أمامهم سوى الفرار من جديد باتجاه آخر. حتى أن الخدم الذين كانوا قد شاهدوا من البوابة الخلفية للمعسكر الكائنة فوق قمة الهضبة قواتنا المنتصرة تعبر النهر خرجوا من المعسكر للقيام بأعمال السلب والنهب للقوات المهزومة وجمع الغنائم حينما نظروا إلى الخلف وشاهدوا العدو في المعسكر، فما كان منهم إلا أن ولوا الأدبار مباشرة مخافة على حياتهم. وسمعت في تلك الأثناء صرخات السائقين الصاعدين نحو أعلى الهضبة إلى المعسكر الروماني ومعهم أمتعة الجيش لحظة وقعت أبصارهم على النيرفيين في المعسكر فتشتتوا هاربين في اتجاهات مختلفة وقد صعقهم الرعب وضرب الهلع قلوبهم. وكانت بصحبة جيشنا بعض قوات الفرسان الإضافية التي أرسلت لنا من قبل التريفيريين *Treveri*، وهم شعب تميز بسمعة فريدة على صعيد الشجاعة والجرأة بين الغاليين. وحينما شاهد هؤلاء الخيالة المعسكر الروماني يعج بالعناصر المعادية وفرقنا واقعة تحت ضغط شديد وشبه محاصرة، والعناصر غير المقاتلة وقوات فرساننا وضاربو المقلاع والنيوميديين *numidians* قد تبعثروا وتشتتوا باتجاهات مختلفة وبحالة من الذعر الشديد، قرروا أن حالتنا ميؤوس منها فامتطوا جيادهم يتملكهم رعب صاعق وعادوا إلى بلادهم، ونقلوا أخباراً مفادها أن الرومان قد هزموا هزيمة ساحقة وأن معسكرهم وأمتعتهم قد تم الاستيلاء عليها.

توجه قيصر بعد مخاطبته للفرقة العاشرة نحو الجناح الأيمن لميدان القتال ووجد القوات الرومانية في مواجهة صعوبات جسيمة في قتالها مع العدو ووجد أيضاً أن كتائب الفيلق الثاني عشر محشورة مع بعضها البعض بشكل متقارب جداً إلى حد أن العنصر منها كان يقف في طريق الآخر ولا يمكنه من القتال بالصورة المناسبة. كما وجد أن جميع قادة المئة في الكتيبة الرابعة وحامل الراية قد قتلوا وأن الراية قد فقدت، كما أن قادة المئة في جميع الكتائب الأخرى تقريباً إما قد تم فناؤهم أو قد جرحوا جروحاً بليغة بما في ذلك زعيم قادة المئة بوبليوس سيكستيوس باكوليوس *Publius Seatius Baculus*، وهو رجل عرف بشجاعة خارقة وجرأة فذة، الذي غدا الآن عاجزاً عن الحركة نظراً لما ألم به من جراح أليمة وكثيرة جعلته غير قادر على الوقوف على قدميه. كانت تحركات الجند بطيئة كما أن بعض من كان في المؤخرة أخذ بالتقهقر عن ساحة القتال وبمحاولة الخروج عن نطاق العمليات حينما شعر بأنه في معزل عن الآخرين. واستمر العدو في تلك الأثناء بمواصلة الضغط على نحو غير منقطع في الجهة الأمامية من أعلى الهضبة، وكان يقوم بالإطباق على كلا الجناحين الأيمن والأيسر لقواتنا. وعلى اعتبار أن الحالة كانت غاية في الخطورة والحرج ولا تتوفر لدى الجانب الروماني أية قوات احتياطية أخرى لتزج في الميدان انتزع قيصر ترساً من أحد الجنود في المؤخرة (حيث

لم يكن لديه حينئذ ترسه الخاص به) وشق طريقه نحو الخط الأمامي وخاطب كل قائد مئة باسمه وأخذ يصيح بأعلى صوته مشجعاً بقية القوات ومصدراً لهم الأمر بالضغط نحو الأمام وبالتقدم بإصرار وعزيمة وإقدام وفتح صفوفهم وتوسيع ميدان المعركة كي يتمكنوا من استعمال سيوفهم بسهولة وحرية أكثر. ومنحهم مجيء قيصر إليهم أملاً جديداً ومدهم بالشجاعة اللاهبة والرجولة حيث أراد كلٌ منهم أن يظهر أفضل ما لديه وأن يبذل قصارى الجهد وهو على مرأى من قائده العام رغم الخطر الذي كان يبعث على اليأس. وتم إبطاء هجوم العدو قليلاً بناءً على ذلك.

وبعد أن لاحظ قيصر أن الفرقة السابعة – والتي كانت تقاتل في موقع قريب منه – تقف في مواجهة وضع حرج طلب من تريبو قائد العسكريين الانضمام تدريجياً للفرقتين معاً واتخاذ تشكيل تربيعي كي يتمكنوا من التقدم ضد العدو من أي اتجاه. ومن خلال هذه المناورة تمكن جندنا من دعم الواحد منهم للآخر وتعزيزه ولم تعد هناك خشية لديهم من أن تتم محاصرتهم من الخلف، وهو الأمر الذي زاد من شجاعتهم وجعل باستطاعتهم إظهار مقاومة أشد وجرأة مقدامة. قام في تلك الأثناء الفيلقان اللذان كانا مكلفين بحراسة قافلة الأمتعة في مؤخرة رتل القوات، بعد أن تلقيا أخبار المعركة التي تدور رحاها بين رفاقهم والنيرفيين، بزيادة سرعة مسيرها حتى ظهرا الآن فوق قمة الهضبة حيث يمكن للعدو رؤيتها ولابينوس *Labienus* الذي تمكن من الاستيلاء على معسكر العدو واستطاع رؤية ما يجري في معسكرنا من الأرض المرتفعة التي شيّد فوقها معسكر العدو قام بإرسال الفرقة العاشرة للنجدة. ورجال الفرقة العاشرة الذين كان بإمكانهم معرفة خطورة الموقف من خلال فرار سلاح الفرسان وهروب العناصر غير المقاتلة وإدراك الخطر الذي يتهدد معسكرهم وفرقتهم وقائدهم العام شدوا أعصابهم واجهدوا أنفسهم للسير بأقصى سرعة لتقديم النجدة.

وغير وصولهم الوضع رأساً على عقب، حتى أن بعض الجنود الرومان الذين كانوا قد استلقوا أرضاً مثخنين بالجراح فنهضوا على أقدامهم واستأنفوا القتال من جديد وهم متكئين على تروسهم. كما نهضت العناصر غير المقاتلة للوقوف في وجه هجوم العدو (دون أن يكون لديها أي سلاح تحمله) بعد أن لاحظت ما أصاب العدو من هلع وخوف. أما عناصر سلاح الفرسان الذين كانوا تواقين لغسل عار فرارهم أمام العدو في بادئ الأمر أخذت بالتطواف في أرجاء الميدان وتحاول بز عناصر الفيالق والتفوق عليها في البسالة والجرأة والصمود. لكن العدو أبدى – حتى في موقف يائس – شجاعة فائقة في مواصلة القتال، حتى أنه حينما سقطت عناصر صفوفه الأمامية، وقف من كان خلفهما مباشرة فوق أجساد القتلى المنبطحة المغلوبة

ليتابع القتال، وحينما سقط هؤلاء أيضاً وأصبحت جثث القتلى أكواماً عالية تابع من بقي منهم على قيد الحياة رمي الرماح وكأنه يرميها فوق رابية مرتفعة، وقذف تلك التي كانت تعترضها تروسهم. إن مثل هذه الشجاعة النادرة تفسر المآثر الجبارة والأعمال البطولية التي سبق لهم أن قاموا بها. فالأبطال فقط هم من كان بإمكانهم الاستهانة بعملية عبور نهر عريض وتسلق ضفتيه المنحدرتين وإلقاء أنفسهم في خضم مثل هذا الوضع العسير.

لقد آلت المعركة إلى نهايتها على هذا النحو حيث كانت نتيجتها أن قبيلة النيرفيين قد انمحت عن بكرة أبيها وأبيد جميع أفرادها ومحي اسمها تقريباً من على وجه الأرض.

وعندما سمع شيوخهم وكبار السن فيهم هذه الأخبار – وكان هؤلاء قبل بدء العمليات القتالية قد أرسلوا بعيداً عن المكان مع النساء والأطفال إلى المستنقعات والخلجان التي يصيبها المد والجزر – قرروا فيما بينهم أن ما من قوة تستطيع الوقوف في وجه الرومان المنتصرين وحماية قبيلتهم المغلوبة، فأرسلوا بموافقة كل من بقي من قبيلتهم على قيد الحياة مبعوثين إلى قيصر يطلبون منه السماح لهم بالاستسلام. وفي معرض وصفهم للكارثة التي ألمت بدولتهم قالوا مؤكدين إنه لم يبق لهم سوى ثلاثة مستشارين من أصل ستمائة، وبشق الأنفس بقي خمسمائة رجل منهم قادرين على حمل السلاح من أصل ستين ألفاً. ورغب قيصر في ترك هؤلاء المستغيثين المنكوبين وشأنهم بإظهاره الشفقة عليهم فاهتم بهم اهتماماً كبيراً كي تتم حمايتهم من أي أذى أو سوء معاملة، وأكد لهم ملكيتهم لأراضيهم ومدنهم وأمر جيرانهم بالامتناع عن التسبب بأي ضرر لهم أو لممتلكاتهم وجعل أتباعهم يتصرفون على النحو نفسه.

أما الأتيواتيوسيون *Atuatuci* الذين كانوا مقبلين بكامل قوتهم لتقديم العون للنيرفيين[1] فقد ارتدوا على أعقابهم حين سماعهم لنبأ هزيمة النيرفيين عائدين إلى وطنهم دون أدنى توقف. وتخلوا عن كل قلاعهم وملاجئهم المحصنة في مختلف مناطقهم وجمعوا ممتلكاتهم في مدينة واحدة تميزت بتوفير حماية طبيعية وجيدة لها. إذ كانت تحيط بتلك

---

(١) انحدر الايتواتيوسيون *Atuatuci* من السيمبريين *Cimbri* والتوتونيين *Teutoni* الذين أودعوا خلال زحفهم نحو المقاطعة الرومانية وإيطاليا على الضفة الشمالية لنهر الراين كل قطيعهم وماشيتهم وأمتعتهم التي لم يتمكنوا من اصطحابها معهم مع ستة آلاف رجل لحراستها. وقام هؤلاء الرجال "الستة آلاف" بالاستيطان في هذا المكان بعد إبادة رفاقهم وأبناء بلدهم الذين تابعوا الزحف نحو المقاطعة الرومانية عام (١٠٢ – ١٠٠ ق.م) وعاشوا في حالة من الصراع الدائم ولعدة سنوات مع الشعوب المجاورة لهم. إذ كانوا أحياناً يقومون بالإغارة والهجوم على جيرانهم، وأحياناً أخرى يدافعون عن أنفسهم ضد هجمات جيرانهم، إلى أن منحتهم كل القبائل المجاورة السلام وسمحت لهم بجعل وطنهم في الإقليم الذي يقطنون فيه حالياً.

المدينة صخور شاهقة شديدة الانحدار باستثناء نقطة واحدة حيث كان عند تلك النقطة ممر قليل الانحدار لا يتجاوز عرضه مائتي قدم. وقد قامت حامية هذا المكان بتحصينه بسور مزدوج ذو ارتفاع شاهق، وثبتت الآن فوق قمته أحجار ثقيلة ضخمة ودعامات وعوارض مسننة ذات رؤوس حادة.

نفذ الآتيواتيوسيون في بادئ الأمر، حين وصول الجيش الروماني، سلسلة من الهجمات انطلاقاً من قلعتهم واشتبكوا معنا بعدة مناوشات. لكنهم حينما وجدوا أنفسهم محبوسين ضمن متراس ترابي ارتفاعه اثني عشر قدماً وبمحيط امتد خمسة أميال وبمعاقل كثيرة انتشرت على طوله وفق فواصل محددة، مكثوا داخل قلعتهم وشكل الرومان خطاً من الواقيات المتحركة وبنوا مصاطب حول المكان لتؤدي وظيفة الحصار. وحينما شرع الرومان بنصب برج الحصار في نقطة تبعد كثيراً عن قلعة الاتيواتيوسيين سخر المدافعون فوق سور القلعة من فكرة إقامة مثل هذا الجهاز الضخم في مكان بعيداً جداً عنهم، إذ لم يخطر على بالهم أي فائدة قد تجنى من برج بعيد كهذا، لذا ابدوا بعض التعليمات والملاحظات البذيئة تجاه هذا الأمر وتساءلوا بالقول: أيتصور هؤلاء الرومان الأقزام أنهم بأيديهم الضعيفة وعضلاتهم الواهنة[1] يستطيعون رفع مثل هذا البرج الثقيل فوق قمة السور؟ غير أنهم شاهدوا أن البرج يتحرك وهو آخذ بالاقتراب من جدران قلعتهم أرعبهم المشهد الغريب الذي لم يسبق لعيونهم أن أبصرت مثله ودب الخوف في أوصالهم وجعلهم يرسلون مبعوثين إلى قيصر يطلبون منه السلام. وقال المبعوثون إنهم مجبرون على الاستنتاج بأن لدى الرومان رعاية إلهية مقدسة تخيم عليهم أثناء عملياتهم الحربية لطالما أنهم يمتلكون هذه المقدرة على تحريك جهاز بمثل هذه الضخامة وبمثل هذه السرعة. "إننا نضع أنفسنا وكل ما نملك تحت تصرفك" وتابعوا القول: "إننا نتوسل إليك لتلبية طلب واحد لنا فقط: إنك إن كنت ستقرر العفو عنا بالنظر لما تتميز به من مشاعر الرأفة والشفقة –التي غالباً ما سمعنا عنها– نرجو منك أن لا تجردنا من أسلحتنا، فالغالبية العظمى من جيراننا معادية لنا بسبب حسدهم لنا على ما اشتهرنا به من شجاعة وجرأة، فإذا كنا سنحرم من أسلحتنا فإنه لن يعود بمقدورنا الدفاع عن أنفسنا ضدهم. إننا نفضل مقاساة أي مصير على يديك، إذا كان الأمر سيوجب ذلك، من أن نلقى عذاب الموت على يد رجال تعودنا إخضاعهم لإرادتنا وسيطرتنا وإبقاءهم ضمن قبضة سلطتنا. ورد قيصر على هذه المناشدة بالقول إنه يعفو عن القبيلة ليس لأنها تستحق ذلك إنما بسبب أن

---

(١) يميل معظم الغاليين إلى الاستخفاف والسخرية من قاماتنا القصيرة مقارنة مع طول وضخامة قاماتهم هم.

قيصر قد اعتاد أن يكون رحيماً مع المغلوبين شريطة أن يقوموا بالاستسلام قبل أن يلامس الكبش[1] سور قلعتهم، غير أنه لا يستطيع النظر في أية شروط لاستسلامهم إلا إذا قاموا بتسليم أسلحتهم كافة له، وأنه سيقوم من أجلهم بإجراءات كتلك التي قام بها من أجل النيرفيين، أي أنه سيمنع جيرانهم من التحرش بهم أو مضايقة أي شعب، بأية طريقة، سبق له أن أعلن خضوعه لروما. وبعد أن نقل المبعوثون هذا التقرير لأبناء بلدهم المنتظرين داخل القلعة عادوا من جديد ليقولوا له إنهم مستعدون لإطاعته. وألقيت بعد ذلك كمية كبيرة من الأسلحة من فوق سور القلعة نحو الخندق المائي الممتد أمام القلعة، ووصلت أكوام الأسلحة في علوها إلى قمة السور وغطت مصاطب الجدار، هذا رغم أنه ظهر فيما بعد أنهم قد استبقوا حوالي ثلث أسلحتهم مخفية في مكان ما داخل القلعة. وفتحوا بوابات القلعة حينئذ وأمضوا ذلك النهار في سلام تام.

وحينما حل المساء أصدر قيصر للجنود الرومان الموجودين داخل القلعة أمراً بإخلائها وإغلاق بواباتها لمنع رجاله من التسبب بالأذى للسكان خلال الليل. لكن العدو كان يبيت وبشكل واضح خطة ما ضد الرومان، حيث قام أفراده (معتقدين بعد استسلامهم أن خفراءنا ومفارز طوارئنا إما قد انسحبت من المكان كليةً أو أنها قد خففت من درجة تحفظها واحتراسها) بتجهيز أنفسهم بالأسلحة التي كانت مخبأة في القلعة وبالتروس المصنوعة من لحاء الشجر أو من الأغصان الصغيرة اللدنة المجدولة، والتي تغطت بالجلود على عجل لمواجهة حالة طوارئ مفاجئة، وباشروا بعيد منتصف الليل بمناوشة قواتنا على نحو مباغت بكل ما كان لديهم من قوة عند النقطة التي بدت فيها تحصيناتنا سهلة الاجتياز. أعلنت حالة الإنذار بالخطر بواسطة إشارات نارية طبقاً للتعليمات التي كانت قد أعطيت لهم مسبقاً، وسارعت قواتنا بالانطلاق نحو القلعة من معاقلها المجاورة ومتاريسها القريبة. وقاتل الاتيواتيوسيون بالضراوة المتوقعة من رجال بواسل وشجعان يقاتلون بأمل مفقود وضمن مهمة يائسة وعسيرة ضد عدو يمتلك ميزة الموقع الأفضل وبإمكانه صب جام غضبه وقذائفه فوقهم من أبراجه ومتاريسه وهم مدركون أن الشجاعة هي الشيء الوحيد الذي بإمكانه إنقاذهم. قتل نحو أربعة آلاف منهم في حين صد البقية إلى الخلف ودفع بهم نحو القلعة. وفي الوم التالي حُطمت البوابات – التي غدت غير محمية من قبل أي مدافعين – وفتحت ودخل جنودنا إليها. وقام بعدئذ ببيع السكان المتواجدين فيها كافة بالمزاد العلني دفعة واحدة. وأفاد المشترون أن عدد الأشخاص الذين شملتهم عملية البيع كان ثلاثة وخمسين ألفاً.

---

(١) الكبش: آلة حربية كان القدماء يستعملونها لدك أسوار المدن المحاصرة. المترجم.

أعلم قيصر عند ذلك الوقت من قبل بوبليوس كراسوس *Publius Crassus*، الذي كان قد أرسله مع واحد من فيالقه في حملة ضد الفينيتيين *Veueti* وبقية القبائل الأخرى القاطنة على الساحل الأطلسي[1] أن شتى هؤلاء قد تم إخضاعهم للسيطرة الرومانية وحكم روما. وكانت نتيجة مختلف هذه العمليات التي قامت بها القوات الرومانية في شتى القطاعات انتشار حالة من الطمأنينة والسلم والهدوء في أرجاء بلاد الغال كافة. وكان للروايات التي نُقلت عن الحملات والتي وصلت إلى أهالي البلاد الأصليين أكبر الأثر في جعل القبائل القاطنة خلف الراين ترسل مبعوثين إلى قيصر لتقطع على نفسها عهداً بتقديم الرهائن له وإطاعة أوامره. لكن، لما كان قيصر في عجلةٍ من أمره للتوجه إلى الشمال الإيطالي وإيليريا *Illyria* فقد طلب من المبعوثين المجيء إليه ثانية مع بداية فصل الصيف التالي. وبعد أن قام بتأمين النزل الشتوية لفيالقه حيث أنزل البعض في أراضي الكارنوتيين *Carnutes* والانديين *Andes* والطورونيين *Turoni* وأنزل الباقي بين القبائل القاطنة بالقرب من مواقع القتال الذي دار خلال ذلك الموسم، انطلق متوجهاً إلى إيطاليا. وفي روما وعند استقبال رسل قيصر ورسائله التي بعث بها إلى هناك أعلنت أعياد شكر عامة لمدة خمسة عشر يوماً للاحتفال بإنجازاته، وكان ذلك تكريماً عالياً وتشريفاً رفيعاً لشخص قيصر لم يسبق لأحدٍ قبله أن منح مثلهما.

٥- حملة غير موفقة في جبال الألب عام (٥٧ ق.م)

حينما كان قيصر على وشك الشروع برحلته إلى إيطاليا أُرسل سيرفيوس جالبا *Servius Galba* على رأس الفيلق الثاني عشر مع كتيبة من الفرسان إلى مقاطعات النانتيواتيين *Nantuates* والفيراغريين *Veragri* والسيدونيين *Seduni* التي تمتد من حدود الألوبروجيين *Allobroges* وبحيرة جنيف *the lake of Geneva* والرون إلى جبال الألب الشاهقة. وكان غرض قيصر من ذلك فتح الطريق فوق جبال الألب، وهو الطريق الذي يسافر بواسطته التجار ضمن مجازفات خطيرة وبشرط دفع ضرائب باهظة. وقد أعطيت لجالبا *Galba* الصلاحية بإنزال فيلقه في تلك المقاطعة لإمضاء فصل الشتاء فيها إن وجد ذلك ضرورياً. وبعد أن أحرز جالبا العديد من الانتصارات واستولى على عدد من قلاع الأعداء، أرسلت له جميع القبائل المبعوثين وقدمت له الرهائن متحها السلام. وقرر بعد ذلك إيواء كتيبتين من فيلقه بين النانتيوانيين *Nantuates* وأن يمضي هو نفسه فصل الشتاء مع بقية كتائب

---

(١) الفينيلليون *Venelli*، والأسيزميون *Osismi*، والكوريوسولاتيون *Coriosolites*، والإسيوفيون *Essuvii*، والاوليرسيون *Aulerci*، والريدونيون *Redoues*.

الفيلق الثاني عشر في قرية تابعة للفيراغريين *Veragri* تدعى اوكتودوروس *Octodurus* تقع في وادٍ ضيق نوعاً ما ومحاطة بشكل كامل بسلسلة جبال مرتفعة جداً. كانت تنقسم القرية إلى جزأين بواسطة نهر يمر من خلالها، جعل جاليا أهل البلد الأصليين يحتفظون لأنفسهم بأحد هذين الجزأين بينما خصص الآخر، الذي طلب من سكانه إخلاءه، لكتائبه وقام بتحصينه بإشادة سور واقٍ حوله وحفر خندق يحيط به.

كانت قد انقضت عدة أيام في هذا المعسكر، وكان جاليا قد أمر بإحضار الحبوب إلى الجند هناك، حينما أعلمته دورياته، وعلى نحو غير متوقع، أن جميع الغاليين قد غادروا خلال الليل الفائت الجزء المخصص لهم من القرية وأن المرتفعات المحيطة محتلة من قبل خليط هائل من السيدونيين *Seduni* والفيراغريين. كانت هناك عدة أسباب قادت الغاليين إلى اتخاذ قرار مفاجئ يتعلق باستئناف الأعمال العدوانية من جديد في محاولة منهم للتغلب على الرومان المتواجدين فوق أراضيهم. يبرز في مقدمة هذه الأسباب موضوع استخفافهم بالضعف العددي للفيلق الروماني الذي كان تحت مستوى القدرة القتالية المطلوبة نظراً لفصل كتيبتين منه وإنزالهما لإمضاء الشتاء في إقليم النانتيواتيين وإرسال عدد من أفراده الآخرين للبحث عن المؤن. والسبب الثاني هو أن الغاليين كانوا يمتلكون ميزة الموقع الأفضل، على اعتبار أنهم قادرون على الهبوط جرياً نحو الأسفل وإطلاق رماحهم باتجاه القرية تحتهم. واعتقدوا أنه سيكون في مقدورهم جر الجميع أمامهم بمجرد استئنافهم لهجومهم الأول. كما أن الأمر الذي أغاظهم جداً وأثار حنقهم هو انتزاع أولادهم منهم وأخذهم رهائن والاحتفاظ بهم، وكانوا مقتنعين بأن الرومان ليسوا في الحقيقة مجرد ساعين نحو فتح الاتصالات وإنما ينوون احتلال المرتفعات الألبية بصورة دائمة وضم هذا الإقليم إلى المقاطعة الرومانية المجاورة.

لم يكن العمل في حفر الخندق حول المعسكر الروماني قد استكمل تماماً، كما لم يكن هناك مخزون يكفي من الحبوب أو بقية المؤن الأخرى وذلك لأن جاليا بعد خضوع العدو له وتقديمه للرهائن لم يتصور أن هناك أي مبرر للتخوف من اندلاع أعمال عدائية مجدداً، لذلك فإنه عند تلقيه لهذه الأنباء، استدعى مجلس حربه على الفور وطلب من الأعضاء إبداء آرائهم. كان الخطر حقيقياً بالفعل بقدر ما كان مفاجئاً. فشتى المرتفعات المحيطة بالقرية تقريباً كانت تعج بالرجال المسلحين، وكان من المستحيل عليهم إحضار نجدة أو وصول مؤن إليهم لأن الطرقات قد قطعت من قبلهم. كان عدد كبير من أعضاء المجلس يميل للاعتقاد بأن الحالة ميؤوس منها وتبعث على خيبة الأمل ونصحوا بالتخلي عن الأمتعة وشق طريقهم عنوة للخروج من القرية ومحاولة بلوغ مكان آمن والعودة من حيث جاؤوا غير أن الغالبية العظمى

قررت الاحتفاظ بمثل هذا الحل كملاذ أخر وأثناء ذلك الدفاع عن المعسكر وانتظار ما قد يحصل من تطورات مستجدة.

بعد فاصل زمني كان بالكاد يكفي الرومان لتركيز قواتهم وتنفيذ الإجراءات التي تم الاتفاق على القيام بها انطلق العدو نازلاً من الأعالي ومن كل الاتجاهات عند إعطائه الإشارة المتفق عليها وشرع يرشق سور المعسكر بالحجارة والرماح. في بادئ الأمر، وبينما كان جندنا ما يزالون يحتفظون بذروة قوتهم وطاقاتهم قاوموا مقاومة باسلة وأبدوا شجاعة نادرة، وكانت كل قذيفة يطلقونها من مواقعهم تجد طريقها نحو الهدف المحدد لها.

كما كانوا يسرعون لنجدة أي جزء من المعسكر كان يخلو من المدافعين أو كان يبدو واقعاً تحت الخطر. لكن ما ثقل لقواتنا، وكان أمراً سلبياً، هو أن العدو كان يدخل قوات جديدة لتتولى القتال محل تلك التي كانت تتعب من القتال الطويل وتنسحب للاستراحة، وهو أمر لم يكن باستطاعة قواتنا القيام به نظراً لقلة عددها كما أنه لم يكن على طول خط القتال رجال متعبون فحسب بل كان هناك الجرحى أيضاً الذين كان لزاماً عليهم البقاء في مواقعهم دون أية فرصة للراحة.

وبعد أكثر من ست ساعات من القتال المتواصل كان الرومان على وشك فقدان كل قوة يمتلكونها خاصة أنه لم تعد لديهم أية أسلحة يقومون بإطلاقها أو رميها باتجاه العدو، بينما استمر العدو بالضغط عليهم أكثر فأكثر مستفيداً من حالة شعورهم بالإرهاق كي يقتحم من خلال الأسوار ويملأ الخنادق.

كانت الحالة سيئة أكثر مما يستطيع الإنسان أن يتخيل. وجاء باكولوس *Bacaulus*، قائد سرايا المئة الذي اقعدته عن العمل جراح كثيرة ألمت به أثناء معركته مع النيرفيين *Nervii*، مسرعاً إلى جالبا ويرفقته غيوس فولوسينوس كوادراتوس *Gaius volusenus Quadratus* وهو واحد من التريبيونات العسكريين، عُرف بحصافة عقله وسداد رأيه وعظمة شجاعته وأخبر جالبا أن الأمل الوحيد لهم بالنجاة هو تجريب آخر وسيلة لديهم وهي القيام بهجوم مفاجئ عبر خطوط العدو. وتبعاً لذلك استدعى جالبا قادة المئة للحضور إليه وشرح لهم الخطة الجديدة وأرسلهم مباشرة إلى قواتهم كي يوضحوها لهم أيضاً. وكان عليهم التوقف عن أية أعمال هجومية لبعض الوقت واللجوء إلى استخدام تروسهم لاعتراض قذائف العدو فقط. وبعد أن يكونوا قد تعافوا من حالة الإجهاد التي أصابتهم نتيجة القتال الطويل ستعطى لهم إشارة الانطلاق من المعسكر. وعندئذ سيكون عليهم الاعتماد على شجاعتهم وبسالتهم في إنقاذ أرواحهم. وتم تنفيذ هذه الأوامر على النحو اللازم. وحينما أعطيت لهم الإشارة اندفعوا بصورة مباغتة خارجين من بوابات المعسكر

جميعها دون منح العدو أي فرصة لإدراك ما كان يجري، أو للقيام بأي استعدادات لمواجهة انقضاضهم. وقلب ذلك بالفعل مشيئة القدر. فالغاليون الذين تطلعوا إلى الاستيلاء على المعسكر الروماني أصبحوا الآن أنفسهم محاصرين وفي حالة عزلة تامة. وبلغ عدد القوات التي شاركت في هجومها علينا أكثر من ثلاثين ألفاً قتل ثلثها أو أكثر قليلاً، أما الباقون فقد ولوا الأدبار مصعوقين بالخوف والرعب، ولم يسمح لهم بالتوقف حتى فوق المرتفعات الجبلية. وبعد أن تمت الإطاحة بكامل الجيش المعادي وتم تجريدهم من أسلحتهم، عادت القوات الرومانية إلى ملاجئها داخل التحصينات التي كانت قد أقامتها. وبعد هذا النجاح الذي حققه جالبا لم يرغب في خوض أي مجازفات أخرى، حيث أن التصرف الذي اضطرته الظروف لاتخاذه كان شيئاً لم يسبق له أبداً أن توقعه أو فكر به أو عزم عليه حينما أُرسل إلى هناك لقضاء فصل الشتاء مع فيلقه. هذا إضافة إلى أنه كانت هناك ندرة بمادة الحنطة وبقية المؤن الضرورية الأخرى. ولذلك قام في اليوم التالي بحرق شتى الأبنية في القرية وسارع بالعودة إلى المقاطعة الرومانية. ولم تعق زحفه أثناء العودة مع قواته أية قوات معادية، كما لم يؤخره أحد. وقاد فيلقه بأمان وسلام عبر إقليم النانتيواتيين ومن ثم عبر إقليم الألوبروجيين حيث أمضى فصل الشتاء هناك.

التمرد الأول

(٥٦ ق.م)

١- القتال على الساحل الأطلنطي (٥٦ ق.م)

باستكمال هذه العمليات كان لدى قيصر كل دواعي الاعتقاد بأن غاليا تنعم بالهدوء والسلام: فالبلجيون قد تم التغلب عليهم وقهر قواتهم، والجرمان تم طردهم والسيدونيون تمت الإطاحة بهم في جبال الألب، ولذلك انطلق في فصل الشتاء باتجاه الميريا *Illyria* راغباً في توسيع اطلاعه وتعميق معرفته بالبلدان الخاضعة لسيطرته من خلال زيارة قبائل تلك المنطقة. لكن الحرب عادت واندلعت مجدداً وبصورة مفاجئة في غاليا. وكان سبب نشوب هذه الحرب الإجراء الذي قام به الشاب بوبليوس كراسوس *Publius Crassus* الذي كان يشغل مع فيلقه السابع الشتوي الواقع بالقرب من الأطلسي في إقليم الأنديين. فعلى اعتبار أن المواد الغذائية كانت نادرة التوفر في ذلك الإقليم أرسل كراسوس عدداً من ضباطه المساعدين وتريبوناته العسكريين إلى الشعوب المجاورة بحثاً عن مؤونة من الحنطة وبعض المؤن الأخرى فأرسل تيتوس تيراسيديوس *Titus Terrasidius* إلى الإسيوفيين *Essuvi*، وماركوس تريبيوس غالوس *Marcus Trebius Gallus* إلى الكوريوسوليتيين *Coriosolites*، وكونيتوس فيلانيوس *Quintus Velaniuns* وتيتوس سيلليوس *Titus Sillius* إلى الفينيتيين *Veneti*، وكان برفقة كل منهم مجموعة ضباط آخرين.

كان الفينيتيون هم القبيلة الأكبر والأضخم على الساحل الأطلسي وكان لديهم الأسطول الأعظم من السفن والمراكب التي كانوا بواسطته يتاجرون مع بريطانيا.

وقد تفوق الفينيتيون على بقية القبائل الأخرى بمعرفتهم بالملاحة البحرية وبتجربتهم فيها ولما كان الساحل في وضع يجعله عرضة لأعمال العنف من المحيط المكشوف ولم تكن على طوله سوى بضعة مرافئ يسيطر عليها الفينيتيون جميعها فقد أجبروا كل من يبحر في

تلك المياه على دفع الضريبة وكانوا هم البادئين في الشروع بأعمال مناوئة للرومان من خلال احتجازهم لسيلليوس *Sillius* وفيلانيوس *Velanius* وكل من كان بإمكانهم الإمساك به من الآخرين أملين من خلال هذا التصرف استعادة الرهائن التي كانوا قد قدموها لكراسوس *Crasus*، وقد حذا حذو الفينيتيين جيرانهم الذين قاموا – بالاندفاع المتهور الذي تتميز به الشخصية الغالية وتتميز به أفعالهم وتصرفاتهم – باحتجاز تريبيوس *Trebius* وتيراسيديوس *Terrasidius* وبنفس الحافز وذات المحرض. وبعد أن أرسل زعماء الفينتيين وجيرانهم مبعوثين على عجل الواحد منهم للآخر، وعدوا مختلف القبائل بعدم التصرف بانفراد أو القيام بنشاطات منفصلة بل الاشتراك معاً في أي تصرف مهما يكن المصير الذي قد يحل بهم. كما حثوا القبائل الأخرى على الاحتفاظ بحرياتها الموروثة وعدم الخضوع للنير الروماني. وكسبوا بسرعة موالاة والتزام شتى الشعوب البحرية التي قامت بإرسال هيئة مشتركة من الممثلين تدعو كراسوس إلى إعادة رهائنهم إليهم إن يرغب في استرجاع ضباطه المحتجزين.

كان قيصر بعيداً جداً عن غاليا حينما علم بهذه الأحداث والتطورات من قبل كراسوس، لذا قام بتوجيه أتباعه ومرؤوسيه نحو استغلال الزمن الذي سينقضي ريثما يصل إليه ببناء سفن حربية على نهر لوار *Loire* الذي يصب في الأطلنطي وبتطويع وتجنيد طواقم لهذه السفن من المقاطعة الرومانية، وبتدبير بحارة وقباطنة. وأوليت هذه الأوامر العناية الفائقة على الفور، وعاد قيصر بعد ذلك للانضمام إلى قواته حالما بدأ موسم الحملات. وحينما علم الفينيتيون والقبائل الأخرى بوصول قيصر وبالاستعدادات التي أتخذها الرومان، أدركوا فظاعة الجريمة التي اقترفوها باحتجازهم وسجنهم للمبعوثين. وهم هيئة عدتها مختلف الأمم مقدسة دائماً، لها حرمتها وحصانتها اللتان لا يمكن انتهاكهما تحت أية ظروف – وبدأوا بالتأهب للحرب واتخاذ تجهيزاتهم التي تتناسب ودرجة الخطر الذي يحيق بهم، منتبهين بصورة خاصة إلى موضوع توفير المعدات اللازمة لسفنهم. ومما زاد من أملهم بالنجاح الثقة الكبيرة التي وضعوها بالقوة التي منحتها الطبيعة لبلادهم وبما يتميز بها موقعها من خصائص جغرافية. فكانوا يدركون أن الطرق مقطوعة بواسطة خلجان صغيرة خاضعة لعمليتي المد والجزر وأن الإبحار سيكون صعباً وشائكاً بالنسبة لنا اعتماداً على جهلنا بالممرات المائية وندرة المرافئ. وأحسوا بأنهم واثقون من أن جيوشنا ستمنع من البقاء هناك مطولاً بالنظر لما ستفتقره من مؤونة الحبوب. واعتقدوا أنهم حتى لو خابت كل توقعاتهم فإنهم يمتلكون أسطولاً قوياً جباراً بينما لا تتوفر لنا أي سفن، وليست لدينا أي معرفة بمواقع المياه الضحلة أو بمرافئ وجزر الساحل الذي سيكون علينا القتال فوقه، إضافة إلى أن الإبحار في محيط واسع وعريض

كان من الجلي أنه أمر مختلف عن الإبحار في بحار تحيط بها اليابسة من كل مكان كالبحر الأبيض المتوسط. وبعد أن فرغوا من اتخاذ قرارهم بالقتال قاموا بتحصين قلاعهم وبالتزود بالحنطة من الحقول وبجمع أكبر عدد ممكن من السفن على ساحل فينيشيا *Venetia* حيث أعتقد عموماً أن قيصر سيستأنف عملياته العسكرية من هناك، وضمنوا لأنفسهم تحالفاً مع شتى القبائل المجاورة[1] ومع قبيلة المورينيين *Morini* والميناپيين *Menapi* واستدعوا تعزيزات من بريطانيا الواقعة قبالة ذلك الجزء من غاليا.

كان لدى قيصر على الرغم من شتى الصعاب والعقبات عدة أسباب قوية تدفعه للقيام بهذه الحملة: الاحتجاز غير الشرعي وغير القانوني للفرسان الرومان، التمرد واستئناف الأعمال العدوانية من قبل أعداء سبق لهم أن أعلنوا خضوعهم للحكم الروماني وقدموا الرهائن إشعاراً بذلك، تحالف عدد كبير من القبائل ضده، وفوق كل هذا الخطر الناجم عن ترك هؤلاء يعيثون فساداً بدون عقاب، واحتمالية تفكير القبائل الأخرى بانتهاج نفس الأسلوب متخذين منهم مثلاً. واعتماداً على إدراك قيصر أن القسم الأعظم من الغاليين مولع بالتغيرات السياسية، وسريع الانقياد نحو الحرب ومن السهل إثارته في ذلك الاتجاه، ومعرفته الأكيدة بأن من الطبيعي أن يحب جميع الناس الحرية ويكرهون العبودية، فقد اعتقد قيصر أن من الأفضل له تقسيم قواته وتوزيعها ضمن منطقة أوسع قبل أن تتمكن قبائل أخرى من الانضمام إلى الائتلاف. لذا أرسل لابينوس *Labienus* مع بعض عناصر سلاح الفرسان إلى إقليم التريفيريين *Treveri* بجانب نهر الراين. وكانت أوامره تنص على القيام بالاتصال بالريميين وبالقبائل البلجيكية الأخرى ومعرفة ما إذا كانت لا تزال موالية للرومان، وإيقاف الجرمان الذين قيل إن بعض الغاليين قد استدعوهم للمساعدة، إذا حاولوا شق طريق عبر النهر بالقوارب. وطلب من بوبليوس كراسوس الزحف نحو اكويتانيا *Aquitania* بصحبة اثنتي عشرة كتيبة من الفيالق وقوة جبارة من الفرسان كي تقوم بمنع إرسال أي تعزيزات إلى الغال السلتيين *Cellic Gauls* وبتشكيل تحالف فيما بين هذه الشعوب القوية. وأرسل سابينوس مع ثلاثة فيالق لقمع الفينيليين *Veuelli* والكوريوسوليتيين والليكسوفيين *Lexovii* وذلك بغية إبقاء ذلك القطاع من المتمردين معزولاً. وعُين الشاب ديسايموس بروتوس *Decimus Brutus* على رأس الأسطول بما في ذلك السفن الغالية التي كان قيصر قد أمر البيكتونيين *Pictones*

---

(١) الاوسيزميون*Osismi* والليكوفيون *Lexovli* والنامنيتيون *Namnetes* والامبيلياتيون *Ambiliati* والديابلينتيون *Diablinets*.

والسانتونيينن *Santeni* والقبائل الأخرى في المناطق المفتوحة بتقديمها. وكانت الأوامر التي أعطيت إلى بروتوس تقضي بالإبحار سريعاً إلى فينيشيا *Venetia* ، حيث زحف قيصر نفسه إلى هناك وبرفقته القوات الأرضية.

كانت معظم قلاع الفينيتيين *Veneti* تتوضع عند حواف ألسنة أرضية أو رؤوس صخرية تمتد داخل المياه بحيث يصبح من المستحيل بلوغها براً حينما يصيبها المد من المحيط المكشوف، وهو أمر يحدث دورياً كل اثنتي عشرة ساعة. كما من الصعوبة الوصول إليها عن طريق البحر لأن السفن تجنح فوق مناطق المياه الضحلة حينما يكون المد منخفضاً. لذا كانت مهاجمة القلاع، بالنظر لهذه الأسباب، أمراً صعباً. كان الرومان في بعض الأحيان يجعلون أمر الدفاع عن مثل هذه القلاع متعذراً من خلال بنائهم لجدران ضخمة تفصلها عن البحر وتمكن المحاصرين من الصعود إلى ارتفاع يوازي قمم أسوار القلاع. لكن حالما كان المدافعون عن القلاع يدركون أن موقعهم قد غدا عديم الفائدة وأصبحوا في وضع يائس كانوا يحضرون عدداً من السفن – التي يمتلكون منها أعداداً كبيرة – وينقلون إليها كل ممتلكاتهم وينسحبون إلى قلاع مجاورة ذات مواقع حسنة وملائمة للأعمال الدفاعية. وجد الرومان أن من السهل عليهم اتباع مثل هذه الفنون والتكتيكات الحربية خلال معظم فصل الصيف وذلك لأن سفننا كانت موثقة بحالة الجو وكان الإبحار أمراً محفوفاً بالمخاطر في ذلك البحر الفسيح المكشوف حيث حركة المد مرتفعة والمرافئ نادرة الوجود.

كانت سفن الغاليين مختلفة عن سفننا سواء من حيث بنائها أو تجهيزها أو أشرعتها، فقد ركبت بحيث جُعلت أرضيتها مسطحة كثيراً لتساعدهم على ركوب المياه الضحلة التي تسببها عملية الجزر أو الموجودة في بعض المناطق. وكانت ذات مقدمة ومؤخرة عاليتين على نحو استثنائي للاستعمال في المياه الثقيلة وأثناء العواصف الهوجاء. أما جسم السفينة فقد صنع برمته من خشب السنديان كي يمكنهم من تحمل أية صدمات مهما تكن وجعل استخدامها في ظروف قاسية وعسيرة أمراً ممكناً. أما أضلاع الصواري الخشبية والمؤلفة من دعامات وعوارض كل منها بعرض قدم واحد فقد ثبتت بمسامير حديدية ملولبة ثخينة ثخانة إبهام الرجل. كما ثبتت المراسي بسلاسل حديدية بدلاً من الحبال. وقد استخدموا أشرعة مصنوعة من جلود الحيوانات الخام أو من الجلود الرقيقة إما بسبب عدم امتلاكهم للكتان أو بسبب جهلهم لاستخدام أو على الأرجح بسبب اعتقادهم أن الأشرعة العادية لن تكون قادرة على تحمل عواصف الأطلسي الهوجاء ورياحه العنيفة المصحوبة بالثلوج أو الأمطار، وليست ملائمة لمثل هذه المراكب الضخمة، وفي التحامنا معهم كانت الميزة الوحيدة التي تمتعت بها سفننا

هي أنها أسرع من سفنهم ويمكن دفعها بواسطة المجاذيف، أما في بقية النواحي الأخرى فقد كانت سفن العدو أفضل بكثير من حيث ملائمتها للإبحار في مثل هذه المياه الغادرة المنذرة بالعواصف. ولم يكن باستطاعتنا إلحاق الضرر بها من خلال الاصطدام بها بقوة لأنها كانت مبنية على نحو صلب ومتين جداً، كما أن علوها الشاهق جعل أمر بلوغها بالقذائف أو الصعود إليها بواسطة قضبان حديدية محكمة التثبيت صعباً. علاوة على ذلك فإنها كانت عندما تهب عواصف شديدة وتنساب بسرعة الريح تنجو من العاصفة بكل سهولة، حيث بالإمكان التوجه بها نحو مناطق المياه الضحلة بكل طمأنينة وسلام، وكانت عندما تجنح بسبب المد لا تخشى أبداً الحيدان البحرية أو الصخور ذات الرؤوس. هذا في حين أن كل هذه المخاطر كانت بالنسبة لسفننا مرعبة ومخيفة.

بعد أن استولى قيصر على عدد كبير من قلاعهم وجد أن جهوده ضاعت سدى، حيث أن استيلاءه على القلاع لم يمنع العدو من النجاة أو الإفلات، ولم يكن قيصر بوضع يمكنه من شل حركتهم. لذا قرر أن من الضروري له انتظار أسطوله كي يُركّب ويُجمع ويحضر إليه. وبعد أن تم ذلك مباشرة، جاشت فوق المياه على مرأى أبصارنا، وعلى نحو مفاجئ، سفن أسطول العدو، حيث أبحرت حوالي مئتين وعشرين سفينة معادية مكتملة التجهيز ومستعدة للقتال المباشر خارجةً من مرفئها واتخذت لنفسها مواقع قتالية. لم يكن بإمكان قائد أسطولنا بروتوس أو تريبيوناته العسكريين أو قادة المئة المسؤولين عن السفن الإفرادية تقرير ما يجب القيام به أو تحديد تكتيك حربي باستطاعتنا تبنيه. فقد كانوا يدركون بأننا غير قادرين إلى إلحاق الضرر بأسطول العدو من خلال الاصطدام بسفنه، وحينما حاولوا نصب الأبراج وجدوا أن مؤخرات سفن العدو الشاهقة لا تزال تبزهم ارتفاعاً وعلواً وأنهم في مستوى أخفض، بحيث لا يستطيعون جعل قذائفهم تنطلق كما ينبغي وبالدقة المطلوبة، هذا بينما أخذ العدو يقترب بكامل جبروته وقوته. غير أن الوسيلة الوحيدة، أو بالأحرى المكيدة الوحيدة، التي كان قد أعدها رجالنا وبرهنت عن نجاعتها وفائدتها كانت استخدام كلابات أو خطافات مستدقة الرؤوس مثبتة عند نهاية أعمدة طويلة لا تختلف كثيراً عن الكلابات التي تثبت بواسطتها المراكب والتي تستخدم في عمليات الحصار والمحاصرة. وبواسطة هذه الكلابات المسننة تمّ الإمساك بحبال الأشرعة التي تستعمل لرفعها وخفضها. وتم سحبها بشكل محكم ومن ثم أنتزعت بواسطة تجذيف سفننا بعيداً بصورة متواصلة وبجهد شاق. وأدى هذا الأمر طبعاً إلى سقوط عوارض الأشرعة في سفن العدو. ولما كانت السفن الغالية تعتمد كلياً على أشرعتها وحبال الأشرعة والصواري فيها فإنها الآن بعد أن انتزعت منها غدت

مباشرة شبه مشلولة عن الحركة وشبه متجمدة في مكانها وأصبحت المعركة بعد ذلك معركة جنود ضد جنود كان من السهل على الرومان فيها إثبات تفوقهم خاصة وأنه تم خوضها على مرأى من أعين قيصر وشتى فيالق الجيش. فأي تصرف ينم عن بسالة متميزة أو شجاعة نادرة كان قيد الملاحظة من الجميع. ففوق كل المنحدرات الصخرية الشاهقة والتلال المطلة على المحيط كانت تنتشر قواتنا. وعندما تم تمزيق عوارض الأشرعة للسفن المعادية واحدة تلو الأخرى بالطريقة التي وضعناها آنفاً كانت تتوجه إليها سفينتان أو ثلاث من سفننا وتتخذ لنفسها مكاناً على طول السفينة المعادية حيث كان الجند حينئذٍ يبذلون جهوداً عظيمة للصعود على متنها. وحينما شاهد جند الأعداء ما كان يحدث وبعد فقدان العديد من سفنهم وعدم تمكنهم من إيجاد رد مناسب لهذا التكتيك الحربي الروماني، حاولوا النجاة بأرواحهم فراراً من المكان. وكانوا قد وضعوا سفنهم سلفاً في وجه الريح حينما حلت فجأة حالة من الهدوء القاتل والسكينة الصامتة إلى حد أنهم لم يتمكنوا من التحرك قيد شعرة. وما من شيء آخر سوى هذه الحالة من هدوء الريح كان بإمكانه أن يكون جالباً لحظ سعيد لنا أكثر من ذلك. فقد مكننا هذا الأمر من استكمال انتصارنا من خلال مطاردتنا وأسرنا لمراكب العدو واحد بعد الآخر، خلا قلة قليلة منها استطاعت الوصول إلى البر عندما حلَّ الظلام بعد معركة دامت من الساعة العاشرة صباحاً تقريباً حتى المغيب.

وأنهى هذا النصر الحرب مع الفينيتيين وشتى القبائل البحرية الأخرى، ذلك لأنهم حشدوا لهذه الحرب، إضافة إلى كل الرجال ضمن سن الخدمة العسكرية وكل من كان أكبر سناً من الرجال أصحاب المكانة الرفيعة أو الشهرة بحصافة العقل وسداد الرأي وحسن إطلاق الأحكام، كل سفينة كانوا يمتلكونها من سفنهم. أما الآن وبعد أن ضاعوا جميعاً فإن الباقين منهم على قيد الحياة لم يعد لديهم ملجأ أو ملاذ يأوون إليه أو أي وسائل للدفاع عن قلاعهم. لذا أعلنوا استسلامهم إلى قيصر مع كل ممتلكاتهم، لكن قيصر قرر أن يجعل منهم مثلاً كي يلقن السكان الأصليين درساً يعلمهم فيه كيف ينبغي عليهم أن يكونوا أكثر حذراً في المستقبل في احترامهم لحقوق السفراء والمبعوثين، فقام بإعدام كل أعضاء مجالسهم وباع الباقين من السكان كعبيد.

بينما كانت هذه الأحداث تجري في بلاد الفينيتيين وصل سابينوس على رأس القوات التي خصصت له إلى إقليم الفينيلليين *Venelli*، وكان زعيم هؤلاء يدعى فيريدو فيكس *Virido Vixk*، وهو القائد العام للقبائل المتمردة كافة التي استطاع أن يجمع منها جيشاً عرمرماً. بعد وصول سابينوس ببضعة أيام قام الإيبورفيسيون *Eburovices* والأوليرسيون

Avlerci والليكسوفيون *Lexovii* بذبح أعضاء مجالسهم لأنهم لم يقرروا لهم سياسة الذهاب للحرب وإغلاق بواباتهم والانضمام إلى فيريدوفيكس. وهناك أيضاً قاموا بتعبئة جيش ضخم من المجرمين اليائسين والمتهورين ومن اللصوص وقطاع الطرق من مختلف أرجاء غاليا حيث كان مشهد القتال بالنسبة لهؤلاء أكثر جاذبية من الزراعة والعمل المنظم. ورفض سابينوس الخروج من معسكره الذي كان يتمتع بموقع مثالي، في حين كان فيريدوفيكس الذي أقام معسكره قبالة المعسكر الروماني وعلى بعد ميلين منه يقود قواته يومياً خارجاً من معسكره ويستعرض عضلاته ويعرض استعداده للمعركة. أخذ الغاليون بازدراء سابينوس والاستخفاف به حتى أن بعضاً من قوات سابينوس نفسه أبدى ملاحظات مهينة حول تراخيه في اتخاذ أي رد فعل على ذلك. وبهذا أقنع سابينوس العدو أخيراً بجبنه ورعدته مما شجعهم على محاولة الاقتراب كثيراً من سور معسكره. لقد كان السبب الحقيقي وراء تبطل سابينوس وعدم اتخاذه أي إجراء إزاء تصرفات العدو رأيه في أن صاحب القوة الأقل أو الأضعف ينبغي عليه عدم الاشتباك مع قوة معادية ضخمة كتلك التي كانت بحوزة فيريدوفيكس خاصة أثناء غياب قائده العام وعدم امتلاكه لميزة الموقع الأفضل أو لفرصة مواتية للقيام بالإجراء المناسب.

وبعدما توصل الجميع إلى قناعة تامة بأن سابينوس خائفاً من المواجهة، قام باختيار أحد الغاليين من قواته الاحتياطية، وكان سريع البديهة حاد الذكاء، ومناسباً لأداء المهمة التي كانت في ذهنه وأغراه بمكافآت سخية ووعود كثيرة قطعها على نفسه ليذهب إلى معسكر العدو. وشرح له ما كان يريد منه تنفيذه. وتوجه الرجل إلى العدو كهارب من جيش سابينوس وآبق من الرومان ووصف لهم خوف سابينوس وجيشه وحالة الرعب والهلع التي هم فيها، وقال إن قيصر نفسه قد أُنهك على يد الفينيتيين وأن سابينوس يخطط للانسلال مع قواته من معسكره خفية في الليلة التالية للذهاب إلى قيصر وتقديم المساعدة له. وحين سماع قادة العدو هذه الأنباء صاحوا جميعاً قائلين أن هذه الفرصة لتسجيل النصر على الرومان يجب أن لا تضيع. وقرروا أن عليهم الزحف إلى المعسكر. لقد كانوا في توصلهم إلى هذا القرار متأثرين بجملة عوامل: التردد الأخير لسابينوس، والتأكيدات التي جاء بها الفار من جيش سابينوس، ونقص المؤن لديهم حيث أنهم لم يحتاطوا لهذه الأمر بالشكل المناسب أو يتخذوا إزاءه الترتيبات اللازمة، وأملهم الكبير بتحقيق النصر في الحملة الفينيتية، والرغبة الطبيعية لدى الإنسان في ترجيح الجانب الرغبي في تفكيره من خلال اعتقاده بصحة شيء ما لمجرد رغبته في أن يكون ذلك الشيء صحيحاً. لقد كانت هذه الأفكار تعتلج في نفوسهم وقد أخذوا بها كثيراً حتى غدوا متلهفين تواقين لتنفيذ ما كان في تفكيرهم، إلى حد أنهم لم يرغبوا

بالسماح لفيريدوفيكس وللقادة الآخرين بمغادرة مكان الاجتماع إلا بعد أن حصلوا على موافقتهم بالتسلح وبالمباشرة بالهجوم على المعسكر الروماني. وحينما شقوا طريقهم إلى هناك كانوا في حالة من الجدل والاهتياج معتقدين أن النصر ضمن قبضة أيديهم، وزحفوا نحو المعسكر يحملون حزماً من القضبان والعصي وأغصان الشجر المقطوعة كي يملؤوا بها الخنادق المحيطة بمعسكر سابينوس.

كان المعسكر الروماني مبنياً على قمة منحدر يبعد عنهم حوالي ميل واحد. صعد الغاليون مسرعين فوق المنحدر إلى القمة كي يأخذوا الرومان على حين غرة وكي لا يمنحوهم فرصة لأخذ أسلحتهم والاستيقاظ من صدمة المفاجأة. وكان الغاليون منقطعي الأنفاس حين بلوغهم قمة المنحدر. وبعد مخاطبة سابينوس لقواته أعطاهم الإشارة المتفق عليها والتي كانوا هم بانتظارها على أحر من الجمر. وبينما أعيقت عناصر العدو التي كانت آنئذ تصعد فوق المنحدر بالحمولة التي كانت بحوزتها صدر أمر سابينوس لقواته ببدء هجوم مباغت من اثنتين من بوابات المعسكر. وبفضل الموقع المتميز للمعسكر الروماني، وفقدان العدو لأي براعة وحذق، وحالته المرهقة، وشجاعة جنودنا وتجاربهم وخبراتهم التي اكتسبوها في معارك سابقة، أجبر الهجوم الأول بمفرده الغاليين على أن يولوا الأدبار ويحاولوا الفرار، غير أنهم لم يكونوا في وضع يمكنهم من النجاة وكان من السهل على قواتنا المفعمة بالنشاط أن تلحق بهم وتجعل الرعب يستبد بهم وتقتل عدداً هائلاً منهم. أما الباقون فقد تمت الإحاطة بهم بواسطة عناصر الفرسان باستثناء قلة قليلة منهم تمكنت من الإفلات. وفي الوقت ذاته الذي أخبر به سابينوس قيصر بانتصاره على الفينيتيين وصلت إلى مسامعه أنباء المعركة البحرية التي خاضتها القوات الرومانية بقيادة قيصر، وخبر خضوع الأقاليم المتمردة كافة لسلطاته. فالغاليون بقدر ما هم متسرعين ومتهورين باتخاذ قراراتهم بحمل السلاح والتوجه إلى ميادين القتال بقدر ما يفتقدون في الوقت ذاته إلى قوة الشخصية للوقوف في وجه النكسات والهزائم والظروف النقيضة والمضادة.

٢- حملة ناجحة على اكويتانيا عام (٥٦ ق.م) *Aquitania*

وصل بوبليوس كراسوس عند هذا الوقت تقريباً إلى اكويتانيا عالماً تمام العلم أن عليه أن يقاتل في ذات البلاد التي كان القائد لوسيوس فاليريوس بريكونينوس *Lucius Valerius Praeconinus* قبل بضع سنوات خلت، وبالتحديد في عام (٧٨ ق.م) قد هزم فيها وقتل. وأجبر فيها نائب القنصل لوسيوس مانليوس *lucius Manlius* على التقهقر وفقدان كل معداته

الثقيلة. لذا أدرك أن عليه أن يتوجه إليها بأقصى درجات الحذر والحيطة، فقام بادئ ذي بدء بترتيب موضوع التزود بالمؤن وبحشد قوات احتياطية وتعبئة قوات فرسان واستدعى إليه على نحو إفرادي الكثير من الرجال ذوي الشجاعة المجرية من طولوز *toulouse* وكاركاسون *Carcassone* وناربون *Narbonne* وهي مدن في المقاطعة الرومانية لا تبعد كثيراً عن اكويتانيا. وزحف بعد ذلك نحو منطقة السوتاتيين *Sotiates* الذين قاموا، حين سماعهم بخبر اقترابه منهم، بجمع قوة ضخمة أرسلوها أمام قوات فرسانهم التي عُرف عنها أنها غاية في القوة والشدة والجبروت. وهاجموا رتل قواتنا أثناء زحفه مستخدمين قوة فرسانهم أولاً. وحينما صد هذا الهجوم وطاردت قواتنا فرسانهم أطلقوا العنان، وعلى نحو مفاجئ، لقوات مشاتهم التي كانت تشكل كمينا لقواتنا في أحد الوديان. وجددت قوات المشاة هذه القتال ثانية من خلال انقضاضها على قواتنا وهي في حالة من الفوضى. وتلا ذلك صراع ضارٍ استمر طويلاً، فسجل السوتياتيين الحافل بالانتصارات السابقة كان يملأ قلوبهم شجاعة وجرأة لخوض القتال، علاوة على أنهم اعتقدوا أن مصير اكويتانيا برمتها متوقف على بسالتهم، في حين أرادت قواتنا أن تظهر ما كان بإمكانها أن تفعله في غياب قائدها العام وبقية الفيالق الأخرى وتحت إمرة قائد شاب. وفي نهاية المطاف أرهقت الجراح الأعداء فأداروا ظهورهم وولوا الأدبار هاربين من الميدان. وبعد أن قتل كراسوس عدداً كبيراً منهم تقدم إلى مدينتهم وزحف مباشرة للقيام بعملية الهجوم والانقضاض على القوات المعادية. لكنه لما وجد أن حاميتها تظهر مقاومة صلبة وعنيدة رفع واقياته المتحركة ونصب أبراجه. حاول العدو مبدئياً مهاجمة هذه النقاط ومن ثم شق نفقاً باتجاه الواقيات النقالة ومصطبة الحصار التي بناها كراسوس حول أسوار المدينة، والاكوتيانيون يبزون بقية القبائل في قدرتهم على حفر مثل هذه الأنفاق نظراً لوجود مناجم النحاس والمقالع في شتى أرجاء بلادهم. غير أنهم حينما أدركوا أن يقظة قواتنا تمنعهم من إحداث أية آثار في ما أقامه كراسوس من وسائط الحصار والحواجز الدفاعية أرسلوا إلى كراسوس مبعوثين يطلبون منه قبول استسلامهم. وافق كراسوس على عرضهم وتم تسليم أسلحتهم إليه بناءً على أوامره.

وبينما كانت أذهان الجميع مشدودة إلى هذه الأحداث حاول ملك القبيلة أدياتويانوس *Adiatunus* القيام بهجوم ضد قواتنا انطلاقاً من جزء آخر من المدينة وبرفقته ستمائة نصير ارتبطوا به بعد أدائهم لقسم الولاء. يطلق السوتياتيون على هؤلاء الأشخاص اسم السولديوريين *Soldurii*، والصديق الذي يعلّق هؤلاء أنفسهم به يتعهد لهم بمشاركتهم كل متع الحياة بناءً على مبدأ يتفاهمون عليه ينص على أنهم إما أن يشاركوه مصيره أو أن يقتلوا أنفسهم إن يلاقي

هو نهاية غير طبيعية. وما من امرئ يذكر أن واحداً من هؤلاء قد عرف عند أنه رفض الموت حينما كان يُقتل صديق له كان هو قد أقسم الولاء له.

وعلت الأصوات من جانب قريب من التحصينات الرومانية المضروبة حول المدينة وسارع الجند لأخذ أسلحتهم. وبعد قتال ضار ومرير بين الفريقين تم صد ادياتويانوس نحو المدينة، لكنه على الرغم مما كان قد حدث أقنع كراسوس بعد إلحاح شديد بالسماح له بالاستسلام بنفس الشروط التي استسلم بها الآخرون.

بعد أن تسلم كراسوس الأسلحة والرهائن من جماعة ادياتويانوس توجه إلى بلاد الفوكاتيين *Vocates* والتاروساتيين *Tarusates* حيث أصبح الأهالي في هاتين المنطقتين الآن في حالة من الذعر والهلع الشديدين بعدما وصل إلى مسامعهم خبر أن مدينة اكويتانيا، وهي المدينة التي تتمتع بحماية متميزة نتيجة جغرافية موقعها ومناعة تحصيناتها، قد سقطت خلال بضعة أيام من وصول جيشنا إليها. لذا قاموا بإرسال مبعوثين عنهم إلى جيرانهم القاطنين في مختلف أطراف بلادهم، وأعطوا وعوداً بالإخلاص المتبادل والوفاء والولاء، وتبادلوا الرهائن، وعبأوا قواتهم تهيؤاً للحرب. حتى أنهم بعثوا بمندوبين إلى القبائل القريبة جداً منهم والمقيمة في الشمال الإسباني للحصول منها على تعزيزات عسكرية وجنرالات وقادة. وقد مكنهم وصول هؤلاء إليهم من النزول إلى ميدان المعركة بقوات ضخمة تحت إمرة قادة ذوي شأن واعتبار سبق لهم أن خدموا خلال الحرب الإسبانية كلها تحت قيادة كونيتوس سيرتوريوس *Quintus Sertorius* وكانوا خبراء عسكريين تحلوا بسمعة استثنائية على صعيد التفكير العسكري والتجربة القتالية. وقاموا على نحو ما قام به الرومان، باحتلال مواقع منتقاة وتطويق معسكرهم بالخنادق.

اتخذوا الإجراءات اللازمة لاعتراض قوافل المؤن التابعة لنا. كانت قوات كراسوس قليلة جداً إلى حد أنه لم يكن بالإمكان تقسيمها وتوزيعها على قطاعات منفصلة، في حين كانت قوات العدو قادرة على أن تطوف في أرياف المدن وتسد الطرقات وبذات الوقت توفر للمعسكر حماية كافية. وعندما وجد كراسوس أن هذا الوضع سيجعل من الصعوبة عليه تأمين وصول مؤونة الحبوب والمؤن الأخرى وأن عدد أفراد العدو يزداد بإطراد متواصل يومياً، اعتقد أن من الأفضل له أن لا يضيع أي وقت، وأن لا يتأخر أبداً في قيامه بعملية جر العدو إلى معركة فاصلة. وحينما أحال هذا الموضوع إلى مجلس حربه وجد أن الجميع يوافقونه الرأي، ولذلك قرر القتال في اليوم التالي.

وعند فجر اليوم التالي أخرج كراسوس كل قواته من المعسكر ونشرهم ضمن خطين قتاليين، وركز قواته الاحتياطية في الوسط وانتظر ليرى أي خطة قتالية كانت لدى العدو. فعلى الرغم من أنه كانت لدى الغاليين، بالنظر إلى تفوقهم العددي الهائل وسجلهم العسكري الناصع، كامل الثقة في النتيجة الإيجابية لأي اشتباك قد يحصل، اعتقدوا أن من الأسلم لهم إحراز نصر دون سفك دماء من خلال إغلاق الطرق واعتراض قوافل مؤن الرومان. وفي حال تم إجبار الرومان على التراجع بسبب نقص الأغذية لديهم فإن فكرتهم كانت القيام بمهاجمتهم أثناء انسحابهم حيث سيتعرقلون ويعاقون بوجود معدات نقلهم العسكرية في طريقهم، فتثبط هممهم وتفتر عزائمهم وتكتسح الكآبة نفوسهم من خلال اضطرارهم للقتال وأحمالهم فوق ظهورهم. واستحسن قادتهم هذه الخطط. وحينما نشر الرومان قواتهم بقي الغاليون في معسكرهم. ولاحظ كراسوس هذا الأمر، وعلى اعتبار أن تمنُّع العدو على النزول إلى الميدان واستئناف القتال قد أعطى لقواتنا انطباعاً بأن العدو يشعر بالخوف، الأمر الذي صعّد من الروح القتالية لديهم، فقد سمع الجميع يقولون إنه يجب مهاجمة المعسكر المعادي دون أي تباطؤ أو تأجيل فألقى كراسوس بهم خطبته التقليدية المعتادة واتفق مع رغبتهم الجماعية في التقدم للهجوم. ملأ بعضهم خنادق المعسكر المعادي في حين أجبر البعض الآخر المدافعين عن الأسوار الواقية للمعسكر والخنادق الدفاعية المحيطة به على التخلي عنها والارتداد إلى الوراء بواسطة وابل غزير من القذائف. هذا في حين قامت قواتنا الاحتياطية التي كانت ثقة كراسوس ببراعتها القتالية قليلة للغاية بتزويد الآخرين بالحجارة والأسلحة وبإحضار كميات هائلة من التراب والأعشاب والجذور لإقامة الحافة الترابية، وبذلك ظهروا وبصورة مقنعة على أنهم يؤدون واجباتهم القتالية على أحسن وجه. والعدو من جانبه أيضاً أبدى مقاومة جريئة وأكيدة، حيث كانت الرماح التي كانوا يطلقونها على قواتنا من موقعهم المرتفع تنجز أعمالاً حاسمة وتوقع أثراً مدمراً. وأثناء ذلك نقلت مجموعة فرساننا التي امتطت جيادها وأخذت تطوف حول المعسكر المعادي إلى كراسوس أن الجانب الخلفي من المعسكر ليس محصناً تحصيناً منيعاً ويمكن أن يكون مدخلاً سهلاً إلى المعسكر. طلب كراسوس من ضباط فرسانه القيام بتشجيع عناصرهم، من خلال إعطائهم وعوداً بمكافآت سخية، للمشاركة في مناورة رغب هو بتنفيذها. ووفق إشارات هؤلاء وتوجيهاتهم تم إخراج الكتائب التي كانت قد تركت لتحرس المعسكر الروماني والتي كانت لا تزال في أوج نشاطها وذروة قوتها سريعاً من المعسكر، وُطلب إليها أن تسلك طريقاً ملتوية، بحيث لا يستطيع العدو رؤيتها من معسكره، إلى ذلك الجزء من المعسكر المعادي حيث الدفاعات غير حصينة، على نحو ما أشرنا إليه

آنفاً، بينما اهتمام الجميع وانتباههم مشدود إلى القتال. قامت هذه الكتائب بإزالة التحصينات الموجودة أمامها في ذلك الجزء فاكتسبت بذلك موطئ قدم لها داخل المعسكر قبل أن يتمكن العدو من اكتشاف أمرها أو رؤيتها بوضوح أو يتفهم ما كان يجري. وحينما سمعت صيحات قواتنا عند الجانب الخلفي للمعسكر المعادي أحس جنودنا بأن قوتهم قد ازدادت وأن نشاطهم قد تضاعف وتجدد، على نحو ما يحدث عادة عندما يكون لدى المقاتلين أمل بالنصر، فأخذوا ببذل جهود خارقة. وجد العدو نفسه مطوقاً تماماً فغمره الشعور باليأس ولم تخطر على باله سوى فكرة الإلقاء بنفسه من فوق الأسوار والفرار بعيداً حفاظاً على أرواحهم. وطاردت عناصر فرساننا قوات العدو المهزومة في السهول المنبسطة الممتدة أمام معسكره حيث لم ينجُ من الخمسين ألف رجل الذين كانوا قد قاموا بتعبئتهم من اكويتانيا وكانتابري *Cantabri* سوى الربع أو بالكاد. وعاد فرساننا إلى معسكرهم بعد مطاردتهم للقوات المعادية في وقت متأخر من تلك الليلة.

حين تلقت معظم القبائل الأكويتانية(١) أنباء هذه المعركة أعلنت استسلامها لكراسوس وأرسلت له رهائن طوعاً منها ودون إكراه. ولم يحذُ حذو هذه القبائل سوى قلة قليلة من القبائل البعيدة معتمدة في نجاتها من نفس المصير على اقتراب فصل الشتاء وانتهاء موسم الحملات لهذا العام.

٣- حملة غير فاصلة ضد المورينيين *Morini* عام (٥٦ ق.م)

زحف قيصر عند حوالي ذات الوقت على الرغم من أن فصل الصيف قد شارف على الانتهاء، ضد المورينيين والمينابيين *Menapi*، الذين ظلوا في وقت أقيم فيه السلام في مختلف الأنحاء الأخرى من غالية، يحملون السلاح ومستعدين للقتال ولم يسبق لهم أبداً أن أرسلوا إلى قيصر مبعوثين عنهم سعياً وراء اتفاق أو سلام. لذا اعتقد قيصر أن حملة قصيرة تكفي لفتح أقاليمهم وإخضاعهم. وجد قيصر نفسه في مواجهة تكتيك حربي مختلف تماماً عما واجهه عند بقية الغاليين.

فهؤلاء حالما علموا بأن أقوى القبائل التي واجهت قيصر في ميدان القتال قد منيت بالهزيمة الساحقة، اتخذوا لأنفسهم ملجأ من شتى ممتلكاتهم في منطقة يحميها حزام متصل

---

(١) وتشتمل على التاربيليين *Tarbelli* والبيجريونيين *Bigerriones* والبتانيين *ptianii* والفوكاتيين *Vocates* والتاروساتيين *Tarusates* والأليوساتيين *Elusats* والغيتيين *Gates*، والأوسيين *Ausci*، والغارونيين *Garunni*، والسيبولاتيين *Sibulates* وأخيراً الكوكوساتيين *Cocosates*.

من الغابات والمستنقعات. وحين بلوغ قيصر حافة هذه الغابات بدأ بإشادة معسكر له. وكانت حتى تلك اللحظة لم تتم مشاهدة العدو في أي مكان. كان جندنا يعملون ضمن مجموعات مبعثرة هنا وهناك حينما اندفع الغاليون فجأة خارجين من الغابات ليشنوا هجومهم على قواتنا. تناول رجالنا أسلحتهم على عجل وتصدوا لهم ودفعوا بهم ثانية نحو الغابات. لكن بعد أن أنزلت بهم قواتنا خسائر جسيمة لاحقتهم ولمسافة بعيدة جداً وفوق أرضٍ صعبة وشائكة حتى أن قواتنا نفسها قد تكبدت بعض الخسائر القليلة. وانقضت بضعة أيام بعد ذلك كرست في قطع أشجار الغابات. ولكي يمنع قيصر جنده من الوقوع تحت وطأة هجوم مباغت من الأجناب وهم عزل من السلاح رتب خشب الأشجار المقطوعة بشكل موازٍ لخط تراجع العدو، وكدس الأخشاب ضمن أكوام متراكمة كي تشكل سوراً واقياً على كلا الجانبين.

وضمن وقت قصير، على نحو لا يصدق، اكتمل العمل في ممر غدا مكشوفاً لمسافة بعيدة جداً بعد قطع الأشجار منه. لكن حينما أصبح رعاع العدو ومؤخرة ناقلاته في أيدينا وهم يحاولون شق طريق لهم نحو الأجزاء الأكثر كثافة من الغابة طرأ تحول على الطقس وأصبح في غاية السوء، إلى حد كان من الضروري إيقاف نشاطاتنا كافة. وعلى اعتبار أن تهطال المطر استمر مطولاً فقد غدا من المستحيل إبقاء الجنود في الخيام بعد ذلك. وبالنتيجة، سحب قيصر قواته بعد أن قامت بتخريب وإتلاف شتى المناطق المحيطة وإحراق القرى والمزارع. ومن ثم قام قيصر بإيوائهم في بلاد الأوليرسيين *Aulerci* والليكسوفيين *Lexovi* والقبائل الأخرى التي كانت قد دخلت تحت لوائه حديثاً لإمضاء فصل الشتاء.

صد الغزو الجرماني على غاليا عام (٥٥ ق.م.)

١- مذبحة اليوسيبيتيين *Usipetes* والتينكثيريين *Tenctheri* عام (٥٥ ق.م.)

عندما بدأت في الشتاء التالي الفترة القنصلية لكل من بومبي *Pompey* وكراسوس *Crassus* عبر اليوسيبتيون والتينكثيريون، وهما قبيلتان جرمانيتان، نهر الراين بأعداد ضخمة عند نقطة ليست بعيدة كثيراً عن مصبه. فقد اضطر هؤلاء للنزوح عن أوطانهم بسبب تعرضهم، ولعدّة سنوات خلت، لإغارات مضايقة متكررة من قبل السويبيين *Suebi* ومنعهم من حراثة أراضيهم. كان السويبيون القبيلة الأكبر من غير منازع من حيث عدد أفرادها، والأكثر ولعاً بالحرب من بين الشعوب الجرمانية كافة. ويقال أن لديهم مائة إقليم يقدم كل منها سنوياً ألف رجل مسلح من أجل الخدمة في الحروب مع الأجانب. أما أولئك الذين يتركون في الوطن فإنه يتوجب عليهم تحمل عبء نفقة من هم في الجيش إضافة إلى تحمل نفقة أنفسهم. وفي السنة التالية يحلّون محلهم في الخدمة في حين يبقى الآخرون في الوطن. وعلى هذا الأساس يستمر العمل في الزراعة كما يستمر تلقي التعليم العسكري والتدريب دون انقطاع. ولكن ما من قطعة أرض تتبع لفرد ما من أفراد القبيلة كملكية شخصية، وما من أحد ما مسموح له بحراثة قطعة الأرض نفسها لأكثر من عام واحد. فهم لا يتناولون الكثير من أطعمة الحبوب وإنما يعيشون بصورة رئيسية على الحليب واللّحوم ويمضون معظم أوقاتهم في الصيد. وأكثر ما يستمتعون به هو طعامهم وتمريناتهم الجسدية اليومية والحريّة من القيود لأنهم منذ طفولتهم ونعومة أظفارهم لا يعرفون أي معنى للقسر أو الانضباط ولا يقومون بشيء ضد ميولهم ورغباتهم. وقد جعلت هذه العوامل مجتمعة منهم رجالاً أقوياء البنية وطويلي القامة أشبه بالعمالقة. ويعوّد السويبيون أنفسهم على الرغم من برودة المناخ الذي يعيشون فيه على عدم

ارتداء أي شيء آخر سوى الجلود، وغالباً ما تكون هذه الجلود قصيرة وغير كافية لتغطية كامل الجسد فيبقى القسم الأكبر من الجسم عارياً، وكذلك على السباحة في الأنهار. وأكثر من يسمح لهم بالمرور عبر بلادهم هم التجار وذلك لأنهم يرغبون في بيع غنائمهم لهم وليس لأنهم بحاجة لشراء أي واردات. حتى الخيول التي يتولّع بها الغاليون بشكل متطرف وجامح ويشترونها بأسعار باهظة ولا يستوردها الجرمان، فهم قانعون بالخيول التي تنتجها الخيول والتي رغم صغر حجمها وبشاعتها تروّض حتى تصير قادرة على القيام بأي عمل شاق وذلك من خلال التمرين اليومي والتدريب. وفي معارك الفرسان فإنهم غالباً ما يترجلون عن خيولهم ويقاتلون وقوفاً على الأقدام، وقد دربوا خيولهم على الوقوف جامدة في مكانها كي يتمكنوا من الرجوع إليها سريعاً إذا اقتضت الحاجة إلى ذلك. وهي ذروة التخنث والخزي والعار في نظرهم، أن يستخدم المقاتل سرجاً على ظهر فرسه، وبالنسبة لهم لا يترددون البتة في الاشتباك مع أضخم قوات الفرسان التي تمتطي خيولاً مسرجة مهما يكن عددهم هم قليلاً. ولا يسمحون أبداً باستيراد الخمر لأنه حسبما يعتقدون يجعل رجالهم لينيين واهنين وغير قادرين على مقاساة الأعمال الشاقة. ويعدون أن المجد الأعظم لأية أمة هو في إبقائها لأكبر مساحة ممكنة من الأرض حول حدودها خالية من السكان، وذلك لأن هذا الأمر يدل على أن هناك شعوباً كثيرة أخرى أدنى منها من حيث القدرة العسكرية. ويقال على سبيل المثال أن أحد جوانب إقليم السويبيين *Suebic* البلاد غير مسكونة ببشر على مسافة تمتد أكثر من خمسمائة وخمسين ميلاً. أما على الجانب الآخر منه فهناك اليبيون *Ubii* أقرب جيرانهم إليهم، وهم الذين كانوا مرّة، بحسب المعايير الجرمانيّة، أمة ضخمة مزدهرة تتمتّع بشأن وهيبة واعتبار. ويُعد هؤلاء اليوبيون أكثر تحضراً نوعاً ما من بقيّة الجرمان، وعلى اعتبار أنهم يقطنون على ضفاف الراين وقريبون من الحدود الغالية يزورهم التجار مراراً وتكراراً فقد تبنّوا عادات الغاليين وتقاليدهم وأعرافهم. وبعد محاولات متكررة قام بها السويبيون لطردهم من وطنهم بقوّة السلاح اكتشفوا أنهم قوم كثر وغاية في القوّة والمنعة، حتى كان من غير الممكن إجبارهم عن التخلي عن ممتلكاتهم وأراضيهم، غير أن السويبيين أرغموهم على دفع الجزية وحطوا كثيراً من سلطتهم ورفعة شأنهم وشعورهم بالكبرياء والفخار.

كان اليوسيبيبيتيون *Usibetes* والتنكثيريون *Tencethri* واقعين تحت الضغوط نفسها وضمن الحالة والظروف نفسها. فبعد صمودهم ومقاومتهم للضغط السويبي لعدّة سنوات طردوا أخيراً من بلادهم وراحوا يطوفون ويتجوّلون لمدة ثلاث سنوات في أجزاء كثيرة من ألمانيا حتى وصلوا أخيراً إلى نهر الراين في إقليم المينابيين *Menapi* الذين كانوا يمتلكون الأراضي وبيوت

المزارع، والقرى على كلتا الضفتين. وتحت تأثير رعب وهلع شديدين، سببهما وصول مثل هذا الحشد الهائل من الغرباء، تخلى الينابيون عن مساكنهم الواقعة على الضفة الجرمانية للنهر وركّزوا مخافر حراسة أمامية ونقاط مراقبة حدودية على الضفة الغالية للنهر، وذلك لمنع هؤلاء النازحين من عبوره. وجرّب الجرمان كل وسيلة وحيلة وذريعة للقيام بالعبور إلا أنهم لم يكونوا يمتلكون القوارب التي تمكنهم من شق طريق لهم عنوة، كما أنهم لم يكونوا قادرين على عبوره سراً بسبب وجود الخفراء المنابيين. لذا تظاهروا بالعودة إلى وطنهم وزحفوا في ذلك الاتجاه لمدة ثلاثة أيام، ثم عادوا أدراجهم بعد ذلك من جديد إلى المكان نفسه قاطعين المسافة في ليلة واحدة حيث قامت قوات فرسانهم بهجوم مباغت على المنابيين المطمئنين الذين قاموا، بعد أن أكدت لهم دورياتهم رحيل العدو، بعبور نهر الراين مجدداً ودون أدنى شعور بالخوف والعودة إلى قراهم. قام الجرمان بذبحهم وبالاستيلاء على قواربهم وعبور الراين قبل أن يدرك المينابيون القاطنون على الضفة الغالية للنهر ما كان يجري، واستولوا على بيوت مزارعهم وعاشوا على مؤونتهم لبقية فصل الشتاء.

نقلت هذه الأحداث إلى قيصر. وكان من دواعي قلقه الشخصية الغالية غير المستقرة التي من السهل جداً تحريضها لتشكيل خطط جديدة مناهضة، خاصة وأن الغاليين يرحبون عموماً بالتغيرات السياسية حتى ولو عادت عليهم بأحوال أكثر سوءاً. واعتقد قيصر أن من الأفضل له عدم الاعتماد عليهم أو وضع ثقته بهم. فهي عادة من عاداتهم إيقاف المسافرين والرحالة، ولو ضد رغبتهم، واستجابوا حول ما كانوا قد سمعوا سواء بالمصادفة أو بالتساؤل عن هذا الموضوع أو ذاك. وكانوا في مدنهم يحتشدون ويتجمهرون حول التجار القادمين إليها ليعرفوا منهم أي بلاد قد جاؤوا منها وماذا قد تعلموا فيها. إن حماستهم لمثل هذا القيل والقال غالباً ما كانت تحرضهم وتدفعهم نحو اتخاذ قراراتٍ ارتجالية سرعان ما يندمون عليها بعد ذلك مباشرة، لأنهم يقبلون بسذاجة وسرعة تصديق شائعات غير مؤكدة. والذي كان يحدث مراراً هو أن معظم رواتهم ومقدمي المعلومات لهم كانوا يبتدعون أجوبة على أسئلتهم على النحو الذي يعتقدون بأنه يسرهم ويرضيهم.

كان قيصر عالماً بهذه العادة التي تستحوذ على اهتمام الغاليين، ولم يكن يرغب في أن يجد نفسه، بين عشية وضحاها، في مواجهة حرب خطيرة، فانطلق للانضمام إلى جيشه مجدداً في وقتٍ أبكر من عادته لموسم الحملات. وجد حين وصوله إلى هناك أن شكوكه ومخاوفه كانت في محلها. حيث أن عدداً من القبائل قد أرسل سفراء إلى اليوسيبيتيين والتينكثيريين يدعوهم للتوسع في الحقول وتجاوز أراضي منطقة نهر الراين ووعدهم بتزويدهم

بكل مستلزماتهم ومتطلباتهم. فاستحث هذا الإغراء الساحر الجرمان على الامتداد فوق رقعة أرض أوسع وأعرض، وبذلك بلغوا الآن بلاد الإيبورونيين *Eburones* والكوندروسيين *Condrusi* اتباع التريفيين *Treveri*. وفكر قيصر أنه من المستحسن أن لا يقول أي شيء للغاليين حول ما كان قد تلقاه من معلومات. لذا استدعى زعماءهم وخاطبهم بعبارات مهدئة وملطفة من شأنها إعادة الطمأنينة إلى نفوسهم وطلب منهم تزويده بقوات فرسانٍ كافيةٍ لتنفيذ الحملة التي اعتزم القيام بها ضد الجرمان.

وبعد أن رتّب قيصر موضوع مؤونة الحنطة لقوّاته واختار ما أراد من قوات الفرسان زحف نحو المقاطعة التي قيل له أن الجرمان يقومون بالإغارة عليها. وكان يبعد مسافة عدة أيام من الزحف عنهم حينما وصل إليه مبعوثون من قبلهم يحملون الرسالة التالية: إننا نحن الجرمان لا نقوم بأي عمل عدواني ضد الشعب الروماني، إلا أننا مستعدّون للقتال إن يتم استفزازنا. فهو عرفهم التقليدي مقاومة المعتدين وعدم طلب الرحمة من أحد. لكننا نرغب بالقول إننا لم نأتِ إلى غاليا بمحض إرادتنا واختيارنا وإنما بسبب إننا طردنا من أوطاننا. وإذا كنتم أنتم الرومان راغبين بصداقتنا فإننا سنكون قيد خدمتكم. فإما أن تهبونا أرضاً نعيش فوقها أو تدعونا نحافظ على ما كنا قد كسبناه بقوّة السّيف. والشعب الوحيد الذي نعترف نحن بتفوقه هم السوبيون *Suebi* التي لا تستطيع حتى الآلهة التنافس معهم. وليس هناك فوق الأرض شعب آخر لا نستطيع التغلب عليه وقهره.

ورد قيصر على هذا الخطاب بالطريقة التي اعتقد أنها مناسبة، لكن زبدة ملاحظاته كانت ترتكز على نقطة واحدة هي أنه لا يمكن أن تنشأ صداقة بينه وبين الجرمان إذا ظلوا في غاليا. وقال إنه أمر بعيد عن كل معقولية ومنطق أن يتوقع من بشر لم يكونوا قادرين على حماية أراضيهم أن يحتلوا أراضي شعب آخر. وليست هناك أرض متوفرة في غالية يمكنه بعدالة وإنصاف أن يخصصها لهم وبخاصة بالنظر إلى أعدادهم الضخمة.إلا أن بمقدورهم الاستيطان في بلاد اليوبيين *Ubii* إن يختاروا. هذا علماً أن سفراء اليوبيين كانوا عندئذ عند قيصر ليشتكوا إليه حول الأخطاء الجسام التي ترتكب بحقهم على يد السوبيين وليطلبوا منه المساعدة. وقال إنه سيأمر اليوبيين بالسماح لهم بدخول أراضيهم. فقال المبعوثون الجرمان حينئذ إنهم سيحيلون رد قيصر على خطابهم الرسمي إلى أبناء بلادهم لأخذ الرأي والدراسة. وأنهم سيعودون إليه ثانيةً في غضون ثلاثة أيام. وطلبوا منه ألا يقوم بنقل معسكره خلال هذه الفترة إلى أي موقع أقرب. غير أن قيصر رفض هذا الطلب أيضاً، إذ كان يعلم أن كتيبة ضخمة من فرسانهم قد أرسلت عبر نهر ميوس *Meuse* قبل بضعة أيام إلى بلاد الإمبيفاريتيين *Ambivariti*

بحثاً عن الحنطة وقياماً بأعمال السرقة. واعتقد قيصر أنهم لا بد الآن يتوقعون عودة هذه الكتيبة إليهم، واعتقد أيضاً أن هذا الأمر كان السبب الرئيس وراء محاولتهم كسب الوقت.

عندما أصبح قيصر لا يبعد سوى مسافة لا تتجاوز اثني عشر ميلاً عن الجرمان عاد مبعوثوهم إليه تبعاً للاتفاق وقابلوه أثناء زحفه ورجوه بحرارة والتمسوه بحماسة شديدة ألا يتقدم أكثر من ذلك. وحينما رفض قيصر الموافقة على توسلاتهم بهذا الشأن طلبوا منه إرسال خطاب إلى قوات فرسانه التي تتقدم رتل قوّاته مسافة كبيرة يمنعهم فيه من استئناف القتال والدخول في معركة معهم. كما رجوه السماح لهم بإرسال سفارة إلى اليوبيين. وأضافوا قائلين أنه إذا أقسم زعماء اليوبيين وأعضاء مجلسهم على الوفاء بالوعود معهم فإنهم سيستفيدون من العرض الذي اقترحه عليهم قيصر وطلبوا مهلة ثلاثة أيام لاستكمال المفاوضات اللازمة والضرورية بهذا الخصوص. واعتقد قيصر أن كل هذه المقترحات التي يطرحونها لها نفس هدف مناورتهم السابقة، وهو الحصول على ثلاثة أيام أخرى من التأخير لمنحهم الوقت ريثما يعود الفرسان الجرمان من غزوهم. مع ذلك قال قيصر إنه سيقيّد مسافة زحفه لذلك اليوم ضمن أربعة أميال فقط، وهي المسافة اللازمة لحصوله على الماء. وإنه إن يجتمع به أي عدو منهم في اليوم التالي عند نقطة توقفه، فإنه-أي قيصر- سيجعلهم يعلنون عن مطالبهم ضمن جلسة علنية كي يستطيع أكبر عدد ممكن من رجاله سماعهم. وبعث في تلك الأثناء بأوامره إلى الضباط الذين كانوا يتقدمون أرتال الزحف على رأس كامل قوّة الفرسان ألا يقوموا بمهاجمة العدو، وفي حال تمت مهاجمتهم من قبله أن يبقوا في حالة الدفاع إلى أن يقترب هو منهم مع الجيش الرئيس. لكن العدو حينما وقعت أبصاره على قوّات فرساننا وكان عددهم خمسة آلاف فارس وعلى الرغم من أنه لم يكن ليمتلك وقتئذ سوى ثمانمائة فارس حيث لم يرجع أولئك الذين عبروا نهر ميوس لجلب الحنطة بعد- باشر بالهجوم فوراً. أما فرساننا الذين ظنّوا أنهم في مأمن من أي هجوم عدواني مباغت على اعتبار أن مبعوثي العدو لم يلبثوا أن غادروا قيصر وقد طلبوا منه هدنة لذلك اليوم، فقد عمّت الفوضى في صفوفهم في بادئ الأمر. وحينما التمّ شعثهم قام الفرسان الجرمان تبعاً لما اعتادوا القيام به في مثل هذه الحالات، بالقفز عن ظهور جيادهم وطرح عدد من رجالنا عن ظهور جيادهم بواسطة طعن الجياد في بطنها وإجبار الباقين على الفرار حيث أكرهوهم على الهرب مسرعين تعتريهم حالة من الرعب الفظيع إلى حد أنهم لم يتوقفوا حتى أصبحوا ضمن أرتال مشاتنا الزاحفة وقد قتل في هذا الاشتباك أربعة وسبعون فارساً من فرساننا كان بينهم بيزو *Piso* وهو اكويتاني شجاع وشهم من عائلة نبيلة كان جده ملكاً على قبيلة وقد منحه مجلس الشيوخ الروماني لقب صدّيق.

ذهب بيزو أثناء المعركة لتقديم المساعدة لأخيه الذي انفرد به بعض عناصر الجرمان، ونجح بيزو في إنقاذ أخيه، غير أن جواده قد جرح ورماه على الأرض. وقاوم طويلاً بكل ما أوتي من قوّة وبأسمى درجات الشجاعة والجرأة ولكنه طوّق أخيراً وسقط مغطى بدماء جراحه. حيثما شاهد أخوه ما قد حصل، وكان عند هذا الوقت قد انصرف بعيداً عن القتال، توجه بفرسه عدّواً نحو العدو مباشرة وجعلهم يقتلونه أيضاً.

بعد هذا الهجوم الغادر وغير المسوغ على يد عدو سبق له أن طلب السلام بكل تضرع ورجاء، طرد قيصر من مخيلته نهائياً فكرة منح مبعوثيه أي فرصة أخرى للتفاوض معه أو قبول أي عروض أو مقترحات جديدة، واعتقد بذات الوقت أنه سيكون من الجنون المحض أن ينتظر إلى أن يتعزز العدو بعودة فرسانه الغائبين إليه. وغدت عقول الغاليين مشتتة إلى حد أن هذا النجاح الجرماني الوحيد قد خلف لاشك عندهم انطباعاً عالياً كان له بالغ الأثر على نفوسهم وأذهانهم. لذا يجب ألا يعطى لهم الزمن لتنظيم أي خطط أو مؤامرات. فأخبر قيصر قادته وجنرالاته وقسطوره حول قراره. وعلى اعتبار أنه لم يكن راغباً في التأجيل ولو ليوم واحد عملية جر العدو إلى المعركة، زحف مع جيشه متقدماً إلى الأمام نحوهم. وفي صباح اليوم التالي كانت له ضربة حظ كبيرة. فالجرمان ما يزالون ماضين في سياسة الغدر والخيانة والخداع حيث جاء لزيارة قيصر في معسكره وفد ضخم منهم يضم قادتهم وزعماءهم كافة وكبار السن فيهم ممن تحلّوا بسمعة متميزة عندهم. وكان هدفهم المزعوم من هذه الزيارة تقديم الاعتذار عما فعلوه في اليوم السابق بشأن مباشرتهم بالهجوم على القوات الرومانية بما يتناقض مع الاتفاق الذي سعوا هم أنفسهم وراءه. ولكنهم يأملون أيضاً خداع قيصر من جديد كي يمنحهم تمديداً للهدنة. سر قيصر كثيراً من أن الجرمان قد وضعوا أنفسهم تحت سلطته، وأمر باحتجازهم في حين قام هو نفسه بإخراج جيشه كاملاً من المعسكر والزحف نحو العدو مع قوّات الفرسان التي طلب منها حماية مؤخرة القوّات لكونها حسبما اعتقد، ما تزال ذات معنويات منخفضة بسبب هزيمتها الأخيرة.

وقطع قيصر بزحفٍ سريع ثمانية أميال وبلغ معسكر العدو قبل أن تدرك عناصره نواياه، وكانت قوّاته خلال هذا الزحف تشكل ثلاثة أوتار متوازية وجاهزة للانخراط ضمن خط المعركة. كانت سرعة تقدم قيصر وغياب قادة العدو الذين قام قيصر باحتجازهم في معسكره عاملين هامين اجتمعا لخلق حالة من الرعب الشديد والمفاجئ في أوساط العدو. حيث لم تكن لديهم الفرصة للتفكير بما يجب فعله أو حتى لتسليح أنفسهم، كما أنهم كانوا في حالة من الذهول وتشتت الذهن والحيرة لم تمكنهم من التقرير فيما إذا كان من الأفضل

الزحف خارج المعسكر ضد قيصر أم الالتزام في أماكنهم والدفاع عن المعسكر أم الفرار للنجاة بأرواحهم. لقد كان من السهل على الجنود الرومان إدراك الخوف والذعر اللذين أصابا أفراد العدو من خلال ما سمعوه من صراخ ومن خلال التحركات السريعة والمرتبكة التي كانوا يقومون بها ، ولذلك اندفعوا داخلين إلى المعسكر الجرماني يستحثّهم إلى ذلك تذكر ما قام به العدو في اليوم السابق من غدرٍ وخيانة. واستطاع من كان من الجرمان سريعاً في تناول سلاحه المقاومة لبعض الوقت حيث كانوا يقاتلون تحت حماية ناقلاتهم وأمتعتهم. لكن كان في المعسكر حشد هائل من النساء والأطفال لأن الجرمان حينما غادروا وطنهم وعبروا نهر الراين كانوا قد جلبوا معهم كل عائلاتهم وأولادهم. وأخذ هؤلاء بالفرار في شتى الاتجاهات إلا أن عناصر فرساننا تمكنت من اصطيادهم، وكان ذلك تنفيذاً لأمر أصدره قيصر إلى فرسانه. أما القوات الجرمانية فقد ألقت بأسلحتها وتخلّت عن راياتها واندفعت خارجة من المعسكر بعدما سمعت الصراخ والعويل خلفها ورأت شعبها يذبح واحداً تلو الآخر.

وحينما وصلت هذه القوات الهاربة إلى نقطة التقاء نهري الموسيل *Moselle* والراين أدركت أنه لم يعد باستطاعتها الفرار أكثر من ذلك. وكانت النتيجة أن عدداً هائلاً منهم قد قتل والبقية غاصت في الماء ولاقت حتفها مغمورة بقوة التيار وهي في حالة من الإعياء والإنهاك وقد صعقها الرعب والخوف. وعاد الرومان إلى معسكرهم دون أي خسائر في الأرواح، إنما أصيب قلةٌ قليلة منهم بجراح على الرغم من أن قتالاً ضارياً كانت قد دارت رحاه بينهم وبين عدو بقوة أربعمائة وثلاثين ألف مقاتل. وأعطى قيصر للسجناء المحتجزين في المعسكر إذناً بالمغادرة، لكنهم على اعتبار أنهم كانوا يخشون من الموت أو من أن ينالهم التعذيب على يد الغاليين الذين قاموا هم بنهب وتخريب أراضيهم فقد قالوا إنهم يرغبون بالبقاء مع قيصر، وسمح لهم بالإبقاء على حرياتهم.

٢- العبور الأول لنهر الراين عام (٥٥ ق.م)

عند اختتام الحرب الجرمانية فكر قيصر أنه من المستحسن ولعدة أسباب ودوافع عبور نهر الراين. وكان أقوى هذه الأسباب والدوافع جعل الجرمان أقل ميلاً أو نزوعاً نحو المجيء إلى غاليا وذلك من خلال خلق مبررٍ كافٍ لديهم لكي يكونوا في حالة رعبٍ دائمةٍ نابعةٍ منهم هم بالذات والإظهار لهم بأن الجيوش الرومانية بمقدورها التقدم عبر النهر وأنها ستفعل ذلك في أي وقت تدعوا فيه الحاجة إلى ذلك. والسبب الثاني هو أن فرقة الفرسان التي بعث بها اليوسيبيتيون *Usipetes* والتنكثيريّون *Tencteri* عبر نهر ميوس *Meuse* سعياً وراء الحنطة

وأعمال النهب والسرقة قد انكفأت، على اعتبار أنها لم تشارك في المعركة، على طول الراين بعد الهزيمة المنكرة التي لحقت بأبناء بلادها ودخلت إقليم السوغامبريين*Sugambri* وانضمت إلى قواتها. وحينما أرسل قيصر بسفارة إلى السوغامبريين يطلب استسلام الرجال الذين شنّوا الحرب عليه وعلى غاليا أجابوا أن نهر الراين هو حد نهاية السيادة الرومانيّة. وإذا كان قيصر يعتقد أنه ليس للجرمان الحق في عبوره إلى غاليا ضد رغبته وإرادته فكيف بإمكانه أن يدعي لنفسه أية سلطة أو سيادة خلف الراين؟ والسبب الثالث هو أن اليوبيين، وهم الشعب الوحيد في ألمانيا الذي سبق له أن أرسل مبعوثين يمثلونه إلى قيصر ودخل معه في تحالف وقدم الرهائن، كانوا يلتمسونه بحرارة للمجيء إليهم وحمايتهم من الاضطهاد الذي يمارسه السوبيون عليهم. وقالوا إنه إذا كانت مشاغل قيصر العامة لا تسمح له بذلك وتجعل ذلك أمراً مستحيلاً أن يقوم فقط بإحضار جيشه عبر الراين، حيث أن ذلك يكفي لتخليصهم من الخطر المباشر الذي يهددهم وبالتالي يؤكد لهم أمنهم للمستقبل. وأضافوا قائلين إنه بهزيمة اريوفيستوس وبالانتصار الذي حققه الجيش الروماني اكتسب هذا الجيش شهرة عظيمة حتى في أوساط الشعوب الجرمانية البعيدة جداً إلى حد أن مجرّد المعرفة بتحالفهم مع روما سيكون كافياً لمنحهم الحماية. وقد تعهدوا بتقديم أسطولٍ ضخمٍ من القوارب لنقل الجيش. وقرر قيصر اعتماداً على هذه الأسباب عبور الراين، لكن أن يقوم بعبوره بواسطة القوارب بدا بالنسبة له أمراً محفوفاً بمجازفة خطيرة أولاً، وأدنى من مستوى كبريائه ومنزلته كقائد روماني ثانياً. لذا قرر أنه يجب عليه إما التخلي عن فكرة العبور نهائياً أو القيام بمحاولة بناء جسر فوق النهر على الرغم من أن عمليّة بناء جسر اقترنت بمجموعة كبيرة من الصعاب والعقبات نظراً لاتساع عرض النهر وعمقه وسرعة جريان تيار مياهه. فالطريقة التي تبناها لإنجاز بناء جسر كانت على الشكل التالي:

أخذ زوجاً من الركائز بسماكة قدم ونصف كل منها مروسة قليلاً عن أطرافها السفلي وذات طول يتناسب مع العمق المتباين للنهر وربطهما معاً بحيث تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة قدمين. وبعد ذلك أنزلهما إلى النهر بواسطة مجموعة مناسبة من الحبال والبكرات ووضعهما في أماكنهما بزاوية قائمة مع ضفة النهر ومن ثم أدخلهما في مواضعهما بواسطة مدقات الركائز ليس بزاوية قائمة، على نحو ما يتم تثبيت الركائز عادةً، وإنما بصورة مائلة مع اتجاه تيار المياه. ومقابل هاتين الركيزتين، وابعد عنهما مسافة أربعين قدماً على طول النهر، أقيم زوج آخر من الركائز ويتم تثبيتهما بشكل مشابه وركزتا بزاوية ميلان معاكسة لاتجاه مياه النهر. ثم ربط هذين الزوجين من الركائز بواسطة دعامة أفقيّة أو

عارضة بعرض قدمين تناسبت نهاياتها تماماً مع الفراغات المتروكة بين كل زوجٍ من الركائز. وتمت المحافظة على زوج الركائز العلوي ضمن المسافة الصحيحة عن زوج الركائز السفلي بوساطة مقابض حديدية ، واحدٌ منها استخدم لربط كل ركيزة مع نهاية الدعامة الأفقية. بهذا الشكل وبعد أن تم تركيز كل زوج من الركائز على نحوٍ تبتعد فيه كل ركيزة عن الأخرى مسافة محددة ، وبعد أن تم تدعيم كل زوج منها على حدة بوساطة شدادة قطرية أصبح كامل التركيب صلباً متيناً ومراعياً لقواعد الفيزياء من حيث أنه كلما كان تيار المياه أقوى كلما صمدت الركائز في مكانها بشدة أكثر. وحملت بعد ذلك سلسلة من هذه الركائز والدعامات الأفقية والعوارض عبر النهر مباشرة وتم وصلها معاً بوساطة أطوالٍ من الأخشاب كانت تُنقل بعجلة باتجاه الجسر. وقد أُلقيت فوقها أعمدة وقوائم خشبية وحزم من العصي. وبالرغم من متانة هذا التركيب إلا أنه أُلحقت بالركائز الأساسية ركائز إضافية ثُبتت بشكل مائل مع طول الجانب السفلي من الجسر كي تمسك بالركائز الأصلية بما يشبه الكتف ومعاكسة لقوة التيار. في حين تم تثبيت ركائز أخرى أيضاً فوق الجسر بقليل بحيث إذا حاول أهل البلاد الأصليين القيام بتهديم الجسر من خلال تعويم جذوع شجر أو دعامات خشبية تأتي مع تيار الماء لتضرب به فإن هذه المصدات ستخفف من قوة الارتطام، وتحافظ على الجسر سليماً من أي ضرر.

بعد عشرة أيام من بداية عملية جمع الخشب المطلوب لبناء الجسر اكتمل العمل وعبر الجيش الروماني فوقه.. وبعد أن أبقى قيصر عند نهايتيه طاقم حراسة قوي، زحف نحو إقليم السوغامبريين. وفي تلك الأثناء أرسلت مجموعة من القبائل مبعوثين إلى قيصر يحملون معهم مطالب بالسلام والصداقة، وقد لبى لهم قيصر هذه المطالب ومنحهم السلام والصداقة بكرم وسماحة نفس بعد أن أمرهم بإحضار الرهائن. أما السوغامبريون فقد نصحهم اليوسيبيتيون والتينكثيريون الذين لجأوا إليهم بتجهيز أنفسهم للهرب حالما بدأت عملية إقامة الجسر فوق النهر، فغادروا بلادهم بصحبة ممتلكاتهم وخبأوا أنفسهم في الغابات والمناطق الخالية من السكان. وظل قيصر لبضعة أيام في إقليمهم حيث قام بإحراق جميع القرى وأبنية المزارع وحصد المحاصيل ومن ثم عاد إلى اليوبيين الذين كان قد وعدهم بتقديم العون لهم في حال تحرش السوبيين بهم ومضايقتهم لهم. واعلمه اليوبيون بأن السوبيين، حينما نقل إليهم كشافتهم خبر أن الجسر قيد البناء والتركيب، عقدوا اجتماعاً لأعضاء مجلسهم – وهو إجراؤهم الاعتيادي في مثل هذه الظروف وبعثوا برسائل في كل الاتجاهات يعلمون فيها الأهالي بضرورة تخليهم عن مدنهم وإخفاء زوجاتهم وأولادهم وممتلكاتهم الخاصة في الغابات.

ووجّه أمراً إلى كل الرجال القادرين على حمل السلاح بالتجمع في مكان واحد، وبتحديد أكثر في وسط إقليمهم. وهناك كانوا بانتظار الرومان وقد صمموا على خوض معركة حاسمة وفاصلة فوق تلك البقعة. عند تلقي قيصر لهذه الأنباء عاد وعبر الجسر مجدداً باتجاه غاليا وحطم الجسر خلفه بعد عبوره له. فقد أحرز قيصر كل الأهداف التي عبر النهر من أجلها. ترويع الجرمان ومعاقبته السوغامبريين وتخليص اليوبيين من ضغط السويبيين المتواصل ومضايقتهم لهم. وبعد أن أمضى قيصر ما مجموعه ثمانية عشر يوماً عبر الراين لاعتقاده أنه قد فعل كل ما تقتضيه منه المصلحة والسمعة والشرف.

غزوات قيصر ضد بريطانيا

(٥٤ - ٥٥ ق.م.)

١- الغزو الأول (٥٥ ق.م)

أصبح الوقت الآن قريباً من نهاية فصل الصيف وفصل الشتاء في تلك المناطق يبدأ باكراً لأن كامل الساحل الغالي يتجه نحو الشمال. مع ذلك قام قيصر بتحضيرات واستعدادات نشطة لتنفيذ حملة إلى بريطانيا لأنه عرف أنه خلال شتى حملاته الغالية تقريباً كان الغاليون يتلقون التعزيزات من البريطانيين. وتصور أنه حتى إن لم يكن الوقت كافياً للقيام بحملة ضد بريطانيا خلال ذلك الموسم فإنها ستكون ذات فائدة عظيمة بالنسبة له لمجرد زيارة تلك الجزيرة ومعرفة أي نوع من الناس هم سكانها، ويطلّع على طبيعة الموقع الجغرافي لتلك الأرض والمرافئ والأماكن التي يمكنه إن يُنزل رجاله فيها. لم يكن الغاليون يعرفون أياً من هذه الأمور حول الجزيرة البريطانية، ففي الحالة العادية التجار هم الناس الوحيدون الذين يزورون بريطانيا، لكن حتى هؤلاء أنفسهم لا يعرفون سوى ذلك الجزء من الساحل البريطاني الواقع قبالة غاليا. على هذا الأساس، ورغم أن قيصر التقى بتجار كثيرين من مختلف أجزاء غاليا إلا أنه ظل غير قادر على تأكيد أي شيء فيما يخص حجم الجزيرة، وطبيعة وقوة القبائل التي تقطنها، وطريقتهم في القتال وعاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم، أو حتى المرافئ التي تستطيع إيواء أسطول ضخم من السفن الكبيرة. وللحصول على هذه المعلومات قبل المجازفة بحملة يقوم بها أرسل قيصر سفينة حربية تحت قيادة فوليوسينوس *Volusenus* الذي عده قيصر رجلاً مناسباً لهذه المهمة. وكانت أوامر قيصر له تقتضي القيام باستطلاع عام لتلك البلاد والعودة بأسرع وقتٍ ممكن. وفي تلك الأثناء زحف قيصر بكامل جيشه إلى بلاد المورينيين التي يمكنه منها العبور إلى بريطانيا وفق أقصر نقاط العبور مسافةً، وأمر بتجميع

السفن هناك من كل المناطق المجاورة إضافة إلى الأسطول الذي سبق له أن بناه في الصيف المنصرم من أجل حربه ضد الفينيتيين *Venetian*. وأصبحت خلال ذلك الوقت خطته معروفة ومكشوفة للجميع، وحينما حمل التجار هذه الأنباء إلى البريطانيين أرسلت مجموعة من القبائل مبعوثين إلى قيصر تعرض عليه الرهائن وتقدم خضوعها لروما. وقد أصغى إلى هؤلاء المبعوثين ومنحهم الفرصة للحديث وأعطاهم وعوداً سخية وكريمة وحثهم على التقيد والالتزام بقرارهم وصدق عزيمتهم، ومن ثم أعادهم إلى بلادهم يرافقهم كوميوس *Commius* الذي نصّبه قيصر ملكاً على الأتريباتيين بعد هزيمة هذه القبيلة وفتح إقليمها. ويتحلى كوميوس بالشجاعة الفذة وحسن القرار وموضوعية الأحكام والوفاء والولاء، وكان رأي قيصر فيه عالياً جداً إضافة إلى أن البريطانيين يكنون له احتراماً كبيراً. وكانت تعليمات قيصر له القيام بزيارة أكبر عدد ممكن من القبائل البريطانية وأن يستحثهم على أن يضعوا أنفسهم تحت الحماية الرومانية، والإعلان عن وصول قيصر المرتقب والوشيك إلى هناك. واستطلع فوليوسينوس الساحل واستكشف أجزاءه حتى أبعد نقطة ممكنة دون أن يقوم بالرسو في أي مكان كي لا يضع نفسه تحت سلطة أهالي البلاد الأصليين، الأمر الذي لم يتجرأ على القيام به، ومن ثم رجع بعد أربعة أيام إلى قيصر وبحوزته رواية مفصلة عن مشاهداته.

وفي الوقت الذي كان قيصر خلاله ينتظر تجميع أسطوله في بلاد المورينيين أرسل قسم كبير من هذه القلبية مبعوثين إلى قيصر للاعتذار عن عملهم العدواني السابق متذرعين بحجة أنهم كانوا غرباء يجهلون طبيعة الأعراف والتقاليد الرومانية، ويقطعون على أنفسهم عهداً بإطاعة أوامره في المستقبل، واعتبر قيصر ذلك أمراً فيه الكثير من حسن الطالع. فهو لا يريد أن يُبقي خلفه عدواً، بعد عبوره إلى بريطانيا، إضافة إلى أن الوقت قد أصبح متأخراً جداً للقيام بحملة جديدة في ذلك الموسم، خاصة وأن الحملة إلى بريطانيا هي الأكثر أهمية بالنسبة له من القيام بفتح مناطق هذه القبائل الصغيرة. لذا طلب منهم تقديم الرهائن إشعاراً بولائهم، وحينما وصل هؤلاء وافق قيصر على خضوع المورينيين له.

وفي الوقت المناسب حصل قيصر على قرابة ثمانين ناقلة تم تجميعها لتنقل فيلقين من الجيش، وقد اعتبر قيصر هذا العدد من الناقلات كافياً للقيام بذلك، ويتم إضافة إليه توفير عدد آخر من السفن الحربية وضعت جميعها تحت إمرة قسطوره وقادة وضباط القوات الاحتياطية. وعلاوة على الناقلات الآنفة الذكر كانت هناك ثماني عشرة ناقلة عند نقطة ما على طول الساحل تبعد ثمانية أميال منعتها رياح غير مواتية من الرسو في نفس المرفأ الذي رست فيه بقية الناقلات. وخصصت هذه لتكون تحت تصرف قوات الفرسان. أما بقية الجيش

فقد أُعهد لسابينوس *Sabinus* وكوتا *Cotta* حيث كانت العشائر المورينية التي لم تبعث بموفدين عنها إلى قيصر لتعلن عن خضوعها للسلطة الرومانية أو تقدم الرهائن إشعاراً بذلك. وأمر قيصر جنرالاً آخر هو بوبليوس سولبيسيوس روفوس *Publius Sulpicuis Rufus* بالمحافظة على المرفأ تحت سيطرته وعززه بقوة كافية لهذا الغرض.

وبعد استكمال هذه الترتيبات استفاد قيصر من طقس ملائم ساد المنطقة في تلك الأثناء وأبحر عند منتصف الليل بعد أن كان قد وجه أوامره لقوات الفرسان بالتقدم نحو الميناء الأبعد الذي ترسو فيه الثماني عشرة ناقلة وبالرسو فيه ومن ثم اللحاق به. لكنْ على اعتبار أن عناصر الفرسان لم ينفذوا أوامر قيصر بالسرعة اللازمة فقد حمل المد هذه الناقلات إلى البر. ووصل قيصر نفسه إلى بريطانيا مع طلائع السفن في حوالي التاسعة صباحاً ووجد أن قوات العدو وقد تركزت فوق كل التلال المحيطة. كانت طبيعة الموقع الأرضي عند تلك النقطة تجعل من الممكن رمي الرماح من الصخور مباشرة نحو الشاطئ الضيق المنحصر بينهما وبين البحر. واعتبر قيصر هذا الموقع مكاناً مناسباً جداً للرسو والنزول إلى اليابسة، ولذلك ظل على متن الناقلات عند المرسى حتى الساعة الثالثة بعد الظهر كي يعطي لبقية السفن زمناً كافياً للوصول إلى المكان. وقام في تلك الأثناء بجمع القادة والتريبيونات العسكريين وأخبرهم بما كان قد علمه من فوليوسينوس *Volusenns* وشرح لهم خططه، ونبههم إلى أن مقتضيات الحرب ولاسيما العمليات البحرية التي تتحرك فيها الأشياء سريعاً ويكون الوضع فيها متغيراً على نحو دائم، تستدعي التنفيذ المباشر لكل أمر. وحينما صرفهم من الاجتماع وجد أن الرياح وتيار المد إلى صالحه، فأعطى الإشارة اللازمة لرفع المرساة تأهباً للإبحار. وبعد أن تقدم نحو سبعة أميال جنح بسفنه نحو البر لترسو فوق شاطئٍ منحدر بشكل مستوٍ وخالٍ من أي حوائل أو عقبات.

عندما أدرك السكان أهالي البلاد نوايا قيصر من خلال ما نقله لهم التجار الغاليون قاموا بإرسال سلاح فرسانهم مع عددٍ من المركبات الحربية الخفيفة التي تجرها الخيول والتي اعتادوا استخدامها في حروبهم، لملاقاة قيصر. أما بقية قواتهم فقد كانت تتبع خلفهم مباشرة ومستعدة لمقاومة واعتراض عملية رسو القوات الرومانية. وواجهت الرومان صعوبات كانت غاية في الخطورة والحسم. فحجم السفن جعل من المستحيل عليهم التحكم بتوجيهها إلا في المياه العميقة نسبياً. أما الجند الذين كان عليهم القتال فوق أرضٍ غريبة لم يألفوها وأيديهم مثقلة بأسلحتهم كانوا في الوقت ذاته مضطرين للقفز من السفن والحصول على موطئ قدم لهم في الأمواج ومن ثم مقارعة الاعداء سواء الواقف منهم على اليابسة أو المتقدم منهم قليلاً نحو الماء، وهم الذين يقاتلون وكل أجزاء أجسامهم غريبة عليهم. وشرع هؤلاء الأعداء بقذف رماحهم

وهم على ظهور جيادهم التي تدربت على القيام بمثل هذا النوع من العمل. وقد أخافت هذه المخاطر جنودنا الذين لم يعتادوا البتة خوض معارك من هذا النوع وكانت النتيجة أنهم لم يُظهروا نفس النشاط والحماسة والرشاقة التي اعتادوا إظهارها في معاركهم فوق اليابسة.

حينما رأى قيصر ذلك وجّه أمراً بإبعاد السفن لمسافة قصيرة عن بقية الناقلات ومن ثم تجذيفها بقوة لتجري إلى الشاطئ نحو الجناح الأيمن لقوات العدو الذي يمكن منه استخدام المقلاع وأقواس السهام والمدفعية من قبل الجند الموجودين على أسطحة السفن لإجبار العدو على التقهقر إلى الوراء. وكانت عملية توجيه السفن وإدارتها أسرع وأسهل بكثير من عملية إدارة وتوجيه الناقلات، كما كان من المرجح أن يكون لمظهرها الغريب وغير المألوف تأثيره على عناصر العدو. وقد كانت هذه المناورة ناجحةً جداً. فمن خلال الشكل الغريب للسفن الرومانية وحركة المجاذيف فيها والآلات غير المألوفة دب الرعب في قلوب الأعداء فتوقفوا ومن ثم أخذوا بالتراجع قليلاً. ولكن على اعتبار أن الرومان كانوا ما يزالون مترددين نظراً لعمق المياه بصورة رئيسة فقد صرخ الجندي الذي كان يحمل نسر الفيلق العاشر بأعلى صوته بعدما صلى للآلهة كي يجلب تصرفه هذا خطأً موفقاً للفيلقين قائلاً: "اقفزوا من سفنكم إلى الماء أيها الرفاق إن كنتم لا تريدون استسلام نسرنا للأعداء. إنني على كل حال أعني القيام بواجبي تجاه بلدي وقائدي". وبعد أن تفوه بهذه الكلمات ألقى بنفسه من السفينة نحو الماء وراح يتقدم نحو العدو ويحمل النسر بيديه. وعند مشاهدة جندنا على سطح هذه السفينة لما فعله حامل النسر قفزوا من السفينة بالإجماع بعدما حض الواحد منهم الآخر نحو عدم الخضوع لمثل هذا الخزي والعار. وهكذا فعل جنود بقية السفن المجاورة بعدما رأوا ما فعله جنود السفينة الأولى وتبعوهم متقدمين ضد العدو. وقاتل الطرفان قتالاً جباراً. لكن لما لم يكن باستطاعة الرومان المحافظة على صفوفهم أو اتخاذ موطئ قدم ثابت أو اتباع كلٍ لرايته المناسبة واصطفاف جنود من سفن مختلفة تحت أول راية كانوا يجدونها في طريقهم فقد تسبب ذلك في خلق الكثير من الفوضى. كان العدو يعرف مواقع المياه الضحلة، وحينما شاهد عناصره أن مجموعات صغيرة من جندنا تنزل الواحدة تلو الأخرى من السفن اتجه نحوها وهاجمها وهي في وضع غير مؤاتٍ للقتال. تم تطويق العدو بأعداد أكبر من قواتنا بينما قام آخرون برمي رماحهم نحو الجناح الأيمن لمجموعة معادية.

أمر قيصر بتحميل كل قوارب السفن ومراكب الكشافة بالجند كي يتمكن من إرسال العون لأية نقطةٍ يكون الجنود عندها في مواجهة موقف صعب. وحالما حط الجنود أقدامهم فوق الشاطئ، وبعد أن انتظروا رفاقهم كي ينضموا إليهم، شنوا هجوماً على العدو

وأجبروه على الفرار، لكنهم لم يتمكنوا من مطاردته لمسافة بعيدة لأن قوة الفرسان لم تكن قادرة حتى ذلك الوقت على التزام مضمارها على متن الناقلات الثماني عشرة والوصول إلى الجزيرة البريطانية. وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي منع قيصر من إحراز نصره المعتاد.

وسارع العدو المغلوب حالما جمع شتاته بعد الفرار بإرسال سفارة إلى قيصر يطلب منه السلام ويعده بتقديم الرهائن له وتنفيذ أوامره. وجاء مع هؤلاء المبعوثين كوميوس الأتريباتي *Commius The Atrebatian* الذي كان قد أرسله قيصر قدماً إلى بريطانيا. والذي حدث لكوميوس هو أنه بعدما نزل عن سفينته وأخذ يسلّم رسالة قيصر إليهم قام أهالي البلاد باعتقاله وتوثيقه. أما الآن وبعد المعركة التي تم خوضها بينهم وبين الرومان والتي كانت نتيجتها هزيمتهم المنكرة فقد أرسلوه عائداً إلى قيصر. وحين التماسهم السلام من قيصر ألقوا باللوم في تصرفهم هذا على عامة الناس، وأخذوا يتضرعون له ليغفر لهم خطيئة ارتكبت بسبب الجهل. وعاد قيصر من جديد ليوبخهم ويقرعهم على شنهم الحرب عليه ومهاجمته دون قيامه بما يستفزهم أو يحرضهم وبعد أن كانوا هم أنفسهم قد أرسلوا له مبعوثين إلى أوروبا طوعاً منهم وبمحض إرادتهم سعياً وراء السلام. غير أنه أضاف قائلاً إنه سيغفر لهم جهلهم، وطالبهم بتقديم الرهائن. وتم تسليم قسم من الرهائن المطلوبة على الفور، في حين قالوا إنهم سيقومون بإحضار البقية منهم من مسافة بعيدة، وأنهم سيسلمون القسم المتبقي من هذه الرهائن في غضون أيام قليلة. وأمروا رجالهم، في تلك الأثناء، بالعودة إلى الحقول، وأخذ الزعماء بالمجيء من مختلف أنحاء البلاد يلتمسون عطف قيصر عليهم وعلى قبائلهم. وهكذا تم التوصل للسلام.

وفي اليوم الرابع لوصول قيصر إلى بريطانيا أبحرت الناقلات الثماني عشرة التي تعتلي متنها قوات الفرسان من الميناء الشمالي تسيّرها نسائم عليلة. لكن بينما كانت تقترب من الجزيرة البريطانية وغدت على مرأى من المعسكر الروماني بعضها عائداً من حيث أتى إلى نقطة بداية إبحاره في حين انجرف البعض الآخر يحيق به خطر شديد باتجاه الغرب إلى جنوب الجزيرة. وعلى الرغم من الخطر الشديد هذه ألقت الناقلات مراسيها لبعض الوقت لكنها لما كانت ملأى بالماء بسبب الأمواج المرتفعة التي ضربتها أثناء العاصفة فقد اضطرت للإبحار بعيداً عن الشاطئ وخوض غمار البحر في ظلام الليل وأقفلت عائدة إلى أوروبا.

وحدث أن كان القمر خلال تلك الليلة بدراً، وهو وقت تكون فيه عمليات المد الأطلسية مرتفعة بشكل خاص، وهذه حقيقة يعرفها الرومان. وكانت نتيجة ذلك أن السفن الحربية التي استخدمت في العبور إلى بريطانيا والتي كانت مسحوبة إلى الشاطئ قد غدت مثقلة بالمياه التي تسربت إليها وأصبحت صعبة القياد، أما الناقلات التي كانت تجثم عند

المرسى فقد أصيبت بضربة عنيفة بفعل العاصفة دون أن تتاح للجنود أية فرصة للتدخل من أجل إنقاذها. وبالتالي فإن عدداً من السفن قد تحطم والباقي منها أصبح عديم النفع والاستعمال بسبب فقدانه لكبلاته ومراسيه وكل ما كان فيه من عدة متبقية، الأمر الذي أدى بصورة طبيعية إلى وضع الجيش بأكمله ضمن حالة من الرعب والذعر الشديدين. فليست لديهم أية مراكب أخرى يستطيعون بواسطتها العودة، كما ليست لديهم أية مواد لإصلاح الأسطول، كما أنهم لم يقوموا بترتيب موضوع التزود بمخزون كافٍ من الحبوب كي يُمضوا الشتاء في بريطانيا لطالما أنه كان مفهوماً عموماً ولدى الجميع أنهم سيعودون إلى غاليا لقضاء فصل الشتاء فيها.

وعندما علم الزعماء البريطانيون، الذين كانوا قد اجتمعوا بعد المعركة لتنفيذ أوامر قيصر، بما ألم بالرومان من مصاب موجع تشاوروا فيما بينهم بهدف رسم خطة للتآمر ضد روما. فبعد أن عرفوا أن قيصر لا يمتلك قوةً من الفرسان ولم يتبقَ له أي سفن سليمة صالحة للإبحار، كما ليس لديه ما يكفيه من الحنطة، وبعد أن استدلوا على ضعف قوات قيصر من خلال صغر حجم معسكره، الذي جُعل صغيراً جداً نظراً لأن قيصر قد جاء إلى هنا دون اصطحاب أية أمتعة ثقيلة معه، قرروا أن أفضل سبيل عليهم انتهاجه وفق هذه المعطيات هو تجديد الأعمال القتالية ضد الرومان ومنع الفيالق من الحصول على الحنطة أو أي مؤنٍ أخرى ومن ثم إطالة الحرب حتى يحين فصل الشتاء. وشعر الزعماء البريطانيون بالثقة بأنه إن تتم هزيمة هذا الجيش ويُمنع من العودة، فإنه لن تتمكن أية قوة أخرى من العبور ثانية لغزو بريطانيا. تبعاً لذلك قاموا بعد أن جددوا عهود الوفاء المتبادل فيما بينهم بالتسلل خارجين من المعسكر واحداً تلو الآخر، واستدعوا من جديد وبصورة سرية الرجال الذين سبق لهم أن عادوا إلى الحقول. لكن قيصر الذي لم يكن بعد قد سمع شيئاً عن نوايا البريطانيين قادته الكارثة التي حلت بأسطوله وحقيقة أنهم لم يرسلوا إليه بعد القسم المتبقي من الرهائن التي تم الاتفاق على إرسالها إلى حدس ما كان سيحصل. ولذلك جهز نفسه لأي شيء قد يحدث، وتم جلب الحنطة إلى المعسكر من الحقول يومياً، كما تم إحضار الخشب والبرونز من المراكب الأخرى، وطلب أن تُرسل إليه المعدات البحرية اللازمة من أوروبا. وبفعل الجهود النشطة والحثيثة للجند تم إنقاذ جميع السفن عدا اثنتي عشرة واحدة وأصبحت صالحة للإبحار ومواجهة العواصف.

وخلال فترة إنجاز هذا العمل أُرسل فيلق واحد إلى الحقول. على نحو ما جرت عليه العادة كل يوم، للحصول على الحنطة، وكان هذا الفيلق هو الفيلق السابع ولم يكن قد

حصل حتى اللحظة أي شيء من شأنه أن يثير أي شكوك حول احتمال قيام البريطانيين بهجوم جديد، حتى أن بعض البريطانيين كان لا يزال يعمل في الحقول في حين استمر آخرون في المعسكر حيث كانوا يذهبون منه ويأتون إليه بالصورة الاعتيادية والفعلية. لكن على نحو غير متوقع نقل الحراس المناوبون عند بوابات المعسكر إلى قيصر أنهم قد شاهدوا سحابة هائلة من الغبار تتصاعد من نفس الاتجاه الذي كان قد ذهب فيه الفيلق السابع من أجل الحنطة. وبذلك صدقت تنبؤات قيصر بأن أهالي البلاد يبيّتون مؤامرة جديدة ضده وضد قواته. أمر قيصر الكتائب التي كانت تتناوب على حراسة المعسكر بالانطلاق معه وأمر الباقين بأن يتسلحوا ويتبعوه في الحال. وبعد أن قطع شوطاً في ذلك الاتجاه وجد أن الفيلق السابع واقعاً تحت ضغط شديد من قبل قوات العدو وأنه بصعوبة بالغة يحاول الثبات والصمود للمحافظة على مواقعه وأن عناصره قد انحشرت في نقطة من المكان وعلى نحو مكتظ حيث أخذ العدو يرميها بالقذائف من كل اتجاه. وعلى اعتبار أن الحنطة كانت بالأصل قد حُصدت في شتى الحقول عدا مكان واحد فقد توقع العدو أن يذهب ضدنا إلى ذلك المكان فخبأوا أنفسهم في الغابات خلال الليل وصدق ظنهم. وبينما كان جندنا مبعثرين هنا وهناك ومنهمكين في حصاد القمح وقد ألقوا أسلحتهم جانباً هاجمهم العدو على حين غرة وقتل بعضاً منهم وسبب للآخرين حالة من الفوضى والتشتت قبل أن يتمكنوا من لملمة صفوفهم فطوقهم بعناصر فرسانه وعرباته الخفيفة[1].

كان جنود الفيلق السابع قد فقدوا شجاعتهم ورباطة جأشهم نتيجة هذه الفنون الحربية التي استخدمها العدو حينما جاء قيصر لنجدتهم في اللحظة المناسبة تماماً. فبمجرد اقتراب قيصر توقف العدو عن هجومه واستفاق الجند من حالة الرعب التي كانت تعتريهم وواقع

---

(١) في قتال العربات الخفيفة التي تجرها الخيول يبدأ البريطانيون بقيادة عرباتهم هذه ليطوقوا بها مختلف أجزاء ميدان القتال وهم يرمون بالرماح، وطبيعي أن يكون الرعب الذي تثيره الخيول وضجيج العجلات كافياً لأن يسبب الفوضى في صفوف الخصم. حينئذ وبعد أن تشق لنفسها طريقاً بين سرايا فرسانها يقفز المقاتلون من العربات إلى أرض الميدان ويشتبكون مع العدو على أقدامهم. في تلك الأثناء يقوم سائقوا هذه العربات الخفيفة بالانسحاب لمسافة قصيرة من ميدان المعركة كي يُوقفوا العربات في وضع يجعل من السهل على قادتها في حال كان ضغط العدو العددي عليهم شديداً الانسحاب إلى خطوطهم. وهكذا فإنهم يجمعون ما بين حركية سلاح فرسانهم والقدرة الثابتة لمشاتهم. ومن خلال التدريب اليومي يحصلون على براعة تجعلهم قادرين حتى فوق المنحدرات الشديدة على ضبط خيولهم والسيطرة عليها أثناء أعلى درجات عدوها وكبحها والاستدارة بها وإعادتها في لحظة من الزمن. وباستطاعة مقاتلي العربات الجري على طول عريش العربة الذي يفصل بين جيادها والوقوف فوق النير ومن ثم العودة إلى العربة بسرعة البرق.

الخطر الذي كان يواجههم. إنما نظراً لاعتقاد قيصر أن دخوله في الهجوم والاشتباك في المعركة مجدداً سيكون منطوياً على مخاطرة جسيمة بسبب ما كانت عليه طبيعة الموقف ظل في مكانه. وبعد ذلك بوقت قصير قاد فيالقه عائداً بها إلى المعسكر. وبينما كانت هذه الأحداث تشغل أذهان رجالنا جميعاً انسل أهالي البلاد الذين كانوا ما يزالون في الحقول هاربين من المكان فجأة وعلى عجل.

وتبع ذلك عدة أيام من الطقس السيء أجبرت جنودنا على البقاء في معسكرهم وكذلك منعت العدو من القيام بأي أعمال هجومية ضدنا. لكن قام أهالي البلاد خلال هذا الوقت بإرسال رسل في شتى الاتجاهات ليعلموا شعبهم بأن قيصر لا يمتلك إلا عدداً قليلاً من المقاتلين وليبينوا لهم أي فرصة عظيمة في أيديهم للحصول على الغنائم وتحرير أنفسهم إلى الأبد إن يستطيعوا طرد الرومان من معسكرهم. واستطاعوا بهذه الطريقة جمع قوة هائلة من الفرسان والمشاة قامت بالتقدم نحو معسكرنا.تنبأ قيصر بأن ما قد حدث من قبل من مؤامرة مبيتة سيحدث ثانية فحتى لو غلب العدو وهزمت صفوفه فإن سرعة تحركه تمكنه من النجاة والإفلات دون إلحاق الضرر به. مع ذلك قام قيصر بترتيب فيالقه أمام المعسكر وصفّها ضمن تشكيل خطوط المعركة، وكان لديه لحسن الحظ قرابة ثلاثين فارساً كان كوميوس قد أحضرهم معه أساساً من غاليا. ولم تكن المعركة قد دامت طويلاً حينما هزم العدو ولاذ بالفرار. وطارده الرومان إلى أبعد مسافة استطاعوا قطعها جرياً على الأقدام وقتلوا عدداً من الهاربين وقاموا بعد ذلك بحرق كل المباني والمساكن الموجودة ضمن مساحة واسعة من الأرض وعادوا إلى المعسكر.

وفي نفس اليوم قدم إلى قيصر مبعوثون يسعون وراء السلام، فطلب منهم هذه المرة تقديم ضعف عدد الرهائن الذي كان قد طلبه سابقاً وأمر أن يتم إحضار هذه الرهائن إلى أوروبا على اعتبار أن الاعتدال الخريفي قد غدا وشيكاً واعتقد قيصر أن من الأفضل أن لا يعرّض سفنه المحطمة إلى مخاطر رحلة بحرية في طقس شتوي متقلب فاستغل قيصر سواد رياح مؤاتية وشرع بالإبحار بعيد منتصف الليل ووصل على رأس كامل أسطوله إلى أوروبا بسلام.

غير أن ناقلتين من ناقلاته أخفقتا في بلوغ المرفأ الذي بلغته بقية الناقلات بسبب أنها انجرفت قليلاً باتجاه الجنوب. وما كاد ثلاثمائة جندي يترجلون من هاتين الناقلتين ليواصلوا طريقهم نحو المعسكر حتى قام المورينيون *Morini*، الذين أجبرهم قيصر على إقامة السلام قبل شروعه بالتوجه إلى بريطانيا معتقدين أن الفرصة قد جاءتهم لكسب الغنائم، بتطويق جنودنا بقوة صغيرة في بادئ الأمر، وطلبوا منهم إلقاء أسلحتهم إن شاؤوا أن لا يقتلوا. فشكل

الجنود الرومان حلقة وأخذوا بالدفاع عن أنفسهم، إنما في غضون وقت قصير جلبت صيحات المغيرين قرابة ستة آلاف رجل من أهالي البلاد إلى موقع القتال، وأخذوا يقاتلون إلى جانب المورينيين. وحينما سمع قيصر بما كان يجري أرسل إلى المكان قوات فرسانه لتقديم العون. وفي تلك الأثناء كان جنودنا ما يزالون يصدّون هجوم العدو بقتال تميز بأسمى درجات الشجاعة والجرأة ولأكثر من أربع ساعات وقتلوا من العدو عدداً كبيراً بينما أصيبت قلة قليلة من رجالنا ببعض الجراح. وحالما أصبح فرساننا على مرأى من المورينيين ألقى المورينيون بسلاحهم أرضاً وولوا الأدبار مطلقين سيقانهم للريح بعد أن منيوا بخسائر فادحة.

وفي اليوم التالي أرسل قيصر لابينوس لقمع المورينيين المتمردين وبرفقته الفيالق التي عادت من بريطانيا. ولما كانت المستنقعات المنخفضة التي احتمى بها المورينيون في السنة الماضية قد جفت الآن فإنه لم يعد أمام أهالي البلاد أي مكان آخر يتراجعون إليه وبالتالي فقد دخل الجميع ضمن قبضة لابينوس. أما سابينوس وكوتا اللذان قادا فيالقهما إلى إقليم الميناپيين فقد اكتفوا بإتلاف المحاصيل وجمع الحنطة وإشعال النار بالمباني، وذلك لأن السكان كافة كانوا قد اختبؤوا في غابات كثيفة جداً. وعادا مع فيالقهما بعد ذلك إلى قيصر الذي كان قد رتب سلفاً لجميع فيالقه موضوع قضاء فصل الشتاء في إقليم البلجيكيين، حيث هناك تمّ تسلم قيصر للرهائن الموعودة من قبيلتين بريطانيتين فقط، إذ أهملت بقية القبائل موضوع إرسالها لرهائنها. وبمناسبة اختتام هذه الحملات واستقبال رسل قيصر، أصدر مجلس الشيوخ الروماني مرسوماً يقضي بالاحتفال بعيد شكرٍ عامٍ لمدة عشرين يوماً.

٢- الغزو الثاني (٥٤ ق.م.)

خلال الفترة القنصلية لكلٍ من دوميتيوس *Domitius* وآبيوس كلوديوس *Appius Claudius*، وقبيل مغادرة قيصر لقواته في النُزل الشتوية وتوجهه كالعادة إلى إيطاليا أصدر أمراً إلى قادته وجنرالاته الذين ولّاهم أمر قيادة الفيالق أثناء غيابه ببناء أكبر عدد ممكن من السفن خلال فصل الشتاء وأمرهم أيضاً بإصلاح السفن السابقة. ولكي يجعل السفن سريعة التحميل وسهلة السحب إلى الشاطئ فقد أمرهم بجعلها أخفض قليلاً من تلك التي تستخدم عادة في البحر المتوسط، خاصة بعدما وجد أن نظراً لارتفاع المد وانخفاضه المتكرر فإن الأمواج في القنال البريطاني كانت صغيرة نسبياً. ولكي يمكّن السفن من نقل حمولات ثقيلة، بما في ذلك أعداد ضخمة من الحيوانات، فقد أمر قيصر بجعلها أعرض قليلاً من السفن التي تستخدم في مياه أخرى. وطلب أن تكون جميع السفن مبنية بطريقة تجعلها مناسبة للإبحار بالأشرعة أو للسير بالمجاذيف، وهو ترتيب أصبح سهل التحقيق كثيراً تبعاً للسطح المنخفض للسفن الجديدة، وطلب أيضاً أن تستورد المواد اللازمة لتهيئة هذه السفن من إسبانيا.

وبعد أن استكمل قيصر عقد جلساته الدورية في الشمال الإيطالي شرع برحلة إلى إيليريا *Illyria* لأنه سمع أن البيروستيين *Pirustae* كانوا يقومون بإغارات تدميرية على حدود تلك المقاطعة – وأمر حين وصوله إلى إيليريا القبائل أن تجند قواتها وأن تحدد مكاناً لاجتماعهم. وحينما بلغ هذا الخبر البيروستيين أرسلوا ممثلين عنهم ليقولوا لقيصر إن حكومتهم ليست مسؤولة عما كان قد حدث وإنهم مستعدون للتعويض الكامل عن كل ما حصل من تدمير وضرر. وبالتالي قبل قيصر نقاشهم الهادف إلى إزالة الخلاف، والتفاهم والمصالحة، وأمرهم بتسليم رهائن ضمن يوم محدد. وتم تسليم الرهائن المطلوبة في الوقت المحدد تماماً طوعاً لأوامر قيصر وعين بعد ذلك محكمين ليقدروا الأضرار والدمار الذي تكبدته مختلف المجموعات السكانية وليحددوا قيمة التعويض.

وبعد أن فرغ من هذه المسألة وعقد جلساته الدورية في إيليريا *Illyria* عاد قيصر إلى إيطاليا حيث توجه من هناك للالتحاق بجيشه ثانية. وقام حين وصوله بجولة في مختلف المعسكرات الشتوية فوجد أن رجاله، بالرغم مما كان ينقصهم من مواد ضرورية ومستلزمات أساسية، قد عملوا بحماسة مستفيضة وكد منقطع النظير وتمكنوا من بناء وتجهيز ستمائة مركبة بحرية وفق المواصفات التي كان قد حددها لهم، إضافة إلى ثمان وعشرين سفينة حربية. وهذه جميعها ستكون جاهزة للنزول إلى الماء في غضون بضعة أيام. وأعرب قيصر عن

تهنئته للجند على إنجازهم الجبار هذا وعلى جهودهم الحثيثة التي بذلوها كما قدم التهنئة للضباط الذين أشرفوا على العمل. وأعطاهم تعليمات جديدة أخرى وأمر أن يتم تجميع كل السفن في بورتوس إيتيوس *Portus Itius* نقطة الانطلاق لأسهل عبور إلى بريطانيا، حيث المسافة منها إلى هناك قرابة ثلاثين ميلاً. وبعد أن أبقى عدداً كافياً من القوات لتنفيذ هذه المهمة اصطحب أربعة فيالق لا تعيقها أية قوافل أمتعة، وثمانمئة فارس وانطلق بهم إلى بلاد التريفيريين *Treveri* لأنهم أعلنوا عن رفضهم حضور اجتماعات المجالس السنوية لشيوخ القبائل، أو الخضوع لسلطة قيصر، كما أنهم، حسبما يزعم، يتقربون بعلاقات تمهيدية مع الجرمان القاطنين عبر الراين.

يمتلك التريفيريون أقوى سلاح فرسان في غاليا على الإطلاق، كما يمتلكون قوة هائلة من سلاح المشاة. ونذكر هنا أن إقليمهم يتاخم نهر الراين. ويتصارع في إقليمهم اثنان من المتنافسين على الزعامة والسيادة أنديوتيوماروس *Indutiomarus* وسينجيتوريكس *Cingetorix*. وحالما وصلت أنباء اقتراب قيصر مع فيالقه قدّم سينجيتوريكس نفسه إلى قيصر مؤكداً له أنه وجميع اتباعه سيبقون موالين للتحالف الروماني وشرح له واقع الأمور في أوساط التريفيريين. أما أنديوتيوماروس فقد أخذ يحضّر للحرب ويحشد قوات فرسانه وقوات مشاته لهذا الغرض وقد خبأ صغار السن والكبار غير القادرين على حمل السلاح في غابة ضخمة تعود للأردينيين *Ardennes* تمتد من الراين عبر وسط بلاد التريفيريين إلى حدود إقليم الريميين. وقد أصاب الهلع والرعب بعض الزعماء الآخرين للقبيلة، كانوا أصدقاء سينجيتوريكس، على أثر اقتراب الجيش الروماني، وعلى اعتبار أنه لم يكن في أيديهم قرار تجنيب بلادهم مما قد يلم بها، حسبما قالوا، فقد جاؤوا إلى قيصر وتوسلوا إليه من أجل سلامتهم الشخصية. وأصبح أنديوماروس يخشى الآن العزلة التامة فأرسل إلى قيصر يقول له إن السبب الرئيسي في عدم رغبته مغادرة اتباعه للقيام بزيارته هي أنه ببقائه معهم كسب فرصةً أفضل للمحافظة على قبيلته موالية للسلطة الرومانية. فإن يغادر جميع الزعماء وأصحاب الجاه البلاد فإن عامة الناس سيكونون عرضة لارتكاب الأخطاء بالنظر إلى جهلهم وضيق أفق تفكيرهم. لذا فإنه بمكوثه معهم أبقى أبناء بلاده ضمن سلطته وتحت قيادته وأنه بموافقة قيصر وإذنه سيأتي إلى معسكره ويضع نفسه وقبيلته تحت حمايته. تفهم قيصر دافع أنديتوماروس قوله هذا وعرف ما قد ردعه عن تنفيذ خطته الأصلية. مع ذلك، أراد قيصر أن يتجنب إضاعة فصل الصيف هناك بعد أن قام بكل الاستعدادات لحملة إلى بريطانيا. فطلب من أنديوتيوماروس الحضور إليه برفقة مائتين من الرهائن بما فيهم ابنه وكل أقربائه، وقد ذُكرت الرهائن المطلوبة بالاسم.

وحينما تم إحضار هؤلاء عاد قيصر وطمأن أنديوتيوماروس ثانية وحثه على البقاء موالياً ومخلصاً. لكن اجتمع أيضاً بزعماء القبيلة الآخرين ودعاهم إفرادياً لدعم سينجيتوريكس، لقد اعتقد قيصر أن سينجيتوريكس يستحق هذه المساعدة وهذا الدعم كما اعتقد أن من الأهمية البالغة أن يفعل كل ما بوسعه لزيادة سلطة ونفوذ رجل برهن على أنه صديق مخلص. لكن هذا الانتقاص لسلطة أنديوتيوماروس ونفوذه أثار حنقه الشديد الذي أشعل في نفسه الحقد الذي كان يحسه أساساً تجاه الرومان.

وبعد تسوية قيصر لهذه المسألة تقدم برفقة فيالقه إلى بورتوس أيتيوس، فوجد أن السفن الستين التي كانت قد بنيت في بلاد الميلديين *Meldi* قد انحرفت خارجة عن مساراتها بسبب عاصفة هوجاء هبت على المنطقة وأنها قد عكفت راجعة إلى نقطة انطلاقها. أما باقي السفن جميعاً فقد جهزت على أكمل وجه وغدت مستعدة للإبحار. واحتشد أربعة آلاف فارس من مختلف أنحاء غاليا عند الميناء وزعماء القبائل كافة. وكان قيصر قد قرر أن يترك خلفه قلة قليلة فقط من هؤلاء الذين برهنوا عن ولائهم له وللسلطة الرومانية وأن يصطحب معه جميع الباقين كرهائن لأنه كان يخشى اندلاع ثورة في غاليا خلال فترة غيابه.

وكان من بين الزعماء الغاليين الإيديووي دومنوريكس، وهو الرجل الذي قرر قيصر أن يصطحبه معه بشكل خاص، لأن قيصر كان يعرفه مخادعاً متظاهراً ومتآمراً سياسياً له الكثير من الطموحات، جريئاً وجسوراً وصاحب نفوذ واسع جداً وتأثير عميق على الغاليين. وكان دومنوريكس قد قال في اجتماع المجلس الإيديووي بأن قيصر قد عرض فكرة جعله ملك القبيلة، وهو تصريح استاء له الإيديوويون كثيراً وأثار امتعاضهم رغم أنهم لا يتجرؤون على الاحتجاج إلى قيصر أو يطلبون منه التخلي عن الفكرة. وعلم قيصر بهذه الحقائق من غاليين سبق له أن قطن في منزلهم، وأخذ دومنوريكس بالتوسل بشدة لدى قيصر لإبقائه في الوطن قائلاً بأنه ليس معتاداً على السفر في الماء وأنه يخاف البحر وأنه أيضاً ممنوع من مغادرة بلده نظراً لارتباطه بواجبات دينية. لكنه حينما وجد أن لا أمل في تغيير عزيمة قيصر وأنه مصر على عدم تركه خلفه، بدأ دومنوريكس يحيك مكيدة ويتآمر مع الزعماء الآخرين بالانفراد بهم جانباً واحداً تلو الآخر واستحثاثهم على البقاء في أوروبا وعدم اتباع قيصر في حملته إلى بريطانيا مستغلاً في ذلك مخاوفهم. قال لهم إن قيصر قد قام بتجريد غاليا من سائر مواطنيها القادة وزعمائها بسبب هدف بعيد وخفي في مخيلته. فهو لا يريد أن يقدم على قتلهم على مرأى من أبناء بلاده إلا أن هدفه هو إعدامهم بعد عبورهم معه إلى بريطانيا. واتخذ على

نفسه عهداً بالعمل مع الآخرين لما يرونه خدمة لمصلحة غاليا وطلب منهم أداء القسم توثيقاً لالتزامهم بهذا الاتفاق.

وحينما نقلت هذه الحقائب إلى قيصر على يد عدد من مخبريه قرر أنه نظراً لما يكنه من احترام شديد للإيديوويين فإنه يتوجب عليه فعل كل شيء ممكن لكبح دومنوريكس وردعه عن مواصلة خطته ومكيدته. وعلى اعتبار أن هواجس دومنوريكس كانت آخذة بالازدياد المضطرد، وبشكل واضح، فإنه ينبغي تجريده من أي إمكانات تجعله قادراً على التسبب بأي ضرر إلى قيصر أو إلى المصالح الرومانية. وحدث أن تمّ تأخير الجيش في الميناء لمدة ثلاثة إلى أربعة أسابيع بسبب الرياح الشمالية الغربية – وهي الرياح السائدة في مختلف الفصول فوق ذلك الجزء من الساحل – التي جعلت من المستحيل الإبحار، وخلال هذا الوقت اتخذ قيصر الإجراءات اللازمة لتأديب دومنوريكس وجعله يحسن من سلوكه، وبنفس الوقت للحصول على معلومات حول أية خطط قد يشكلها في المستقبل. واستغل قيصر أخيراً سواد طقس ملائم وأمر المشاة والفرسان بالصعود على متن السفن. لكن بينما كان انتباه الجميع مشدوداً لهذه العملية اصطحب دومنوريكس عدداً من الفرسان الإيديوويين وخرج من المعسكر الروماني بدون علم قيصر وباشر برحلة باتجاه الوطن. بيد أن قيصر حالما ترامى إلى مسامعه هذا النبأ أرجأ الإبحار وطلب من الجميع الانتظار وعدم قيامهم بأي شيء وبعث على نحو من السرعة كتيبة من الفرسان لمطاردته والعودة به إلى قيصر، وفي حال رفضه الإطاعة وإظهار المقاومة كان عليهم، وفق ما أعطيت لهم من أوامر، قتله، هذا نظراً لاعتقاده بفكرة أن الرجل الذي يهزأ من سلطته أمام عينيه لا يمكن له أن يتوقع منه التصرف بحكمة وعقلانية في غيابه. وحينما دعى الفرسان دومنوريكس للعودة أخذ يقاوم وسيفه بيده ويرجو من اتباعه القيام بحمايته وشرع يصرخ بأعلى صوته مرة تلو مرة قائلاً إنه رجل حر ومواطن من دولة حرة. وتطبيقاً لأوامر قيصر تمّ تطويقه وقتله وعاد جميع الفرسان الأيديوويين الآخرين مع الكتيبة الرومانية إلى المعسكر الروماني.

انطلق قيصر حينئذ في رحلته البحرية إلى الجزيرة البريطانية تاركاً لابينوس *Labienus* في أوروبا مع ثلاثة فيالق وألفين من الفرسان، وقد أعطيت لهم الأوامر بحماية الموانئ وتقديم مؤن الحنطة ومراقبة الأحداث في غاليا والتصرف بين الحين والآخر وفق ما قد تقتضيه الظروف. وأخذ قيصر معه خمسة فيالق وما تبقى من سلاح الفرسان وكان عددهم ألفي فارس. وشرع بإبحاره عند حوالي غروب الشمس تدفع سفنه في بادئ الأمر نسائم جنوبية غربية خفيفة. لكن عند حوالي منتصف الليل تلاشت تلك النسائم وكانت النتيجة أن المراكب

انجرفت بعيداً عن مضمارها بسبب تيار المد والجزر، وشاهد قيصر عند الفجر أن بريطانيا قد غدت خلفه عند حافة الميناء. وحينما تغير اتجاه التيار سار معه وجدّف بقوة للوصول إلى ذلك الجزء من الجزيرة حيث كان في العام المنصرم قد عثر على أفضل مكان للرسو والنزول إلى اليابسة. وبذل الجنود قصارى جهدهم وبهمة عالية قاموا بالتجذيف بشكل متواصل إلى أن مكنوا الناقلات المحملة بصورة ثقيلة من السير محاذية للسفن الحربية. وعند وصول كامل الأسطول إلى بريطانيا حوالي منتصف النهار ولم تشاهد أي عناصر معادية. واكتشف قيصر فيما بعد من الأسرى أنه على الرغم من الأعداد الضخمة التي احتشدت عند تلك النقطة فقد ضرب الفزع قلوبهم لرؤيتهم ذلك العدد الهائل من السفن الرومانية[1] فتركوا الشاطئ وأخفوا أنفسهم فوق أراضٍ مرتفعة.

أنزل قيصر جيشه من المراكب واختار موقعاً مناسباً لإشادة معسكره فيه. وحينما علم من الأسرى عن المكان الذي يتمركز فيه العدو ترك عشر كتائب وثلاثمائة فارس عند الشاطئ لحراسة الأسطول وزحف ضد البريطانيين بعد منتصف الليل بقليل يساوره شيء من الإحساس بالقلق نحو السفن لأنه قد تركها راسية عند شاطئ مكشوف من الرمال الناعمة. وكان الأسطول ومجموعات حراسته قد وضعت تحت قيادة كونيتوس أتريوس *Quintus Atrius*. وبعد زحف ليلي استغرق قرابة اثنتي عشرة ساعة وصل قيصر إلى مكان أصبح فيه على مرأى من العدو الذي تقدم بفرسانه وعرباته الخفيفة التي تجرها الخيول نحو أحد الأنهار وحاول سد طريق قيصر من خلال مهاجمته من مواقع فوق أرض مرتفعة. فقام فرسان قيصر بصد العدو الذي تراجع نحو الغابات للاختباء فيها حيث هناك احتل العدو موقعاً ذا تحصين متميز ومعالم طبيعية قوية تجعله منيعاً لاشك كان قد جهز سابقاً لحرب ما كانت قد اندلعت فيما بينهم لأن جميع مداخله كانت موصدة بأشجار مقطوعة ألقيت الواحدة بجانب الأخرى. وقامت بعض المجموعات المبعثرة بهجمات مناوشة انطلاقاً من الغابات محاولة منع الرومان من اختراق الدفاعات. غير أن جنود الفيلق السابع، بعد أن ثبّتوا تروسهم فوق رؤوسهم ووضعوا التراب في أكوام عالية أمام تحصينات موقع العدو، تمكنوا من الاستيلاء على المكان وطرد العناصر المعادية من الغابات على حساب قلة قليلة جداً من الجند أصيبت بجراح. مع ذلك منع

---

(١) كان من ضمن ذلك العدد السفن التي استبقيت من السنة السابقة، والمراكب ذات الملكية الخاصة التي بناها أفراد لاستعمالهم الشخصي.

قيصر قواته من مطاردتهم بعيداً لأنه لم يكن يعرف طبيعة الأرض في تلك المنطقة ولأنه كان يرغب في تكريس الساعات المتبقية من النهار للقيام بتحصين معسكر.

وفي صباح اليوم التالي أرسل قيصر قوة من المشاة والفرسان ضمن ثلاثة أرتال لمطاردة عناصر العدو الهاربة. كانت هذه الأرتال قد تقدمت لمسافة لابأس بها وأصبحت قادرة على مشاهدة أقرب الهاربين إليها حينما أحضرت مجموعة من الخيالة الرومان رسالة من أتريوس لتنقل خبر حدوث عاصفة هوجاء خلال الليل الفائت حطّمت جميع السفن تقريباً وألقت بها عند الشاطئ، وأن المراسي والكابلات لم تستطع الصمود أو التحمل، وأن البحارة والقباطنة لم يتمكنوا من التعامل مع مثل تلك العاصفة العنيفة، الأمر الذي جعل المراكب عاجزة عن العمل من خلال سير الواحدة منها معاكسة للأخرى. فوجّه قيصر أمره إلى فيالقه وفرسانه على الفور بالتوقف عن ملاحقة العدو والعودة. ورجع هو نفسه إلى الشاطئ حيث رأى بأُم عينيه أن ما قد وصفه له رسل أتريوس ورسالته كان صحيحاً إلى حدٍ بعيد. فنحو أربعين سفينة كانت قد تحولت إلى عديمة الجدوى وبمثابة خسارة كاملة، أما السفن المتبقية فقد بدت ممكنة الإصلاح مقابل الكثير من العناء. تبعاً لهذا الواقع استدعى قيصر كل الحرفيين المهرة من الفيالق وأرسل إلى أوروبا الاستدعاء عددٍ أكبر منهم وكتب إلى لابينوس يخبره بضرورة بناء أكبر عدد ممكن من السفن بالتعاون مع القوات الموجودة تحت أمرته. وقرر علاوة على ذلك، ورغم أنها كانت مهمة تنضوي على عمل جهيد وشاق وتحتاج إلى بذل جهود حثيثة وجبارة، أن من الأفضل سحب جميع السفن إلى الشاطئ وحصرها مع المعسكر داخل تحصين واحد. ورغم أن تنفيذ هذا الأمر قد تطلب العمل في الليل والنهار بصورة متواصلة إلا أنه استغرق قرابة عشرة أيام لاستكماله. وحالما تم سحب السفن إلى المكان المقرر وانتهى العمل في تحصين المعسكر، ترك قيصر نفس الوحدات التي كان قد كلّفها سابقاً بحراسة المعسكر والسفن وعاد إلى المكان الذي كان قد جاء منه، وحين وصوله إلى هناك وجد أن عدد القوات البريطانية قد أصبح أكثر ضخامة وأن كاسيفيللونوس *Cassivellaunus* الذي عُهد إليه بالإجماع أمر القيادة الرئيسة وأمور إدارة وتوجيه الحملة ضد الرومان قد جمع هذه الأعداد من مختلف أرجاء الجزيرة. يفصل مقاطعة كاسيفيللونوس عن القبائل البحرية نهرٌ يدعى التايمز، وتتوضع على بعد خمسة وسبعين ميلاً عن البحر تقريباً[1].

---

(١) يقطن الجزء الداخلي من بريطانيا شعب يدّعي بأنه من سكان البلاد الأصليين القدماء استناداً إلى قوة تقليد موروث تناقلته الألسن عبر الأجيال. ويقطن الجزء الساحلي مهاجرون بلجيكيون جاؤوا إلى البلاد بقصد السلب والنهب وشن الحروب، وظل معظمهم تقريباً يحافظ على أسماء القبائل التي تحدر منها أصلاً،

كان كاسيفيللونوس في حالة حرب دائمة مع القبائل الأخرى قبل وصول الرومان إلى بريطانيا إلا أن وصول الجيش الروماني إلى المكان أدى بهم، نتيجة ما أصابهم من هلع وفزع، أن نصبوه قائداً أعلى لهم.

ومن ثم استقر بعد ذلك في المنطقة المذكورة واشتغل بزراعة الأرض وحراثتها. عدد سكان الجزيرة البريطانية كبير للغاية والأرض تعج بالمساكن على نحو كثيف جداً وتشبه هذه المساكن كثيراً تلك المنتشرة في غاليا، وأعداد واضحة من قطعان الماشية تسرح في بقاعها، ويستخدم البريطانيون إما البرونز أو القطع النقدية الذهبية أو القوالب الحديدية ذات الأثقال الثابتة كأموال ونقود يتداولون بها فيما بينهم. ويوجد القصدير في المنطقة الداخلية من الجزيرة وكميات قليلة من الحديد بجانب الساحل. أما النحاس الذي يستعملونه فإنه مستورد من الخارج، هناك خشب من شتى الأنواع، كما هو الحال في غاليا، باستثناء خشب الزان وخشب التّنوب. ويعتبرون أكل الأرانب البرية والدجاج والإوز محرماً، لكنهم يقومون بتربيتها للمتعة والتسلية، أما المناخ فهو أكثر اعتدالاً من غاليا والبرد فيها أقل شدة.

للجزيرة البريطانية شكل المثلث تتوجه إحدى أطرافه نحو غاليا. وزاوية واحدة من هذا الطرف وهي الواقعة على ساحل كنت *Kent* هي محطة رسو جميع السفن القادمة من غاليا تقريباً وتتجه برأسها نحو الشرق. ما الزاوية السفلية فتتجه نحو الجنوب. ويبلغ طول هذا الجانب من المثلث ٤٧٥ ميلاً. أما الجانب الآخر لهذا المثلث فإنه يتجه نحو الغرب باتجاه إسبانيا. وتتوضع في ذلك الاتجاه إيرلندة المفترضة أن تكون ذات مساحة تعادل نصف مساحة بريطانيا وتبعد عنها المسافة نفسها التي تبعدها عنها غاليا. وفي المنتصف بين الاثنتين تقع جزيرة الإنسان *The Isle of Man* ويعتقد أن هناك أيضاً عدداً من الجزر الصغيرة الأخرى حيث يسودها وفقاً لما يقوله بعض الكتاب، شهر كامل من الظلام خلال الاعتدال الشتوي. وقد كانت استقصاءاتنا حول هذا الموضوع دائماً دون أية فائدة تذكر، غير أننا وجدنا من خلال بعض القياسات الدقيقة بالساعة المائية أن الليل فيها أقصر مما هو عليه الحال في أوربا. ويبلغ طول هذا الجانب من بريطانيا استناداً لتقدير سكان البلاد ٦٦٥ ميلاً. أما الجانب الثالث من المثلث فإنه يتجه شمالاً حيث ليست هناك قبالته أي أراضٍ، إنما تتجه زاويته الشرقية بشكل أو بآخر نحو ألمانيا. ويبلغ طول هذا الجانب بحسب التقديرات ٧٦٠ ميلاً. على هذا الأساس فإن محيط الجزيرة كله يبلغ ١٩٠٠ميل.

أكثر السكان تحضراً وبدرجة كبيرة هم أولئك الذين يقطنون في كنت *Kent* (وهي مقاطعة بحرية محضة). فطريقة حياتهم تختلف قليلاً عن طريقة حياة الغاليين. ومعظم القبائل داخل بريطانيا لا تزرع القمح إنما تعيش على الحليب واللحم وترتدي الجلود. ويصبغ جميع البريطانيين أجسادهم بالوسمة، وهو نبات عشبي أوروبي يستخرج من أوراقه صبغ أزرق، حيث يجعل هذا الصباغ أشكالهم أكثر ترعيباً في أوقات الحروب. ويربون شعر رؤوسهم طويلاً ويحلقون كامل أجسامهم باستثناء الرأس وشعر ما فوق الشفة العليا. والزوجات مشتركة بين مجموعات من عشرة أو اثني عشر رجلاً وبخاصة بين الأخوة وبين الآباء والأبناء، غير أن ذرية هذه المشاركة تعتبر أولاد الرجل الذي تعايشه امرأة ما أولاً.

وحصل اشتباك عنيف بين فرساننا أثناء تقدمهم والفرسان البريطانيين وقادة العربات الخفيفة لديهم، غير أن رجالنا كانوا أصحاب السطوة في كل مكان، حيث أجبروهم على الفرار نحو الغابات والتلال بعد أن قتلوا منهم عدداً كبيراً، مقابل تكبد قواتنا لبعض الخسائر نتيجة مطاردتها الحامية لفلول القوات المعادية. وانتظر العدو لبعض الوقت ثم اندفع من الغابات على نحو مفاجئ في وقت كان فيه جنودنا تاركين نقاط حراستهم لانشغالهم بأعمال تحصين المعسكر. فأجتاز البريطانيون مخافر الحراسة الأمامية عند مقدمة المعسكر وبدأوا معركة كانت شرسة حامية الوطيس. أرسل قيصر كتيبتين للإنقاذ، كل منهما الأولى في الفيلق التابعة له – واتخذتا لهما مواقع على مقربة شديدة من بعضهما، غير أن رجالنا كانوا قد فقدوا رباطة جأشهم واستثيرت أعصابهم بالتكتيكات القتالية الغريبة التي يتبعها العدو حيث استطاع وبكل جرأة وإقدام اختراق صفوف القوات الرومانية والخروج منها دون أن يُصاب بأذىً أو ضرر. وقتل في ذلك اليوم كونيتوس لابيريوس دوروس *Quintus Laberius Durus*، وهو أحد التريبيونات العسكريين، إلى أن تمكنت عناصرنا أخيراً من صد الهجوم المعادي بواسطة زج كتائب أخرى في ميدان القتال. وخلال مختلف مراحل هذه المعركة غير العادية والتي تم خوضها أمام المعسكر على مرأى من الجميع، كان يبدو واضحاً أن قواتنا مثقلة كثيراً بما تحمله من دروع إلى حد أنها لا تستطيع التعامل مع عدوٍ كهذا. فهي غير قادرة على مطاردة العدو حين تراجعه، كما أنها لا تتجرأ على الابتعاد عن راياتها، بل عليها الالتزام بالقتال كل تحت رايته. وقوات فرساننا أيضاً وجدت أنه عمل محفوف بالمخاطر الجسيمة مقاتلة قادة العربات الخفيفة لديهم وذلك لأن البريطانيين يلجأون عموماً إلى التراجع أمام العدو عن قصد، وبعد أن يكونوا قد جروا الخصم إلى مسافة بعيدة عن فيالقه يقفزون عن عرباتهم ويقاتلون على أقدامهم حيث تكون الأفضلية لمصلحتهم. ففي الاشتباك الذي حصل بين فرساننا وفرسانهم لم يكن رجالنا أفضل من مشاتنا. ومن خلال التكتيك القتالي الذي اتبعه العدو أصبحت درجة الخطر هي نفسها تماماً بالنسبة للمطارِد والمطارَد. وصعوبة أخرى أيضاً واجهتها قواتنا هي أن العدو لا يقاتل ضمن صفوف متراصة وإنما ضمن تشكيل مفتوح تماماً ولديه قوات احتياطية منتشرة هنا وهناك. وبهذه الطريقة تغطي المجموعات المختلفة انسحاب بعضها بعضاً وتحل قوات جديدة محل تلك التي تشعر بالتعب والإعياء.

وفي اليوم التالي اتخذ العدو موقعاً تمركز فيه فوق التلال على مسافة من المعسكر الروماني. وأخذ الآن يظهر ضمن مجموعات صغيرة فقط ويحاول مضايقة فرساننا بنشاط أقل مما كان عليه الحال في اليوم السابق. لكنه عند منتصف النهار وبعد أن كان قيصر قد

أرسل ثلاثة فيالق من قواته وكامل عناصر فرسانه في حملة بحثاً عن العلف وبعض المؤن الأخرى تحت قيادة جنراله غيوس تريبونيوس *Gaius Trebonius* انقض عليهم العدو على حين غرة هابطاً من كل الجوانب وتابع ضغط هجومه بقوة مطردة حتى وصل إلى النقاط التي انتصبت فيها راية كل فيلق. فقام عناصر الفيالق عندئذ بطردهم وردهم إلى الخلف من خلال هجوم معاكس كان ضارباً وعنيفاً وتابعوا مطاردتهم للعدو إلى أن بدأ فرساننا الذين ازدادوا حماسة وجرأة بدعم عناصر الفيالق الذين شاهدوهم على وشك الإطباق عليه، بهجومهم الذي أكره العدو على الفرار دون النظر وراءه. وكانت النتيجة أن كثيرين من عناصر العدو لاقوا حتفهم في حين لم يكن لدى الباقين أي فرصة للملمة صفوفهم أو التوقف أو القفز من عرباتهم. وسببت هذه الهزيمة المنكرة تشتت قوات العدو التي تمت تعبئتها من مختلف القبائل لتقدم العون والمساعدة لكاسيفيللونوس. ولم يحدث أن التأم البريطانيون مرة ثانية بعد ذلك لخوض قتال جديد بقوة كاملة.

وحينما علم قيصر بخطة العدو للقيام بحملة ضد الرومان قاد جيشه إلى نهر التايمز للدخول في إقليم كاسيفيللونوس. ونهر التايمز يمكن خوضه عند نقطة واحدة فقط ومع شيء من الصعوبة، وجد قيصر عند تلك النقطة أن قوات معادية بأعداد ضخمة قد اصطفت فوق الضفة المقابلة. وقد كانت الضفة نفسها أيضاً مسيجة بأوتاد حادة مثبتة على طول حافة النهر. وتبعاً لما نقله بعض الأسرى الآبقين إلى قيصر فإن أوتاداً مشابهة قد نصبت على نحو مخفي داخل مجرى النهر. أرسل قيصر عناصر فرسانه عبر النهر أولاً ووجه أمره بعد ذلك مباشرة إلى قوات مشاته للحاق بهم. غير أن عناصر المشاة توجهوا إلى المكان بسرعة شديدة واندفاع حماسي متقد - حيث لم يكن ليبدو فوق سطح الماء سوى رؤوسهم إلى حد أنهم شنوا هجومهم بنفس اللحظة التي شنت فيها عناصر الفرسان هجومها. وهكذا هزم العدو ودحرت قواته وأجبر على الفرار من ضفة النهر.

لم يعد عند كاسيفيللونوس الآن أي أمل بخوض معركة حاسمة وضارية، فحلّ القسم الأكبر من قواته واستبقى لديه قرابة أربعة آلاف فقط من مقاتلي العربات وذلك من أجل مراقبة خط زحف قواتنا، ومن ثم الانحراف عن الطريق قليلاً، في الأماكن التي يعرف أن في نيتنا المرور فيها، ويختبئ داخل أدغال وأيكات كثيفة ويدفع بالأهالي والقطيع بعيداً عن المناطق المكشوفة نحو الغابات إن تحاول قوات فرساننا، دون أخذ الحيطة والحذر اللازمين، الابتعاد كثيراً عن طريقها للقيام بأعمال السلب والنهب والتدمير في البلاد فإنه سيطلق قوات عرباته الخفيفة من الغابات على طول طرق وممرات ضيقة معروفة بالنسبة لهم لتشن هجمات

مفيدة ومروعة ضد قواتنا أملاً منه في تهويل قواتنا ودب الفزع في قلوبها ومنعها من الذهاب بعيداً في الحقول. تبعاً لذلك اضطر قيصر لإبقاء سلاح الفرسان قريباً جداً من أرتال المشاة والاكتفاء بما يمكن القيام به من أعمال التدمير والحرق تحت حماية عناصر الفيالق ولاسيما عندما يكون التعب من الزحف قد أخذ منهم كل مأخذ.

وصل إلى قيصر خلال هذا الزحف مبعوثون من الترينوفانتيس *Trinovantes*، وهي القبيلة الأقوى في جنوب شرق بريطانيا. فقد سبق لأمير هذه القبيلة واسمه ماندوبراسيوس *Mandubracius* أن ذهب إلى غاليا ووضع نفسه تحت حماية قيصر حفاظاً على حياته وهرباً من كاسيفيللونوس الذي قتل له أباه الذي كان ملك الترينوفانتيس ووعد المبعوثون قيصر باستسلام القبيلة وبإطاعة الأوامر وطلبوا منه حماية ماندوبراسيوس من كاسيفيللونوس وإرساله إلى بلاده ليحكم شعبه بوصفه ملكاً. وطلب قيصر منهم أربعين رهينة ومؤونة من الحبوب للقوات الرومانية ومن ثم سمح لماندوبراسيوس بالذهاب. وسرعان ما أرسل الترينوفانتيون عدد الرهائن المطلوب ومؤونة الحبوب اللازمة.

وحينما رأت بقية القبائل الأخرى[1] وهي كثيرة أن الترينوفانتيين قد تمت حمايتهم من كاسيفيللونوس وأنهم قد جنبوا أنفسهم أي ضرر كان من الممكن أن يحصل لهم من جانب القوات الرومانية أرسلت سفارات إلى قيصر وأعلنت له عن استسلامها. وعلم قيصر من سفارات هذه القبائل أنه لا يبعد كثيراً عن قلعة كاسيفيللونوس[2] التي كانت تحميها الغابات والمستنقعات والتي قد امتلأت بالرجال والأنعام بأعداد ضخمة. زحف قيصر إلى المكان برفقة فيالقه فوجد أن القلعة قد تحصنت بصورة ممتازة وأنها ذات موقع طبيعي يمنحها قوة ومنعة. غير أن قيصر، مع ذلك، تقدم لشن هجومه عليها من جانبين من جوانبها. وبعد وقت قصير برهن العدو على أنه غير قادر على مقاومة هجوم الفيالق الصارخ فاندفع خارجاً من الجانب الآخر للقلعة. وعثر في القلعة على عدد كبير من قطعان الماشية وعدد كبير من اللاجئين إلى القلعة تم أسره أو قتله.

وبينما كانت هذه العمليات تجري في إقليم كاسيفيللونوس قام هو بإرسال مبعوثين إلى مقاطعة كنت *Kent* يأمر ملوكها الأربعة وهم سينجيتوريكس *Cinqetorix* وكارفيليوس

---

(١) السينيماغنيون *Cenimagni* والسيجونتياسيون *Segontiaci* والأنكالايتيون *Ancalites* والبيبروسيون *Bibrici* والكاسيون *Cassi*.

(٢) يستخدم البريطانيون مصطلح (قلاع) للإشارة إلى مواقع تكسوها الغابات بشكل كثيف جداً وتحصنها أسوار وخنادق يلجأون إليها كي يتجنبوا هجمات المغيرين.

Carvilius وتاكسيماغولوس *Taximagulus* وسيغوفاكس *Segovax* بحشد كل ما لديهم من قوات وبالقيام بهجوم مفاجئ على المعسكر البحري الروماني عند الشاطئ. وعندما ظهرت هذه القوات وبدت للعيان قام الرومان بغارة هجومية عليها قتلوا فيها دون تكبد أية خسائر عدداً هائلاً جداً منهم وأسروا لوغوتوريكس *Lugotorix* وهو قائد من أصل نبيل. وحين تلقى كاسيفيللونوس لهذا الخبر أصابه الهلع نتيجة النكسات المتتالية التي أصيب بها ونتيجة حظه العاثر وتدمير بلاده وكذلك نتيجة ارتداد حلفائه عنه، وهذا كان أهم عامل، فأرسل مبعوثين إلى قيصر للحصول على اتفاق استسلام، مكلفاً كوميوس *Commius* كوسيط للقيام بذلك. وكان قيصر قد قرر العودة إلى أوروبا - أي إلى غاليا - لقضاء فصل الشتاء فيها خشية من اندلاع أية انتفاضة مباغتة هناك. وكان فصل الصيف أيضاً على وشك الانتهاء وعرف قيصر أن باستطاعة البريطانيين وبسهولة الصمود ورفض التفاهم أو الإذعان خلال الوقت القصير المتبقي من الصيف. تبعاً لذلك لبى طلب كاسيفيللونوس للتفاهم والاتفاق وأمره بإحضار عدد معين من الرهائن وحدد ضريبة سنوية على البريطانيين دفعها للحكومة الرومانية، ومنع كاسيفيللونوس ضمن شروط ملزمة وصارمة من مضايقة ماندوبراسيوس أو التحرش بقبيلة الأترينوفانتيسن.

وحالما تم تسلُّم قيصر للرهائن من كاسيفيللونوس قاد جيشه عائداً إلى الساحل حيث وجد أن السفن قد استصلحت، وطلب إنزالها إلى الماء. وعلى اعتبار أنه كان يصطحب معه عدداً كبيراً من الأسرى وأن بعض السفن كانت قد تحطمت بفعل العاصفة فقد قرر أن يجعل العودة ضمن رحلتين. وحدث أن من بين هذه الأساطيل الضخمة التي قامت بالعديد من الرحلات خلال هذه السنة أو السنة التي مضت، ما من سفينة واحدة قد فُقدت وهي تحمل القوات على متنها، إنما عدد قليل جداً من المراكب - خلال عودته فارغاً من أوروبا[1] استطاع بلوغ هدفه حيث أن جميع المراكب المتبقية قد أصرت على العودة إلى اليابسة. وبعد انتظار وصولها لوقت دام طويلاً، وكان انتظاراً عبثاً، خشي قيصر من أن يمنع من الإبحار نتيجة اقتراب موعد الاعتدال الخريفي ولذا اضطر إلى حشد رجاله بكثافة أكثر مما ينبغي على متن السفن التي كانت لديه. وما أن أصبح البحر هادئاً حتى انطلق برحلته البحرية إلى غاليا في وقت متأخر من المساء، واستطاع العودة بكامل أسطوله سالماً إلى بر غاليا عند الفجر.

---

(١) المقصود هنا هو السفن التي كانت قد عادت إلى غاليا بعد أن أنزلت القوات التي حملتها على متنها في بريطانية إضافية إلى الستين سفينة التي كان قد بناها لابينوس *Labienus* بعد بداية الحملة.

التمرد الثاني

عام (٥٤ - ٥٣ ق.م)

١ - إبادة جيش سابينوس *Sabinus* على يد الإيبيورونيين *Eburones* (٥٤ ق.م)

كان الموسم في غاليا لتلك السنة سيئاً بسبب ما أصاب البلاد من قحط وجفاف، ولذلك اضطر قيصر، بعد أن سحب السفن إلى الشاطئ وعقد اجتماعاً مع الزعماء الغاليين في ساما روبريفا *Samarobriva*، إلى تغيير طريقته السابقة في عملية الإيواء الشتوي لجيشه. لذا وزع الفيالق على عدد أكبر من القبائل: فأرسل واحداً منها إلى المورينيين *Morini* تحت إمرة الجنرال غيوس فابيوس *Gaius Fabius*، وأرسل آخر إلى النيرفيين *Nervii* بقيادة كونيتوس طوليوس سيسرو *Quintus Tullius Cicero*، وأرسل ثالثاً إلى قبيلة الإسيوفيين *Essuvii* بإمرة لوسيوس روسيوس *Lucius Roscius*، وأصدر أمره لفيلق رابع تحت قيادة لابينوس *Labienus* بإمضاء فصل الشتاء في بلاد الريميين *Remi* بجانب الحدود التريفيرية *Treveri*، وركز ثلاثة فيالق أخرى في إقليم البلجيكيين بقيادة القسطور ماركوس كراسوس *Marcus crassus* والجنرالين لوسيوس موناتيوس بلانكوس *Lucius Munatius palncus* وغيوس تريبونيوس *Gaius Trebonius*. وأرسل واحداً من الفيالق التي تم تجنيدها مؤخراً في البلاد الواقعة إلى الشمال من نهر البو[1] *Po* مع مجموعة من خمس كتائب، تحت قيادة سابينوس *Sabinus* وكوتا *Cotta*، إلى قبيلة الإيبيورونيين *Eburones* الذين يعيشون بصورة رئيسة بين نهر ميوس *Meuse* ونهر الراين وكان يحكمهم عند ذلك الوقت الزعيمان إمبيوريكس *Ambiorix* وكاتيوفولكوس *Catuvolcus*. واعتقد قيصر أنه بهذا التوزيع الواسع لفيالق جيشه قد وفر

---

(١) البو: *Po* نهر ينبع من جبال الألب في شمال غرب إيطاليا إلى الشرق من الأدرياتيكي طوله ٤١٨ ميل. وكان يطلق عليه قديماً نهر بادوس *Padus*. المترجم.

لهم أبسط السبل لمواجهة الحاجة إلى الحبوب. مع ذلك فإن نُزُل الجيش الشتوية ومراكز إيوائه (باستثناء الفيلق الذي أرسل تحت قيادة روسيوس *Roscius* إلى إقليم ينعم بالهدوء والسلام التام) كانت جميعها في الحقيقة ضمن مسافة مائة ميل في بعد الواحد منها عن الآخر. وعزم قيصر على أن يبقى هو نفسه في غاليا إلى أن يعلم أن جميع قواته قد بلغت جهات وصولها وحصنت معسكراتها.

كان في أرض الكارنوتيين *Carnutes* رجل من النبلاء، رفيع المنبت، ذو انحدار عائلي متميز يدعى تاسجيتيوس *Tasgetius*، سبق لأجداده أن كانوا ملوكاً للقبيلة. وتقديراً من قيصر لأهلية تاسجيتيوس وجدارته وإخلاصه وتفانيه في خدمة الرومان خاصة وأن خدماته التي قدمها لقيصر وفيالقه خلال شتى الحملات كانت قيّمة على نحو استثنائي - فقد نصبه على عرش أسلافه. وفي السنة الثالثة في عهده اغتيل على يد أعدائه مع الموافقة الصريحة والعلنية لأفراد كثيرين من القبيلة. ونقل خبر الجريمة إلى قيصر. وعلى اعتبار أن عدد الأشخاص المتورطين فيها كان كبيراً فقد خشي قيصر أن يقوم هؤلاء بإثارة القبيلة وتحريضها نحو التمرد والثورة. بناء على ذلك تصرف قيصر بشكل سريع ونقل بلانكوس *Plancus* على الفور من مكان إيوائه الشتوي بين البلجيين إلى إقليم الكارنوتيين محملاً إياه الأوامر القاضية بمكوثه هناك خلال الفترة المتبقية من فصل الشتاء وإلقاء القبض على أولئك الذين يجدونهم مسؤولين عن موت تاسجيتيو وإرسالهم إليه. وسمع قيصر في تلك الأثناء من جميع قادته وجنرالاته وقساطيره المتولين لأمر قيادة الفيالق أنهم جميعاً قد بلغوا مناطق نُزُلهم الشتوية وأنهم قد استكملوا كل أعمال التحصين اللازمة لمعسكراتهم.

وبعد مضي أسبوعين على ذلك بدأ أمبيوريكس *Ambiorix*وكاتيوفولوكوس *Ambiorix* الأيبيورونيان ثورة تمرد عامة. فبعد أن زارا سابينوس وكوتا عند حدود المملكة الأيبورونية وأحضرا لهما مؤونة من الحبوب إلى المعسكر الروماني، حرضتهما رسالة من أنديوتيوماروس التريفيري على دعوة رعاياهما لحمل السلاح. وما إن فرغا من هجوم مفاجئ قاما به مع قواتهما طبعاً ضد مجموعة من الجنود الرومان كانت تجمع الحطب حتى أقبلا بقوة كبيرة للانقضاض على المعسكر. تناول الجنود الرومان أسلحتهم مباشرة واعتلوا أسوار المعسكر وأحبطوا الهجوم المعادي، وأرسل، إضافة إلى ذلك، بعض الفرسان الأسبان ضمن الفيالق الرومانية، خارج المعسكر من أحد البوابات على الفور للقيام بالاشتباك مع فرسان العدو وحققوا نصراً عظيماً. وأدرك الأيبورونيون أن لا أمل لهم بالنجاح، فتراجعوا عن الهجوم ثم أخذوا يصيحون بأعلى صوتهم، تبعاً لطريقة قبيلتهم في مثل هذه الظروف، يريدون أحد

الأشخاص من جانبنا أن يخرج للتفاوض معهم معلنين بأن لديهم شيئاً يقولونه يهمنا بقدر ما يهمهم ويأملون بأنه سيضع حداً للصراع.

أرسل غيوس أرابينيوس *Gaius Arapineius*، وهو فارس روماني وصديق لسابينوس، للتداول معهم يرافقه كوينتوس جونيوس *Quintus Junius* الإسباني الذي سبق لقيصر أن استخدمه في كثير من المهمات والإرساليات إلى أمبيوريكس. فخاطبهما أمبيوريكس بالعبارات التالية قائلاً: (إنني أعترف وأقر بأنني مدين لقيصر بالشيء الكثير نظراً إلى الخدمات والأفضال التي أغدقها علي. فقد كان قيصر من حررني من الضريبة التي اعتدت دفعها إلى جيراني الإيتواتوسيين *Atuatuci* واسترجع لي ابني وابن أخي اللذين حيثما أرسلا إليهم اعتبروهم عبيداً وقيدوهما بالسلاسل. وبمهاجمتي لمعسكركم فإنني أتصرف عكس قناعتي ورأيي وضد رغباتي الشخصية الخالصة، إلا أنني أرغمت وأكرهت على ذلك من قبل رعاياي لأنني لست حاكماً مطلقاً، فلأبناء شعبي سلطة علي بقدر ما لي من سلطة على أبناء شعبي. والسبب وراء حمل القبيلة على التسلح ومناهضة الرومان هو أنه ليس باستطاعتها الوقوف في وجه حركة اتفق عليها جميع الغاليين فجأة ووحدوا صفوفهم وشكلوا تحالفاً عاماً. إن محدودية سلطتي وإمكاناتي تبرهن بوضوح على صدق وحقيقة ما أقول، فأنا لست بجاهل كي أتصور أن جيشي لوحده قادر بما يكفي لإنزال الهزيمة بالرومان، إن غاليا بأكملها وبشتى أجزائها مشتركة بهذه المحاولة. وقد رتبوا موضوع القيام بالهجوم ضد المعسكرات الرومانية اليوم بذات التوقيت كي لا تتمكن الفيالق من تقديم المساعدة والعون الواحد منها للآخر. لذا كان صعباً علينا رفض مد يد العون والمساعدة لأبناء بلادنا وأبناء شعبنا خاصة وأننا نعرف بأن هدفهم من هذه الحركة الشاملة هو استعادة حريتنا القومية. لكن لطالما قد نفذت الآن واجبي الذي اقتضته مني المصلحة الوطنية وحب الوطن فإنني أتذكر ما أنا مدين به لقيصر نظراً لفضائله الكثيرة التي غمرني بها والخدمات الجليلة التي لن أنساها وأحث سابينوس وأناشده وأتوسل إليه كصديق لي وكضيف في بلادي أن يفكر بسلامته وبسلامة جنوده. فلقد عبرت نهر الراين مؤخراً قوة هائلة من المرتزقة الألمان وستكون هنا في غضون يومين. فالقرار هو قرارك والأمر في يديك إن كنت ستسحب قواتك من المعسكر قبل أن تتمكن القبائل المجاورة من اكتشاف ما أنتم تفعلون، حيث بإمكانك اصطحاب جندك إلى سيسيرو *Cicero* الذي يبعد عنا مسافة أقل من خمسين ميلاً أو إلى لابينوس الأبعد مسافة بقليل. وأنا من جانبي أقسم أن أرشدكم إلى طريق آمنة عبر أراضي مقاطعتي. وبتصريح هذا فإنني سأسدي خدمة لشعبي ومصالح شعبي وخيره ومنفعته، إذ ستتم

إراحته من عبء وجود معسكركم في وسطهم، وفي الوقت ذاته أرد إلى قيصر شيئاً من جميله ومعروفه وفضائله. وبعد أن أنهى أمبيوريكس خطبته هذه انسحب من المكان. ونقل أربينيوس *Arpineius* وجونيوس *Junius* هذه الملاحظات إلى القادة والجنرالات الذين استمعوا إليها تعتريهم الدهشة والذعر. وبالرغم من أن اقتراح مغادرة المعسكر قد جاء من عدو إلا أنهم كانوا مقتنعين جميعاً بضرورة أخذه بالحسبان. والشيء الأكثر مدعاة للقلق فيه حقيقة أنه كان أمراً غير قابل للتصديق أن تقوم قبيلة مغمورة ومجهولة وغير ذات وزن أو اعتبار - كقبيلة الإيبيورونيين - بمبادرة منها لشن الحرب ضد روما. فأحيلت المسألة تبعاً لذلك إلى مجلس حرب حيث دار جدل حام حولها احمرت فيه الوجوه نتيجة اختلاف الآراء. فكوتا *Cotta* ومعه كثيرون من التريبيونات العسكريين وقادة المئة الأوائل اعتقدوا أنه لا ضرورة لهم لاتخاذ أية خطوة عاجلة أو مغادرة المعسكر دون علم قيصر أو إذنه، حيث قالوا: (إن بمقدورنا في هذا المعسكر المحصن مقاومة أي عدو من الغاليين إضافة إلى أية قوة جرمانية ضخمة، ولدينا البرهان على ذلك. فجنودنا قد أظهروا مقاومة باسلة وجريئة للغاية في صدهم لهجوم العدو الأول واتخذوا موقف الهجوم وأنزلوا بالعدو خسائر فادحة. كما أنه لا تنقصنا أية مؤونة من الحبوب، وقبل أن تنتهي المؤونة المتوفرة لدينا حالياً ستأتينا المساعدة من المعسكرات القريبة ومن قيصر أيضاً. مع ذلك وتحت أية ظروف، فإن ما من شيء قد ينم عن عدم الإحساس بالمسؤولية والبعد عن أي التزام عسكري أكثر من اتباعنا لنصيحة عدو في مسألة ذات أهمية قصوى).

وأصر سابينوس في معرض رده على ما طرحه كوتا أنه ليس بالإمكان الآن فعل أي شيء بعدما احتشد الغاليون بأعداد ضخمة يعززهم الجرمان، كما لن يكون بمقدورنا فعل أي شيء بعد أن تحل كارثة في المعسكرات الأخرى القريبة منا. وأضاف قائلاً: (لدينا وقت قصير كي نقرر. أما بالنسبة لقيصر فإنه لابد قد غادر الآن غاليا مستأنفاً رحلته إلى إيطاليا. ولولا ذلك لما قرر الكارنوتيون قبل تاسجيتيوس ولما تجرأ الإيبورونيون، لو أن قيصر لا يزال في غاليا، على ازدرائنا إلى حد مهاجمة معسكرنا. وحقيقة أن الاقتراح قد جاء من العدو لا صلة لها بالموضوع على الإطلاق من حيث أن ما يهم هو حقائق الأمور، وهو ما أنظر إليه، بغض النظر عن من جاء بالاقتراح. فنهر الراين قريب جداً منا، والجرمان غاضبون وساخطون ويشعرون بالمرارة والحنق بسبب قتل أريوفيستوس وبسبب انتصاراتنا المتتالية في حملاتنا السابقة. وغاليا تتوهج غيظاً كأنها على جمر بسبب ما عانته من إذلال نتيجة إرضاخها للسيطرة الرومانية وانتزاع هيبتها العسكرية السابقة، وإنه لمن غير المعقولية أن يتصرف أمبيوريكس على هذا النحو لو لم يكن

واثقاً مما يقول ولو لم يكن لما يقوله أرضية معينة. لذلك فإنني سأنتهج السياسة الأسلم والأضمن في كلتا الحالتين ونشق طريقنا، إن لم يحدث أي طارئ، إلى أقرب فيلق روماني دون تعريض أنفسنا وأفراد قوتنا للمجازفة. وإذا كان الغاليون سيشكلون حلفاً مع الجرمان فإن فرصتنا الوحيدة للنجاة هي في التصرف على عجل. أما بالنسبة للخطة التي يوصي بها كوتا والآخرون الذين يخالفونني الرأي فإنني أتساءل أي نتيجة سنحصدها من تبنينا لها؟ فهي قد تتضمن وقد لا تتضمن خطراً مباشراً إنما تعني بالتأكيد حصاراً طويل الأمد وتهديداً بالموت جوعاً).

وبعد استعراض وجهات النظر المتباينة هذه، والآراء المتناقضة لمختلف الأطراف استمر كوتا وقادة المئة باعتراضهم على ما طرحه سابينوس بشدة وحزم، فصاح سابينوس بأعلى صوته إلى حد أن الكثيرين من الجنود استطاعوا سماعه قائلاً: (اسلك الطريق التي تشاء يا كوتا، أما أنا فلست بخائف على نفسي من الموت أكثر من البقية. وسيفهم الجميع أنه إذا حلت بنا كارثة فإنه أنت من سيعدونه مسؤولاً. وإن تتأخر في إعطاء موافقتك على خطتي إلى بعد يوم الغد فإن جندنا سيكونون قد وصلوا إلى أقرب معسكر وسيكون رفاقهم إلى جانبهم لمشاركتهم قدر الحرب بدلاً من بقائهم هنا معزولين كالمنبوذين أو المنفيين ليتم ذبحهم أو موتهم من الجوع). ونهض الضباط من أماكنهم أمسكوا بالقائدين لإبعادهما عن بعضهما وأخذوا بالتوسل إليهما ومناشدتهما عدم الاستمرار بالنزاع الذي لا بد يعرض الجيش لخطر جدي. وقال الضباط: (إنه سواء غادرنا أو استمرينا في المكوث هنا فإنه لن تكون أمامنا أية صعوبة حقيقية إن نتفق جميعاً على انتهاج سبيل واحد ونعتمد طريقة تصرف واحدة. أما أن نواصل النزاع والتشاجر فإنه لن تكون أمامنا أي فرصة للنجاة والخلاص). واستمر الجدل عنيفاً حتى منتصف الليل، لكن كوتا أذعن أخيراً مستسلماً للأمر وهو في حالة من الحزن الشديد والكرب المغموم. واعتمدت خطة سابينوس وأعلن للجميع على أنهم سيباشرون الزحف عند الفجر. وسهر الجند بقية الليل حيث كان كل منهم يتفقد عدة ترحاله ليرى أي أشياء بإمكانه اصطحابها معه وأي أشياء من عدته الشتوية يمكنه الاستغناء عنها. ولجأوا في تفكيرهم إلى شتى الحجج الممكنة كي يقنعوا أنفسهم أنه لن تواجههم أي مخاطر أثناء ذهابهم وأن الخطر الجسيم يكمن في بقائهم في موقعهم الحالي، وأرهقوا أنفسهم كثيراً بعدم الخلود إلى النوم إلى حد أن الخطر الفعلي قد تصاعد من حيث أنهم سيكونون في غاية الإرهاق والتعب في حال حدث طارئ ما. وعند الفجر خرجوا من المعسكر وبدأوا بالزحف والكل مقتنع تماماً، ولا تعتريه أي شكوك، بحقيقة أن العدو الذي اقترح الخطة هو أفضل

الأصدقاء، الأمر الذي جعلهم يسيرون ضمن رتل طويل تائه، يفتقد إلى كل تنظيم واتساق، تعرقل زحفهم أحمال الأمتعة الثقيلة التي يصطحبونها معهم.

وأدرك الغاليون من خلال سماعهم أصوات الجنود الرومان داخل معسكرهم خلال الليل أنهم ما يزالون متيقظين واستنتجوا من ذلك أنهم يقومون باستعداداتهم للرحيل. لذا قاموا بتركيز كمينين في مكان ملائم على بعد حوالي ميلين داخل الغابات احتجبا هناك ضمن عوالم الإخفاء والتستر لا تدركهما أي مراقبة أو ملاحظة، حيث هناك انتظرا رتل الرومان الزاحف. وما إن انحدر القسم الأكبر من الجيش الروماني نحو ممر ضيق حتى ظهرا فجأة من كلتا الناحيتين وقاما بالإغارة على مؤخرة الرتل ومنعا مقدمته من صعود الهضبة التي تؤدي إلى الخروج من هذا الممر الضيق وبذلك أجبرا الجند على القتال فوق أرض غير مؤاتية وهم في حالة من الإرهاق بسبب سهرهم الليل وحالة من التعب الشديد بسبب ما يحملون من أمتعة ثقيلة. أما سابينوس الذي أخفق في حدس ما قد يحدث فقد غدا الآن منفعلاً وأخذ يركض جيئة وذهاباً يحاول ترتيب الكتائب. إنما حتى فعله هذا كان مغلفاً بعصبية واضحة ويتم بطريقة تدل على أنه قد فقد رشده وصوابه - على نحو ما يجري عادة لأولئك الذي يكرهون على صنع القرارات بعد أن تكون المعركة قد بدأت فعلاً. أما كوتا الذي تنبأ باحتمال حدوث هجوم مفاجئ من قبل العدو أثناء الزحف، ولهذا السبب اعترض على فكرة مغادرة المعسكر، وفقد بذلك كل جهد ممكن لإنقاذ الجيش. كان ينادي الجند ويشجعهم على نحو ما كان سيفعله قائدهم العام قيصر في مثل هذه الظروف ويقاتل في الصفوف شأنه في ذلك شأن أي جندي آخر. وعلى اعتبار أن طول الرتل جعل من العسير على القادة والجنرالات متابعة كل شيء شخصياً ورؤية ما كان يستلزم ويقتضى في كل جزء من أجزاء الميدان فقد تناقلوا الواحد للآخر وعلى طول الرتل أمر تخلي الجند عن الأمتعة وتشكيل دائرة. وعلى الرغم من أنه لا يمكن شجب هذا الإجراء في مثل هذه الظروف إلا أنه جلب نتيجة مؤسفة ومشؤومة، إذ خفف من شجاعة الجند وصعد من حماسة القتال عند العدو وجعلها حارة ملتهبة لأن ذلك الإجراء دل بوضوح على شعور بخيبة الأمل وباليأس المفرط، كما دل على الخوف الذي اعترى الصفوف وكان على أشده، وقاد بصورة حتمية إلى جعل الجند في كل مكان يتركون وحداتهم يهرعون إلى أمتعتهم للبحث عن أغلى ما كان في حوزتهم وإخراجه من صررهم في خضم عالم من الصخب المسعور وضجيج الأصوات والصراخ.

لم يظهر العدو من جانبه أي افتقار لحسن التصرف أو للقدرة على التعامل مع الظرف، فقد تناقل قادته أمر عدم ترك أي مقاتل لموقعه عبر كل الخطوط وأن كل الغنائم التي سيخلفها

الرومان وراءهم ستكون لهم وسيحتفظ بها لهم وحدهم. لذا عليهم أن يدركوا أن كل شيء يعتمد على النصر. كان الغاليون بنفس مستوى قواتنا من حيث الكفاءة القتالية إلا أنهم كانوا ذوي تفوق عددي واضح علينا. لكن جنودنا، مع ذلك وعلى الرغم من تخلي قادتهم عنهم للقدر والمصير وخذلانهم لهم، اعتمدوا على شجاعتهم وبسالتهم في إنقاذ أنفسهم، وفي كل مرة كانت تهاجم فيها كتيبة من كتائبنا مجموعات العدو كان عدد هائل من عناصر العدو يسقط. وعند رؤية أمبيوريكس لهذا الأمر طلب من جنوده رمي رماحهم باتجاهنا دون الاقتراب كثيراً وإفساح المجال أمام الهجمات الرومانية. واعتماداً على تسليحهم الخفيف وتدريبهم على الممارسة اليومية لتنفيذ مثل هذه المناورات فإنه سيبقى بمقدروهم إنزال الخسائر الجسيمة في صفوفنا، وحالما يبدأ الرومان بالانسحاب إلى مركز قوتهم الرئيس سيكون عليهم الشروع بالمطاردة. وقد تمت إطاعة هذه التعليمات بكل دقة وانتباه وحذر. وكانت كلما تخرج كتيبة من الدائرة التي تشكلها قواتنا لتقوم بالهجوم كان العدو يتقهقر بأقصى سرعة، فتترك الكتيبة المهاجمة فجوة مؤقتة في دائرة القوات، وبذلك تصبح الوحدة التي تقف إلى جانبها مكشوفة وعرضة لقذائف العدو من الجناح الأيمن، وحينما كانت الكتيبة تعود إلى موقعها الأصلي بعد تنفيذها للهجوم كانت تطوق من قبل الغاليين الذين كانوا قد تراجعوا ومن قبل العناصر القريبة التي بقيت في مواقعها. وكان إذا حاول الرومان التمسك فقط بمواقعهم داخل الدائرة لا يبقى أي مجال مفتوحاً لأي محاولات هجومية جريئة أو نشاط قتالي فذ حيث يضطرون للاحتشاد معاً على مقربة شديدة من بعضهم بعضاً ليس عليهم سوى محاولة تجنب الرماح التي كان يمطرها فوق رؤوسهم جيش غاليا العرمرم. مع ذلك، وبالرغم من كل الظروف المعوقة التي كان على العدو النضال تحت سقفها، و على الرغم من الخسائر الجسيمة التي مني بها، ظل صامداً متحملاً. وخلال قتال ضروس دام لوقت طويل من النهار، من الفجر حتى الثانية بعد الظهر، لم يفعل العدو شيئاً يجعله يشعر بالخجل. واخترق في هذه المعركة رمح معادٍ فخذي تيتوس بالفينتوس *Titus Balventius* الذي كان في العام المنصرم القائد الرئيسي لفصائل المئة في فيلقه والذي عرف بجرأته وشجاعته، وبجدارته بأسمى مراتب الاحترام والتقدير. كما قتل قائد مائة آخر بنفس المرتبة، هو كونيتوس لوكانيوس *Quintus Lucanius* في محاولة جريئة منه لإنقاذ ابنه الذي طوقته عناصر العدو. وكوتا نفسه جرح من حجر مقلاع أصابه في وجهه مباشرة أثناء انشغاله بتشجيع كل فصيلة وكتيبة على مواصلة القتال والصمود.

وأصاب الذعر والهلع سابينوس من جراء هذه الأحداث إلى حد أنه حينما لمح أمبيوريكس الذي كان يخاطب قواته وهو يقف في نقطة لا تبعد عنه كثيراً أرسل إليه مترجمه نيوس

بومبيوس Gnaeus Pompeius ليستغيثه الإبقاء على حياته وحياة جنده. وفي رده على هذه الاستغاثة والمناشدة قال أمبيوريكس إن بإمكان سابينوس نفسه التحدث إليه إن شاء، وأنه يأمل أن يكون بإمكانه إقناع رجاله بالإبقاء على حياة الجنود الرومان، وقال: (على أي حال فالأفضل لسابينوس أن يأتي إليّ بنفسه وأنا شخصياً أضمن له عدم مسه بأي أذى أو ضرر) واقترح سابينوس على كوتا الجريح أن عليهم الانسحاب من القتال والتداول سوية مع أمبيوريكس الذي يعلق أملاً على قدرته في إقناع جنوده بالصفح عنهما وعن قواتهما والإبقاء على حياتهم. غير أن كوتا رفض الذهاب إلى عدو لم يلقِ سلاحه بعد، وقال إنه لن يتزحزح عن قراره. فأمر سابينوس حينئذ التريبيونات العسكريين الذين كانوا معه في تلك اللحظة وقادة المئة الأوائل باتباعه. وحينما أصبحوا على مقربة من أمبيوريكس طلب من سابينوس إلقاء سلاحه، فأطاع الأمر. ومن ثم أمر الآخرين بفعل الشيء نفسه ففعلوا. وبينما كان سابينوس يناقش شروط الاستسلام مع أمبيوريكس الذي أطال الحديث عمداً، تمت محاصرته تدريجياً وقتل بعدئذ. عند مقتل سابينوس علت أصوات الغاليين بصيحة النصر التقليدية لديهم، ومن ثم أطلقوا صرخة مدوية وهاجمونا، واخترقوا صفوفنا. وسقط كوتا وهو يقاتل في المكان الذي كان يقف فيه، وقتل معه معظم الجنود الذين كانوا برفقته. أما الباقون على قيد الحياة فقد تراجعوا نحو المعسكر الذي كانوا قد جاؤوا منه. أما حامل راية الفيلق لوسيوس بيتروسيديوس Lucius Petrosidius فإنه حينما رأى نفسه مطوقاً من جميع الجهات بحشد هائل من الغاليين ألقى بالنسر داخل سور المعسكر ومات بعد قتال بطولي خارج المعسكر. أما بقية العناصر الرومانية فقد بذلت قصارى الجهد للصمود أمام هجوم العدو الضاري ومقاومته حتى حل المساء. وفي الليل، وبعد أن رأوا أن كل أمل لهم قد ضاع واكتسحهم اليأس قاموا بالانتحار جميعاً. أما القلة الذين استطاعوا النجاة والهرب من المعركة فقد شقوا طريقهم عبر ممرات خفية ودروب غير مميزة نحو معسكر لابينوس Labienus ورووا له ما قد حدث.

٢ - هجوم نيرفي Nervi على المعسكر الشتوي لسيسيرو Cicero (٥٤ ق.م)

بعد أن طار اهيبوريكس تيهاً وإعجاباً بانتصاره توجه على الفور وبرفقته سلاح فرسانه نحو إقليم الإيتواتيوسيين Atuatuci الذي يتاخم حدود مملكته زاحفاً ليلاً نهاراً دون توقف. وكان قبل انطلاقه قد وجه أوامره إلى مشاته باللحاق به. وشرح للأيتواتيروسيين ما قد حصل وأثارهم نحو حمل السلاح ومقارعة الرومان. وفي اليوم التالي وصل إلى قبيلة النيرفيين واستحثهم على عدم إضاعة فرصة تحرير أنفسهم إلى الأبد والثأر لكل الأخطاء التي ارتكبت بحقهم على يد الرومان. وأخبرهم بأن قائدين من قادتهم قد قتلا وأن القسم الأعظم من الجيش الروماني قد تم محقه وإبادته. لذا فإنه سيكون من السهل مفاجأة فيلق سيسيرو وتدميره وهو في معسكره الشتوي. ووعد بتقديم العون والمساعدة لهم في هذا المشروع، وأقنعهم بسهولة بتوليه والشروع بتنفيذه. سارع النيرفيون تبعاً لذلك إلى إرسال رسل إلى القبائل الواقعة تحت سلطتهم[1] وحشدوا أكبر قوة كان باستطاعتهم حشدها وانقضوا على معسكر سيسيرو قبل أن يكون قد تلقى خبر موت سابينوس. ولم يستطع سيسيرو تحمل أمر أخذه على حين غرة، شأنه في ذلك شأن سابينوس، حيث أن بعض الجنود الذين كانوا قد ذهبوا لجمع حطب المواقد والخشب لبناء التحصينات قد عزلوا عن المعسكر بسبب الوصول غير المتوقع لفرسان العدو. وبدأ بعد ذلك هجوم على نطاق واسع قام به الايبورونيون Eburones والنيرفيون Nervii والإيتواتيوسيون Atuatuci يرافقهم في ذلك حلفاؤهم والتابعون لهم. واندفع الجنود الرومان نحو أخذ أسلحتهم وصعدوا أسوار المعسكر. وتلا ذلك يوم من القتال الضاري لأن العدو قد بنى كل آماله على الحركة السريعة والهجوم المباغت وكان واثقاً من أن النجاح في تلك المعركة سيضمن له انتصاره النهائي.

كتب سيسيرو رسالة إلى قيصر مباشرة وعرض مكافأة قيمة وثمينة للرسل إذا نجحوا في إيصال الرسالة إلى قيصر. غير أن جميع الطرق كانت محروسة بقوات معادية وتم اعتراض سبيلهم وعرقلتهم. وخلال الليل استخدم جميع الخشب الذي كان قد تم جمعه في الأيام الماضية لبناء الأعمال الدفاعية في إقامة الأبراج، حيث شيدت بسرعة مذهلة وخيالية مائة وعشرون برجاً وسويت جميع النواقص ومواقع الخلل في التحصينات.

---

(١) السيوترونيون Ceutrones والغروديون Grudii والليفاسيون Levaci والبلوموكسيون Pleumoxii والجيدومنيون Geidumni.

وفي اليوم التالي استأنف العدو، معززاً بقوات ضخمة، هجومه على المعسكر وملأ الخندق المحيط بالمعسكر بعناصره، في حين قاوم الرومان بنفس العزيمة والتصميم الذي قاوموا به في اليوم الأول. واستمرت الهجمات المعادية يوماً بعد يوم وخلال الليل كانت أمام الجنود الرومان أعمال كثيرة يقومون بها إلى حد أن المريض والجريح لم يحصل على أي وقت للنوم، فكل ما كان ضرورياً لصد هجوم اليوم التالي وردعه كان يتجهز خلال الليل بما في ذلك حرق أعداد هائلة من رماح الحصار والخوازيق التي كان ينصبها العدو في نقاط محددة. وزودت الأبراج بطبقات إضافية وبمتاريس مرتجلة مصنوعة من أغصان لدنة مجدولة تعلوها قباب ذات فتحات لرمي القذائف. حتى أن سيسيرو نفسه، رغم اعتلال صحته، كان لا يرتاح ليلاً إلى أن ذهبت إليه مجموعة من جنوده وأجبرته على العناية بنفسه محتجة، على عدم اكتراثه بصحته.

والذي حدث بعد ذلك هو أن عدداً من القادة والزعماء النيرفيين الذين يزعمون بأن لهم بعض الحق في اعتبار أنفسهم أصدقاء ليسيرو وبالتالي مخولين للتحدث إليه طلبوا مقابلته. ولبى سيسيرو لهم طلبهم فجاؤوا إليه ليقصوا عليه القصة نفسها التي رواها أمبيوريكس لسابينوس من حيث أن غاليا بأكملها تحمل الآن السلاح ثائرة ضد الحكم الروماني في كل بقاعها، وأن الجرمان قد عبروا نهر الراين وأن معسكر قيصر وبقية القادة الآخرين تهاجم في الوقت الحاضر من قبل أهالي البلاد. ووصفوا له كيف مات سابينوس ولكي يبرهنوا عن صدق روايتهم أشاروا إلى وجود أمبيوريكس بصحبة جيشهم. وتابعوا يقولون: (إنك مخطئ يا سيسيرو إن تتوقع أي مساعدة مهما تكن تأتيك من قوات تدرك تمام الإدراك أنها في حالة من الخطر الداهم على نفسها. مع ذلك فليست بيننا وبين سيسيرو أو الشعب الروماني أي نقاط خلاف عدى أننا نعارض ونرفض بشدة إقامتكم لمعسكراتكم الشتوية في بلادنا، ولا نريد لهذا الأمر أن يصبح تقليداً سنوياً متكرراً. أما بالنسبة لنا فإننا نريدك أن تغادر المعسكر دون أي مضايقات أو إزعاجات، واذهب حيثما تشاء دون أدنى إحساس بالخوف. وفي الرد على ذلك اكتفى سيسيرو بالقول إنها ليست عادة الشعب الروماني أن يقبل أي شروط من عدو لا يزال يحمل السلاح. فإنهم إن يلقوا سلاحهم ويبعثوا بسفارة إلى قيصر يطلبون منه التفاهم والاتفاق فإنه سيدعم طلبهم ويتوخى سيسيرو أن يلبي قيصر طلبهم بالنظر لما عرف عنه من عدالة وإنصاف.

بعد هذا الإحباط وما أصاب هؤلاء من خيبة أمل بسبب طريقة رد سيسيرو على طلبهم قام النيرفيون بتطويق المعسكر الروماني بسور بلغ ارتفاعه عشرة أقدام وبخندق بلغ عرضه

خمسة عشر قدماً. فقد كانوا قد تعلموا شيئاً عن فن التحصين والخندقة من خلال مراقبتهم لطرائقنا في فعل ذلك في العام المنصرم. كما أنهم حصلوا على شيء من المعرفة في هذا المجال من الأسرى التابعين لجيشنا والذين كانوا هم قد أمسكوا بهم. لكن على اعتبار أنهم كانوا يفتقدون للمعدات والوسائل المناسبة لتنفيذ العمل فقد اضطروا إلى قطع الأعشاب والجذور باستخدام سيوفهم وإلى إزالة التراب بأيديهم وفي عباءاتهم. ومن خلال هذا العمل كان بالإمكان استخلاص شيء من الفكرة حول أعدادهم الضخمة. ففي أقل من ثلاث ساعات استطاعوا استكمال خط محصن محيطه ثلاثة أميال، وفي غضون بضعة أيام تلت كان العمل خلالها على قدم وساق (وتحت إشراف وتوجيهات وتعليمات أسرانا) لبناء أبراج مرتفعة تفوق في علوها قمة سور معسكرنا ولصناعة كلابات للتسلق وخيام لجنود الألغام.

وفي اليوم السابع للحصار هبت عاصفة هوائية هوجاء بدأ العدو معها برمي كرات مقولبة من الصلصال الساخن الذي احمر توهجاً، وقذف سهام محرقة باتجاه الخيام داخل المعسكر. وكانت هذه الخيام مسقوفة بالقش وفق ما جرت عليه العادة في غاليا. فاشتعلت الخيام بسرعة البرق، والرياح الشديدة نشرت ألسنة اللهب إلى مختلف أجزاء المعسكر. وأطلق العدو هتافات مرتفعة كأن النصر قد غدا الآن أكيداً، وبدأ بتحريك أبراجه وخيام لغاميه نحو المعسكر، كما شرع بتسلق سور معسكرنا بالسلالم. أظهر المدافعون شجاعة خارقة وبرودة أعصاب ورباطة جأش. فقد طوقتهم حرارة لاهبة محرقة بفعل النيران حولهم ورجمهم العدو بزخات من القذائف، وعرفوا أن كل أمتعتهم بما فيها كل شيء يقتنونه قد أخذ يحترق، لكن مع هذا كله ما من رجل منهم تخلى عن موقعه فوق السور وما من مقاتل أدار وجهه نحو داخل المعسكر ليرى ما كان يجري. فالجميع كان يقاتل بضراوة وبأعلى درجات البطولة والمقدرة.

لقد كان هذا هو أسوأ يوم قتال بالنسبة لهم، إلا أنه مع ذلك انتهى بقتلهم وجرحهم من عناصر العدو أكثر مما سبق لهم أن قتلوا أو جرحوا في أي يوم قتالي آخر. ويرجع السبب في ذلك إلى أن الغاليين كانوا يتكدسون في أكوام متلاصقة ومتزاحمة عند أسفل السور وقواتهم الموجودة في الخلف منعت الصفوف الأمامية لقواتهم من التراجع، وحينما تلاشت النيران قليلاً وخفت حدتها اندفع واحد من أبراج العدو نحو سور معسكرنا عند إحدى النقاط فقام قادة المئة التابعين للكتيبة الثالثة بالانسحاب من النقطة التي كانوا يتمركزون فيها وسحبوا معهم كل عناصرهم وأعطوا إشارة للغاليين داعينهم للتقدم نحو داخل المعسكر إذا شاؤوا فهم مستعدون لهم ولمنازلتهم إلا أن ما من واحد من الغاليين تجرأ على التحرك.

فأكرهتهم قواتنا حينئذ على ترك موقعهم فوق البرج بوابل من الحجارة كانت تأتيهم من كل حدب وصوب والبرج نفسه اشتعل ناراً.

كان في الفيلق اثنان من قادة المئة عرفا بشجاعتهما الفذة وبسالتهما المقدامة هما تيتوس بولو *Titus Pullo* ولوسيوس فورينوس *Lucius Vorenus*، وكان كلاهما مؤهلاً تقريباً للترفع إلى المرتبة الأعلى. وكانا دائماً يتجادلان بشدة وحزم حول من منهما هو الجندي الأفضل والأكفأ وكانت المنافسة على الترفيع بينهما تجعلهما في كل عام يتشاجران بعنف، وحينما كان القتال على أشده عند الخندق صاح بولو بأعلى صوته: (لماذا التردد يا فورينوس؟ وهل تريد فرصة أفضل من هذه الفرصة لتبرهن عن شجاعتك؟ هذا اليوم سيحسم الأمر بيننا). قال بولو هذه الكلمات وتقدم مندفعاً خارج تحصينات المعسكر وتوجه بأقصى سرعته نحو أكثف مكان استطاع رؤيته من خط العدو، وكان يعج بالعناصر المعادية بغزارة ملحوظة، ودفع هذا الأمر فورينوس نحو الانطلاق من فوق السور أيضاً والإسراع للحاق بمنافسه خشية أن ينتاب أحد أي تفكير أو ظنون إذا توانى عن اللحاق به أو تلكأ في الخلف. توقف بولو على مسافة قصيرة من الغاليين وأطلق رمحه باتجاه واحد من عناصر العدو كان يجري خارجاً من صفوفهم نحو سور معسكرنا فأصابه وأسقطه على الأرض فاقداً وعيه من جرحه وغطاه رفاقه بتروسهم. وبنفس اللحظة أمطروا بولو بزخات من القذائف ومنعوه من التقدم نحوهم أكثر من ذلك. ثقب أحد الرماح المعادية ترس بولو وارتطم بحزام سيفه. وعلى اعتبار أن الضربة قد أزاحت قراب سيفه من مكانه فإن يده لم تعد تستطيع تناول السيف بسرعة حينما حاول سحبه فحاصره العدو وهو في حالة غير قادر فيها على الدفاع عن نفسه. سارع منافسه فورينوس لإنقاذه وهو في محنته، فترك جميع الغاليين بولو مباشرة معتقدين أن بولو قد أصيب بجرح قاتل بسبب الرمح الذي صوب إليه واستداروا نحو فورينوس. سحب فورينوس سيفه وقاتل باشتباك متلاحم حتى قتل واحداً من مهاجميه وأجبر البقية على التراجع قليلاً، إلا أنه أثناء مواصلة ضغطه بحماسة متقدة وتوق لاهب تعثر عند أسفل حافة منحدرة وسقط، وغدا الآن دوره ان يحاصر لكن بولو أقبل لمساعدته وتمكن الاثنان من النجاة دون أن يصابا بأي أذى بعد أن قتلا عدداً من أفراد العدو وعادا إلى المعسكر يغمرهما شعور بالمجد والاعتزاز. لقد لعب القدر لعبته معهما في نضالهما من أجل التفوق ورغم أنهما كانا منافسين مريرين إلا أن الواحد منهما قدم العون للآخر وأنقذ الواحد منهما حياة الآخر عندما لزم الأمر. لذا يصعب على المرء التقرير حول من هو الأكثر استحقاقاً وجدارة بوسام الشجاعة.

وازداد خطر وقسوة الحصار يوماً بعد يوم ولاسيما أن الكثيرين من رجالنا قد أصبحوا غير مؤهلين، بسبب جراحهم، للقيام بأي أعمال دفاعية، وأن قلة قليلة من العناصر تتوفر الآن لدينا للدفاع. ولطالما أن الوضع قد أصبح أكثر سوءاً فقد بذل سيسيرو محاولات متكررة أخرى لإيصال رسالة منه إلى قيصر. فقد تم ضبط بعض الرسل من قبل العدو مباشرة واكتشف أمرهم وعذبوا حتى الموت على مرأى من عيون الجنود. كان في المعسكر أحد النيرفيين من منبت عائلي رفيع يدعى فيرتيكو *Vertic* كان قد هرب إلى سيسيرو عند بداية الحصار وخدمه بإخلاص ووفاء شديدين. استحث هذا الرجل عبده من خلال إعطائه وعداً بالحرية ومكافأة قيمة ليحمل رسالة سيسيرو إلى قيصر. أخذ هذا العبد الرسالة مربوطة حول رمحه ومر خلال خطوط أبناء بلاده دون أن يثير أي شكوك عند أي منهم ووصل إلى قيصر الذي علم منه عن المخاطر المحدقة بسيسيرو وفيلقه. وحين تلقيه للرسالة عند عصر ذلك اليوم بعث قيصر في الحال رسولاً إلى قسطوره ماركوس كراسوس *Marcus Crassus* الذي لا يبعد معسكره عن معسكر قيصر سوى أربعة وعشرين ميلاً داخل إقليم البيلوفاسيين يأمره بالزحف عند منتصف الليل برفقة فيلقه للانضمام إليه (أي إلى قيصر) بأقصى سرعة. غادر كراسوس تبعاً لذلك معسكره وبصحبته رسول قيصر، كما بعث قيصر برسالة أخرى إلى فابيوس *Fabius* يأمره فيها بالزحف مع فيلقه باتجاه إقليم الأتريباتيين الذي سيكون على قيصر المرور فيه وهو في طريقه إلى معسكر سيسيرو. كما أعطى قيصر توجيهاته إلى لابينوس *Labienus* كي يحضر فيلقه إلى حدود إقليم النيرفيين إن يستطع فعل ذلك دون مجازفة. وعلى اعتبار أن بقية الفيالق كانت بعيدة للغاية عن معسكر قيصر فإنه لم يتصور أن من المستحسن الانتظار إلى أن يتم تجميعها إلا أنه تمكن من حشد قرابة أربعمائة فارس من المعسكرات المجاورة.

وفي صباح اليوم التالي عندما علم قيصر من كشافة كراسوس بأنه وقواته قد أوشكا على الوصول إليه انطلق في حوالي الساعة التاسعة وزحف لمسافة عشرين ميلاً. وأوصى قيصر كراسوس وفيلقه الذي كان معه بوجوب توليه مسؤولية كل شيء يخلفه قيصر وراءه في ساماروبريفا *Samarobriva* سواء الأمتعة الثقيلة أو الرهائن التي قدمتها مختلف القبائل والأوراق الرسمية وكل مخزون الحبوب الذي تم تجميعه ليكفي طوال فترة فصل الشتاء. ووفقاً لما كانت عليه الأوامر لفابيوس *Fabius* وفيلقه فقد انضما إلى قيصر أثناء الزحف دون أن يحصل أي تأخير. أما بالنسبة للابينوس *Labienus* فقد سمع بالأخبار السيئة المتعلقة بمقتل سابينوس وإبادة الخمس عشرة كتيبة التي كان على رأسها. ولما كانت شتى القوات

التريفيرية *Treveri* على مقربة شديدة منه وتحيط به من كل جانب فقد خشي أن تكون لمغادرته معسكره والانضمام إلى قيصر نتائج وخيمة، الأمر الذي قد يبدو أشبه بالهروب، حيث لا بد سيشن العدو هجوماً عليه وهو يشك في قدرته على المقاومة خاصة وأنه يعلم بأنهم في ذروة خيلائهم نتيجة النصر الغالي الأخير، وبناء على هذه المعطيات كتب سابينوس إلى قيصر رداً على رسالته له ليقول إنها ستكون مجازفة كبيرة وخطيرة بالنسبة له تحريك فيلقه من مراكزه الشتوية. ووصف لقيصر بالتفصيل ما كان قد حدث في إقليم الأيبيورونيين وأخبره بأن كامل الجيش التريفيري بمشاته وفرسانه قد اتخذوا مواقعهم حوله على بعد ثلاثة أميال من معسكره.

واستحسن قيصر قرار لابينوس بالبقاء في معسكره مع فيلقه، لكن على الرغم من أن هذا كان يعني أنه سيكون لدى قيصر فيلقان بدلاً من الفيالق الثلاثة التي توقع مرافقتها له إلى معسكر سيسيرو إلا أن قيصر اعتقد أن السبيل الوحيد الممكن لإنقاذ الموقف هو التصرف السريع وعدم التباطؤ. تقدم قيصر بزحف اضطراري عاجل إلى إقليم النيرفيين *Nervii* حيث علم هناك من بعض الأسرى بما كان يجري في معسكر سيسيرو وكم كان الوضع حرجاً وخطيراً هناك. استحث قيصر أحد فرسانه الغاليين حينئذ، بوعده بمكافأة قيمة وثمينة، على القيام بنقل رسالة منه إلى سيسيرو وكتبها بالأحرف الإغريقية خشية منه أن يعترضها أحد وتصبح خططه معروفة لدى العدو. وأوصى قيصر هذا الفارس أنه إذا لم يتمكن من دخول معسكر سيسيرو أن يربط الرسالة بجسم الرمح ويلقي بها من فوق السور إلى داخل المعسكر. وقد تضمنت الرسالة إعلاماً لسيسيرو بأن قيصر في طريقه إليه مع بعض فيالقه وأنه سيكون هناك في القريب العاجل. وأخبره أن يستمر في الصمود والمحافظة على وقفة شجاعة. غير أن هذا الفارس الغالي اعتراه الخوف من الدخول إلى المعسكر فرمى برمحه وقد ربط فيه الرسالة وفق التعليمات التي أعطيت إليه. والذي حصل هو أن الرمح ارتطم بأحد الأبراج واستقر فيه وبقي هناك دون أن يلحظه أحد لمدة يومين إلى أن شاهده أحد الجنود فانتزع الرسالة من الرمح وأخذها إلى سيسيرو الذي قام بعد قراءته لها بصف جنوده وقراءتها لهم ثانية وبصوت مرتفع على مسمع من الجميع. الأمر الذي أدخل عظيم البهجة والطمأنينة إلى قلوبهم. وكان عند هذا الوقت بالإمكان رؤية الدخان المتصاعد من الأبنية المشتعلة من بعيد وهي الأبنية التي كانت فيالق قيصر تحرقها في أرجاء المكان وبذلك تبدد كل شك حول مجيء الفيالق القيصرية.

وحينما سمع الغاليون من دورياتهم بهذه الأنباء رفعوا الحصار عن معسكر سيسيرو وزحفوا لمواجهة قيصر بكل ما لديهم من قوات، حيث بلغ عددهم نحو ستين ألف رجل. وبمساعدة فيرتيكو *Vertico*، الرجل الذي سبق أن تم ذكره، وجد سيسيرو ثانية أحد الغاليين ليحمل رسالة منه إلى قيصر ينصحه فيها بالزحف بحذر وبحيطة واحتراس لأن العدو قد ترك المعسكر وحول كل قواته لمواجهته. وعندما بلغت الرسالة قيصر وكان ذلك حوالي منتصف الليل أحاط قيصر قواته علماً بمضمونها وطلب منهم استجماع كل شجاعتهم لخوض المعركة. وعند الفجر غادر المعسكر وكان قد تقدم لمسافة أربعة أميال حينما شاهد الجيش الغالي فوق الجانب الآخر لوادٍ عريض يجري خلاله أحد الأنهار. كان في الأمر الكثير من المجازفة بالنسبة لقيصر أن يتم القتال فوق أرض غير مؤاتية وبقوات قليلة كالتي كانت لديه، لكن قيصر بعدما عرف أن سيسيرو قد تحرر من الحصار لم يعد لديه ما يقلقه، وفضل أن يتصرف بهدوء وتمهل. لذا توقف في المنطقة التي كان قد بلغها وأقام معسكراً محصناً فوق أفضل موقع متميز استطاع العثور عليه. وكان لا بد للمعسكر أن يكون صغيراً على أي حال لطالما أنه لم يكن لدى قيصر أكثر من سبعة آلاف رجل وبدون أي أمتعة. إلا أنه أخفض من حجم المعسكر أكثر من ذلك بجعل الطرق المؤدية إليه والخارجة منه أضيق من المعتاد كي تبدو قواته قليلة إلى حد الازدراء. وفي الوقت ذاته أرسل كشافته في مختلف الاتجاهات ليبحثوا عن أفضل مكان لعبور الوادي.

ووقعت في ذلك اليوم بعض المصادمات بسلاح الفرسان بين الطرفين بالقرب من النهر إلا أن كلا الجيشين استمرا بالمحافظة على مواقعهما. وكان الغاليون بانتظار وصول قوات أخرى إليهم. وتوخى قيصر من خلال تظاهره بالخوف أن يغري العدو للمجيء إلى الجزء الذي يتمركز فيه وبالتالي ليكون قادراً على القتال أمام معسكره فوق الجانب الذي يحتله من الوادي. وفي حال إخفاق ذلك عبور الوادي والنهر بأقل قدر ممكن من المجازفة عن طريق استطلاعه المسبق للطرق المتوفرة لهذا الغرض. وعند فجر اليوم التالي صعدت فرسان العدو إلى معسكر قيصر واشتبكت مع الفرسان الرومان. وجه قيصر أمره إلى فرسانه لإفساح المجال طوعاً أمام فرسان العدو والانكفاء إلى الخلف نحو المعسكر وطلب من عناصر الفيالق زيادة ارتفاع السور حول المعسكر بأكمله ومن ثم سد كل البوابات. وبفعله ذلك سيكون على فرسانه الجري حول المعسكر أطول فترة ممكنة متظاهرين بالخوف وتم بواسطة هذه المخادعة تحريض العدو نحو عبور الوادي واضطراره لتشكيل صفوفه فوق موقع غير ملائم من الناحية القتالية. وبعد أن أغراهم قيصر للاقتراب أكثر من خلال سحب رجاله من السور إلى

داخل المعسكر أخذوا برمي الرماح من مختلف الاتجاهات فوق التحصينات المحيطة وبعثوا برسل لتدور حول المعسكر مزودة بأوامر تعلن أن بإمكان أي عنصر سواء غالي أو روماني ممن يرغبون بالمجيء إليهم والانضمام إلى قواتهم أن يفعل ذلك بكل طمأنينة وأمان قبل الساعة التاسعة، أما بعد هذا التوقيت فإنهم لن يقبلوا أحداً. لقد كانوا مزدرين بالجيش الروماني إلى درجة أنهم حينما وجدوا أن بوابات المعسكر موصدة وظنوا أنه ليس بإمكانهم اقتحام المعسكر من خلالها – هذا، على الرغم من أن الحواجز التي كانت تسد البوابات لم تكن سوى حواجز زائفة خادعة، إذ لم تتألف إلا من بعض الأعشاب والجذور بسماكة واحدة - أخذوا بالانتشار في الخنادق المحيطة بالمعسكر ويحاولون إيجاد فتحات في السياج باستخدام أيديهم. واندفع بعد ذلك مشاة قيصر من كل بوابات المعسكر لتشن هجماتها الصاعقة على نحو مباغت وأخرج الفرسان للإغارة على العدو في الوقت ذاته. هرب الغاليون بعجلة وتشتتوا ولم يجرؤ أحد منهم على التوقف هنيهة ليوجه ولو ضربة واحدة، وقتل منهم الكثيرون وألقى جميع الباقين أسلحتهم أرضاً وولوا الأدبار. وخشي قيصر من ملاحقتهم لمسافة بعيدة نظراً لوجود غابات ومستنقعات كثيرة في الطريق ولأنه رأى أنه سيعرض نفسه لخسائر جسيمة بتخليه عن موقعه. وانضم قيصر إلى سيسيرو في ذلك اليوم بالذات دون أن يتكبد أية خسائر. وشاهد قيصر حين بلوغه معسكر سيسيرو بدهشة جلية الأبراج وخيام اللغامين وأعمال الحفر والسدود الترابية التي أقامها الغاليون، وحينما اصطف عناصر فيلق سيسيرو وجد قيصر أنه لم يبق واحد من كل عشرة رجال لم يصب بجراح. لذا أدرك حينئذ كم كان الخطر الذي أحدق بسيسيرو فظيعاً وجدياً وأدرك أيضاً بأية عزيمة وتصميم جرت عملية الدفاع. فقدم قيصر لسيسيرو المديح والثناء العاليين اللذين استحقهما وهنأ كل عناصر الفيلق على شجاعتهم وبسالتهم وعلى ما قاموا به من بطولات خارقة وجريئة، وتحدث قيصر على نحو إفرادي مع قادة المئة والتريبيونات العسكريين الذين ذكرهم له سيسيرو نظراً لقيامهم بأعمال بارزة ومتميزة أثناء المواجهة مع العدو. وبعد أن حصل قيصر من الأسرى على معلومات أكثر دقة حول مصير سابينوس وكوتا صف عناصر فيلقه في اليوم التالي وشرح لهم الكارثة التي حلت بهما وعاود طمأنتهم وقال إن الهزيمة قد حصلت نتيجة التهور المتخبط وغير المحسوب للقائد وليس من داع هناك لأن ينزعجوا أو يشعروا بالامتعاض مما حصل لأن شجاعتهم وبمساعدة العناية الإلهية قد استطاعت أن تثأر لتلك الكارثة، ولم تمكن العدو من أن يفرح بانتصاره طويلاً ولا حاجة لهم أن يكونوا مكتئبين أكثر من ذلك.

٣ - ثورات تمردية واسعة النطاق في شمال ووسط غاليا (٥٤ - ٥٣ ق.م)

وصلت أنباء نجاح قيصر إلى لابينوس عن طريق الريميين *Remi* بسرعة خارقة. وكان لابينوس يبعد عن معسكر سيسيرو أكثر من خمسة وخمسين ميلاً، وكان وصول قيصر إليه في فترة بعد الظهر بعيد الساعة الثانية. وقبيل منتصف الليل، أخذ بعض الريميين يصيحون عند بوابات المعسكر بأعلى صوتهم معلنين النصر ومقدمين تهانيهم ومباركاتهم. وحينما بلغت هذه الأنباء التريفيري انديوتيوماروس *Indutiomarus* الذي كان قد عقد العزم على مهاجمة معسكر لابينوس في اليوم التالي فر هارباً نحو بلاده خلال الليل مصطحباً معه كل قواته. وأرسل قيصر فابيوس *Fabius* مع فيلقه عائداً إلى معسكره الذي كان فيه قبل الانطلاق مع قيصر لمساعدة سيسيرو وقرر قيصر أن يمضي الشتاء هو نفسه مع ثلاثة فيالق في معسكرات منفصلة بالقرب من ساماروبريفا. وبالنظر للاضطرابات الخطيرة التي كانت قد وقعت قرر قيصر أيضاً أن يظل إلى جانب جيشه خلال فصل الشتاء. ولطالما أن الكارثة التي واجه فيها سابينوس موته قد غدت معروفة للجميع فقد أخذت كل القبائل تقريباً تناقش فيما بينها مشاريع متتالية وتضع خططاً حربية ضد السلطة الرومانية وشرعت ترسل الرسل والسفارات في شتى الاتجاهات لتحاول كل قبيلة منها معرفة خطط الأخرى ولرؤية من سيتخذ منها زمام المبادرة. كما بدأت هذه القبائل بعقد اجتماعات فيما بينها في أماكن منعزلة تحت جنح الظلام. ولم يرتح قيصر من القلق ولو للحظة واحدة من خلال فصل الشتاء كله، حيث كان يتلقى باستمرار تقارير حول خطط للثورة والتمرد. فقسطوره روسيوس مثلاً *Roscius*، والذي كان قيصر قد ولاه قيادة الفيلق الثالث عشر، بعث إليه بتقرير مفاده أن قوات ضخمة تعود إلى القبائل المسماة بالأريموريكانيين *Aremorican* قد احتشدت للقيام بمهاجمة معسكره وأنها قد أصبحت لا تبعد عن معسكره أكثر من ثمانية أميال. إلا أن هذه القوات حينما بلغها نبأ انتصار قيصر غادرت مواقعها على عجل موحية بما هو أشبه بفرار جيش.

أخذ قيصر يستدعي زعماء القبائل إليه كل على حده، وباستخدام الإقناع تارة والإكراه والتهويل تارة أخرى جعلهم يدركون بأنه عالم بكل ما يجري على صعيدهم وبكل مخططاتهم المناوئة، فنجح في إبقاء القسم الأكبر من البلاد ممتثلاً ومذعناً. غير أن حكومة السينونيين *Senones* – وهم قبيلة من أشد القبائل قوة ونفوذاً وتمارس تأثيراً فعالاً على بقية القبائل – حاولت قتل ملكها كافارينوس *Cavarinus* الذي كان قيصر قد نصبه على عرش أسلافه ليكون خلفاً لأخيه موريتاسغوس *Moritasgus* الذي احتل هنا المنصب في الوقت نفسه

الذي وصل فيه قيصر إلى غاليا. وعندما ترامت إلى مسامع كافارينوس بعض المعلومات حول نية القبيلة بقتله فر هارباً فطاردوه حتى حدود مملكتهم وخلعوه عن العرش ونفوه من البلاد. وحين استقبال قيصر لوفد من الممثلين عنهم جاء ليبرر تصرفهم هذا طلب قيصر حضور كامل أعضاء مجلسهم القبلي إليه، إلا أنهم أهملوا طلبه وحقيقة أن زعيم قبيلة ما قد امتلك الجرأة بما يكفي لاتخاذ زمام المبادرة في عمل عدائي ولدت عميق الأثر في نفوس الجاهلين من أهالي البلاد وأدت إلى تغيير جذري في موقفهم إلى حد أن معظم القبائل تقريباً أصبحت في موقع الشك لدى قيصر من حيث غدرها وعدم ولائها. والاستثناء الوحيد من هذا كان الايديوويين الذين كان لهم دائماً اعتبار خاص عند قيصر نظراً لسجلهم الطويل الحافل بالولاء غير المنقطع، وكذلك الريميون الذين حظوا باعتبار مشابه لدى قيصر من خلال الخدمات الأخيرة التي قدموها في الحملات الغالية ولربما ليس هناك ما يدهش كثيراً في استعدادهم للتمرد: ومن بين العديد من الأسباب الأخرى لذلك، هو أن القبائل التي كانت تعد الأكثر شجاعة والأكثر نزوعاً نحو الحرب في البلاد احست بشكل طبيعي باستياء مرير عند خسارتها الكاملة لهذه السمعة. هذه الخسارة التي جعلتها تخضع للسلطة الرومانية.

كان انديوتيوماروس والتريفيريون أكثر نشاطاً من بقية القبائل على هذا الصعيد - أي على صعيد التمرد والثورة. فخلال فصل الشتاء كله لم يتوقفوا أبداً عن إرسال السفارات عبر نهر الراين لرسم المؤامرات مع القبائل الجرمانية، قاطعين لهم وعوداً بدفع الأموال لهم ومؤكدين لهم بأن الخسائر الجسيمة التي مني بها الجيش الروماني حتى الآن لم تُبقِ منه سوى جزء بسيط في الوجود. لكن ما من قبيلة جرمانية واحدة كان بالإمكان إقناعها أو إغراؤها لعبور الراين، حيث قال الجرمان إن لهم مع الجيوش الرومانية تجربتين الأولى في حملة أريوفيستوس والثانية أثناء هجرة التينكثيريين *Tenctheri*، وإنهم لا ينوون تجريب حظهم مع الرومان مرة أخرى. وبالرغم من خيبة الأمل هذه واصل انديوتيوماروس حشد القوات وتدريبها وتأمين الخيول من الدول المجاورة وبعرض المكافآت القيمة لإغواء المنفيين والمجرمين والمنبوذين من مختلف بقاع غاليا للانضمام إليه. ومن خلال هذه الإجراءات سرعان ما اكتسب بالفعل احتراماً شديداً وهيبة واعتباراً عالميين في شتى أرجاء البلاد، إلى حد أن السفارات كانت تأتيه من كل حدب وصوب لترجو عطفه وتأييده ولتتحالف معه سواء من قبل حكومات قبلية أو من قبل شخصيات معنية. واستنتج أنديوتيوماروس من هذه العروض غير الملتمسة أنه لن يكون بحاجة إلى متطوعين حينما بدأ بالتقدم خارج حدوده. ففي أحد الاتجاهات كان السينونيون *Senones* والكارنوتيون يحرضهم على التمرد والثورة شعورهم بالذنب، في حين هناك على

الجانب الآخر النيرفيون والأتيواتيرسيون يعدون العدة لشن هجوم على الرومان. وأعطى انديوتيوماروس أمراً للاجتماع بالسلاح الكامل. وهي الطريقة التقليدية في غاليا للبدء بالحرب. كان هذا قانوناً معروفاً وشائعاً بين مختلف القبائل على حد سواء يقتضي من كل البالغين الذكور تسليح أنفسهم وحضور الاجتماع، وكان آخر من يصل إلى هذا الاجتماع يعذب بوحشية وقسوة ويذبح على مرأى من الجيش المحتشد. وأعلن أنديوتيوماروس في هذا الاجتماع أن زوج ابنته سينجيتوريكس *Cingetorix* عدو للوطن والشعب وصادر ممتلكاته. وكان سينجيتوريكس زعيماً للجزء الآخر من الغاليين ونداً عنيداً لإنديوتيوماروس، وقد نفي سينجيتوريكس مخلصاً لقيصر منذ أن وضع نفسه تحت حمايته. وأعلن إنديوتيوماروس للمجتمعين بعدئذ أن المساعدة التي يقدمها للقبائل قد التمست من قبل السينونين والكارنوتيين وقبائل كثيرة أخرى، وأنهم هم من توسلوا إليه لتقديمها، وأنه ينوي أن يزحف في الوقت المناسب نحو بلادهم حيث سيقوم بنهب وتخريب إقليم الريميين وهو في طريقه إليهم، إلا أنه سيهاجم معسكر لابينوس أولاً. وبعد ذلك أعطى إنديوتيوماروس للمجتمعين الأوامر والتعليمات اللازمة.

كان لابينوس *Labeinus* آمناً مطمئناً داخل معسكر محمي بشكل جيد سواء بطبيعة موقعه أو بتحصيناته، ولم يشعر بأي قلق على نفسه أو على فيلقه. كان جل اهتمامه منصباً على موضوع عدم فقدان أي فرصة لتسجيل نجاح ضد العدو. لذا فإنه حينما أعلم من قبل سينجيتوريكس وأقربائه بما كان قد قاله إنديوتيوماروس في الاجتماع قام بإرسال الرسائل إلى شتى القبائل المجاورة يدعوها لتزويده ببعض فرق الفرسان ضمن موعد محدد. وفي تلك الأثناء كان انديوتيوماروس يجيء إلى معسكر لابينوس يومياً تقريباً ويطوف حوله مستخدماً كل عناصر فرسانه، إما لاستطلاع موقعه أو للدخول في حديث مع الجند. وأمر طبيعي أن الفرسان قد حاولوا دب الرعب في قلوب جنودنا من خلال رميهم بالرماح وهم فوق سور المعسكر. إلا أن لابينوس استمر في استبقاء رجاله داخل التحصينات وفعل كل ما كان بإمكانه فعله ليعزز لدى العدو اعتقاده بأنهم خائفون منه.

كان إنديوتيوماروس يتقدم كل يوم من الخطوط الرومانية ليظهر ازدراءه الشديد واحتقاره المتعاظم لخصمه. وفي آخر الأمر أحضر لابينوس إلى المعسكر - وفي غضون ليلة واحدة - فرق الفرسان التي كان قد طلبها من القبائل المجاورة. ونجح نجاحاً بالغاً، من خلال تركيزه بحراسة مشددة، في المحافظة على رجاله داخل المعسكر إلى حد أنه لم تكن هناك أي وسيلة يمكن بواسطتها أن تخرج أي أخبار من الداخل إلى الخارج أو أن تنتقل إلى

التريفيريين وجاء انديوتيوماروس إلى المعسكر كالمعتاد وأخذ يجول حوله وأمضى القسم الأكبر من النهار هناك وفرسانه يرمون برماحهم من فوق السور ويطلقون عبارات مهينة لإثارة الجنود نحو القتال. إلا أنهم لم يحصلوا منا على أي رد إلى أن اقترب المساء وشعروا أن لا أمل هناك في إثارتنا فغادروا المكان بمجموعات متناثرة مشتتة، فأرسل لابينوس، وعلى نحو مباغت، كل عناصر فرسانه خارج المعسكر من بوابتين وقد أعطيت لهم الأوامر الصارمة بأن عليهم حالما يتم ترويع العدو ودب الذعر في صفوفه وإكراهه على الهرب - وفقاً لما تنبأ لابينوس بأنه سيحصل - أن يبحث كل منهم عن أنديوتيوماروس وأن لا يوجه أي منهم ضربة لأحد إلى أن يروا أن إنديوتيوماروس قد قتل. وذلك لأن لابينوس كان حريصاً جداً على عدم منح انديوتوماروس أي وقت للهرب من خلال مطاردة عناصره للعناصر المعادية. وقد خصص لابينوس جائزة لمن يجلب له رأس انديوتيوماروس.

ولكي يضمن ذلك بصورة مضاعفة أرسل بعض كتائبه لتعزز عناصر فرسانه. وقدم القدر العون لهذه الخطة كي تنجح، وهي الخطة التي ابتدعتها الحكمة والبصيرة البشرية، وبملاحظة الجميع له، له وحده، أمسك به - أي بانديوتيوماروس - وقتل أثناء محاولته عبور النهر، وأحضر رأسه إلى المعسكر. وفي طريق عودتهم إلى المعسكر قام الفرسان بمطاردة وقتل أكبر عدد من عناصر العدو ورحلت كل القوات التي تم حشدها من الإيبيورونيين والنيرفيين حالما سمعوا بهذه الأخبار. وجعل هذا النجاح غاليا أهدأ قليلاً لبعض الوقت.

لكن كان لدى قيصر العديد من الأسباب ليتوقع اضطرابات خطيرة أخرى وضمن وقت قصير. لذا كلف ثلاثة من جنرالاته: ماركوس سيلانوس *Marcus Silanus* وغيوس آنتيستيوس ريجينوس *Gaius Antistius Reginus* وتيتوس سيكستيوس *Titus sixtius* بمهمة تشكيل قوات جديدة. كما بعث برسالة إلى بومبي *Pompey* الذي كان نائب قنصل مخول بأمور القيادة العسكرية وكان الرغم من ذلك يمكث لأسباب سياسية في منطقة مجاورة، يناشده فيها تعبئة المجندين من شمال إيطاليا الذين كان قد وعد بهم خلال قنصليته وإرسالهم إليه. حيث اعتبر قيصر أن من المهم جداً جعل رجال القبائل يرون أن القوة البشرية لإيطاليا كافية ليس للتعويض السريع عن الخسائر التي تم تكبدها في الميدان بعناصر أخرى فحسب وإنما قادرة أيضاً وبالفعل على زيادة حجم القوة الحملاتية بمجملها، الأمر الذي كما تصور قيصر سيؤدي إلى خلق انطباع دائم لدى القبائليين بهذا الاتجاه. ووافق بومبي على تلبية طلب قيصر انطلاقاً من دوافع وطنية ودوافع صداقته مع قيصر. وتمكن ضباط قيصر على نحو فوري من تطويرع أعداد أخرى من المجندين، وبذلك تم تشكيل ثلاثة فيالق جديدة قبل نهاية

فصل الشتاء، كما تم إحضارها إلى غاليا. وبهذا عوض قيصر عن الكتائب التي فقدت تحت قيادة سابينوس بعدد مضاعف. وقد أظهر هذا التعزيز الضخم للقوات القيصرية وهذه السرعة التي نفذ بها أي تنظيم وأية طاقات هائلة كانت لدى الرومان.

بعد موت انديوتيوماروس نقل التريفيريون القيادة إلى أفراد من عائلته، حيث واصل هؤلاء بعزم وعناد محاولة الحصول على الدعم من القبائل الجرمانية المجاورة من خلال إعطاء الوعود بدفع الأموال الطائلة لهم. وحينما أخفقوا في ذلك مع الجرمان لجأوا إلى طرح عروضهم على القبائل البعيدة فوافق عدد منهم. وتأكد التحالف فيما بينهم بتبادل حلفان الأيامين، وقدم التريفيريون لهذه القبائل الرهائن كضمانة على دفعهم لهم الأموال التي وعدوا بها. وسمح لأمبيوريكس *Ambiorix* بدخول هذا التحالف كشريك. وأعلم قيصر بهذه المكائد والمؤامرات، كما رأى أن هناك استعدادات حربية تجري في كل مكان. فالنيرفيون *Nervii* والإيتواتيوسيون *Atuatuci* والمينابيون إضافة إلى القبائل كافة ذات الأصل الجرماني على الضفة الغربية لنهر الراين قد حملوا السلاح ورفض السينونيون تلبية أمره بالحضور إليه حيث كانوا منشغلين في حياكة خطط مع الكارنوتيين *Carnutes* وآخرين من جيرانهم. وكان التريفيريون يبعثون بالسفارات تلو السفارات للحصول على الدعم الجرماني. بناء على هذا كله قرر قيصر أن الموقف يستدعي وجوب مباشرة القتال في وقت أبكر من الموسم المعتاد.

وتطبيقاً لما قرر، وقبل أن ينتهي فصل الشتاء، قام قيصر بجمع أقرب أربعة فيالق منه. نفذت هجوماً مفاجئاً ضد إقليم النيرفين وقبل أن يتمكن النيرفيون من تركيز قواتهم لمواجهة الهجوم الروماني أو الفرار كانت القوات الرومانية قد استولت على عدد هائل من قطعان الماشية وأسرت عدداً كبيراً جداً من النيرفيين وسلمتهم للجند كغنائم. وتم بعد ذلك تخريب البلاد ونهبها وأكره النيرفيون على الاستسلام وتقديم الرهائن. وعاد قيصر بعد هذا الانتصار السريع بفيالقه إلى مقراتها الشتوية. ومع بداية فصل الربيع دعى المجلس الغالي للانعقاد على نحو ما جرت عليه العادة كل عام، وحضر الاجتماع كل من تمت دعوته إليه باستثناء السينونيين والكارنوتيين والتريفيريين وعد قيصر عدم حضورهم خطوة أولى نحو التمرد. ولكي يجعل من الواضح أنه يعد قمع هذا التمرد ذا أهمية قصوى قرر نقل الاجتماع إلى لوتيشيا *Lutetia* وهي مدينة الباريسيين *Parisii* حيث يقطن هؤلاء في إقليم محاذ لإقليم السينونيين وكانوا قبل جيل من الزمن قد اتحدوا معهم لتشكيل دولة واحدة. لكن يبدو أنه لا ضلع لهم بالنهج السياسي الحالي للسينونيين، وبعد أن أعلن قيصر عن قراره وهو يقف على عتبة معسكره انطلق مع فيالقه في ذات اليوم وشق طريقه بخطى حثيثة نحو إقليم السينونيين.

وحينما علم آكو *Acco*، وهو زعيم الفتنة والتآمر، باقتراب قيصر من البلاد، أمر السكان بالتجمع في قلاعهم. لكنهم وقبل أن يعطى لهم من الوقت ما يكفي لاستكمال هذه العملية أي التجمع في قلاعهم، سمعوا أن الرومان قد أصبحوا قاب قوسين أو أدنى منهم. ولم يكن لدى السينونيين عندئذ أي خيار آخر سوى التخلي عن مشروع مؤامرتهم وإرسال المبعوثين إلى قيصر لالتماس العفو والمغفرة منه وقد قاد هؤلاء المبعوثين إلى قيصر الإيديوويون الذين كانت تحمي قبيلتهم ومنذ زمن بعيد قبيلة هؤلاء المبعوثين - أي القبيلة السينونية. وافق قيصر راغباً على العفو عنهم نزولاً عند طلب الإيديوويين وقبل أعذارهم، وذلك لأنه فكر بضرورة عدم إضاعة فصل الصيف في جلسات استنطاق واستجواب، وإنما يجب تكريسه لمواجهة الحرب الوشيكة. إلا أنه طلب منهم تقديم مائة رهينة أودعها في حبس تابع للإيديوويين. وبعث الكارنوتيون أيضاً مبعوثين ورهائن إلى قيصر أثناء ما كان في تلك المنطقة مبررين له عملهم بأعذار مختلفة ومتخذين من الريميين وسطاء وداعمين لهم لدى قيصر، وقالوا إنهم كانوا في زمن من الأزمان تابعين للريميين. وقد كان رد قيصر على مناشدتهم نفس رده على مناشدة السينونيين. واستكمل قيصر حينئذ أعمال المجلس وطلب فرساناً من مختلف القبائل.

الآن وبعد أن تمكن قيصر من تهدئة الوضع في هذا الجزء من غاليا كرس كافة طاقاته إلى الحرب ضد التريفيريين وأمبيوريكس. وأمر كافارينوس *Cavarinus* بمرافقته على رأس الفرسان السينونيين، وذلك كي لا تسبب كراهيته الشديدة لهؤلاء وحدة طبعه وفقدان صبره متاعب في القبيلة. وعلى اعتبار أنه كان متأكداً من أن أمبيوريكس لا يعتزم خوض معركة معه، فقد قرر حينئذ وضع خطة لاكتشاف أي مكائد أخرى كان من المحتمل أن تكون لديه. أما المينابيون وهم الشعب الغالي الوحيد الذي لم يسبق له أن أرسل مبعوثين إلى قيصر للسعي وراء السلام، فقد كانوا يقطنون في إقليم قريب من الإيبوروونيين تحميه سلسلة متواصلة من المستنقعات والغابات الكثيفة وعرف قيصر أن أمبيوريكس كان يرتبط بهم بعلاقات حسن الضيافة، كما علم أيضاً من خلال بعض التريفيريين بأنه قد شكل تحالفاً مع الجرمان، وأعتقد بأنه من المستحسن حرمان أمبيوريكس من حلفائه قبل القيام بمهاجمته مباشرة خشية من أن يجبره اليأس على الاختباء بين المينابيين أو الانضمام إلى القبائل الواقعة خلف الراين ولذلك شرع قيصر، بعد أن أرسل أمتعة الجيش كلها إلى معسكر لابينوس في إقليم التريفيريين وأمر بتوجه فيلقين إلى هناك أيضاً، بالزحف نحو بلاد المينابيين ترافقه خمسة فيالق ضمن تشكيل الزحف بالأعتدة الخفيفة. لم يقم المينابيون بتجميع أي قوات وإنما اعتمدوا كلية على حماية تضاريس الأرض لهم وطبيعة موقعهم فاتخذوا لأنفسهم

ملجـأ ومعهـم كـل ممتلكـاتهم في الغابـات والمسـتنقعات. عـين قيصـر فـابيوس والقسـطور ماركوس كراسوس على رأس الكتائب وتقدمت الأرتال الثلاثة على طول ممرات تم إحداثها على عجل نحو المنطقة وأخذت تحرق المزارع والقرى وتستولي على أعداد ضخمة من قطعان الماشية وتقبض على ما تستطيع من الأسرى. فأضطر المينابيون بنتيجة هذه العمليات إلى إرسال مبعوثين عنهم إلى قيصر سعياً وراء التماس السلام. أخذ قيصر الرهائن التي عرضوها، وأخبرهم بأنه سيعاملهم معاملة الأعداء إذا سمحوا لأمبيوريكس أو لعملائه بدخول إقليمهم. وبعد أن وجه قيصر هذا الإنذار لهم ترك كوميوس *Commius* الأتريباتاني مع قوة من الفرسان تحت إمرته لإبقاء المينابيين تحت المراقبة، في حين خف هو ضد التريفيريين.

كان التريفيريون في تلك الأثناء قد جمعوا قوات ضخمة من المشاة والفرسان وكانوا يعدون العدة لشن هجوم ضد لابينوس وضد الفيلق الوحيد الذي كان يمضي فصل الشتاء في ملاجئ داخل إقليمهم. وكان لا يفصلهم عن معسكر لابيوس سوى يومين من الزحف عندما بلغهم خبر وصول الفيلقين اللذين بعث بهما قيصر إلى لابينوس. وبعد أن أقاموا معسكراً لهم على بعد خمسة عشر ميلاً عن معسكر لابينوس قرروا انتظار وصول التعزيزات إليهم من الجرمان. وحينما أخبر لابينوس بما ينوون فعله أمل أن تمنحه حماقتهم وطيشهم شيئاً من الفرصة لجرهم للقتال. وبعد أن ترك في المعسكر خمس كتائب لحراسته وحراسة الأمتعة زحف ضد العدو ترافقه الكتائب الخمس والعشرون الأخرى ومجموعة قوية من سلاح الفرسان وأقام معسكراً محصناً له لا يبعد سوى ميل واحد عن معسكرهم. وكان يفصل بين المعسكرين نهر ذو ضفتين منحدرتين يصعب اجتيازه أو الخوض فيه. ولم تكن لدى لابينوس أي نية لعبوره، كما أنه لم يعتقد بأنه كانت للعدو نية لذلك. وكان أمل الغاليين في الحصول على التعزيزات يزداد يوماً بعد يوم، وجعل لابينوس الجند، عن عمد، يسمعونه يقول إنه لطالما أن الجرمان قادمون حسبما قيل لمساعدة التريفيريين فإنه لن يعرض سلامته وسلامة قواته للخطر من خلال بقائه في موقعه، إنما سيغادر المعسكر في صباح اليوم التالي عند الفجر. وسرعان ما انتقلت هذه الملاحظة إلى العدو، على اعتبار أنه لمن الطبيعي أن يكون من بين العدد الهائل للفرسان الغاليين الذين يخدمون تحت قيادة لابينوس بعض قليل يتعاطف مع قضية أبناء بلاده التي يكافحون من أجلها. وفي الليل استدعى لابينوس التريبيونات العسكريين وقادة المئة الأوائل وشرح لهم خطته، ولكي يوحي للعدو بأنهم خائفون منه أمر قواته بعدئذ بإخلاء المعسكر بطريقة فيها الكثير من الصخب والضجيج والاضطراب، أكثر مما كانت عليه العادة أثناء إخلاء الجيوش الرومانية لمعسكراتها، وبذلك جعل مغادرته للمعسكر،

شبيهة بعملية فرار من العدو. وقد نقل هذا أيضاً إلى العدو عن طريق دورياته قبيل الفجر، حيث كان المعسكران قريبين من بعضهما كثيراً. وأخذ الواحد منهم يستحث الآخر أن لا يدع ما يتطلعون إليه من غنائم ومكاسب يهرب من قبضتهم، وأن انتظار العون الجرماني في وقت يئن فيه الرومان رعباً وهلعاً سيعني إضاعة للوقت وتأخيراً لا ضرورة له، وأنه بهذا الجيش الضخم الذي لديهم سيكون من المخزي التمنع عن مهاجمة مجرد حفنة من الرجال، ولاسيما أنهم يرتعدون خوفاً وقد أخذوا يعدون هرباً منا تعيقهم أمتعتهم عن مواصلة فرارهم. تبعاً لذلك بدأوا في وقت لم تكد فيه مجموعة حراسة مؤخرة الرتل الروماني تخرج من الخندق التحصيني للمعسكر، وبشجاعة عارمة عبور النهر والانضمام للمعركة في موقع غير مؤات للقتال. كان لابينوس قد توقع هذا طبعاً واستمر في استجرارهم جميعاً للعبور من خلال متابعته التقدم ببطء محافظاً على تظاهره بأنه يزحف بعيداً، أشبه بالهارب عند هذا الوقت، وبعد أن أرسل لابينوس الأمتعة إلى نقطة متقدمة قليلاً عن الرتل أودعها فوق قطعة أرض صغيرة مرتفعة، خاطب جنوده قائلاً: (هذه هي فرصتكم، فها قد جررتم العدو إلى حيث شئتم، إلى موقع غير ملائم، حيث لا يمكنه القيام بالمناورة فيه. قاتلوا قتال الأبطال وبكل ما أوتيتم من شجاعة تحت قيادتي كما اعتدتم أن تقاتلوا تحت قيادة القائد العام. وتخيلوا أنه هنا معنا يراقب مجريات المعركة بشخصه. وما أن انتهى من إلقاء كلمته هذه حتى أمر الوحدات بالاستدارة نحو العدو وتشكيل خط المعركة، وأرسل بعض سرايا الخيالة لحماية الأمتعة وركز الباقين عند الأجنحة: الميمنة والميسرة. وسرعان ما أطلق الجنود صيحة دخول الميدان وأخذوا برمي رماحهم، دهش العدو واعتراه الذهول لرؤية الجيش الذي اعتقد بأنه في حالة فرار يتقدم نحوه للقيام بالهجوم، فلم يمتلك الشجاعة لمواجهة هجومه. وما أن تقابلت الصفوف حتى ولوا الأدبار واتجهوا نحو الغابات القريبة. واستطاع لابينوس اصطيادهم بسلاح الفرسان وقتل الكثيرين منهم وأمسك بالعديد من الأسرى واسترجع بعد بضعة أيام سيطرته وسلطته على القبيلة. أما الجرمان الذين كانوا في طريقهم للتريفيريين لمد يد العون والمساعدة لهم فقد عادوا أدراجهم إلى بلادهم حينما وجدوا ما قد حل بهم من هزيمة منكرة. أما أقرباء إنديوتيوماروس الذين كانوا قد حرضوا على التمرد وأثاروا التريفيريين فقد هربوا من البلاد وتوجهوا إلى الجرمان. أما سينجيتوريكس الذي ظل مخلصاً للرومان منذ البداية فقد منح السلطتين العسكرية والمدنية في القبيلة.

٤ - العبور الثاني لنهر الراين (٥٣ ق.م)

بعد أن زحف قيصر من بلاد المينابيين إلى بلاد التريفيريين عزم على اجتياز نهر الراين من جديد لسببين اثنين، أولهما، لأن الجرمان كانوا قد بعثوا للتريفيريين بتعزيزات وإمدادات لاستخدامها ضده، وثانيهما، لمنع أمبيوريكس من إيجاد منفى له في ألمانيا. لذا شرع ببناء جسر في نقطة أعلى بقليل عن النقطة التي كان قد بنى فيها جسر عبوره الأول. ولما كانت طريقة بناء الجسر معروفة للجنود من خلال تجربتهم الأولى، فقد كانوا قادرين على استكمال المهمة بجهود حثيثة ضمن بضعة أيام. وبعد أن ترك مجموعة حراسة قوية مع الجانب الغالي للجسر لقمع أي انتفاضة مفاجئة من جانب التريفيريين قاد بقية قواته عبر الجسر بما في ذلك سلاح الفرسان. فأرسل اليوبيون *Ubii* الذين كانوا من قبل قد قدموا الرهائن إلى قيصر وخضعوا للسلطة الرومانية، مبعوثين عنهم ليبرئوا أنفسهم من خلال شرحهم لقيصر أنهم لا يزالون على نفس موقفهم، وأنهم لم ينكثوا بعهدهم وأن المساعدة التي أرسلت إلى التريفيريين لم تخرج من دولتهم. ورجوه أن يعفو عنهم وأن لا يدع حقده الغامر وعداءه غير المقيد للجرمان يسبب المعاناة للبريء بدلاً من المذنب. وإذا رغب قيصر في أن نقدم له أعداداً أخرى من الرهائن فإننا مستعدون لتقديم أي عدد يشاء. ومن خلال تحريات قيصر واستقصاءاته حول مسألة التعزيزات الجرمانية للتريفيريين وجد أنها كانت قد أرسلت لهم من قبل السويبيين *Suebi*. فلذلك قَبِلَ تبرير اليوبيين ووافق على تبرئة ساحتهم ومن ثم أجرى استعلاماً دقيقاً حول الطرق المؤدية إلى إقليم السويبيين.

وبعد بضعة أيام أخبر اليوبيون قيصر أن السويبيين يحشدون كل ما لديهم من قوات استعداداً لعمل قتالي، وأنهم يناشدون القبائل التابعة لهم أن تزودهم بفرق من المشاة والفرسان. وبناء على ذلك اتخذ قيصر الترتيبات الضرورية للحصول على مؤونة من الحبوب واختار موقعاً مناسباً لإقامة معسكره فوقه، وطلب من اليوبيين إبعاد قطعان الماشية التابعة لهم ونقل كل ممتلكاتهم من الحقول إلى قلاعهم آملاً باستمالة الجرمان الجهلة والهمجيين من خلال الحاجة إلى الطعام نحو خوض معركة غير متكافئة وضمن شروط غير متعادلة. كما أخبر قيصر اليوبيين بضرورة استمرارهم في إرسال كشافتهم إلى إقليم السويبيين لمعرفة ما ينوي العدو القيام به. ونفذ اليوبيون هذه التعليمات بحذافيرها، حيث أبلغوا قيصر بعد بضعة أيام بأن السويبيين كافة، بعد تلقيهم لمعلومات موثوقة حول الجيش الروماني قد انسحبوا مع جميع قواتهم العسكرية وتلك التي تم حشدها من حلفائهم إلى أقصى حدود إقليمهم حيث تتوضع

هناك غابة واسعة تسمى باسينيس *Bacenis* وتمتد إلى مسافة كبيرة ضمن الجزء الداخلي من الإقليم وتشكل حاجزاً طبيعياً بين السوبيين والتشيروسيين *Cherusci* وهو الحاجز الذي منع الطرفين طوال الوقت من إغارة وتخريب الواحد منهما لإقليم الآخر. وأضاف اليوبيون يقولون إنه عند حافة هذه الغابة قرر السوبيون انتظار وصول الرومان. وخشي قيصر من أنه إذا تبعهم إلى الغابات أن يعاني من نقص في مؤونة الحنطة على اعتبار أن الجرمان عامة لا يهتمون بالزراعة أو بأي نشاطات فلاحية تتعلق بالأرض، فقرر قيصر بالنتيجة أن لا يتقدم أكثر من ذلك، لكنه كي لا يجعل أهالي البلاد يفكرون بأنه قد غادرهم نهائياً أبقى القسم الأعظم من الجسر قائماً. ومن أجل إعاقة أية تعزيزات قد يحاول السوبيون إرسالها إلى الغاليين بعد سحب جيشه قام بتعطيل أو تخريب نهاية الجسر التي تلامس الضفة اليوبية ولمسافة مائتي قدم، ونصب عند نهاية الجسر الغالية برجاً من أربع طبقات، وركز هناك لواء مؤلفاً من اثنتي عشرة كتيبة ليقوم بحماية الجسر، وحصن الموقع بخنادق دفاعية قوية، ووضعه تحت إمرة ضابط شاب اسمه غيوس فولكاسيوس طولوس *Gaius Volcacius Tullus*.

٥ - تدمير بلاد الإيبيورونيين *Eburones* عام (٥٣ ق.م)

عندما أخذت المحاصيل بالنضوج انطلق قيصر عبر إقليم الآردينيين *Ardennes* لمقاتلة أمبيوريكس، فأرسل أمامه لوسيوس مينوسيوس باسيلوس *Lusius Minucius Basilus* على رأس جميع عناصر سلاح الفرسان ليرى إن كان بالإمكان تحقيق أي منفعة أو فائدة من خلال التحرك السريع وتوجيه ضربة للعدو في فرصة مؤاتية. وطلب منه قيصر أن يمنع إشعال النار في معسكراته كي لا يعطي للعدو أي تحذير أو إشارة حول اقترابه من مسافة بعيدة. ووعده قيصر أن يلحق به في الحال.

ونفذ باسيلوس التعليمات كما ينبغي. وبعد أن استكمل رحلته، بسرعة لا يمكن للمرء أن يتخيلها، باغت عدداً من الإيبيورونيين الذين كانوا يعملون فيه تحرسه مجموعة قليلة جداً من الفرسان. وفي الحرب الكثير يعتمد على الحظ كما هو الحال في مختلف الأمور الأخرى. فلقد كانت لباسيلوس فرصة حظ كبيرة تمكنه من إلقاء القبض على إمبيوريكس وهو غير متأهب للقيام بأي رد فعل وبدون حراسة، ومن أن تظهره له على مسرح الأحداث قبل معرفة أي كان باقترابه منه. لكن أمبيوريكس وبضربة حظ مشابهة تمكن من النجاة حياً على الرغم من فقدانه لكل المعدات العسكرية التي اعتاد أن تكون بحوزته وكل عرباته وكل خيوله. فلقد كان بيته مبنياً في غابة شأنه في ذلك شأن معظم بيوت الغاليين - حيث

أنهم يختارون عادة مواقع لبيوتهم بجوار الغابات والأنهار لتجنب الحر الشديد. واستطاع أتباع أمبيوريكس وأصدقاؤه بعد خوضهم القتال ضمن فسحة محدودة مقاومة هجوم فرسان باسيلوس لبعض الوقت. وقام واحد منهم في تلك الأثناء بمساعدة أمبيوريكس على امتطاء ظهر أحد الجياد وغطت الغابات فراره. وهكذا دخل أمبيوريكس دائرة الخطر في البداية ومن ثم تم تحريره منها بقوة الحظ الغالبة.

لم يقم أمبيوريكس بحشد قواته لصد هجوم باسيلوس إما بسبب اعتقاده أن من الأفضل له أن لا يخوض معركة، وإما نظراً لحاجته للوقت لوضع خطة جديدة لأن خططه قد انقلبت رأساً على عقب نتيجة الوصول المفاجئ للفرسان الرومان، إذ اعتبر أنه لا بد أن يتبعها بقية الجيش. على أي حال بعث أمبيوريكس يرسل إلى القبائل في المناطق الريفية من البلاد وإلى القبائل المجاورة يأمرها بأن على كل واحد منهم أن يتدبر أمره بنفسه. فهرب البعض باتجاه الأردينيين في حين هرب آخرون باتجاه حزام غير منقطع من المستنقعات، بينما خبأ أولئك الذين يقطنون بجانب البحر أنفسهم في أماكن معزولة عن اليابسة تفصلهم عنها حالة من المد المرتفع، وكثيرون منهم رحلوا عن بلادهم وعهدوا بأمر حياتهم وممتلكاتهم إلى غرباء لا تربطهم بهم أي صلات. وكاتيو فولكوس *Catu Volcus* الذي كان قد انضم إلى مشروع أمبيوريكس كملك لأحد نصفي الإيبيورونيين بدا الآن رجلاً ضعيفاً عجوزاً عاجزاً عن مواجهة صعاب الحرب أو معاناة الفرار، فوجه إلى أمبيوريكس لعنات كثيبة لاقتراحه تلك الخطة من البداية، وقتل نفسه متسمماً بالطقسوس - وهي شجرة دائمة الخضرة من الفصيلة الصنوبرية معروفة للجميع في غاليا وألمانيا.

وأرسل السيجنيون *Segni* والكوندروسيون *Condrusi* - وهم شعوب من أصل جرماني وتعد عموماً جرمانية تقطن في إقليم يقع بين الإيبورونيين والتريفيريين - سفراء إلى قيصر يرجونه أن لا يعدهم أعداء، وأن لا يفترض أن كل جرماني في غاليا قد تحالف مع المتمردين ضده. وقالوا إنهم لم يفكروا قط في شن حرب عليه وأنهم لم يرسلوا أي مساعدات إلى أمبيوريكس. وبعد أن تثبت قيصر من صحة أقوالهم باستجوابه لبعض الأسرى أمرهم أن يحضروا إليه عدداً من اللاجئين الإيبورونيين الذين جاؤوا إلى إقليمهم، وفي حال إطاعتهم لهذا الأمر فإنه سوف يحترم بلادهم. وقام بعد ذلك بعملية فرز لقواته، إذ قسمها إلى ثلاث فرق وأخذ الأمتعة كافة إلى إيتواتوكا *Atuatuca* وهو حصن يقع في وسط بلاد الإيبورونيين تقريباً، حيث هناك في هذا المكان كان سابينوس وكاتو قد اتخذا لنفسيهما وقواتهما مراكز شتوية. كانت لدى قيصر عدة أسباب لاختياره هذا المكان، على رأسها أن

التحصينات التي تمت إقامته في العام السابق لا تزال سليمة، الأمر الذي سيوفر على الجنود عناء بناء تحصينات جديدة. وأودع قيصر الأمتعة في هذا الحصن تحت حماية الفيلق الرابع عشر، وهو واحد من الفيالق الثلاثة التي أحضرها من إيطاليا مؤخراً حيث هناك تم تجنيدها. ووضع هذا الفيلق والمعسكر تحت رعاية سيسيرو بعد أن خصه أيضاً بمائتي فارس.

وبعد أن قسم قيصر الجيش أمر لابينوس بالتقدم على رأس ثلاثة فيالق باتجاه الساحل عبر المنطقة المحاذية لإقليم المينابيين، وأرسل تريبونيوس *Trebonius* مع ثلاثة فيالق أخرى لنهب وتخريب المقاطعة الواقعة على حدود الإيتواتيوسيين *Athatuci*، واحتفظ هو لنفسه بالفيالق الثلاثة المتبقة وقرر الزحف إلى نهر سكيلدت *Scheldt* الذي يصب في نهر ميوس *Meuse* ومن ثم إلى الطرف الغربي لإقليم الآردينيين حيث سمع قيصر بأن أمبيوريكس قد ذهب إلى هناك بصحبة مجموعة صغيرة من الفرسان، ووعد قبل أن ينطلق بهذه الرحلة أن يعود خلال أسبوع إذ سيكون قد حان موعد توزيع حصص عناصر الفيلق الذي ترك في الحصن من الأرزاق والمؤن. وطلب من لابينوس وتريبونيوس العودة بنفس الموعد إن سمح الوضع العسكري بذلك بغية عقد جلسات مناقشة أخرى فيما بينهم حول إمكان استئناف الحملة على خطوط أخرى على ضوء ما سيكونون قد علموا به عند ذلك الوقت حول خطط العدو.

ولما كان الإيبورونيون لا يمتلكون أي قوة عسكرية نظامية، كما سبق وتحدثنا، ولا أي قلاع يحتمون فيها ولا حتى حامية قادرة على القيام بالمقاومة المسلحة، فقد تشتت السكان ضمن جماعات متناثرة في اتجاهات مختلفة. فكل واحد منهم قد ركز نفسه في أحد الوديان البعيدة الصغيرة والمنعزلة أو في إحدى رقع الأرض التي تغطيها الغابات، أو حتى في أحد السبخات التي يصعب اختراقها، وجميع هذه الأماكن توفر لهم الحماية وتمنحهم فرصة للنجاة والإفلات. كانت أماكن الاختباء هذه معروفة بالنسبة للأهالي القاطنين في الجوار وقد استدعى الأمر عناية فائقة لضمان سلامة القوات الرومانية، ولطالما أن القوات الرومانية قد استبقيت مع بعضها بعضاً فما من خطر كان هناك من عدو مبعثر الصفوف صعقه الرعب والهلع. لكن كان من الممكن وبسهولة تكبيدنا خسائر فادحة عن طريق نصب العدو لكمائن تهاجم مجموعات جند منعزلة من جنودنا أغراها التطلع للغنيمة للذهاب بعيداً في الحقول، أو انفصلت عن البقة مضطرة لأن الممرات شبه الخفية والدروب التي لا يعرف لها أول من آخر عبر الغابات ليست ذات فائدة عملية بالنسبة لمسير رتل ضمن تشكيل متلاصق. وكان يمكن لمثل هذه الهجمات المعادية أن تضعف جيشنا وتؤثر في معنوياته. لذا كان السبيل الوحيد لوضع حد لهذه المهمة وإبادة هذه السلالة من المجرمين تقسيم الجيش إلى عدد كبير من

الكتائب التي يمكن إطلاقها على نحو منفصل، إنما كان من الأسلم إبقاء القوات ضمن تشكيلها المعتاد تبعاً للتقليد الثابت للجيش الروماني رغم أن ذلك كان يعني أنه لن يكون باستطاعتهم إلحاق أي ضرر بالغاليين داخل بلاد كهذه، زيادة على ذلك فإن أي مجموعة من الجند تضل طريقها وتنفصل عن البقية ستكون عرضة لهجمات الكمائن المعادية والتطويق على يد بعض العناصر الشجاعة منهم، وتم اتخاذ أقصى درجات الحيطة والحذر ضمن هذه الظروف الصعبة، وأعتقد قيصر أن من الأفضل أن يعفو عن العدو، ولو بلا مبالاة نسبياً على الرغم من تحرق الجيش الروماني رغبة في الانتقام والأخذ بالثأر، من أن يعاقبه بقسوة على حساب خسائر جسيمة تتكبدها قواته، فبعث قيصر برسائل إلى القبائل المجاورة كافة يدعوها فيها للمجيء وحصد ما تستطيع من الغنائم لنفسها عن طريق نهب وسلب بلاد الأيبورونيين.

وفضلّ قيصر أن يعرّض الغاليين، بدلاً من عناصر فيالقة، لمخاطر القتال في الغابات، كما أراد أن يحاصر الايبورونيين بحشود ضخمة من الرجال بهدف معاقبتهم على ما اقترفت أيديهم من جريمة شنيعة بإبادة جيش سابينوس، وهكذا سرعان ما اجتمعت أعداد ضخمة من أفراد القبائل الغالية جاءت من مختلف الجهات.

وبينما كانت تجري عملية نهب الإقليم الايبوروني بأكمله اقترب اليوم الذي كان قيصر قد نوى العودة إلى الفيلق الذي تركه ليقوم بحماية أمتعة الجيش، ووقع عند هذه اللحظة ما يمكن اعتباره مثالاً واضحاً على الدور الهام الذي تلعبه المصادفة في الحروب، المصادفة التي يمكن أن يترتب عليها نتائج بعيدة المدى وتخلق آثاراً واسعة النطاق، فبعد الفرار المذعور للعدو، والذي وصفناه آنفاً، لم تكن هناك أي قوة معادية في الحقول تتسبب بأدنى درجة من الشعور بالخوف، لكن الجرمان القاطنين عبر الراين سمعوا بأن إقليم الايبوونين واقع تحت عمليات نهب واسعة النطاق، وأن كل القادمين إلى الإقليم قد دُعيوا للمشاركة بالغنائم وبأعمال السلب والنهب، لذا جُندت على الفور قوة من الفرسان قوامها ألفي فارس من السوغامبرين *Sugambri* الذين يعيشون على مقربة من نهر الراين – وهم الشعب الذي حمى اللاجئين التينكثيرين *Tenctheri* واليوزيبيثيين الذين فروا من أقاليمهم، فعبروا النهر فوق القوارب والطوافات عند نقطة تبعد قرابة ثلاثين ميلاً جنوباً عن المكان الذي كان قيصر قد بنى الجسر فيه وترك الحامية لتدافع عنه، ودخلوا إقليم الايبوروينين وأسروا عدداً من الفارين المتناثرين وأمسكوا بكمية من قطعان الماشية التي تعد بالنسبة لهؤلاء البرابرة مكسباً كبيراً وغنيمة مطلوبة كثيراً، ثم تقدموا لمسافة أعمق داخل الإقليم يغريهم إلى ذلك أمل بالحصول

على غنائم أخرى، ولا سيما وأن هؤلاء اللصوص قطاع الطرق - وهم مقاتلون بالفطرة- لم يكن لتوقفهم المستنقعات أو الغابات، وحينما سألوا أسراهم عن مكان قيصر أخبروهم بأنه قد انطلق بحملة باتجاه منطقة بعيدة وأن كامل جيشه قد غادر الإقليم، وأضاف أحد الأسرى قائلاً: (لماذا السعي وراء هذه الغنيمة الزهيدة التافهة في حين لديكم الفرصة لأن تضربوا ضربة حظكم وتغنموا ثروات طائلة ضمن أقصر وقت ممكن؟ ففي غضون ثلاث ساعات يمكنكم الوصال إلى ايتواتيوكا *Atuatuca* حيث أودع الرومان كل ممتلكاتهم والحامية التي تحرس المكان ليست سوى قوة صغيرة جداً إلى حد أنه ليس فيها من العناصر ما يكفي لحماية السور، وأن ما من أحد منهم يتجرأ على الخروج خطوة واحدة خارج التحصينات الدفاعية للمكان)، وحسم عرض هذه الفرصة الموقف لدى الجرمان فأخفوا ما كان بحوزتهم من غنائم وشقوا طريقهم مباشرة نحو ايتواتيوكا يرشدهم إليها الواشي الذي أبلغهم بالأمر.

كان سيسيرو طوال الأسبوع المنصرم غاية في الحرص على المحافظة على الجنود داخل المعكسر تطبيقاً لتعليمات وتوجيهات قيصر، وكان لا يسمح حتى ولو لخادم واحد بالخروج خارج التحصين، غير أنه في اليوم السابع أخذ يخشى أن لا يفي قيصر بوعده، حيث قيل أنه زحف مع فيالقة إلى نقطة أبعد، ولم تكن هناك أي أخبار تتعلق بعودته، كما أخذ الجنود يتذمرون من سيسيرو لقبوله الصابر والحليم بهذا الوضع، ولإبقائه لهم محبوسين هكذا داخل المعسكر أشبه بدجاجات في قن، الأمر الذي كان حسبما قالوا سيئاً سوء الحصار، ولما كانت تسعة فيالق من الجيش الرماني قد انتشرت في حقول الإقليم إضافة إلى قوة ضخمة من الفرسان، والعدو قد تشتت، وإلى حدٍ قد دمر، فما من مبرر كان لدى سيسيرو لأن يتوقع حدوث أي واقعة خطيرة ضمن ثلاثة أميال عن معسكره، لذا قام تبعاً لذلك بإرسال خمس كتائب للحصول على الحنطة من الحقول القريبة، وكان يفصل بين هذه الحقول والمعسكر تلة واحدة فقط، وأخرج معهم كتيبة منفصلة تألفت من نحو ثلاثمائة رجل من أولئك الذين تعافوا من مرضهم خلال هذا الأسبوع[1] وأعطي الإذن لعددٍ كبير من الخدم لمرافقتهم، وأخرج الخدم معهم عدداً كبيراً من الحيوانات كان يحتفظ بها داخل المعسكر.

والذي حدث هو أنه عند هذه اللحظة بالذات بدت للعيان عناصر سلاح الفرسان الجرمان وهم يمتطون ظهور جيادهم ويعدون نحو المعسكر بأقصى سرعتهم وبدون أي تباطؤ حاولوا اقتحامه من البوابة الخلفية، وعلى اعتبار أن الغابات عند ذلك الجانب كانت تحجب الرؤيا فما كان بالإمكان رؤيتهم حتى أصبحوا على مقربة شديدة من المعسكر، حتى أنه لم

---

(١) عدد من عناصر الفيالق المرضى قد تُركوا في المعسكر نظراً لأوضاع صحية.

يكن لدى التجار الذين نصبوا خيامهم عند أسفل سور المعسكر متسع من الوقت للابتعاد عن طريقهم، وأزعجت المفاجأة الجنود وكان من الصعوبة البالغة على الكتيبة المناوبة على الحراسة الصمود في وجه الهجمة الجرمانية الأولى، وانتشر العدو في كل مكان حول المعسكر يحاول إيجاد طريق للدخول إليه.

وبذل الجنود قصارى جهدهم للدفاع عن البوابات، أما بقية الأماكن الأخرى فقد منحتها طبيعة الأرض والتحصينات حماية كافية، ودبت حالة من الذعر في شتى أنحاء المعسكر وأخذ الجنود يتساءلون فيما بينهم عن سبب اضطرابهم، ولم يكن باستطاعتهم التقرير إلى أي وجهة يتقدمون أو في أي مكان يتجمعون، وقال البعض إن المعسكر قد سقط في حين أكد آخرون بأن الجرمان قد جاؤوا إلينا يحملون راية النصر بعدما دمروا الجيش الروماني وأنهوا قائده، وملأت عقول معظمهم تصورات خرافية غريبة أملتها عليهم طبيعة الموقف الذي هم فيه واستعادوا إلى مخيلتهم الكارثة التي حلت بكوتا وسابينوس اللذين قتلا في مكان ليس ببعيد كثيراً عن هذا الحصن بالذات، لقد شل الخوف الجميع حتى أن الجرمان اعتقدوا بأن الأسير قد أخبرهم بالحقيقة حين قال لهم إنه لا توجد حامية للمعسكر الروماني في اتيواتوكا، وحاولوا جاهدين شق طريقهم إلى داخل المعسكر وهم يناشدون بعضهم بعضاً أن لا يدعوا هذه الفرصة الذهبية تفلت من بين أصابعهم وتذهب هدراً.

كان من بين المرضى الذين تركوا مع الحامية في المعسكر باكولوس *Baculus* الذي سبق له أن خدم تحت جناح قيصر بوصفه قائداً أول لسرايا المئة في فيلقه، وسبق أن جيء على ذكره حين تحدثنا عن معارك سابقة، ظل باكولوس ولخمسة أيام من ذلك الأسبوع ضعيفاً لا يقوى حتى على تناول طعامه، لكنه الآن وبسبب إحساسه بالقلق الشديد على سلامته وسلامة رفاقه مشى خارجاً من خيمته لا يحمل أي سلاح، وعند رؤيته للعدو قريباً منه والموقف في غاية الخطر والحرج، استعار سلاحاً من أقرب جندي له واتخذ لنفسه موقفاً في مدخل بوابة المعسكر وسرعان ما انضم إليه قادة المئة التابعين لكتيبة الحراسة وقاتلوا لبعض الوقت معاً لصد هجوم العدو، وأصيب باكولوس بجرحٍ بليغ وفقد وعيه، وتمكن الآخرون من إنقاذه بتمريره إلى الخلف من يدٍ إلى يد، وقد منح هذا التأخير في اقتحام العدو للمعسكر وقتاً للقوات كي تستجمع شجاعتها بما يكفي لجعلها تتخذ مواقعها فوق التحصينات وتبدي شيئاً من المقاومة الدفاعية.

في تلك الأثناء سمعت مجموعة الحصاد التي ذهبت لجني الحنطة وقد فرغت من عملها صيحات الجند عند المعسكر، فأسرع الفرسان إلى المكان رأساً واكتشفوا جدية الموقف،

وما كان ينم عنه من خطر محدق، وهناك في العراء لا توجد أي تحصينات يمكن للجند الذين أصابهم الهلع أن يلجأوا إليها لحماية أنفسهم، ولا سيما أنهم كانوا جنوداً أغراراً تعوزهم أي الخبرة القتالية و التجربة العسكرية - سبق أن أشرنا إلى أن هؤلاء من الفيالق التي تمت تعبئتها مؤخراً في إيطاليا – فاستداروا إلى التريبيونات العسكريين وقادة المئة كي يخبروهم بما يجب عليهم فعله، لكن حتى الشجعان منهم كانوا فاقدين لرباطة جأشهم بسبب الحالة الطارئة. لمح الجرمان الرايات الرومانية من بعيد فكفوا عن متابعة هجومهم ضد المعسكر، وظنوا في بادئ الأمر أنها رايات الفيالق الرومانية القيصرية وقد عادت من حملتها البعيدة التي حسبما قال الأسرى قد ذهبوا للقيام بها، غير أنهم حينما رأوا كم كانت القوة صغيرة نظروا إليها بازدراء واستخفاف وهاجموها من كل النواحي، راح الخدم يعدون مسرعين نحو أقرب قطعة أرض مرتفعة لكنهم سرعان ما طُردوا منها من قبل الجرمان، فاندفعوا باتجاه الرايات التي التفت حولها الكتائب، الأمر الذي صعّد من الذعر لدى الجنود الذين كانوا أصلاً قد فقدوا أعصابهم، على اعتبار أن المعسكر كان قريباً اقترح البعض تبني تشكيل اسفيني والقيام باقتحام صفوف العدو وصولاً إلى المعسكر، وشعروا بأنهم واثقون من النجاح على الرغم من أنه قد يحاصر البعض ويقتل البعض الأخر لكن البقية تتمكن من النجاة، هذا في حين فضلّ آخرون اتخاذ موقع التلة ومواجهة الخطر معاً، رُفضت الخطة الثانية من قبل كتيبة المحاربين القدماء المتمرسين الذين خرجوا مع بقية الكتائب، فتقدم هؤلاء بعد أن تبادلوا العبارات التشجيعية فيما بينهم تحت قيادة قائدهم غيوس تريبونيوس *Gaius Trebonius* وهو فارس روماني مقدام، واقتحموا صفوف العدو ووصلوا إلى المعسكر دون أي خسائر أو إصابات، وخلفهم مباشرة، ومن خلال الفجوة التي أحدثوها بين صفوف العدو بهجومهم الشجاع، عبرَ الخدم وعناصر الفرسان ووصلوا بسلام إلى المعسكر أيضاً، أما أولئك الذين اتخذوا لأنفسهم موقفاً فوق التلة فقد بينوا جلياً أنهم لم يتعلموا شيئاً بعد عن فنون الحرب، فأخفقوا بالالتزام بالخطة التي اختاروها في الدفاع عن أنفسهم فوق أرض مرتفعة، كما أخفقوا في تقليد رفاقهم والتصرف على غرار ما تصرفوه والقيام بهجوم سريع وحاسم بعدما شاهدوا أن ذلك الهجوم قد أفلح وأنقذ رفاقهم، لكنهم بدلاً من ذلك مكنوا العدو من الإمساك بهم في موقع سيء فوق أرض منخفضة أثناء محاولتهم بلوغ المعسكر.

أما القادة المئة من بينهم والذين كان بعضهم قد ترفّع لتوه بسبب شجاعته وإقدامه من مراتب دنيا في فيالق أخرى إلى مراتب عليا في هذا الفيلق عقدوا العزم على أن لا يفقدوا السمعة العالية التي اكتسبوها في معارك سابقة فسقطوا وهم يقاتلون بأعلى درجات الشجاعة

والجرأة، وتم إنقاذ بعض الجند بسبب هذا الموقف الشجاع لقادة المئة، الموقف الذي أكره العدو على التقهقر ومكنهم من بلوغ المعسكر بسلام وعيون أفراد العدو تمتلئ دهشة وذهولاً، أما الباقون فقد حوصروا من قبل العدو وقتلوا.

وجد الجرمان حينئذ أن القوات الرومانية قد احتلت مراكزها الدفاعية فوق التحصينات فقطعوا كل أمل لهم بأخذ المعسكر على حين غرة ومهاجمته بغتة وانسحبوا عبر الراين يحملون معهم الغنائم التي كانوا قد خبؤوها في الغابات، لكن حتى بعد رحيلهم ظل المدافعون الرومان ممتلئين خوفاً وفزعاً إلى حد أن فوليوسينوس *Volusenus* الذي بعثه قيصر إلى المعسكر أمامه على رأس عناصر الفرسان والذي وصل في تلك الليلة إلى المعسكر، لم يتمكن من جعلهم يصدقون بأن قيصر على وشك الوصول إليهم- برفقة جيشه سالماً غير مصاب بأي أذى –فقد تملكهم الخوف وسيطر على عقولهم ونفوسهم حتى أنهم كانوا أقرب للإصابة بالجنون، معتقدين بأن الجيش الروماني بأكمله قد أصبح هباءً منثوراً وتقطع إلى أشلاء، وأن عناصر الفرسان الذين وصلوا إليهم هم الوحيدون الذين تمكنوا من النجاة بالفرار على ظهور خيولهم، وقالوا مؤكدين إنه لو لم يتدمر الجيش لما هاجم الجرمان المعسكر أبداً، غير أن وصول قيصر إلى المعسكر أخيراً وضع حداً لحالة الذعر والهلع التي كانت قد انتابتهم، فقد كان قيصر مدركاً تمام الإدراك كيف تقع الأحداث في الحرب ولم يوّجه إلى سيسيرو عند عودته إلى المعسكر سوى نقد واحد هو أنه سمح للكتائب بمغادرة مواقعها في الحامية وكان الأجدر بسيسيرو أن يتجنب أدنى درجات التعرض للخطر والمجازفة.

وأقر أمام البقية بأن ماحدث كان بشكل رئيسي نتيجة للمصادفة، فالمصادفة الغريبة هي التي جلبت العدو إلى المعسكر هكذا على نحو مفاجئ، والمصادفة الأغرب هي أيضاً التي أبعدتهم عنه في وقت كانوا هم فيه المدافعين عن سور المعسكر وبواباته، والشيء الأكثر غرابة من كل الأشياء هو أن الظروف قد قادتهم لمهاجمة المعسكر الروماني على الرغم من أن هدفهم كان عبور الراين ونهب إقليم امبيوريكس، فقاموا بهذا عوضاً عن ذاك وقدّموا بذلك لامبيوريكس خدمة جليلة لطالما كان يرغب بها.

وشرع قيصر برحلة ثانية للإغارة على الايبيورونيين ومضايقتهم فأرسل وبمختلف الاتجاهات قوات ضخمة من الفرسان التي كان قد جمعها من القبائل المجاورة، وأشعلوا النار في كل قرية وفي كل بناء كانت تلمحه أبصارهم، وذبحت قطعان الماشية في شتى أرجاء بلاد الايبيورونيين بعد أن اقتيد جزء منها كغنائم، أما المحاصيل التي كان قسم منها قد طرحته الأمطار الخريفية فوق أراضي الحقول فقد استهلكتها الأعداد الهائلة من الجند والخيول،

ولذلك بدا من الواضح أنه حتى لو تمكن بعض السكان من النجاة من الإغارات مبدئياً من خلال الاختباء هنا وهناك فإنهم في نهاية المطاف لابد سيموتون جوعاً بعد انسحاب القوات الرومانية، ونظراً لوجود هذه الأعداد الضخمة من الفرسان تطوف البلاد مسرعة ضمن مجموعات منفصلة لتغطي كل مكان فقد حدثت مرات ومرات أن تم الإمساك بأسرى كانوا لتوهم قد شاهدوا امبيوريكس في حالة فرار، وكانوا حين سؤالهم عنه يتطلعون حولهم ليدللوا عليه مصرين على أنه كان هنا قبل هنيهات قليلة وأنه الآن مجرد ابتعد عن أنظارهم.

وهذا بدوره كان يعزز الأمل عند مطارديه باللحاق به وبإحضاره للوقوف في حضرة قيصر وبذلك ترتفع أسهمهم لدى قائدهم وتتعزز مكانتهم، وبذلوا جهوداً عظيمة لا حدود لها وأظهروا نشاطاً يكاد يزيد عن طاقة الإنسان لإنجاز تلك المهمة، لكنهم كانوا دائماً يبدون وكأنهم قد فقدوا لتوهم ما هم يرغبون بتحقيقه وهم يتقدون حماسة ويتوهجون غيرة، فأمبيوريكس كان في كل مرة يضيق عليه الخناق ينجو من خلال الاختباء في غابة أو وهدة أو وادٍ صغير ضيق شديد الانحدار، ومن ثم ينطلق تحت جنح الظلام باتجاه أخر يرافقه أربعة خيالةٍ لا غير لأنه لم يكن ليجرؤ على أن يأتمن على حياته لسواهم.

وبعد أن تم تخريب البلاد على النحو الذي أشرنا إليه سحب قيصر جيشه وباستثناء الكتيبتين اللتين قد فقدتا من فيلق سيسيرو وباتجاه دوروكورتورم *Durocortorum* وهي مدينة تتبع للريميين حيث هناك دعي إلى اجتماع المجلس الغالي وقام باستقصاء حول المؤامرة التي حاكها السينونيون *Senones* والكارنوتيون *carnutes* وثم الحكم بالموت على آكو *Acco*– المحرض على المؤامرة – ونفذ به الحكم على الطريقة الرومانية القديمة، واعتبر البعض الأخر الذي هرب خشية من أن يُستدعى للمحاكمة، محروماً من حماية القانون وطريداً للعدالة، ثم قام قيصر حينئذ بتوزيع فيالقة على المآوي الشتوية فبعث باثنين منهم إلى الحدود التريفيرية، وركز اثنين آخرين بين اللينجونيين *Lingones* ووضع الفيالق الستة المتبقية في أجيدنكوم *Agedincum* داخل إقليم السنونيين، وانطلق بعد أن رتب لهم موضوع التزود بالمؤن، وبعد أن وجد أن غالياً قد أصبحت هادئة، برحلته المعتادة إلى الشمال الإيطالي لعقد جلساته الدورية.

تمرد فيرسينجيتوريكس

عام (٥٢ ق.م)

١- طور البداية:

عند وصول القيصر إلى إيطاليا علم باغتيال بوبليوس كلوديوس *Publius Clodius* وبالمرسوم الذي أصدره مجلس الشيوخ الروماني الذي يأمر فيه جميع الإيطاليين من هم في سن الخدمة العسكرية أن يحلفوا اليمين ويلتحقوا بالجيش، باشر هو بتعبئة مجندين جدد من كافة أرجاء المقاطعة السيزاليابانية *Cizalpine Province* وسرعان ما بلغت هذه الأحداث والتطورات غاليا فاستنتج الغاليون ما اعتقدوا بأنه الاستنتاج الطبيعي، وابتدعوا قصة مفادها أن قيصر سوف تضطره الاضطرابات الحاصلة في روما وأعمال الشغب فيها إلى التأخر، وأن الصراع السياسي هناك على أشده، وأنه بالتالي حسبما قالوا لن يتمكن من الانضمام إلى جيشه ثانية، واستحثهم إمكان توفر هذه الفرصة لهم على القيام بنشاطات مناهضة. فهم من الأساس يئنون ألماً تحت نير الخضوع لروما وها قد جاءتهم الفرصة المؤاتية الآن للتخطيط للحرب بثقة أكبر وجرأة أشد.

ورتب زعماؤهم وقادتهم اجتماعات لهم في مناطق منعزلة في الغابات حيث تحدثوا جميعاً وبمرارة عميقة عن موضوع تنفيذ حكم الإعدام بآكو *Acco* على يد الرومان وأشاروا إلى نفس المصير قد يواجههم هم أيضاً من بعده، واشتكوا وتذمروا كثيراً من الواقع البائس لبلادهم وعرضوا إمكانات مغرية لتحريض بعض من كان يستمع إليهم للمباشرة بالحرب والمجازفة بحياتهم في سبيل حرية غاليا، وقالوا إن الخطوة الأولى هي خلق الوسائل اللازمة لإبقاء قيصر بعيداً عن جيشه قبل أن يتفشى سر خطتهم، وأضافوا قائلين إنه من السهل القيام بذلك لأن الفيالق الرومانية لن تجرؤ على مغادرة مراكزها الشتوية أثناء غياب قائدها العام، بالنسبة له أي قيصر، فإنه يكون قادراً على الإلتحاق بها دون حرس ومرافقين لحمايته، على

أي حال فإن من الأفضل للواحد منا أن يموت وهو يقاتل في المعركة من أن يروّض نفسه على التكيف مع حقيقة أن مجدهم العسكري القديم قد ضاع، وأن الحرية التي توارثوها عن أجدادهم قد فقدت وانبثق عن هذه المناقشات المطوّلة إعلان الكارنوتيين *Carnutes* بأنهم مستعدون لمواجهة أي خطر، في سبيل المصلحة العامة والقضية المشتركة، وأنهم سيتولون زمام المبادرة في تحقيق الضربة الأولى، وعلى اعتبار أنه لم يكن ممكناً في الظرف الراهن إعطاء ضمانات متبادلة عن طريق تقديم الرهائن كل للآخر خشية من أن يغدر بخطتهم، فقد ناشد الكارنوتيون الآخرين أن يضموا راياتهم العسكرية بعضها لبعض — وهو أكثر الطقوس قدسية وجلالة تبعاً للأعراف الغالية — وأن يلزموا أنفسهم بالقسم بأنهم لن يتخلوا عنهم حينما تبدأ الحرب، وهنأ المجتمعون الكارنوتيين بحرارة على موقفهم هذا، وأدى جميع الحاضرين القسم وحددوا موعداً للانتفاضة قبل مغادرتهم لمكان الاجتماع.

وحينما جاء اليوم المحدد اكتسح الكارنوتيون، يقودهم اثنان من المجرمين البائسين يدعى الأول منهما غوتيواتر *Gutuater* والثاني كونكونيتودومنوس *Conconnetodumnus*، منطقة سينابوم *Cenabum* بعد إعطاء الإشارة المتفق عليها، وقتلوا الرومان المقيمين هناك لأغراض التجارة، بمن فيهم غيوس فيوفيوس سيتا *Gaius Fufius Cita* وهو فارس روماني ذو مرتبة رفيعة، ونهبوا ممتلكاتهم وانتقلت هذه الأخبار سريعاً إلى شتى القبائل في غاليا، لأنه عندما يحدث شيء ذو أهمية خاصة واستثنائية جديرة بالملاحظة فإن الناس يتناقلون الخبر من الواحد إلى الآخر بالمناداة والصياح عبر المناطق الريفية والقرى، ومن ثم يحمل الآخرون بدورهم هذه الصيحة وينقلونها إلى جيرانهم، وهكذا حدث بالنسبة للواقعة الراهنة، إذ أصبح ما حدث في سينابوم عند الفجر معروفاً قبل الساعة الثامنة مساءً لدى إقليم الأرفيونيين الذي يبعد نحو مائة خمسين ميلاً عن المكان.

وهناك في ذلك الإقليم حذا فيرسينجيتوريكس حذو الكارنوتيين وتبع مبادرتهم، وفيرسينجيتوريكس شاب أرفيوني يتمتع بقوة وجبروت، سبق لأبيه سيلتيوس *Celtilus* أن احتل مكانة ذات سيادة وسلطان في شتى بقاع غاليا ومن ثم قتله رفاقه من أبناء بلده لاكتشافهم بأنه يسعى لكي يصبح ملكاً.

وبعد أن جمع فيرسينجيتوريكس اتباعه لم يواجه صعوبة في تحريك مشاعرهم وإثارة عواطفهم، كما أن ماكان يجري من أحداث وتطورات وعلى رأسها ما قام به الكارنوتيون سرعان ما شد الجميع نحو حمل السلاح وقام عمه غوبانيتو *Gabannitio* وبعض الزعماء الآخرين بمحاولة لثنيه عن مشروعه معتقدين بأنه ينطوي على مجازفة خطيرة، كما أنه طرد

من مدينة جيرغوفيا *Gergovia* غير أن فيرسينجيتوريكس لم يرتدع وراح يطوف في أرجاء الريف الغالي يجمع المتشردين والشحاذين واستطاع أن يكسبهم إلى جانبه، وهؤلاء قد اصطفوا خلفه، جميع الأرفيرنيين الذين توجه إليهم وبعد أن ناشدهم ليحملوا السلاح والقتال في سبيل حرية غاليا حشد قوة ضخمة ونجح في طرد خصومه ومناوئيه الذين ومن وقت ليس ببعيد كانوا قد طردوه هو نفسه وأعلنه أنصاره ومواليه ملكاً وأرسلوا بسفارات في كل الاتجاهات يناشدون القبائل أن تبقى مخلصة ووفية، وضمن وقت قصير تمكن من ضمان دعم السينونيين *Senones* والباريسيين *Parisii* والكادورسيين *Cadurci* والطورنيين *Turoni* والأوليرسيين *Aulerci* والليموفيسيين *Lemovices* والآنديين *Andes* والبيكتونيين ومختلف القبائل الأخرى على الساحل الغربي، وهؤلاء انتخبوه بالإجماع قائداً عاماً لهم، وبعد أن تسلح فيرسينجيتوريكس بهذه القوة أمر كل قبيلة أن تقدم الرهائن دليلاً على التزامها وأن تحضر حصةً محددة من القوات في الحال، وأن تصنع كمية من الأسلحة تكون جاهزة ضمن وقت محدد – معيراً انتباهاً خاصاً لسلاح الفرسان، ولما كان فيرسينجيتوريكس نفسه رجلاً ذا طاقة لا حدود لها فقد أرهب المترددين وملأ قلوبهم رعباً وهلعاً من خلال ما وعدهم به من قصاص حديدي وعقوبة قاسية وصارمة وقال إن من سيستاء منهم وينفر سيعاقب بالتعذيب حتى الموت على الخازوق ومن منهم سيرتكب خطأ أقل شأناً سيقطع له أذنيه، ويقلع له عينيه بأصابعه ويرسله إلى بلاده ليكون عبرة للآخرين وإنذاراً لهم بعقوبة أشد تتخذ بحق المنتهكين والمذنبين.

وباستخدامه لهذه السلوكية الإرهابية استطاع فيرسينجيتوريكس وبسرعة خيالية حشد جيش ضخم أرسل جزءاً منه إلى إقليم الروتينيين في ظل قيادة كادور كاني تتمتع ببسالة نادرة وشجاعة فذة يدعى لوكتيريوس *Lucteruis* وزحف فيرسينجيتوريكس نفسه ضد البيتوريجيين *Bituriges* الذين قاموا حين اقترابه منهم بإرسال مبعوثين إلى سادتهم الايديويين *Aedui* يطلبون منهم المساعدة والعون ليمكنوهم من إظهار مقاومة أكثر فعالية في وجه فيرسينجيتوريكس.

وبناءً على نصيحة قادة الفيالق الرومانية الذين كان قيصر قد تركهم مع الجيش أرسل الايديويون المشاة والفرسان لمساعدة البيتوريجيين ولكن حينما وصلت هذه القوات إلى نهر اللوار *Loire* والحد الفاصل بين البيتورجيين والايديويين توقفت ومن ثم عادت بعد أيام قليلة دون أن تحاول اختيار النهر، وكان التفسير الذي قدموه للقادة كتبرير على تصرفهم هذ أنهم خشيوا من غدر البيتوريجيين الذين – بحسب معلومات تلقوها – قد أحاكوا خطة م

الأرفيرنيين *Arverni* للقضاء عليهم على جانبي النهر لحظة عبورهم له، ولا أدري على وجه التأكيد إن كانت هذه القوات الإيديووية قد تصرفت على هذا النحو نتيجة ما زعمته من سبب فعلاً أم بدوافع الخيانة والغدر، لذا فإنني لا أشعر بأنه أمر مسوغ لي أن أدلي بتصريح قاطع وبات لهذا الشأن، والذي حدث هو أن البيتوريجيين انضموا بقواتهم العسكرية إلى الأرفيونيين مباشرة بعدما غادرت هذه القوات الايديووية المكان.

وعند وصول أنباء هذه الأحداث إلى مسامع قيصر في إيطاليا، في وقت كان فيه الوضع في روما قد تحسن والفضل في ذلك يعود إلى العمل السياسي الحاسم الذي قام فيه بومبي *Pompey*، باشر برحلته بناء على ذلك إلى غاليا وحين بلوغه لها واجهته مسألة صعبة: كيف سيلتحق بجيشه، فإن يقم بدعوة الفيالق إلى مقاطعة ترانسالباني *Transalpin Province* فإنه لا بد سيترتب عليهم خوض غمار معركة التحامية ضروس أثناء زحفهم بدونه، وإن يسافر هو عبر غاليا بدون حرس وحماية فإنه سيعني المخاطرة بحياته إلى حد بعيد على اعتبار أنه في مثل هذه الظروف حتى القبائل التي تبدو هادئة لا يستطيع المرء الاعتماد عليها أو الوثوق بها.

كان لوكتيريوس *Lucterius* الكادوركاني الذي كان قد بعث به فيرسينجيتوريكس إلى الروتينيين قد تمكن في تلك الأثناء من إقناع الروتينيين واستحثاثهم للانضمام للأرفيرنيين، وتقدم بعد ذلك داخل أقاليم النيتوبروجيين *Nitobroges* وإقليم الجاباليين *Gabali* وأخذ الرهائن وحاول بعد أن جمع حشوداً ضخمة من القوات القيام بالإغارة على مقاطعة ترانسالباين باتجاه ناربون *Narbonne* فقرر قيصر أن الأمر يقتضي منه تأجيل كل شيء وزحف على الفور إلى ناربون وطمأن الأهالي الذين كان الخوف والهلع قد أصابهم وركّز فيها بعض الكتائب من قوات الحامية الموجودة في المناطق القريبة من نقطة الهجوم[1] كما أمر جزءاً من حماية المقاطعة ودفعة من المجندين الجدد الذين جاء بهم من إيطاليا بالتمركز في إقليم الهيليفتيين الذي يجاور إقليم الأرفيرنيين. وضبطت هذه الإجراءات التي قام بها قيصر حركة لوكتيريوس وجعلته يتوقف في المكان الذي كان قد وصل إليه بسبب أنه خشي من محاولة الدخول إلى المنطقة التي تحيط بها الكتائب الرومانية، وبالنتيجة التحق قيصر بقواته المحتشدة في بلاد الهيلفيتيين، حيث كانت جبال سيفينس *Cevennes* التي تشكل حداً شائكاً بين الهيلفيتيين والأرفيرنيين، في ذلك الوقت من فصل الشتاء - وهي أشد

---

(١) المقصود هنا ذلك الجزء من المقاطعة الرومانية الذي يقطنه الروتينيون *Ruteni* والفولكا اريكوميسيون *Volcae Arecomici* والطولوساتيون *Talosates* والمنطقة المجاورة لناربون نفسها.

فترات فصل الشتاء قساوة – مغطاة بطبقة عميقة من الثلج، والدروب فوقها مغلقة وعسيرة، غير أن جنود قيصر أزاحت الثلج عن خط امتداد هذه الدروب باستخدام المجارف اليدوية وكانت الثلوج بعمق ستة أقدام أو أكثر ومكنت قيصر نتيجة لجهود استثنائية وجبارة بذلتها من عبور الجبال وبلوغ الأراضي الأرفيرنية، وكان وصوله إلى هناك مفاجأة صاعقة – إذ اعتقد الارفيرنيون أن جبال السيفينس تمنحهم حماية كبيرة ومضمونة وكأنها سور صلب لأن الممرات فوقها اعتبرت غير قابلة للاستخدام بتاتاً حتى ولو من قبل مجموعة من الرحالة المغامرين في تلك الفترة من فصل الشتاء - وأمر قيصر عناصر فرسانه بالتطواف في أرجاء المكان ضمن أوسع دائرة ممكنة وتهويل الفاليين أكبر قدر ممكن وسرعان ما جلبت الشائعات المتعلقة بوصول قيصر والرسل هذه الأخبار إلى فيرسينجيتوريكس، فجاء مناصروه الأرفيرنيون تعتريهم أقصى درجات الرعب والخوف يتراكضون إليه ويناشدونه إنقاذهم من الدمار، ويلتمسونه ألا يترك بلادهم عرضةً للسلب والنهب والإتلاف من قبل العدو الروماني، وقالوا إن لهم الحق في المطالبة بالحماية على اعتبار أنه كان من الواضح انهم يتحملون الآن الوطأة العظمى للهجوم، وكرد على التماسهم وتضرعاتهم نقل فيرسينجيتوريكس معسكره من بلاد البيتورجيين وزحف نحو بلاد الأرفيرنيين.

غير أن قيصر مكث هناك لمدة يومين فقط لأنه توقع من فيرسينجيتوريكس أن يتحرك، ومن ثم ابتعد عن المكان متذرعاً بأنه سيجمع التعزيزات والفرسان تاركاً القوات تحت إمرة الشاب بروتوس وأعطى قيصر تعليماته لبروتوس أن يقوم بإطلاق الفرسان للتطواف ضمن أبعد حد ممكن وفي كل الاتجاهات، وأعلن بأنه سيحاول أن لا يبقى غائباً عن المعسكر أكثر من ثلاثة أيام، وبعد أن قام بهذه الترتيبات شق طريقه بأقصى سرعة ممكنة إلى فيّن *Vienne*[1] الأمر الذي أوقع حراسه ومرافقيه بدهشة وذهول كبيرين، وهناك انضمت إليه بعض عناصر فرسان جدد سبق له أن أرسلها أمامه قبل وقت قصير، وتابع دون توقف البتة لا ليل ولا نهار طريقه عبر بلاد الأيديوويين ومن ثم عبر بلاد اللنيجونيين حيث كان هناك اثنان من فيالقة يُمضيان فصل الشتاء، وكان عبوره لبلاد الأيديوويين سريعاً جداً، إذ فكر بأنهم قد يتمادون إلى حد قيامهم بمحاولة تستهدف حياته، لذا رغب أن يفوّت عليهم مثل هذه الفرصة واجتياز إقليمهم بأقصى سرعة ممكنة، ووصل مباشرة إلى المعسكر الشتوي لهذين الفيلقين حيث بعث من هناك برسائل إلى بقية الفيالق وطلب منهم أن يكونوا ضمن الجاهزية

---

(١) فيّن: مدينة في جنوب شرق فرنسا على نهر الرون إلى الجنوب من ليون.

المطلوبة قبل أن تصل إلى الأرفيرنيين أثناء مجيئه، وما أن علم فيرسينجيتوريكس بهذه التطورات حتى قاد جيشه عائداً عبر بلاد البيتوريجيين التي زحف منها لمهاجمة غورغوبينا *Gorgobina* وهي قلعة للبواويين *Boii* الذين كان قيصر بعد هزيمته لهم في معركته مع الهيلفيتيين، قد ثبتهم هناك تحت سلطان وسيادة الأيديوويين.

وأربك هذا التصرف من قبل فيرسينجيتوريكس قيصر كثيراً، فإنه إن يبقي فيالقه معاً حتى نهاية فصل الشتاء، ويسمح لشعب خاضع للأيديوويين بأن يُغلب وتلحق به الهزيمة دون أن يتدخل فإنه من المحتمل تماماً أن تتخلى غاليا بأكملها عن قضيته على اعتبار أنه سيغدو واضحاً أن أصدقاءه لن يتمكنوا من التطلع إليه من أجل الحماية، ومن ناحية أخرى فإنه إن يسحب قواته من نُزلها الشتوية في مثل هذا الوقت المبكر من العام فإنه سيكون في مواجهة مشكلة عويصة تتعلق بموضوع توفير مؤن الطعام لهم، نظراً لصعوبات النقل، غير أن قيصر اتخذ قراره بعد تفكير طويل ووجد أن مواجهة الخطر والمجازفة أفضل بكثير من الانسلاخ عن مناصريه ومؤيديه بالإذعان لفقدان مثل هذا الاعتبار وضياع هيبته واحترامهم له، بناءً على ذلك طلب من الايديوويين إرسال المؤن، وبعث مباشرة برسالة إلى البواويين يقول لهم فيها بأنه في طريقه إليهم لتخليصهم مما هم فيه واستحثهم على المحافظة على ولائهم للسلطة الرومانية، ومقاومة هجوم العدو بشجاعة وإقدام وترك حينئذ فيلقين من قواته في أجيدينكم *Agedincum* ويصحبتهم الأمتعة الثقيلة التابعة لكل فيالق الجيش وانطلق باتجاه بلاد البواويين.

ووصل قيصر في اليوم التالي إلى فيلونودونوم *Vellaunodunum* وهي قلعة تابعة للسينونيين فألقى حولها الحصار كي يسهّل عملية انتقال المؤن من خلال ضمانة بأنه لم يترك عدداً خلفه، وفي غضون يومين طوقها بالخنادق والتحصينات اللازمة، وفي اليوم الثالث أرسلت حاميتها المبعوثين إلى قيصر لإعلان الاستسلام، فأمرهم قيصر بإلقاء كل أسلحتهم وإيداعها في مكانٍ واحد من القلعة وبإخراج الخيول كافة منها وبإرسال ستمائة رهينة، ولما كان قيصر في عجلة من أمره لاستكمال رحلته إلى غورغوبينا وبأقصى وقت ممكن فقد عين تريبونيوس *Trebonius* للاهتمام بموضوع تنفيذ هذه الأوامر، وانطلق هو برحلة إلى سينابوم *Cenabum* في إقليم الكارنوتيين وكان الكارنوتيون في تلك الأثناء – وهم الذين قد سمعوا لتوهم بالحصار الذي ضرب حول فيلونودونوم وتوقعوه أن يدوم لبعض الوقت – منشغلين بجمع القوات لإرسالها للدفاع عن سينابوم، وصل قيصر إلى هذه المدينة في غضون يومين، لكنه حينما فرغ من إقامة معسكره أمامها كان الوقت قد تأخر لتنفيذ هجومه في ذلك اليوم، لذا

وجّه لمن يعنيهم الأمر تعليماته اللازمة لاتخاذ الاستعدادات الضرورية للقيام بالهجوم في اليوم التالي، لكنْ، على اعتبار أن هناك جسراً فوق سوار المدينة مباشرة وعلى اعتبار أن قيصر قد خشي من أن يهرب السكان تحت جنح الظلام فقد أمر فيلقين من فيالقة بالبقاء تحت السلاح طوال الليل، والذي حصل هو أنه قبيل منتصف الليل تحرك أهالي سينابوم بصمت خارجين من المدينة وشرعوا يعبرون النهر، وتم إخطار قيصر بذلك من قبل دورياته بصمت فأشعل النار في بوابتي المدينة وأدخل إليها الفيالق التي أبقاها جاهزة للتحرك والقتال، وتم الاستيلاء على المدينة وأخذ كل أفراد العدو باستثناء قلة قليلة منهم كأسرى، وذلك لأن الطرقات الضيقة والجسر كانت مسدودة بحشود من الهاربين، وبعد نهب سينابوم وإحراقها وتوزيع ما احتوته من غنائم وأسرى على الجنود، زحف قيصر عبر نهر اللوار وشق طريقه نحو إقليم البيتوريجيين *Bituriges*.

وعند اقتراب قيصر منها رفع فيرسينجيتوريكس حصاره عن غورغوبينا وزحف لمقابلته، كان قيصر قد ألقى حصاره حول قلعة تابعة للبيتيوريجيين تدعى نوفيودونوم *Noviodunum*، واقعة على خط مسيره حينما جاء مبعوثون إليه من الحامية يلتمسون منه العفو عنهم والإبقاء على حياتهم، ولطالما كان قيصر يتقد حماساً لإتمام حملته بنفس السرعة التي بدا بها والتي عادت عليه بالكثير من النجاحات، فقد لبى لهم التماسهم ومناشدتهم وأمرهم بتجميع أسلحتهم كافة في مكان واحد وبإخراج خيولهم وبتقديم الرهائن، وكان جزءٌ من هذه الرهائن قد سُلّم، وأرسل بعض قادة المئة إلى داخل المدينة مع مجموعة من الجند لجميع السلاح، والخيول حينما بدت من بعيد طلائع الفرسان التي تتقدم الجسم الرئيسي بجيش فيرسينجيتوريكس، ولمح أهالي المدينة المحاصرون هذه القوات على الفور واعتقدوا أن هناك فرصة لخلاصهم، فأطلقوا هتافاً وأخذوا يتناولون أسلحتهم وأغلقوا البوابات وتوزعوا فوق سور المدينة، أدرك قادة المئة الموجودين داخل المدينة من خلال الهتاف والتهليل أن مكيدة جديدة جارية مجراها فاستولوا على البوابات بقوة السيف وأبعدوا عناصرهم دون وقوع أي خسائر أو إصابات، وأمر قيصر بإخراج عناصر فرسان الغاليين من المعسكر وبالاشتباك مع فرسان فيرسينجيتوريكس وحينما وجد قيصر أن فرسانه في مواجهة شيء من الصعوبة في مقارعة العدو عززها بأربعمائة فارس جرماني سبق له أن أبقاها مع جيشه منذ بداية هذه الحملة، وكان لهجوم هؤلاء الجرمان الأثر البالغ في هزيمة العدو الذي راح يعدو هرباً، بعد تراجع متواصل متكبداً خسائر فادحة بجسمه الرئيسي، واضطرت هزيمة العدو المدافعين عن نوفيودونوم إلى تغيير رأيهم مرة أخرى، فقاموا بعد ذلك وقلوبهم ترتعد خوفاً وترتجف هلعاً ورعباً بالإمساك بمن اعتبروهم مسؤولين عن إثارة الشغب ضد الرومان وساقوهم إلى قيصر

وأعلنوا استسلامهم، وبعد أن تم حسم الموقف هكذا في نوفيودونوم تقدم قيصر نحو أفاريكوم *Avaricum*، وهي مدينة كبيرة جداً ذات دفاعات قوية جداً واقعة في أخصب جزء من بلاد البيتوريجيين لأنه كان واثقاً من أن الاستيلاء عليها سيضمن له خضوع كل القبيلة.

٢- محاصرة أفاريكوم والاستيلاء عليها (٥٢ ق.م)

بعد هذه السلسلة من النكسات التي مُني بها فيرسينجيتوريكس في كل من فيلونودوم وسينابوم ونوفيودونوم دعا أنصاره إلى مجلس حرب وأخبرهم أن من الضرورة تغيير خطة حملتهم جذرياً، وقال: (يجب أن نسعى بمختلف الوسائل لنمنع الرومان من الحصول على العلف والمؤن، وسيكون ذلك سهلاً لأننا نمتلك سلاح فرسان قوي.

وهذا الوقت من العام لصالحنا فليس في الأرض عشب ليحصد وبالتالي سيضطر العدو إلى إرسال مجموعات متفرقة من قواته للحصول على القش للخيول من مخازن العلف وبإمكان فرساننا عندئذ أن تخرج كل يوم لتطوف في المكان ولا تسمح لأي منهم بالعودة حياً.

والأكثر من ذلك أنه حينما تكون حياة كل منا على خازوق ويحدق بها خطر داهم فإنه يجب علينا أن نكون متأهبين للتضحية بممتلكاتنا الخاصة، فعلى طول خط زحف العدو يجب أن نحرق كل القرى والمزارع ضمن الإطار الذي يمكن أن يغطيه الباحثون عن العلف منهم، أما بالنسبة لنا فلدينا الكثير من المؤن لأننا نستطيع الاعتماد على موارد الشعب الذي ستكون الحملة ضمن أرضه، وبالنسبة للرومان فإنهم سيموتون جوعاً أو يستسلمون لهذا السبب، وأما سيجدون أنفسهم مجبرين للتعرض لمخاطر حقيقية بابتعادهم كثيراً عن معسكرهم بحثاً عن الطعام، ويكون بمقدورنا لحظة ذلك إما قتلهم أو تجريدهم من أمتعتهم، وكلا الأمرين سيؤدي إلى نفس النتيجة وستكون له نفس الأهمية على اعتبار أنهم لن يستطيعوا البقاء في الحقول بدونها، كما وينبغي بنا إحراق كل المدن باستثناء تلك التي أصبحت منيعة بسبب دفاعاتها الاصطناعية والطبيعية، وإلا فإنها قد تستخدم بمثابة مأوى وملاجئ للمتهربين من أداء واجبهم من بين صفوفنا وتمنح العدو الفرصة للقيام بسلب مخازن المؤن والممتلكات الأخرى التي تحتويها هذه المدن. إنكم قد تتصورون أن هذه الإجراءات قاسية ووحشية لكن يجب عليكم أن تعرفوا أن المصير سيكون أشد قسوة وأشرس وحشية حينما يأخذ الرومان زوجاتنا وأولادنا عبيداً، وحينما نواجه نحن أنفسنا القتل وهو ما سيحدث حتماً في حال هزيمتنا.

وتمت الموافقة على اقتراح فيرسينجيتوريكس بالإجماع الكلي، وخلال يوم واحد أضرمت النيران بأكثر من عشرين مدينة من مدن البيتوريجيين، كما أضرمت النار في إقليم القبائل المجاورة إلى حد أنه كان بالإمكان مشاهدة النيران في كل اتجاه وعلى الرغم من أن هذا قد سبب شعوراً بالحزن الموجع للغاليين كافة، إلا أنهم وجدوا عزاءهم في فكرة أن النصر قد أصبح أمراً مضموناً من الناحية العملية، وأنهم سرعان ما سيعوضون عن خسائرهم، وفي اجتماع آخر لمجلس حرب مشترك تم التداول حول مسألة ما إذا كان ينبغي إحراق أفاريكوم *Avaricum* أم أنه يجب عدم إحراقها بحيث يتم الدفاع عنها، وركع البيتوريجيون على الأرض يناشدون ممثلي القبائل الأخرى في الاجتماع أن لا يفرضوا عليهم أن يحرقوا بأيديهم مدينة دولتهم، وقالوا إنه من السهل المحافظة عليها بالنظر لما تتمتع به من دفاعات طبيعية منيعة حيث أنها محاطة بكاملها بأحد الأنهار وبالمستنقعات وليس سوى فتحة ضيقة وحيدة تمكّن من النفاذ إليها، وتم إرضاء توسلاتهم على الرغم من أن فيرسينجيتوريكس عارض الفكرة في بادئ الأمر إلا أنه اقتنع أخيراً بسبب إلحاحهم عليه وتضرعهم له وبسبب شعور بالتعاطف معهم ساد جميع الحاضرين وتم اختيار بعض الضباط بدقة ليقوموا بالدفاع عن المدينة.

وبعد أن تتبع فيرسينجيتوريكس، وبدون مشقة وضمن مراحل غير متعجلة، خط زحف قيصر اختار لمعسكره موقعاً يبعد ستة عشر ميلاً عن أفاريكوم تحميه المستنقعات والغابات، ومن خلال تنظيمه لخدمة اتصالات متبادلة بينه وبين أفاريكوم استطاع فيرسينجيتوريكس تأمين وصول الأخبار القادمة إليه منها كل ساعة حيث كان على أثرها يعطي الأوامر اللازمة وكان متيقظاً بصورة مستمرة يراقب أي مجموعات رومانية تخرج لجمع الحنطة أو العلف للمواشي، وكان فيرسينجيتوريكس من خلال مهاجمته لهذه المجموعات وهي معزولة — لا سيما وأنها كانت مضطرة للذهاب بعيداً عن معسكرها داخل الحقول لهذا الغرض - قادراً على تكبيدها أفدح الخسائر على الرغم من أنها كانت تجرب كل السبل التي كانت تخطر على بالها لإرباكه وتحييره، إذ كانت تنطلق على طول مسالك وطرق مختلفة وبفواصل زمنية غير منتظمة.

وأقام قيصر معسكره على الجانب الآخر للمدينة حيث كانت هناك فجوة ضيقة في المستنقعات وأقنية المياه التي تحيط بأفاريكوم وشرع يبني مصاطب حصار مستخدماً صفوفاً من الحواجز الواقية، وأشاد اثنين من الأبراج فوقها على اعتبار أن طبيعة الأرض جعلت من المستحيل تطويق المكان، ولكي يؤمن مؤونة الحنطة استمر قيصر يُلح على البواويين *Boii* والايديوويين، غير أن الايديوويين كانوا فاترين تعوزهم الحماسة وقدموا عوناً ضئيلاً، بينما

لم يكن لدى البواويين وهم قبيلة صغيرة واهنة سوى موارد هزيلة لا تستحق الذكر كانت تستنزف سريعاً، ووضعت هذه المشكلة القوات الرومانية في مواجهة شدة وضيق عسيرين نتيجة عجز البواويين عن نجدتهم وإسعافهم ولا مبالاة الايديوويين وكذلك نتيجة إحراق مخازن القمح، الأمر الذي أكره الرومان على البقاء دون أي مؤونة من الحبوب لعدة أيام أنقذوا أنفسهم خلالها من الموت جوعاً بإحضارهم إلى المعسكر بعض قطعان الماشية من القرى البعيدة، لكن مع ذلك لم يتفوه أحد بكلمة غير جدير بالجندي الروماني أن يتفوه بها وهو حافل رصيده بالحملات المنتصرة، والواقع أنه حينما خاطب قيصر رجال فيالقة أثناء أدائهم لما كلفوا به من أعمال وأخبرهم أنه سيلغي فكرة الحصار إذا كانت حالة الفاقة والحرمان التي هم فيها الآن أمراً لا يمكن احتماله أو الصبر عليه، رجوه بصوت واحد أن لا يفعل ذلك قائلين إنهم قد خدموا تحت رايته لسنين كثيرة دون أن يعانوا من أي إذلال أو خزي، أو أن يُجبروا على التخلي عن تنفيذ مهمة أطلقوا أيديهم لتنفيذها، بل إنهم سيشعرون بالخزي إن هم تخلوا الآن عن الحصار وأنهم يفضلون المعاناة ومواجهة المشقات على الإخفاق في الأخذ بثأر الرومان الذين سبق لهم أن سقطوا ضحايا الغدر الغالي في سينابوم، وقالوا نفس الشيء لقادة المئة وللتريبيونات العسكريين وهم قادتهم المباشرون وطلبوا منهم نقل هذا إلى قيصر.

كانت أبراج الحصار قد حُركت لتوها قريباً من السور حينما علم قيصر من بعض الأسرى إن فيرسينجيتوركس قد تحرك، نتيجة فقدان مادة العلف لديه نحو نقطة أقرب إلى أفاريكوم وأنه هو شخصياً قد تولى قيادة الفرسان والمشاة الخفيفة الذين يقاتلون عادة مع الفرسان، كي ينصب كميناً في المكان الذي يتوقع أن يذهب إليه رجالنا في اليوم التالي من أجل العلف، وتبعاً لذلك قام قيصر بالانطلاق بصمت عند منتصف الليل وبلغ معسكر العدو عندا الصباح، إلا أنهم تلقوا من دورياتهم إشعاراً سريعاً باقترابه منهم، فخبأوا عرباتهم وأمتعتهم في أكثر الأجزاء كثافة من الغابات وصفوا كل عناصر قواتهم فوق أرض مرتفعة مكشوفة، وحينما سمع قيصر بذلك أمر عناصره على الفور بإنزال أحمالهم وتكديسها ضمن كومة في نقطة ما وتجهيز أسلحتهم.

كان للتلة التي احتلها العدو زاوية ميلان معتدلة عند السفح، كما كانت محاطة بسبخة من الصعوبة بمكان التغلب عليها رغم أن عرضها لم يكن ليتجاوز خمسة عشر قدماً، وكان الغاليون قد عطلوا كل الممرات والطرق المؤدية إلى هذه السبخة واعتمدوا على قوة الموقع الذين هم فيه ورفضوا التزحزح عن التلة، ونتيجة تنظيم عناصرهم ضمن مجموعات قبلية فقد تمكنوا من الاحتفاظ بالمخاضات والإيكات الكثيفة المحاذية للسبخة كافة،

وعقدوا العزم على التغلب على الرومان – إذا حاولوا شق طريق لهم عنوة - من خلال التوجه نحو الأسفل سريعاً لمهاجمتهم وهم منغرزين بعمق في الطين، وبانتظارهم لنا ضمن مثل هذه المسافة تقريباً بدوا وكأنهم متأهبون لخوض غمار معركة ضمن شروط متكافئة تقريباً، إلا أن موقعهم كان أقوى بكثير من موقعنا حتى إن إظهارهم لتلك الشجاعة كان من الواضح مجرد تظاهر، وكانت عناصر الفيالق في غاية استيائها وسخطها على تجرؤ العدو على مواجهتهم ضمن هذا المدى القريب فطالبوا بصخب وتذمر بإعطائهم إشارة البدء بالهجوم، غير أن قيصر وضحّ لهم كم سيكون النصر مكلفاً ضمن هذه الشروط، وكم ستكون التضحية باهظة على صعيد أعداد البواسل الذين سيفقدون حياتهم، وإنه حينما يُظهر هؤلاء مثل هذا الولاء الراسخ الثابت ويكونوا راغبين في مواجهة أي خطر في سبيله ومن أجل رفعته وشرفه فإنه سيكون مذنباً بأشد الأعمال ظلماً وجوراً إن لم يأخذ بعين الاعتبار حياة كل منهم قبل النظر إلى مصالحه الشخصية، وبعد مخاطبته لهم بهذا الشكل للتخفيف من غلوائهم وشعورهم بالإحباط قادهم عائداً إلى المعسكر في اليوم نفسه وتابع استكمال تجهيزاته لمحاصرة المدينة.

وحينما رجع فيرسينجيتوريكس إلى قواته الرئيسية أُتهم بالخيانة والغدر لنقله المعسكر، نحو نقطة أقرب إلى الرومان ولرحيله مع عناصر الفرسان كافة، ولمغادرته مثل هذا الجيش الضخم دون تكليفه لأحد بتسلم زمام القيادة العليا فيه لتكون النتيجة أن يستفيد الرومان من مغادرته المكان والقيام بتحرك سريع وخاطف ضده، وقالوا إنه لم يكن لهذا كله أن يحدث بمحض المصادفة، بل لا بد أنه قد خطط لذلك عمداً وبشكل مسبق، وأضافوا أنه من الواضح أن فيرسينجيتوريكس يفضل أن يصبح ملكاً على غاليا من خلال محاباته لقيصر وسعيه وراء استحسانه وتأييده وليس من خلال الهبة التي يمنحها إليه أبناء شعبه ومواطنو بلاده، وردّ فيرسينجتيوريكس على هذه الاتهامات قائلاً إنه قد نقل المعسكر لأنه كان بحاجة إلى علف المواشي وإنه هم أنفسهم قد ضغطوا عليه لفعل ذلك بمناشدة وإلحاح، وقد ذهب إلى نقطة قريبة من الرومان لأنه عثر على موقع مؤات للغاية تحميه العوامل الطبيعية ولا يحتاج إلى أية أعمال تحصينية،

وتابع يقول: (كنت أعرف أن سلاح الفرسان لن تكون الحاجة إليه ماسة فوق هذه الأرض المستنقعية، في حين كان هذا السلاح مفيداً جداً في المكان الذي قدته إليه، كما أنني عن عمد لم أكلف أحداً بقيادة الجيش عندما ذهبت خشية من أن الرجل الذي أختاره قد يُستحث بحماسة الصفوف ويسير إلى المعركة وذلك لأنني لمست ذلك ورأيت أنهم جميعاً راغبون

بخوض غمار المعركة لأنهم يفتقدون للتجربة العسكرية وتعوزهم الخبرة الميدانية وعاجزون عن تحمل الإجهاد المطوّل، وإذا كان وصول الرومان إلى الجيش أثناء غيابي مصادفةً فهي ضربة حظٍ قوية بالنسبة لنا، وإذا كان قد حدث ذلك نتيجة نقل معلومات من أحد الخونة فإنه عليكم أن تكونوا ممتنين له لأنه مكنكم من موقعكم المهيمن رؤية كم هي ضعيفة قواته وكم مخزٍ جبنه لطالما أنهم انسلوا إلى الخلف على نحو شائنٍ ومذلٍ باتجاه معسكرهم دون التجرؤ على خوض القتال، إنني لست بحاجة إلى أن أحصل من قيصر بالغدر والخيانة على السلطة التي أستطيع أن أضمنها بالنصر، النصر الذي هو أساساً في قبضتي ويشاركني به كل شعب غاليا، باستطاعتكم سحب أمر القيادة الذي عهدتم به إليّ إن كنتم تتخيلون بأنكم تمنحونني مِنّةً أو تصنعون لي معروفاً، في حين أنكم في الحقيقة مدينون لي بأرواحكم، ولكي أقنعكم بأن ما اقوله صحيحاً اصغوا إلى ما سيقوله هؤلاء الجنود الرومان) وما أن قال هذه الكلمات حتى أحضر بعض خدم المعسكر الروماني الذين كان قد قبض عليهم وهم في حملة للبحث عن العلف قبل بضعة أيام وقد أخضعهم لأشد أنواع التعذيب بالسلاسل والتجويع ولقنهم بدقة سلفاً الأجوبة التي عليهم إعطاؤها على الأسئلة التي سيطرحونها عليهم، فقال هؤلاء إنهم من عناصر الفيالق الرومانية وإن الجوع والعوز الذي كانوا يعانون منه أكرههم على الانسلال خارج المعسكر ليروا إن كان بإمكانهم العثور على أي كمية من الحنطة أو قطعان الماشية في الحقول، وأضافوا قائلين إن الجيش برمته واقع بنفس هذه الحالة من الفاقة، وأن الجميع قد خارت قواهم وفي غاية الإنهاك وأعجز عن القيام بأي عمل أو نشاط، وأن القائد العام قد قرر أن يرفع الحصار عن المدينة في غضون ثلاثة أيام إن لم تحدث تطورات جديدة على الموقف، فصاح فيرسينجيتوريكس بأعلى صوته حينئذ قائلاً: (هذا هو ما أنتم مدينون لي به وأنا الذي تتهمونه بالغدر والخيانة، الفضل كل الفضل يعود لي في أنكم، وبدون أن تراق قطرة دمٍ واحدةٍ من أي منكم ترون أن جيشاً عظيماً حافل سجله بالانتصارات قد تحطم إلى حدٍ كبير من خلال خطة التجويع التي رسمتها، وحينما تتم هزيمته المنكرة ويتقهقر يجر خلفه ذيول الخزي والعار فإنني سأهتم بالأمر جيداً كي لا يسمح له أي شعب من شعوب بلادنا بدخول إقليمية).

هلل المحتشدون لما سمعوه وابتهجت نفوسهم ورطموا أسلحتهم بعضها ببعض محدثين أصوات قعقعة صاخبة على نحو ما اعتاد عليه الغاليون حين استحسانهم لما يقوله أحد المحدثين، وأعلنوا أن فيرسينجيتوريكس قائد فذ وأن ولاءه وإخلاصه أرفع من أي شك، وأن ما من واحدٍ يمكنه إدارة الحملة بمهارة أكثر منه، وقرروا إرسال عشرة آلاف رجل إلى

أفاريكوم يتم انتقاؤهم من مختلف الفرق المقاتلة حيث أنهم لم يرغبوا في أن يعهدوا بالقضية القومية إلى البيتوريجيين لوحدهم لأنهم أدركوا أنهم إن يفعلوا ذلك ويتركوا البيتوريجيين ينقذون المدينة بمفردهم فإن النصر سيكون انتصارهم حصراً، لذا وانطلاقاً من فكرة مشاركتهم النصر، عزموا على إرسال هذه القوات إليهم.

ولجأ الغاليون إلى شتى أنواع الحيل والمكائد لإرباك الشجاعة الخارقة وغير العادية لقواتنا، خاصة وأن الغاليين شعب حاذق مبدع وفي غاية الذكاء الذي يمكنه من استعادة وتطبيق ما يُطرح عليه من أفكار، ومثال ذلك أنهم دفعوا بخطافات سور معسكرنا جانباً باستخدامهم حبال رُبطت في نهاياتها الأناشيط، وحينما تم تثبيتها داخل الأناشيط سُحبت باستخدام المرافع، وجعلوا مصاطبنا تسقط من خلال تقويضها بشق حفر تحتها، وهذا أمر هم خبراء فيه نظراً لما يتوفر في بلادهم من مناجم حديد واسعة الانتشار ودرايتهم جميعاً بشتى أعمال الحفر التي تجرى تحت سطح الأرض، كما أنهم طوقوا محيط دائرة السور [1] بكاملها بالأبراج المزودة بالمصاطب والمحمية بالخافيات الجلدية، وقاموا بشن غارات متكررة ليلاً ونهاراً إما بإضرام النار بمصاطب سورنا أو لمهاجمة جنودنا أثناء تنفيذهم لما أوكل إليهم من أعمال، ونظراً لأننا زدنا من ارتفاع أبراجنا بالمادة التي كانت تضاف إلى المصاطب كل يوم فقد زادوا هم أيضاً من ارتفاع أبراجهم بالمقابل، وذلك من خلال إدخالهم لطبقات جديدة بين

---

(١) كان الغاليون يبنون أبراجهم دائماً وفق الخطة التالية تقريباً: تفرش على الأرض عارضات خشبية تتباعد عن بعضها بعضاً بمسافات متساوية تبلغ قدمين، على طول كامل الخط الذي سيُبنى عليه السور وبزاوية قائمة عليه، ويتم تثبيت الواحدة مع الأخرى من هذه العوارض باستخدام دعامات أفقية طويلة تركّز فوقها عند نقطة منتصف العارضات الخشبية، ومن ثم تُغطى بكمية من الدّبش وقطع الحجارة المكسرة.

أما مسافة القدمين بين العارضات فإنها تكسى بأحجار كبيرة يتم إدخالها بإحكام فيما بينها، وعند الانتهاء من وضع المدماك الأول في مكانه ويتم تثبيته بوضع مدماك ثانٍ فوقه، وتتم المحافظة على نفس البعد بين عارضات الطبقة أو المدماك الثاني وهي قدمين لكنها ليست مرتبطة بعارضات المدماك الأول كونها تنفصل عنها بطبقة من الحجارة علوها قدمين، وبهذا الشكل فإن كل عارضة من عوارض المدماك الثاني مفصولة عن جاراتها بواسطة حجر ضخم وبالتالي فهي راسخة في مكانها بثبات، وبإضافة طبقات أخرى الواحدة فوق التي تحتها يتم رفع البناء إلى العلو المطلوب، يعطي هذا الأسلوب في البناء مظهراً أو شكلاً متبايناً جميلاً بتنوع طبقاته ما بين طبقة من العوارض الخشبية تليها طبقة من الحجارة وهكذا، وكل منها لها استقامة خطوطها وامتدادها، كما أنه متين وخدوم وفي غاية الملائمة لأغراض الدفاع عن المدن، فالحجارة الداخلة في تصميم البناء تحميه من النار، والخشب يحميه من التدمير حينما يُدك بالمنجنيق الذي لا يستطيع اختراق أو تحطيم بناء مربوط داخلياً بإحكام ومثبت بقوة بواسطة دعامات يمتد طول الواحدة منها غالباً إلى أربعين قدماً.

الأعمدة المنتصبة التي تشكل الإطار الخارجي لأبراجهم، كما أنهم شقوا دهاليز سرية تحت الأرض لاعتراض الدهاليز التي كنا نحن نحفرها باتجاه السور، ومنعونا من الاستمرار بحفرها من خلال إلقائهم للخوازيق والأوتاد الحادة إليها بعد أن تمت تحميتها فوق النار حتى درجة التوهج كي تصبح صلبة، ومن ثم من خلال رميهم للأحجار الثقيلة إلى داخلها.

لم تعق المحاصرين الرومان، وعلى نحو متواصلٍ، هذه الحيل المتنوعة فحسب وإنما اعترضتهم أيضاً أمطار مستمرة هطلت بعد ذوبان الثلوج، لكنهم استطاعوا من خلال كدٍ وكدحٍ مطردين التغلب على كل هذه العقبات، وتمكنوا في غضون خمسة وعشرين يوماً من رفع مصطبة بعلو ثمانين قدماً وبعرض مائة وثلاثين قدماً، وغدت المصطبة الآن على وشك ملامسة السور، وفي إحدى الليالي بينما كان قيصر ساهراً كعادته مع مجموعات العمل يحثهم على عدم إضاعة أية هنيهة من الزمن، لوحظ الدخان يتصاعد من المصطبة قبل منتصف الليل بقليل، فقد كان العدو قد حفر نفقاً تحتها وأضرم النار بها، وفي هذه اللحظة أطلق الغاليون صيحة ابتهاج على طول السور، وجاؤوا يتدافعون خارجين من بوابتين باتجاه كل جانب من جوانب أبراجنا، في حين قذف آخرون من مواقعهم فوق السور بالحطب الناشف وبالمشاعل المتوهجة ناراً نحو المصطبة واتبعوها بصب الزفت ومواد أخرى سريعة الالتهاب فوق المكان، وبالتالي كان من العسير على قيصر أن يقرر أي نقاط يدافع عنها وأي هجوم يواجه أولاً، لكن كانت عادته أن يبقي فيلقين من قواته في حالة من الجاهزية القصوى طوال الليل أمام المعسكر، في حين كانت أعداد أكبر من العناصر تشتغل بأعمال الحصار والتحصين ضمن ورديات متناوبة، لذا تم وبسرعة تنظيم الدفاع: فصد بعض الإغارات المعادية بينما قام آخرون بسحب الأبراج إلى الخلف وصنعوا فجوة بالمصطبة في حين سارعت بقية القوات من المعسكر لإخماد ألسنة اللهب.

وتواصل القتال في كل مكان طوال الفترة المتبقية من الليل كان أمل العدو بالنصر خلالها يتصاعد على الدوام لا سيما حينما شاهدوا أن السقائف التي تستعمل لحماية العناصر التي تقوم بتحريك الأبراج قد احترقت ولم يعد من السهل على الجنود التقدم دون غطاء لمساعدة رفاقهم، هذا بينما في صفوف العدو استمرت عناصر جديدة بالانخراط في المعركة كي تريح العناصر التي تعبت وأنهكها القتال.

وكان لدى الجميع منهم إحساس بأن قدر غاليا يعتمد برمته على ما كان يحصل في تلك اللحظة، وقدّموا أمام أبصارنا أعمالاً بطولية خارقة ومآثر بارزة وجديرة أن تذكر على حد أنني أشعر بأنه يجب عليّ عدم تركها دون أن تدوّن، كان أحد الغاليين يقف أمام إحدى

البوابات يرمي إلى ألسنة اللهب المتصاعدة قبالة أحد أبراجنا كتلاً من الشحم الحيواني والقار الذي كان يمرر إليه، أصاب هذا الغالي سهم من مرجام، اخترق الجانب الأيمن من جسده فخرّ ميتاً فأخذ غالي آخر كان إلى جانبه مكانه وصعد بقدميه على جثة رفيقه الهامدة وتابع العمل، وحينما قُتل هذا أيضاً بالمرجام حلّ محله ثالث، وهكذا من واحد إلى آخر تابعوا العمل ولم يتخل المدافعون عن الموقع إلا بعد أن تم إخماد النار فوق المصطبة وتم رد الغاليين على طول الخط بأكمله واقتربت المعركة من نهايتها.

كان العدو عند هذا الوقت قد جرّب كل حيلة وكل وسيلة لكنه أخفق فيها جميعاً ولم يحالفه الحظ بالنجاح، وقرر في اليوم التالي التخلي عن المدينة، وهو أمر حثهم فيرسينجتيوريكس على تنفيذه بإلحاح، وأرسلوا من خلال قيامهم بمحاولة التخلي عن المدينة ليلاً، حين يكون الهدوء مخيماً على الجميع، تنفيذها دون تكبد أي خسائر جسيمة فمعسكر فيرسينجيتوريكس لم يكن بعيداً كثيراً، والامتداد غير المنقطع للأراضي السبخية الواقعة بين المدينة والرومان سيعيق عملية مطاردة الرومان لهم.

وكانوا قد أعدوا العدة لتنفيذ هذه الخطة خلال الليلة التالية حينما توجهت إليهم وعلى نحو مفاجئ نساؤهم يركضن في الطرقات وقد بللت أجسامهن دموعهن، ورمين بأنفسهن عند أقدام الجنود الغاليين يتضرعن لهم: (لا تتخلوا عنا وعن الأولاد فهم أولادكم بقدر ما هم أولادنا لعدو شرس ووحشي، فنحن لا نستطيع الفرار معكم لأننا لا نملك القدرة على فعل ذلك)، لكنهن حينما وجدن أن الرجال عاقدو العزم على تنفيذ ما قد قرروه – لأن الإنسان عندما يكون في حالة من الخطر الشديد غالباً ما يهيمن عليه الفزع فلا يشعر بالشفقة – بدأن بالصراخ والعويل إيماءً للرومان وتنبيهاً لهم حول ما هو في نية رجالهم، وجعل هذا التصرف من قبل النسوة قلوب الغاليين تفيض خوفاً ورعباً اضطرهم إلى التخلي عن الفكرة، لأنهم كانوا يخشون من أن الفرسان الرومان سيكونون قد استولوا على الطرقات قبل تمكنهم من الفرار.

واستكمل قيصر في اليوم التالي أعمال الحصار التي كانت قيد التركيب والبناء وحرّك إلى الأمام واحداً من أبراجه وأخذ المطر ينهمر بغزارة شديدة فأعتقد قيصر أنها فرصة جيدة للقيام بمحاولة انقضاض على العدو، لا سيما، وأن قيصر رأى أن من كلفوهم بحراسة سور المدينة من الجنود الغاليين قد أخذوا مواقعهم فوقه بإهمال ولا مبالاة، وطلب من رجاله التوجه إلى العمل على نحو متمهل وبفتور ظاهر وشرح لهم الخطة، وتأهبت الفيالق للقتال تحت غطاء من الواقيات وفق ما كان ممكناً، وبعد أن ناشدهم قيصر أن لا يضيعوا فرصة النصر

ويحصدوا ثمرة كدهم وكدحهم التي طال انتظارها وعد بتقديم المكافآت لأولئك الذين سيصعدون إلى السور أولاً، وأعطى بعد ذلك إشارة البدء بالهجوم، فاندفع الجنود من كل الاتجاهات بشكل مباغت كالسهام وانتشروا فوق سور المدينة بلمح البصر حتى غطوه، وتم أخذ جنود العدو على حين غرة وصعقتهم المفاجأة وضرب الرعب قلوبهم فطردوا من أماكنهم فوق السور، وفي الأبراج، إلا أنهم أعادوا تشكيل صفوفهم في ساحة سوق المدينة وفي أماكن أخرى مكشوفة ضمن مجموعات على شكل اسفيني وقرروا خوض معركة ضارية ضد المهاجمين من أي اتجاه، غير أنهم حينما شاهدوا أن الرومان يحتلون كامل دائرة السور حولهم، وأن ما من رجل منهم نزل لمقابلتهم فوق أرض مستوية خافوا أن تضيع عليهم أي فرصة للنجاة بأرواحهم فألقوا بأسلحتهم أرضاً وولوا الأدبار بدون توقف حتى بلغوا أبعد زاوية من زوايا المدينة، وهناك تم اصطياد بعضهم على يد مشاتنا بينما كانوا يحتشدون باكتظاظ عند مخارج البوابات الضيقة للمدينة، في حين تم اصطياد البعض الأخر على يد فرساننا بعد خروجهم من البوابات، وما من أحد من جنودنا فكر بالحصول على المال مقابل أخذ الهاربين كأسرى بدلاً من الإجهاز عليهم، فعناصرنا جميعاً كانوا في غاية الغضب والسخط على المذبحة التي حلّت بالرومان في سينابوم ومن العمل المجهد في الحصار فلم يتركوا شيخاً عجوزاً أو امرأة أو طفلاً إلا وقتلوه، ومن مجموع سكان المدينة الذي كان نحو أربعين ألفاً أفلت فقط ثمانمائة منهم كانوا قد اندفعوا خارجين من المدينة عند أول إنذار بالخطر فنجوا من القتل وشقوا طريقهم إلى فيرسينجيتوريكس فأدخلهم فيرسينجيتوريكس إلى المعسكر بصمت عند أواخر الليل، وعلى اعتبار أنه كان يخشى أنهم إذا دخلوا المعسكر سويةً قد يتسببون بإحداث الشغب في صفوف القوات نتيجة ما قد يثيرونه من شفقة في نفوسهم، فقد ركز بعض أصدقائه الموثوقين وبعض زعماء العشائر في نقاط بعيدة عن المعسكر على طول الطريق من المدينة وأعطى لهم تعليماته لفرز الهاربين وتوزيعهم على الأجزاء المختلفة من المعسكر والتي خصصت لكل قبيلة منذ بدء الحملة.

وفي اليوم التالي دعى فيرسينجيتوريكس مجلس الحرب إلى الانعقاد وشجع اتباعه على المضي قدماً قائلاً لهم إن عليهم أن لا يكونوا مثبطي العزيمة كثيراً وأن لا يحتل الحزن نفوسهم على ما أصابهم من نكسة أليمة، وأضاف: (لم يكسب الرومان المعركة نتيجة شجاعة تفوق شجاعتنا أو نتيجة قتال عادل وإنما كسبوها من خلال معرفتهم العميقة بأعمال الحصار وفنونه، تلك المعرفة التي دلت على خبرات واسعة وتجارب كثيرة في هذا المجال، وهذه تقنية خاصة لم نكن نحن على اطلاع عليها.

كما أن من العبث أن يتوقع المرء إحراز نصر ثابت ومتواصل في الحرب، فأنا شخصياً لم أكن مع فكرة الدفاع عن أفاريكوم وباستطاعتكم أنتم أنفكسم أن تشهدوا على ذلك.

لقد كانت صفاقة البيتوريجيين ووقاحتهم والإذعان الجاهز الذي أبداه بقية المجتمعين وراء هذه الهزيمة، غير أن النجاحات التي سرعان ما سأحرزها ستعوض علينا أكثر بكثير مما فقدنا، إنني أعمل جاهداً على اجتذاب القبائل الواقعة بعيداً عنا حيث ستكون غاليا بأكملها عندئذٍ متحدة، وحينما يكون لنا جميعاً نفس الموقف وذات التفكير والهدف لا يستطيع العالم برمته الوقوف ضدنا، وقد أوشكت على النجاح في هذا الأمر، لكن ريثما يحصل ذلك، من العدالة أن تنفذوا ما أطلبه منكم من أجل سلامتنا جميعاً: حصنوا المعسكر وبذلك نستطيع بسهولة أكثر أن نقاوم أي هجوم مفاجئ يقع علينا، ولاقت هذه الخطبة قبولاً واستحساناً لدى الغاليين الذين سُروا بصورة خاصة حينما وجدوا أن فيرسينجيتوريكس لم يفقد شجاعته ورباطة جأشه بعد مثل هذه الهزيمة الأليمة التي مُني بها، وبسبب مواجهة لهم بدلاً من إخفاء نفسه عنهم، وعدوه يمتلك بصيرة نافذة وحكمة خارقة لتقدير العواقب قبل وقوعها لأنه عندما كانت لا تزال الفرصة لديهم لإنقاذ الموقف قدّم لهم النصيحة مرتين، وكانت نصائح جيدة فيما يخص أفاريكوم حيث قال في بادئ الأمر إنه يجب إحراقها، ومن ثم قال بعد ذلك إنه يجب إخلاؤها، وبذلك فإنه على خلاف غيره من القادة الذين ضعف مركزهم بسبب الإخفاق ووهن موقعهم، اكتسب فيرسينجيتوريكس سمعة عالية كانت تكبر يوماً بعد آخر بعد النكسة، وبذلك زادت آمالهم من خلال تأكيده لهم بأنه يمكن إقناع قبائل أخرى بالانضمام إليهم إلى حد أنهم بنوا معسكراً محصناً لم يحدث أن كان له شبيه في غاليا عبر تاريخها، شيئاً جديداً لم يسبق لأحر أن سمع ببناء مثله في أي مكان أخر، ولما كانت الصدمة التي تلقوها في أفاريكوم قوية وموجعة، وهم شعب لم يعتد على العمل الشاق والعناء المجهد والمضني فقد أحسوا أن الأمر يتوجب منهم إطاعة كل أمر وتنفيذ كل مطلب كان يوجه إليهم.

وحافظ فيرسينجيتوريكس على وعده ولجأ إلى كل حيلة ووسيلة خطرت على باله ليكسب موالاة وانضمام القبائل الموجودة خارج التحالف إليه، فحاول إغراء زعمائها بالهدايا وعرض المكافآت مستخدماً في ذلك عملاءه الذين اعتقد بأنهم الأنسب والأكفأ لهذه المهمة، حيث كان بعضهم أصدقاءه الشخصين من بين الزعماء، وآخرين اختارهم بسبب إمكاناتهم الفذة بالخطابة المتقنة والحديث المقنع، وتم تزويد اللاجئين الذين جاؤوا إليه بعد سقوط أفاريكوم بالأسلحة والثياب، ولكي يعيد جيشه إلى مكان عليه من القوة والمقدرة

العسكرية، والقتالية طلب فيرسينجيتوريكس التعزيزات من مختلف القبائل محدداً حصة كل منها بالدقة والوقت الذي يجب أن تصل فيه إلى المعسكر، كما أمر أن يرسل إليه كل رماة السهام الذين يمكن العثور عليهم في كلٍ من هذه القبائل – حيث كان عدد كبير جداً منهم في غاليا واستطاع فيرسينجيتوريكس بهذه الإجراءات وبالسرعة القصوى التعويض عن خسائره في أفاريكوم، وقد انضم إليه الآن توتوماتوس *Teutomatus* ملك النيتيوبروجيين *Nitiobroges*[1] وبصحبته قوة ضخمة من الفرسان جاء بها من قبيلته بالذات مع بعض المرتزقة الذين قام هو بجمعهم من أكويتانيا *Aquitania*.

٣ - نكسة رومانية في جيرغوفيا *Gergovia* عام (٥٢ ق.م)

بقي قيصر في أفاريكوم بعد سقوطها عدة أيام حيث وجد فيها كمية وافرة من الحبوب والمؤن الأخرى وبذلك كانت القوات قادرة على النهوض من حالة التعب والإرهاق التي أصابتها وسوء التغذية، وأصبح الوقت الآن قريباً من نهاية فصل الشتاء وبداية موسم الحملات، ولم يكد قيصر قد قرر الزحف ضد العدو متوخياً إجباره من خلال المناورة على الخروج من المستنقعات والغابات أو من خلال محاصرته ضمن المكان الذي هو فيه، حتى قدم إليه بعض زعماء الأيديوويين يطلبون منه المساعدة والعون في قضية طارئة وملحة، وقالوا إن الوضع خطير وفي غاية الحرج، فالتقليد الذي سارت عليه بلادهم منذ القدم هو أن ينتخبوا حاكماً واحداً يتسلم زمام السلطة العليا لمدة عام كامل، غير أن الآن هناك حاكمان يشغلان هذا المنصب، يزعم كل منهما أنه قد عين لهذا المنصب تعييناً شرعياً وقانونياً، الأول اسمه كونفيكتوليتافيس *Convictollitavis*، شاب يتمتع بثروة طائلة ومنزلة رفيعة وشخصية متميزة، والثاني كوتوس *Cotus* انحدر من عائلة عريقة في القدم وذو نفوذ كبير وعلاقات عائلية متعددة، كان أخوه فاليتياكوس *Valetiacus* قد شغل المنصب نفسه في السنة السابقة، وقد أصبحت البلاد نتيجة هذا الصراع أشبه بمعسكر مسلح فالمجلس والشعب قد انقسما في موضوع الولاء لهما، وكل منهما يدعمه ويسانده أتباعه، وفي حال استمر هذا الصراع أكثر من ذلك فإنه سيقود بصورة حتمية إلى حرب أهلية، كان السبيل الوحيد أمام قيصر لمنع حدوث مثل هذه الحرب التدخل في هذا الشأن وممارسة سلطته.

كان من غير المناسب إطلاقاً بالنسبة لقيصر أن يضطر لمغادرة جبهة القتال لكنه كان يدرك تماماً أي أضرار جسيمة قد تسببه نزاعات كهذه، فالأيديوويون قبيلة قوية جداً ترتبط

---

(١) هو ابن أولوفيكو *Ollovico* الذي منحه مجلس الشيوخ الروماني لقب (صديق).

بعلاقات وثيقة جداً مع روما، وقيصر نفسه كان قد بذل قصارى جهده لتقوية هذه العلاقات، وأظهر لهم في مختلف المناسبات كل ما من شأنه أن يدل على محبته وعطفه وتأييده، والاحتمال قوي جداً الآن أن تصل الأطراف المتنازعة إلى مرحلة المواجهة القتالية داخل البلاد، وهناك خطورة من أن يقوم الطرف الذي يحس بأنه الأضعف بينهما بطلب يد العون والمساعدة من فيرسينجيتوريكس، لذا فكر قيصر أن أولى واجباته منع وقوع مثل هذه الكارثة وعلى اعتبار أن القانون الأيووي كان لا يسمح للحاكم الرئيسي بمغادرة البلاد فقد رغب قيصر تحاشي الظهور بانتهاكه لهذه القاعدة من قواعد الدستور (من خلال إرساله خلف الحكام للمثول إمامه) وقرر الذهاب إلى هناك شخصياً، ودعا كامل المجلس والمتنازعين لمقابلته في ديستيا *Decetia*، واحتشد هناك معظم أعضاء المجلس واعلموا قيصر بأن انتخاب كوتوس *Cotus* قد أعطى على يد شقيقة فاليتياكوس الذي كان حاكماً في السنة الماضية بحضور مجرد حفنة من الناس فقط اجتمعوا معاً سراً في مكان ليس هو المكان المخصص لإجراء الانتخابات عادة وفي زمن ليس هو الزمن المخصص لذلك.

زيادة على ذلك فقد تبين أن القانون الأيديودي كان يحظر انتخاب أحد أقرباء شخص سبق له أن انتخب ولا يزال على قيد الحياة وذلك سواء لعضوية المجلس أو لمنصب الحاكمية، لذلك قام قيصر بجعل كاتوس يتخلى عن ادعاءاته ومزاعمه وطلب من كونفيكتوليتافيس الذي كان قد عين لشغل هذا المنصب دستورياً تحت إشراف الكهنة والقساوسة وفي وقت كان فيه هذا المنصب شاغراً، أن يستمر في شغل منصبه.

وبعد أن حسم قيصر المسألة على هذا النحو نصح الأيديوويين بنسيان نزاعاتهم وخلافاتهم وبعدم السماح لأي شيء أن يلهيهم عن الحرب التي غدت وشيكة الاندلاع، وقال لهم أن يتطلعوا لتلقي المكافآت التي يستحقونها منه حين استكمال فتح غاليا، وطلب منهم ريثما يحين ذلك، أن يرسلوا إليه ودون إبطاء أو تأجيل كل عناصر فرسانهم إضافة إلى عشرة آلاف عنصر من المشاة ليتم توزيعهم في أماكن مختلفة لحماية قوافله، وقام بعد ذلك بتقسيم جيشه إلى جزأين فخصصت أربعة فيالق مع قسم من الفرسان إلى لابينوس ليقودها في حملة ضد السيونين *Senones* والباريسيين *Parisii* واخذ قيصر نفسه الفيالق الستة الأخرى مع بقية عناصر الفرسان وزحف عبر بلاد الأرفيرنيين *Arverni* متوجهاً إلى جيرغوفيا متتبعاً لمجرى نهر آلير *Allier* وحينما علم فيرسيبجيتوريكس بذلك قام بتحطيم الجسور فوق النهر كافة وأخذ بالزحف على طول الضفة المقابلة، غدا الجيشان ضمن مدى رؤية الواحد منهما للآخر حيث أقام فيرسينجيتوريكس معسكراً قبالة قيصر ونشر دورياته لتمنع الرومان من إقامة جسر في أي مكان فوق النهر

يمكنهم من العبور، وبذلك وجد قيصر نفسه في موقف صعب، إذ بدا أن النهر قد يعيق تقدمه خلال معظم فصل الصيف لأن منسوب المياه فيه لا ينقص عادة قبل فصل الخريف حيث يصبح حينئذ من الممكن خوضه، ولكي يخرج قيصر من هذا المآزق الذي شكل له طريقاً مسدوداً أقام معسكراً له في منطقة غابية مقابل أحد الجسور التي حطمها العدو، ومكث هناك في اليوم التالي مع اثنين من فيالقه متسترين بينما صرف البقية كالمعتاد مع كل الأمتعة وجزأ بعض الكتائب إلى سرايا كي يجعل الأمر يبدو وكأن عدد الفيالق لم يتغير، واعطاهم الأمر بالزحف إلى أبعد نقطة يستطيعون الزحف إليها، وبعد أن منحهم ما يكفي من الزمن لبلوغ منطقة تعسكرهم التالية، شرع ببناء الجسر فوق الركام الأصلية له حيث كانت الأجزاء السفلى منه لا تزال سليمة واستكمل العمل سريعاً وعبرت الفيالق النهر، وبعد أن اختار قيصر موقعاً مناسباً لبناء معسكره استدعى إليه بقية الفيالق، ولما سمع فيرسينجيتوريكس بهذه التطورات خشي أن يكره على خوض معركة ضارية تكون الحاسمة، فتابع طريقه قدماً ضمن زحف قسري دون أي توقف للاستراحة.

وبعد خمسة أيام من الزحف بلغ قيصر جيرغوفيا حيث خاض يوم وصوله إليها معركة بسلاح الفرسان وعند فراغه منها استطلع موقع المدينة، ولما كانت المدينة متوضعةً فوق أحد الجبال العالية ومن العسير الدخول إليها من أي جانب قرر أنه لا جدوى من محاولة الانقضاض عليها وأنه من الأفضل أن لا يبدأ بضرب حصاره حولها قبل أن يؤمن مؤونته من الطعام، أما فيرسينجيتوريكس الذي أقام لنفسه معسكراً بجانب المدينة فقد وزّع فرق القبائل المختلفة حول مركز قيادته ضمن مسافات قصيرة، فاحتلوا كل المرتفعات الجبلية الواقعة ضمن مجال الرؤيا وبدا للعيان بأنهم على هذا النحو يشكلون مظهراً خارجياً مرعباً، وكان فيرسينجيتوريكس يستدعي إليه زعماء القبائل الذين اختارهم هو نفسه ليؤلفوا مجلس حربه للاجتماع كل صباح عند الفجر من أجل تبادل المعلومات واتخاذ الترتيبات، وكانت عناصر فرسانه تطلق كل يوم مع رماة السهام المنتشرة بين صفوفها للتصادم مع العدو ضمن مناوشات قصيرة بغية اختبار الشجاعة والروح القتالية لدى كل عنصر.

وبرزت مقابل المدينة عند سفح الجبل تلة شديدة الانحدار منحتها عناصر الطبيعية قوة وافرة، واعتقد قيصر أن الاستيلاء على هذه التلة سيمكن دون أدنى شك من حرمان العدو من جزء كبير من مؤونته من الماء وسيقيد حركة مجموعاته الخارجة للبحث عن العلف إلا أن هذه التلة محمية بحامية قوية، لكن قيصر استطاع بانطلاقه من المعسكر عند جوف الليل البهيم طرد الحامية من المكان قبل أن تتمكن أي نجدة من الوصول إليها من المدينة، وجعل

قيصر نفسه سيداً لهذا الموقع وركز فيه فيلقين داخل معسكر يرتبط بمعسكره الرئيسي الأكبر بواسطة خندق مزدوج يبلغ عرضه اثني عشر قدماً، وبذلك كان بإمكان العناصر المجيء إليه والذهاب منه حتى ولو فردياً دون خوف من أن يأخذهم الغاليون على حين غرة.

وبينما كانت هذه الأحداث تجري في جيوغوفيا تمت رشوة كونفيكتوليتافيس، *Convictolitavis* الأيديووي الذي حسم قيصر النزاع على منصب الحاكمية لمصلحته، على يد الأرفيرنيين ودخل بمفاوضات مع بعض شبان قبيلته الذين كان من بينهم بصورة رئيسة ليتافيكوس *Litaviccus* وأشقاؤه وهم أفراد من عائلة غاية في الشهرة والتميز، واقتسم كونفيكتوليتافيس معهم الأموال التي دفعت لهم من قبل الأرفيرنيين وطلب منهم أن يبقوا نصب أعينهم حقيقية أنهم رجال أحرار خلقوا ليحكموا أو لتكون السلطة في أيديهم، وقال لهم: لقد كان الأيديوويون هم وحدهم من أعاق إحراز النصر الغالي ولولاهم لكان النصر أكيداً، فبتأثيرهم ونفوذهم يبقون القبائل الأخرى موالية لروما، ولو أنهم يغيّرون من مواقفهم لما يتمكن الرومان من المحافظة على موقفهم في غاليا، وتابع يقول: صحيح إنني مدين لقيصر بشيء من الفضل والعرفان بالجميل – رغم أن عدالة مشكلتي كانت جلية إلى درجة أنه لم يكن بإمكانه إلا حسمها لمصلحتي – إلا أن مسألة الحرية القومية مسألة أخرى تفوق في أهميتها مثل هذه الاعتبارات، ولماذا علينا أن نناشد قيصر كي يقضي بيننا ويقرر لنا في مسائل تتعلق بحقوقنا وبتفسير مضامين قوانيننا؟ فنحن لا نتوقع منه أن يعرض علينا مسائل تتعلق بالقانون الروماني كي نعطي فيها تحكيمنا، وسرعان ما أذعن الشبان لإقناعات كونفكيتوليتافيس التي كانت ممزوجة بالفصاحة والذهب وأعلنوا بأنهم مستعدون لتولي قيادة المشروع إلا أن الطريقة لتنفيذه كانت تتطلب منهم التفكير لأنهم كانوا يدركون بأنه ليس بالأمر السهل دفع الشعب الايديووي نحو حمل السلاح ضد روما، ولذا تقرر أن يقوم ليتافيكوس بالسير على رأس العشرة آلاف رجل التي كان من المقرر أن ترسل لتعزيز قيصر بينما يُسرع اخوته رأساً إلى قيصر – وتم الاتفاق فيما بينهم على بقية البرنامج.

وحينما تولى ليتافيكوس قيادة الجيش زحف إلى نقطة لا تبعد عن جيرغوفيا سوى ثلاثين ميلاً ثم توقف وصفّ جنوده وأخذ يخطب فيهم والدموع تنهمر من عينيه: (أيها الجنود إلى أين نحن ذاهبون؟ ففرساننا جميعاً وكل قادتنا ذوي المراتب العالية قد لاقوا حتفهم، واثنان من زعمائنا – ايبوريدوريكس *Eporedorix* وفيريدوماروس *Viridomarus* قد اتهما بالخيانة وأعدما بدون محاكمة، على يد الرومان. تعلموا الحقائق من هؤلاء الرجال الذين نجوا من المسرح الحقيقي للمذبحة، إنني لا أستطيع احتمال وصف ما قد حدث بنفسي لأن اخوتي وكل

أقاربي الآخرين قد قتلوا) ثم قدم بعض الرجال الذين كان قد لقنهم بعناية ودقة ما كان عليهم قوله ودربهم على ذلك تدريباً صارماً حيث أعادوا على مسامع القوات الحكاية التي كان هو قد رواها لهم سابقاً، فقالوا إن جميع عناصر الفرسان الايديووين قد ذبحوا لأنه زعم بأنهم قد دخلوا بمفاوضات مع الارفيرنيين وإنهم هم أنفسهم قد اختبؤوا بين حشود الجنود ونجوا بينما كان الذبح لا يزال جارياً، فأطلق جميع الايديوويين على أثر ذلك صيحات غضب وسخط واستياء ورجوا ليتافيكوس أن يفكر لهم بما يجب عليهم فعله، فأجاب قائلاً: (إن الأمر لا يحتاج إلى الكثير من التفكير، فجلي جداً أنه يجب علينا الزحف مباشرة إلى جيرغوفيا والانضمام إلى الأرفيرنيين وليس إلى قيصر لنعزز قواته، فبعد مثل هذه الجريمة الشنعاء ألا يراودنا الشك في أن الرومان قد يسرعون إلى هنا لقتلنا أيضاً؟ لذا فإذا كنا نمتلك ولو ذرة واحدة من الشجاعة دعونا نثأر لهذا القتل المروع والفظيع ونبيد هؤلاء المتوحشين.

وأشار وهو يدلي بكلماته هذه إلى بعض الرومان الذين كانوا يرتحلون معه معتمدين على حمايته لهم، فقام الغاليون بتعذيبهم بوحشية وهمجية وقتلوهم ونهبوا كمية كبيرة من الحبوب والمؤن الأخرى التي كانت بحوزتهم، وبعث ليتافيكوس حينئذ رسلاً إلى كل جزء من بلاد الايديووين وهيّج الناس باستخدامه نفس الدعاية والرواية حول مذبحة الفرسان والزعماء وناشدهم الانتقام لما ارتكب بحقهم من أخطاء بفعلهم نفس ما كان هو قد فعل.

أما الغاليان اللذان زعم ليتافيكوس بأنهما قتلا فهما الآن يخدمان في فرقة من الفرسان الغاليين بعد أن وجّه لهما قيصر استدعاءً خاصاً فـ ابيوريدوريكس *Eporedorix* شاب انحدر من منبت نبيل جداً يتمتع بنفوذ قوي للغاية في بلاده وفيريدوماروس *Viridomaris* شاب بنفس السن له التأثير والنفوذ نفسه على الرغم من أن منبته أقل نبلاً من ابيوريدوريكس، كان قيصر قد رقاه من مركز اجتماعي متواضع إلى أعلى مراتب الشرف والمقامات الرفيعة، وكان كلا الشابين متنافسين على السلطة، وفي الصراع الذي نسب مؤخراً حول منصب الحاكمية كان ابيوريدوريكس مناصراً قوياً لكونفيكتوليتافيس في حين كان فيريدوماروس مناصراً لكوتوس، وحينما بلغت مسامع ابيوريدوريكس أنباء مشروع ليتافيكوس توجه إلى قيصر عند منتصف الليل ليعلمه بذلك ورجاه أن لا يسمح للخطط المضللة التي رسمتها مجموعة من الشبان الجهلة الأغرار أن تفصل القبيلة عن صداقتها مع روما، وهو أمر لا بد أن يحدث إذا التحق جيش ليتافيكوس بفيرسينجيتوريكس على اعتبار لا يمكن للسلطات القبلية أو لأقربائهم من الوقوف مكتوفي الأيدي تجاه سلامة مثل هذا العدد الهائل من الرجال.

وتشوش قيصر كثيراً بخبر أن الايديوويين ينقلبون إلى خونة غادرين على الرغم من الرعاية الخاصة التي يُغدقها عليهم والعطف والمحاباة التي اختصهم بها، فانطلق ودون أي تردد مع أربعة من فيالقة ضمن ترتيب الزحف الخفيف – أي دون الأمتعة العسكرية – وعناصر سلاح الفرسان كافة، لم يكن هناك متسع من الوقت لتصغير حجم المعسكر على اعتبار أنه في مثل هذه الأحداث الطارئة كل شيء يعتمد على التحرك السريع والمباشر، لكنه ترك فابيوس *Fabius* لحراسته مع اثنين من الفيالق وأعطى الأمر باعتقال أخوة ليتافيكوس إلا أنه وجد بأنه قد تأخر كثيراً في اتخاذ هذه الخطوة لأنهم كانوا عندئذ هربوا من المعسكر وتوجهوا إلى العدو، وبعد أن حث قيصر كل صفوف قواته نحو إطاعة الأوامر دون تذمر أو شكاية حول الزحف الوئيد والحثيث الذي تطلبه الأزمة وجعلته ضرورياً تبعوه بحماسة متقدة واندفاع لاهب، وما أن تقدم حوالي عشرين ميلاً حتى أصبح ضمن مشاهدة الجيش الايديووي، واستطاع من خلال إرساله لقوات فرسانه أمام الجيش من إجبار العدو على التوقف ومنعه من استئناف زحفه، وأعطيت الأوامر للقوات الرومانية أن لا يقتلوا أياً منهم، وطلب من ايبوريدوريكس وفيريدوماروس، اللذين اعتقد الايدوويون بأنهما قد أعدما، بالتحرك جيئة وذهاباً أمام عناصر الفرسان ومخاطبة أبناء بلادهم، وحالما تمكن الايديوويون من تمييزهما وأدركوا أن ليتافيكوس قد خدعهم مدوا أيديهم إشارة لاستسلامهم ورموا بأسلحتهم إلى الأرض وتوسلوا لمنحهم ملاذاً، وهرب ليتافيكوس إلى جيرغوفيا يرافقه خدمه: لأن العرف الغالي يعتبر تخلي الخدم عن سادتهم ولو في حالات يائسة جريمة كبيرة.

بعث قيصر برسالة إلى السلطات الايديووية يعلمها فيها بأنه بواعزٍ من شعوره بالشفقة والرحمة قد عفى عن رجالٍ تخوله قوانين الحرب وضع رقابهم تحت السيف، وبعد أن أعطى جيشه ثلاث ساعات للاستراحة انطلق إلى جيرغوفيا، لم يكد قد قطع نصف المسافة إليها حتى واجهته مجموعة من الفرسان أرسلها إليه فابيوس لتخبره بأن وضعاً خطيراً قد نشأ، حيث قال هؤلاء الفرسان إن العدو قد انقض على المعسكر بكامل قوته واستطاع استنزاف قواتنا من خلال زجه المتواصل لقوات جديدة في المعركة لتحل محل رفاقها التي كان ينهكها القتال، وقد ظلت قواتنا تواصل عملها الدؤوب فوق السور دون استراحة نظراً لكبر حجم المعسكر، وقد تلقت قواتنا رشقات من السهام وكل أنواع القذائف الأخرى، الأمر الذي نتج عنه إصابة عدد كبير من المدافعين بجراح، غير أن مدفعيتنا كانت ذات فائدة عظيمة في مساعدتهم على الاستمرار في الصمود، وانسحب العدو أخيراً من المكان وشرع فابيوس الآن بسد كل بوابات المعسكر عدا اثنتين منها وبتدعيم السور ببعض المتاريس وبالتأهب لمواجهة

هجوم مشابه في اليوم التالي، فقام قيصر على إثر ذلك بزيادة سرعة زحفه نحو المعسكر، وبذل الجنود قصارى الجهد حتى بلغوه قبل شروق الشمس.

كانت في تلك الأثناء قد وصلت أولى رسائل ليتافيكوس إلى بلاد الايديوويين ودون أي انتظار لتوكيد ما نقلته هذه الرسائل إليهم عدوا شائعة جوفاء عارية عن كل صحة حقيقية ثابتة خاصة وأن الجشع كان يستنفر بعضهم في حين أخذ الغضب والاندفاع المتهور من البعض الأخر كل مأخذ، والطيش والتهور من المزايا الواضحة جداً في أفراد وشعوب العرق الغالي، فقاموا بقتل واستعباد الرومان الذين كانوا تحت سلطتهم كافة وبنهب ممتلكاتهم، وأضاف كونفيكتوليتافيس للنار زيتاً وزاد اللهب توهجاً ودفع الناس نحو جنون مسعور على أمل أنهم إن يرتكبوا جريمة شنيعة واحدة فإنهم سيخجلون من العودة إلى العقل والحكمة ثانية، وطرد ماركوس اريستيوس *Marcus Aristius* وهو تريبون عسكري كان في طريق العودة للانضمام إلى فيلقه، من مدينة كالون سور ساون *Chalon – Sur - Saone* بعد أن وعدوه بامتياز المرور بأمان، كما أجبر التجار الرومان كافة هناك على المغادرة، ومن ثم حرض الغاليين مباشرة ليقوموا بمهاجمتهم وتجريدهم من كل ما كان بحوزتهم من أمتعة، لكن نظراً لمقاومة الرومان لهم فقد استمروا بمضايقتهم والتحرش بهم طول ذلك اليوم والليلة التالية، وحينما قتل الكثيرون من الجانبين استدعوا عدداً أكبر من أهالي بلادهم لحمل السلاح.

بلغهم في تلك الأثناء خبر أن الجيش الغالي بأكمله قد وقع تحت السيطرة الرومانية وضمن قبضة قيصر، فجاء زعماء القبائل عندئذ يجرون مسرعين إلى أريستيوس*Aristius* ليقولوا له إن الحكومة لا علاقة لها بما قد حدث.

وأمروا بتشكيل لجان للتحقيق في موضوع السرقات، وصادروا ممتلكات ليتافيكوس واخوته وأرسلوا إلى قيصر وفداً يمثلهم ليقدم الاعتذارات، كان الغرض من هذه التحركات ضمان خلاص جيشهم، إلا أن عدد الأفراد الذين تورطوا في الاعتداءات الوحشية والإساءات كان هائلاً جداً، لكن لما سلبت عقولهم الأرباح التي يمكنهم الحصول عليها مما غنموه ونهبوه من ممتلكات وإخافتهم بذات الوقت عقوبة جرائمهم أخذوا يقومون باستعدادات سرية للحرب، وأرسلوا مبعوثين للحصول على الدعم من القبائل الأخرى، كان قيصر متفهماً لذلك تمام التفهم إلا أنه أجاب الوفد بأكثر العبارات استرضائية، إذ قال لهم إنه على الرغم من جهل العامة وعدم شعورهم بالمسؤولية فإنه لا يزال يشعر بنفس النية الطيبة تجاه الايديوويين وإنه لن يحاكمهم بقسوة شديدة، لكن على اعتبار أن قيصر كان يتنبأ بوقوع ثورة واسعة الانتشار ضده وخشي أن تحاصره القبائل المتمردة شرع يفكر بطريقة ما تمكنه من الخروج

من جيرغوفيا والانضمام ثانية إلى كامل جيشه دون أن يجعل رحيله عن جيرغوفيا يبدو شبيهاً بفرار سببه الخوف من الثورة.

كان قيصر لا يزال منشغلاً بهذه المسالة حينما اعتقد بأنه قد وجد فرصة مناسبة لتوجيه ضربة موجعة للعدو، فبينما كان يتفقد جريان إنشاء التحصينات الدفاعية عند معسكره الأصغر لاحظ وجود هضبة داخل خطوط العدو مهجورة تماماً على الرغم من أنها كانت قبل ذلك تعج بهم إلى حد أن الأرض تحتهم كانت مغطاة بأقدامهم، وتحرى قيصر عن سبب هذا التطور المفاجئ لدى الهاربين إليه من صفوف العدو والذين كانوا يأتونه أفواجاً كل يوم.

وأكد له الجميع ما كان هو نفسه قد اكتشفه من دورياته، أن المرتفعات الجبلية لهذه الهضبة تشكل سلسلة مستوية تقريباً إلا أنها ضيقة ومغطاة بأشجار غابية كثيفة تمنحهم مدخلاً إلى الجانب الأخر من المدينة، وقال هؤلاء إن الغاليين في غاية القلق على سلامة هذه السلسة وإنهم متأكدون من أنهم إن يفقدوا أحد المرتفعات الأخرى إضافة إلى ذلك الذي يحتله الرومان مسبقاً فإنه سيكون من الواضح للجميع بأنهم طوقوا ولن يكون بمقدور أي منهم الإفلات أو الخروج أو حتى إرسال مجموعات للبحث عن العلف، لذلك فقد استدعى فيرسينجيتوريكس كل من هو قادر على العمل للمشاركة في تحصين هذه السلسلة من المرتفعات.

قام قيصر بناءً على ذلك وعند حوالي منتصف الليل بإرسال عدة سرايا من الخيالة في ذلك الاتجاه بعد أن أعطاهم أوامره بالتطواف السريع في شتى أرجاء المنطقة وبإحداث أكبر قدرٍ ممكنٍ من الضجيج والشغب، وعند الفجر طلب بأن يخرج من المعسكر عدد كبير من البغال وخيول الحمل، فنزع السروج عنها وأمر راكبيها بوضع خوذٍ على رؤوسهم وبامتطائها والعدو بها فوق الأرض المرتفعة متنكرين على أنهم من الفرسان، وطلب من مجموعة صغيرة من الفرسان معهم والتجول ضمن منطقة واسعة بقصد جعل العدو يشاهدهم، وبذلك تمكن الجميع من تشكيل دائرة طويلة والالتقاء فوق نفس المكان، وقد كان بالإمكان رؤية هذه التحركات من المدينة التي تتوضع في موقع يطل على المعسكر، لكن كان من المستحيل على الناظر من هناك ضمن هذه المسافة أن يفهم على وجه التأكيد ما كان يجري، وكانت الخطوة التالية إرسال فيلق وحيد على طول نفس خط المرتفعات الذي كانت عناصر الفرسان قد ذهبت خلاله، وبعد تقدم وجيز لمسافة قصيرة تم تركيزه فوق أرض واطئةٍ، متخفياً داخل إحدى الغابات، وأصبح رعب الغاليين الآن وخوفهم شديداً جداً فحولوا أفراد قواتهم كافة نحو سلسلة المرتفعات المهددّة للمساعدة في إنجاز عمليات التحصين، وعندما شاهد قيصر أن معسكرات العدو قد غدت فارغة من العناصر طلب من جنوده تغطية ريش خوذهم وإخفاء

راياتهم والتحرك عبر المكان ضمن مجموعات صغيرة – كي لا يشدوا انتباه المدافعين – من المعسكر الكبير إلى المعسكر الصغير.

وشرح قيصر خطته لجنرالاته قادة الفيالق المختلفة قبل كل شيء إلى ضرورة المحافظة على عناصرهم ضمن قبضتهم وعدم السماح لهم بالتقدم بعيداً (أكثر مما قد رسمته الخطة) تغريهم إلى ذلك حماستهم المستفيضة للقتال ويشدهم إليه أمل العثور على الغنائم، ووضحّ لهم أن موقعهم الأقل ميزة لكونه فوق أرض منخفضة يضعهم ضمن ظرف غير مؤاتٍ لا يمكن التغلب عليه إلا من خلال التحرك السريع والخاطف فقط، فالموقف هو هكذا لا لخوض معركة نظامية وإنما لشن هجوم مباغت على العدو، وأعطى قيصر بعد ذلك إشارة البدء بالتقدم، وأرسل في الوقت ذاته الايديوويين إلى أعلى الهضبة على طول طريق آخر واقع على الجهة اليمنى منها.

كانت المسافة بين أسوار المدينة والنقطة التي بدأ منها الصعود عند السهل هي أقصر الطرق، إذ لم تكن تتجاوز الميل إلا بقليل، غير أن المنعطفات التي سُلكت لتسهيل عملية الصعود زادت من طول المسافة، وكان الغاليون قد بنوا عند حوالي منتصف الطريق إلى القمة متراساً بارتفاع ستة أقدام من الحجارة الضخمة على طول محيط الجبل كان الغرض منه إعاقة أي هجوم معادٍ، وكان القسم الأسفل من المنحدر بأكمله متروكاً دون أن يشغله أحدٌ، في حين كان القسم العلوي منه الواقع بين هذا المتراس والمدينة مغطى بمعسكراتهم التي شُيّدت على مقربة شديدة من بعضها بعضاً، تقدم الرومان بعد أن أعطيت لهم الإشارة اللازمة لذلك ووصلوا بشكل خاطف إلى هذا المتراس وتسلقوه بسهولة واستولوا على ثلاثة معسكرات من معسكرات العدو، وقد تم ذلك على نحو مباغت وسريع إلى حد أن تيوتاماتوس *Teutomatus* ملك النيتيوبروجيين *Nitiobroges* أصابه الذهول وصعقته المفاجأة وهو في خيمته حيث كان يمضي قيلولته وبالكاد استطاع الإفلات من الجنود الذين دخلوا المعسكر بحثاً عن الغنيمة ممتطياً أحد الخيول الجريحة وهو عاري الصدر.

وبعد أن تم الآن إحراز الهدف الذي وضعه قيصر لخطته أمر أن تطلق الأبواق شارة العودة، فتوقف على الفور الفيلق العاشر الذي كان برفقته أما الفيالق الأخرى فلم تسمع أصوات الأبواق نظراً لوجود وادٍ شاسع يفصل بينه وبينها اعترض وصول الأصوات إلى آذانهم، غير أن التريبونات العسكريين والجنرالات بذلوا كل ما في وسعهم بناءً على أوامر قيصر لإيقافهم وكبحهم عن مواصلة تقدمهم، لكن الجنود الذين كانوا في غاية التيه والابتهاج لأمل تحقيق نصر سريع على العدو وإكراهه على الهرب ولما يحمله كل منهم من ذكريات عن

انتصاراته السابقة، اعتقدوا أن ما من شيء يصعب على شجاعتهم إحرازه، فتابعوا مطاردتهم للعناصر المعادية التي كانت تصادفهم حتى غدوا أخيراً على مقربة من أسوار المدين وبواباتها، فعلتْ صيحات عندئذ من كل مكان من حصن المدينة وحسب المدافعون المتمركزون فوق الجانب الأخر منه أن المغيرين قد أصبحوا داخله فذعروا وانتابهم الرعب لسماعهم الأصوات المزمجرة للضجيج المفاجئ واندفعوا خارجين من الحصن، أما النسوة المتزوجات فقد أخذن بإلقاء الأموال والثياب من أعلى السور إلى الأسفل وهن يتكئن فوقه بأثدائهن العارية وأيديهن الممتدة توسلاً وتضرعاً للرومان كي يعفوا عنهن ولا يقتلون النساء والأطفال وعلى نحو ما فعلوا في أفاريكوم، حتى أن بعضهن نزلن فوق السور بمساعدة رفيقاتهم كي يسلموا أنفسهن للجنود الرومان، كان لوسيوس فابيوس *Lucius Fabius* أحد قادة المئة في الفيلق الثامن، قد قال في ذلك اليوم على مسمعٍ من رجاله إنه ينوي أن يكسب مكافأة كتلك التي عرضها قيصر في أفاريكوم على من يصعد السور أولاً وقبل كل الآخرين، فطلب من ثلاثة عناصر في سريته رفعه، وتسلق إلى قمة السور، ومن ثم سحب خلفه بقية العناصر الأخرى واحداً تلو واحد.

كان الغاليون الذين احتشدوا عند الجانب الأخر من المدينة للقيام ببناء التحصينات الدفاعية قد سمعوا في تلك الأثناء صياح الناس وصراخهم واهتياجهم، وكان قد تم تبليغهم بواسطة رسل جاؤوا إليهم ضمن مجموعات متتالية بأن المدينة قد أصبحت بيد الرومان راحت عناصر فرسانهم تعدو نحو المدينة ومن ثم تلاها عناصر مشاتهم كافة الذين تدافعوا يتراكضون خلفهم، وحالما كان الواحد منهم يصل إلى المكان يتخذ لنفسه موقعاً تحت الأسوار وبذلك ازداد حجم الصفوف انتفاخاً وضخامة، وما أن اجتمعت جمهرة عريضة منهم هناك حتى أخذت النسوة اللاتي كن قبل قليل يمددن أيديهن متضرعين إلى الرومان للإشفاق عليهن بمناشدة أبناء بلادهن والتوسل إليهم متكئين فوق السور بشعورهن المتروكة طليقة على الطريقة الغالية وبإظهار أولادهن من فوق السور كي يجعلن الرجال يشاهدوهم، كان القتال بالنسبة للرومان غير متكافئ فالموقع كان ضدهم بقدر ما كانت أعداد العدو الضخمة ضدهم أيضاً، فبعد أن أرهقهم السير سريعاً نحو أعلى الهضبة والقتال الطويل وجدوا أنه من العسير عليهم الصمود في وجه قوات كانت تتجدد باستمرار.

ولما رأى قيصر أن رجاله في غاية الضيق والإنهاك وهم يقاتلون فوق أرض غير مؤاتية ويتصدون لمجموعات معادية تتزايد على نحو متواصل أصبح قلقاً على سلامتهم فبعث بأوامره إلى تيتوس سيكستيوس *Titus Sextius* القائد الذي ترك مسؤولاً عن المعسكر الصغير، ليقود كتائبه خارج المعسكر على الفور ويمركزها عند سفح الهضبة مقابل الجناح الأيمن

للعدو حيث يستطيع تغطية انسحاب الفيالق – إذ رآها قد طردت من مواقعها – من خلال ترعيبه لمن سيقوم بمطاردتها وإكراهه على وقف مطاردته، كما حرّك قيصر فيلقه إلى موقع متقدم قليلاً حيث هناك أخذ ينتظر ما سيسفر عنه القتال.

كان القتال لا يزال على أشده والضراوة فيه خارقة، وكان الاشتباك ملحمياً – حيث اعتمد الغاليون على تفوقهم العددي والموقع المناسب في حين اعتمد رجالنا على ثقتهم بشجاعتهم لتساعدهم على المواجهة حتى النهاية – حينما ظهر عند الجناح الأيمن لقواتنا وعلى نحو مفاجئ الايديوويون الذين كان قيصر قد أرسلهم إلى أعلى الهضبة سالكين طريقاً أخر على الجانب الأيمن للهضبة بقصد تضليل العدو، ونظراً لتشابه أسلحتهم بأسلحة العدو فقد أحس جنودنا برعب قاتل لأنه على الرغم من أنهم كانوا قادرين على رؤية أن من كان يدخل المعركة من العناصر الجديدة كان يبقي كتفه الأيمن مكشوفاً – وهي شارة اتفق عليها الغاليون دائماً لتمييز العناصر الصديقة – إلا أنهم تخيلوا أن هذه كانت حيلة استخدمها العدو لخداعهم، وحدث في اللحظة ذاتها أن قائد المئة فابيوس والآخرين الذين كانوا قد تسلقوا معه إلى أعلى السور قد حوصروا وقتلوا وألقي بأجسادهم إلى الأسفل، وماركوس بيترونيوس *Marcus Petronius* وهو قائد مئة آخر تابع للفيلق نفسه، حاول اقتحام البوابة إلا أن حشداً من المهاجمين غمره من كل النواحي فأدرك أن مصيره الموت المحتوم لا سيما وأن جسمه كان من قبل مغطى بالجراح فراح ينادي رجال سريته الذين تبعوه بأعلى صوته قائلاً: (إنني لا أستطيع إنقاذ نفسي وإنقاذكم. إنها خطيئتي. إنني جررتكم إلى هذه الزاوية الميتة لأنني كنت تواقاً لفعل ما قد يميزني، لذا فإنني على الأقل سأساعدكم على الخروج من هذه الزاوية سالمين، الآن هي فرصتكم فاهتموا بأنفسكم)، وما كاد ينتهي من هذه الكلمات حتى أغار على منتصف حشد المعتدين وقتل اثنين منهم واجبر البقية على الانكفاء نحو الخلف بعيداً قليلاً عن البوابة، كان رجاله لا يزالون يحاولون إنقاذه فصاح بهم قائلاً: (لا نفع ولا فائدة من محاولتكم إنقاذي لقد فقدت الكثير من الدم ولم تعد لدي أية قوة أو طاقة على التحمل، انطلقوا حينما تأتيكم الفرصة إلى ذلك وفروا عائدين إلى فيلقكم) وتابع القتال حتى خر ميتاً بعد لحظات قليلة من ذلك، إلا أنه استطاع أن ينقذ رجاله.

على الرغم من أن الهجمات المعادية كانت تضايق قواتنا من كل جانب إلا أن رجالنا استمروا بالمحافظة على موقعهم حتى فقدوا ستة وأربعين قائداً من قادة المئة، وحينما أكرهوا أخيراً على التقهقر إلى الخلف أخذ الغاليون بمطاردتهم من غير شفقة، غير أن الفيلق العاشر تمكن من كبحهم، وهو الفيلق الذي تركز بناءً على تعليمات قيصر فوق أرض مستوية

تقريباً في الجهة الخلفية للهضبة، وكان الفيلق العاشر بدوره معززاً بكتائب الفيلق الثالث عشر، تحت قيادة سيكستوس *Sextius* التي تحركت بعد أن تركت المعسكر الصغير نحو أرض أكثر ارتفاعاً بقليل، وحالما بلغت القوات الرومانية السهل توقفت جميع الفيالق وأعيد تشكيلها لمواجهة العدو، وسحب فيرسينجيتوريكس قواته من سفح الهضبة وقادها إلى داخل تحصيناته وبلغت خسائره في هذه المعركة قرابة سبعمائة رجل.

وفي اليوم التالي صف قيصر قواته وأنبهّم بقسوة على طيشهم وتهورهم وقال لهم إنهم اتخذوا قرارهم بأنفسهم دون العودة إلى قادتهم بالتقدم إلى نقطة أبعد مما رسمته الخطة ومهاجمة المدينة دون التوقف حينما أعلنت الأبواق شارة التراجع ودون إطاعة التريبونات العسكريين والقادة الذين حاولوا جاهدين كبحهم، وأكد قيصر في حديثه معهم على سلبية الموقع غير المؤاتي للقتال شارحاً لهم الدوافع التي أملت عليه تصرفه في أفاريكوم حينما فضّل أن يضحي بأحد انتصاراته على أن يتكبدوا خسائر طفيفة من خلال القتال فوق أرض غير مناسبة للقتال، على الرغم من أنه قد فاجأ العدو بدون سلاح فرسانه وفي غياب قائده عنه، وتابع يقول: (إنني معجب أشد الإعجاب بالبطولة التي أظهرتموها في رفضكم أن يثبط عزيمتكم معسكر محصن أو جبل شاهق أو حصن مسوّر، إنني لا أستطيع أن أشجب بقوة سوء انضباطيتكم أو وقاحتكم في التفكير بأنكم تعرفون أكثر من قائدكم العام كيف تكسبون النصر أو كيف تتنبؤون بنتائج المعارك، إنني أريد الطاعة من جنودي وضبط النفس بقدر ما أريد منهم شجاعة وبسالةٍ في مواجهة الأخطار).

واختتم قيصر حديثه هذا بعبارات تشجيعية قائلاً لجنوده أن لا ينزعجوا من نكسة كانت نتيجة لسوء الموقع القتالي ولم تكن أبداً نتيجة لكفاءة العدو القتالية.

وعلى اعتبار أن قيصر لم يغير رأيه فيما يتعلق بتفضيله الانسحاب فقد قاد فيالقه عندئذ خارج المعسكر وشكلها ضمن خط المعركة فوق موقع قوي إلا أن فيرسينجيتوريكس ظل داخل تحصيناته رافضاً النزول إلى السهل، وبعد عدة مناوشات بسلاح الفرسان كانت نتيجتها لصالح الرومان زحف قيصر بجيشه عائداً إلى المعسكر، وبعد أن أبدى للعدو استعداده ورغبته في القتال مرة أخرى في اليوم التالي، قرر قيصر أنه قد فعل ما يكفي لإذلال غرور الغاليين واسترجاع ثقة قواته بأنفسهم فشرع لذلك برحلةٍ إلى بلاد الايديوويين واستمر العدو، مع ذلك، داخل تحصيناته ولم يجرؤ أحد منهم على اللحاق بهم، ووصل قيصر في اليوم الثالث لمسيره إلى نهر آلير *Allier* وأصلح جسراً كان محطماً وزحفت قواته فوقه إلى الطرف الأخر.

٤ - هزيمة فيرسينجيتوريكس في حرب مكشوفة عام (٥٢ ق.م)

عند نهر آلير *Allier* طلب الايديوويان فيريدوماروس *Viridomarus* وايبوريدوريكس *Eporedorix* مقابلة قيصر حيث أعلماه بأن ليتافيكوس *Litaviccus* قد ذهب مع قوة الفرسان الغالية بأكملها ليحاول تضليل الايديوويين عن ولائهم للدولة الرومانية، وقالا له إنه من الضروري جداً أن يكونا هناك قبل وصول ليتافيكوس للمحافظة على ولاء القبيلة، كان لدى قيصر عند هذه المرحلة الكثير من الدلائل والبراهين على غدر الايديوويين وخيانتهم، وكان متأكداً من أن نتيجة السماح لهذين الرجلين بالذهاب ستكون جعل الايديوويين يثورون عاجلاً وضمن وقت أقصر، لكنه فكر أن من غير الحكمة منعهما من الذهاب كي لا يتهم بأنه قد تصرف كما يتصرف الطاغية المستبد وكي لا يعطي انطباعاً بأنه يخشى فعل ذلك، وقبل أن غادرا أعاد إلى ذاكرتهما باختصار الخدمات الجليلة التي كان قيصر قد قدّمها للايديوويين: فذكرهم بأي حالة واهنة كانوا حينما حثهم إلى التحالف معه وكيف كانوا محبوسين في قلاعهم، منتزعة أراضيهم محرومين من كل حلفائهم، ومجبرين على دفع الجزية والخضوع للمطالب المذلة فيما يخص تقديمهم للرهائن، وذكرهم أيضاً أنه لم يعدهم إلى سابق عهدهم فحسب وإنما رفعهم إلى مستوى عالٍ من الرفاهية والازدهار وزاد من هيبتهم واحترام الآخرين لهم وعزز سلطتهم على نحو لم يسبق لهم أن وصلوا إليه، وطلب منهما نقل هذا بدورهما إلى أبناء بلادهما، ومن ثم أذن لهما بالرحيل.

كانت تتوضع فوق نهر اللوار *Loire* وضمن موقع إستراتيجي مدينة ايديووية تدعى نوفيودونوم *Noviodunum* كان قيصر قد أرسل إليها الرهائن التي تسلمها من مختلف القبائل الغالية وكانت فيها كل مخازن حبوبه والاعتمادات المالية العامة إضافة إلى قسم كبير من أمتعته الشخصية وأمتعة قواته، علاوة على عدد كبير من الخيول التي كان قد اشتراها من إيطاليا وإسبانيا لتستخدم في الحرب، وما إن بلغ ايبوريدوريكس وفيريدوماروس هذه المدينة حتى سمعا بآخر الأخبار حول الايديوويين: إن ليتافيكوس قد استقبل في بيبراكت *Bibracte* وهي أكثر المدن الايديووية أهمية، وأنه قد جاء لزيارته ونفيكتوليتافيس، الحاكم الأول، مع مجموعة ضخمة من أعضاء المجالس الايديووية، وأن سفارة رسمية قد أرسلت إلى فيرسينجيتوريكس لعقد معاهدة سلام، وتحالف معه، واعتقد الايديوويون أن هذه فرصة جيدة عليهم أن لا يضيعوها سدى، فقاموا تبعاً لذلك بذبح حامية نوفيودونوم والتجار الرومان المقيمين فيها وتقاسموا الأموال والخيول الموجودة فيها، وأخذوا كل الرهائن التي كانت فيها

إلى الحكام في بيرآلت، ونقلوا منها أكبر كمية ممكنة من الحبوب – بقدر ما سمح لهم أن ينقلوا – وحمّلوها في القوارب وألقوا بما تبقى منها في النهر أو حرقوه، أما بالنسبة للمدينة نفسها فقد اعتقد الايديوويون أنه ليس في وسعهم السيطرة عليها أو الاحتفاظ بها فقاموا بحرقها كي لا تعود بأي نفع على اليونان، ثم بدأوا يجمعون قوات مقاتلة من القبائل المجاورة وركزوا بعض الكتائب ومفارز الطوارئ على طول نهر اللوار *Loire* وقاموا بعروض قوة واستعراض عضلات هنا وهناك مستخدمين سلاح فرسانهم لترهيب الرومان، وتوخوا من خلال ما فعلوه إما إماتة الرومان جوعاً أو إكراههم على الانسحاب نحو المقاطعة الرومانية تحت وطأة المجاعة، ومما جعل هذا الأمل يتعاظم لديهم حالة فيضان النهر نتيجة ذوبان الثلوج، الأمر الذي يجعله صعب الاجتياز على أي مخلوق كان.

قرر قيصر أن يتصرف على نحو من السرعة العالية، فإذا كان عليه بناء الجسور فإن المعركة قد تُفرض عليه، وبهذه الحالة فمن الأفضل خوض القتال مع العدو قبل أن تصله التعزيزات، وكان البديل الوحيد لذلك تغيير خطة حملته برمتها والانسحاب إلى المقاطعة الرومانية، وهو أمر اعتقد بعض ضباطه الذين عمّ الرعب قلوبهم أن لا مجال لتجنبه.

لكن كانت هناك أسباب كثيرة لعدم التصرف على هذا النحو، فهو بالدرجة الأولى تصرف ينم عن إذلال وخزي ويتضمن الكثير من الحط من الكرامة، ومن ثم قيادة الجيش فوق الطرق المتوفرة في جبال السيفينس *Cevennes* للوصول إلى المقاطعة الرومانية كانت أمراً عسيراً، وفوق كل ذلك كان قيصر في غاية القلق على الفيالق التي تركت تحت قيادة لبينوس *Labienus* الذي تفصله عنه مسافة بعيدة، وبناءً على ذلك، قام قيصر بسلسلة من الزحوفات الطويلة غير العادية، كانت تتواصل ليل نهار، وفاجأ الجميع بالظهور على ضفة نهر اللوار، ووجدت عناصر الفرسان مخاضةً جديدة عبر النهر يمكن استخدامها في مثل هذه الحالات الطارئة، حيث كان كل ما هو مطلوب من الرجال العابرين أن يظلوا قادرين على إبقاء أكتافهم وأيديهم فوق سطح الماء كي يحملوا متاريسهم وأسلحتهم، واحتشدت عناصر الفرسان على طول عرض النهر وضد تيار المياه كي تخفف من قوة التيار وتسهل عملية عبور القوات للنهر.

ولطالما أن ظهور قيصر فوق ضفة اللوار على نحو مفاجئ هبّط من عزائم العدو وأفقده صوابه وشجاعته فقد تمت عملية العبور دون أي خسائر وبعد أن تم تزويد الجيش ببعض مؤن الحبوب وبكمية من قطعان الماشية عثر عليها في الحقول المجاورة تابع قيصر زحفه نحو بلاد السنونيين.

كـان لابينـوس في تلـك الأثنـاء قـد تـرك فرعـة الجنـود الأغـرار الـذين وصـلوا مـؤخراً مـن إيطاليـا في أجيـدنيكوم *Agedincum* لحمايـة الأمتعـة وانطلـق مـع فيالقـه الأربعـة إلى لوتيشـيا *Lotetia*، وهي إحدى مدن الباريسيين *Parisii* تتوضع جغرافياً فوق جزيرة في نهر السين *Seine* وحينما علم الغاليون بقدومه قاموا بجمع قواتٍ جبارة من القبائل المجاورة سلمت قيادتها العليا إلى أحـد الأوليركيين *Aulercan* يـدعى كـامولوجينوس *Camulogenus* الـذي تم اسـتدعاؤه مـن معتزله على الرغم من ضعفه وكبر سنه، لشغل هذا المنصب الرفيع لمعرفته الفذة التي لا تضارع في فنون الحـرب، ولاحـظ كـامولوجينوس وجـود سـبخة تمتـد لمسافة طويلة تتفـرغ أخيراً في نهـر السـين وتجعـل رقعـة واسـعة مـن الأرض متعـذرة الاجتيـاز، أقـام معسـكراً لـه بجانبهـا وتأهـب لمنـع القوات الرومانية من عبورها، حاول لابينوس أولاً وقبل كل شـيء وتحت غطـاء مـن الواقيـات شـق مسلكٍ له عبر السبخة على قاعدةٍ من حزم العيدان الطويلة والمواد الأخـرى، لكنـه بعـدما وجـد أن ذلـك في غايـة الصـعوبة غـادر معسـكره بصـمت بعـد منتصـف الليـل بقليـل وعـاد أدراجـه إلى ميتلوسيدوم *Metlosedum*، إحدى مـدن السينونيين واقعة، مثلها مثل لوتيشـيا، فـوق جزيـرة في نهر، استولى على قرابة خمسين قارباً ثبتها مع بعضها بالحبال والسلاسـل ليشـكل جسـراً وأرسـل بقواته فوقها إلى الجزيرة، أصيب ما تبقى من السكان فيها بـالهلع الشـديد (لأن الكـثيرين منهم كانوا قد استدعوا للحرب) بسبب هذا الهجوم غير المتوقع وسلّموا المكان دون قتال أو مقاومة.

بعد أن قام لابينوس بإصلاح جسرٍ كان العدو قد حطمه مؤخراً عبر إلى الضفة اليمنى من النهر وزحف نحو أسفل النهر إلى لوتيشيا، وأقام لنفسه معسكراً بجانبها.

وعلـم العـدو بـذلك مـن خـلال الفـارين مـن ميتلوسـيدوم فأصـدر أوامـره بـإحراق لوتيشـيا وتدمير الجسر، ومن ثم تحرك مـن موقعـه بجانـب السـبخة وأقـام لنفسـه معسـكراً علـى الضـفة اليسرى للنهر مقابل لابينوس.

كـان النـاس عنـد هـذا الوقـت قـد اخـذوا يتنـاقلون مـا مفـاده أن قيصـر قـد تـراجع مـن جيرغوفيا، وكـانت الشائعات تنتشر حول العصيان المسلح للايديوويين ونجاح الانتفاضـة الغاليـة العامـة، وقـال الغـاليون الـذين دخلـوا بحـديث مـع بعـض الجنـود الرومـان أن قيصـر قـد مُنـع مـن متابعة زحفه عبر نهر اللوار وأجبرته المجاعة على التقهقر إلى المقاطعة الرومانية، وشجعت أخبار التمرد الايديووي البيلوفاسيين الـذين كـانوا أساسـاً يفكـرون ملياً بـالثورة ويعتزمـون نقلـها إلى الحيز العملي، على تعبئة قـواتهم والتأهـب للحـرب متخـذين اسـتعداداتهم المكشـوفة لخوضـها، ووجد لابينوس أن عليه الآن بعد أن تغيّر واقع الحال كثيراً إعادة النظر بخططه بصورة شاملة، فلم تعـد لديـه الآن أي فكـرة أو نيـة للقيـام بالفتوحـات، أو بـأي عمليـات هجوميـة حيـث أصـبح

شغله الشاغل وجل اهتمامه منصباً على موضوع إعادة الجيش سالماً إلى أجيدينكوم *Agedincum* فها هم البيلوفاسيون يتهددونه من جانب، وهم من ذاع صيتهم على أنهم أبسل المقاتلين وأشدهم جسارة وجرأة في غاليا، وها هو مولوجينوس يتهدده من جانب أخر وقد تجهز بجيش حسن العدة والعتاد ومستعد لخوض غمار الحرب، أما فيالق لابينوس فهي معزولة عن قواتها الاحتياطية وأمتعتها بواسطة نهر كبير، أدرك لابينوس وهو في مواجهة هذه العقبات الهائلة، والتي برزت على نحو مباغت، أن خلاصه الوحيد لا يمكن أن يكون إلا بالشجاعة الأكيدة والعزيمة التي لا تنثني والإقدام الموطد بالتصميم، فجمع ضباطه عند المساء وحثهم على تنفيذ أوامره بكل دقة وعناية ونشاط، وعين لكل قارب من القوارب التي أحضرها من ميتلوسيدوم *Metlosedum*، فارساً رومانياً ليكون مسؤولاً عنها وأمرهم بالتحرك بصمت لمسافة أربعة أميال باتجاه أسفل النهر عند أول الليل وانتظره هناك واختار لحراسة المعسكر الكتائب الخمس التي اعتبرها أقل قدرة على مواجهة غمار الحرب، وطلب من الكتائب الخمس المتبقية من الفيلق نفسه المتوجه نحو أعلى النهر مع الأمتعة كافة بعيد منتصف الليل وطلب منها أيضاً أن تقوم بذلك محدثة أكبر قدر ممكن من الصخب والضجيج والفوضى، كما أنه كلّف مجموعة من القوارب الصغيرة أن تذهب في الاتجاه نفسه وبأقصى سرعة محدثةً أصواتاً مرتفعة لتحريك المياه بواسطة مجاذيفها، في حين تحرك هو آنئذ وبهدوء حذر خارج المعسكر مع الفيالق الثلاثة الأخرى وزحف نحو أسفل النهر إلى النقطة التي كان قد أمر أسطول قواربه الصغير أن يتواجد فيها.

وأخذت دوريات العدو المركزة على طول النهر على حين غرة، وتم القضاء عليها، لا سيما وأن عاصفة هوجاء غطت تقدم الفيالق، وعبرت عناصر الخيالة والمشاة النهر باستخدام القوارب تحت إشراف الفرسان الذين كانوا مسؤولين عنها، وتلقى العدو قبل الفجر تقارير عديدة وصلت إليه في الوقت نفسه تقريباً مفادها أنه كانت هناك جلبة وفوضى غير طبيعية في المعسكر الروماني وأن قوة ضخمة كانت تزحف نحو أعلى النهر وأن صوت المجاذيف كان مسموعاً من الاتجاه نفسه وأن مجموعة من الجند قد عبرت النهر بالقوارب عند أسفله بقليل.

وجعلت هذه الأنباء العدو يعتقد بأن الرومان كانوا يعبرون النهر من ثلاثة أماكن مختلفة ويعدّون العدة لانسحاب عام وشامل خوفاً من الثورة الاتيديووية، ولذلك قسّموا قواتهم إلى ثلاثة أقسام قسمٌ بقي للحراسة مقابل المعسكر الروماني، وأرسلت قوة صغيرة باتجاه ميتلوسيدوم معطاة الأوامر بالتقدم نحو أعلى النهر للمسافة التي كانت قد ذهبت إليها القوارب في حين تقدمت بقية القوات لمواجهة لابينوس.

كانت الفيالق الرومانية الثلاثة قد فرغت من عملية عبور النهر عند الفجر وأصبحت على مرأى من العدو، واستحث لابينوس رجاله ليتذكروا سجلهم الطويل الحافل بالشجاعة والانتصارات الرائعة التي كانت دائماً مشرفة ومثيرة للإعجاب، وطلب منهم أن يضعوا نصب أعينهم أن قيصر الذي قادهم دوماً إلى النصر موجود معهم بشخصه، وأعطاهم بعد ذلك شارة البدء بالهجوم، وتمكن عناصر الفيلق السابع المتمركزة على الجناح الأيمن من دفع العدو إلى الخلف عند الهجوم الأول وجعلته يولي الأدبار، وعلى الجناح الأيسر حيث كان الفيلق الثاني عشر يقف للعدو بالمرصاد تم قتل عناصر صفوف العدو الأمامية أو إقعادها عن القتال بواسطة القذائف لكن الباقين منهم أظهروا مقاومة صلبة وعنيدة، وكان من الواضح أن ما من فردٍ منهم كان يفكر بالفرار، وكامولوجينوس نفسه كان هناك يحمّس رجاله ويشجعهم على مواصلة القتال واستمر الموقف متعادلاً لبعض الوقت إلى أن ظهر الفيلق السابع عند مؤخرة العدو وأخذ يهاجم بعد أن كان تريبيوناته العسكريون قد تلقوا تقريراً حول ما كان يجري في الجناح الأيسر، لكن حتى هذه المرحلة من القتال لم يترك غاليٌّ واحدٌ موقعه فتم تطويقهم وقتلهم بما فيهم كامولوجينوس، أما الكتيبة التي تركت لتقوم بالحراسة مقابل معسكر لابينوس فقد تحركت لتقديم العون بعد أن سمعت بأن معركة كانت تدور رحاها بين الطرفين واحتلت إحدى التلال.

غير أنها لم تستطع الصمود في وجه الرومان الظافرين، فانضمت إلى رفاقها الهاربين. وكل من لم يتمكن منهم من الإفلات نحو الغابات أو التلال تم قتله على يد عناصر الفرسان الرومان، وما أن أتم لابينوس هذه العملية حتى عاد إلى أجيدينكوم حيث كان قد ترك أمتعة جيشه كافة، وانضم بعد ذلك إلى قيصر مع كل الفيالق التي كانت تحت لوائه.

كان ارتداد الايديوويين عن ولائهم للسلطة الرومانية إشارة لامتداد أوسع للحرب، فأرسلوا السفارات إلى كل جزء من غاليا واستخدموا نفوذهم وهيبتهم وأموالهم لاستحثاث القبائل للانضمام إليهم، ومنحهم استيلاؤهم على الرهائن التي كان قيصر قد تركها في عهدتهم وسيلة أخرى لممارسة ضغطهم على القبائل:

فمن خلال تهديدهم بقتل هؤلاء الرهائن استطاعوا ترهيب القبائل التي كانت لا تزال مترددة حول الانضمام إليهم، وطلبوا من فيرسينجيتوريكس أن يقوم بزيارتهم وترتيب خطةٍ لحملتهم، وحينما لبى دعوتهم وجاء إليهم طالبوا أن تكون القيادة العليا للحملة بأيديهم، غير أن فيرسينجيتوريكس رفض مطلبهم هذا ودعا جميع زعماء القبائل الغالية لعقد اجتماع عام

في بيبراكت، وكان الحضور شبه كامل إذ جاء للاجتماع زعماء القبائل من مختلف البلاد[1] وأحيلت مسألة قيادة الحملة للمجتمعين بغية اتخاذ قرار بهذا الشأن فأكدوا بالإجماع تعيين فيرسينجيتوريكس لشغل هذا المنصب، وكان رفض مطلب الايديوويين بتسلم قيادة الحملة بمثابة خيبة أمل كبيرة جعلتهم يشعرون بإحباط مرير ويائس، وأدركوا الآن بأي حال أسوأ قد اصبحوا، وندموا على رميهم عرض الحائط بصداقة قيصر، إلا أنهم الآن وبعد أن أعلنوا الحرب عليه لم يعد بمقدورهم التجرؤ على التخاصم مع بقية القبائل، ولذا كان تلقي ايبوريدوريكس *Eporedorix* وفيريدوماروس *Viridomarus* للأوامر من فيرسينجيتوريكس وهما الشابان اللذان يُعِدان نفسيهما بانتظار مستقبل عظيم باهر، فيه الكثير من الحقد والنفور والكراهية والامتعاض.

وطلب من مختلف القبائل إرسال رهائن إلى فيرسينجيتوريكس ضمن وقت محدد، ووجهت الأوامر إلى جميع عناصر الفرسان، وكان عددهم خمسة عشر ألفاً، بالتجمع في بيبراكت حالاً، وقال إنه سيكتفي بعناصر المشاة التي كانت لديه في الحملة السابقة وأنه لن يثير القدر بخوضه معركة التحامية ضروس مع العدو فبقوات الفرسان الضخمة التي لديه سيكون من السهل تماماً منع الرومان من الحصول على الحنطة والعلف، واختتم حديثه بالقول: (إن كل ما عليكم فعله هو إتلاف محاصيل حنطتكم بدون أي تردد، وحرق مخازن حبوبكم مدركين تمام الإدراك أن هذه التضحية ستجعلكم بشراً أحراراً إلى الأبد وحكاماً للآخرين) وطلب بعدئذ من الايديوويين والسيجوسيافيين *Segusiavi* - وهم قبيلة تقطن على حدود المقاطعة الرومانية – تقديم عشرة آلاف عنصر مشاة وضعت بالإضافة إلى ثمانمائة فارس تحت قيادة شقيق ايبوريدوريكس اختيرت لمهاجمة الألوبروجيين *Allobrooges* لكن فيرسينجيتوريكس وبذات الوقت حاول إغراء الالوبروجيين للتخلي عن ولائهم للسلطة الرومانية من خلال إرساله لهم عملائه السريين ومبعوثيه الذين عرضوا الرشاوى على زعمائهم ووعدوا رجال القبيلة بجعلهم حكاماً على كامل المقاطعة الرومانية، وكان فيرسينجيتوريكس من خلال فعله ذلك؟، يأمل أن تكون ذكرى هزيمة الألوبوجيين الأخيرة على يد الرومان عام (٦١ق.م) لا تزال تعتمل في نفوسهم وأذهانهم ملتهبةً إياها بالضغينة والحقد وأرسل باتجاه أخر الجبليين *Gabali* والعشائر الأرفيرنية *Arverni* والقاطنة في أقصى الجنوب

---

(١) كان الريميون *Remi* واللينجونيون *Lingones* هم من تغيب بشكل رئيسي عن الاجتماع في بيبراكت حيث ظلوا ملتزمين بتحالفهم مع روما، والتريفيريون *Treveri* الذين بقيوا على الحياد طوال الوقت لأنهم كانوا بعدين جغرافياً عن مسرح الأحداث ويتعرضون لإغارات ومضايقات الجرمان لهم بصورة مستمرة.

الغـالي لمهاجمـة الهيلفـيين *Helvii* بينمـا كلـف الروتينيـون *Ruteni* والكادورسـيون *Cadurci* بتـدمير بـلاد الفـولكي آريكوميسـيين *Volcae Arecomici* ومـن أجـل مواجهـة مختلـف هـذه الهجمات قام الجنرال الروماني لوسيوس قيصر *Lucius Caesar* بحشد قوةٍ من رجال الميلشيات بلغت إحدى وعشرين كتيبة من المقاطعة الرومانية نفسها، وركزّها على طول الحدود المهددة بالهجوم الغالي، أما الهيلفيون الذين اختاروا خوض المعركة ضد المغيرين يتقدمون عبر حدودهم فقد هزموا متكبدين خسائر جسيمة، حيث كان حاكمهم الرئيسي غيوس فاليريوس دومنوتورس *Gaius Valerius Domnotaurs* ابن فاليريوس كابوروس *Valerius Caburus* من بين الخسائر وأجبروا على اتخاذ ملجأ لهم خلف أسوار قلاعهم، أما الألوبرجيون فقد ركزوا سلسلة من مفارز الطوارئ، وكثيفة وقريبة جداً من بعضها بعضاً، على طول نهر الرون وحموا حدودهم بكل يقظة وحذر واحتراس.

وجد قيصر في تلك الأثناء طريقة لمعالجة موضوع تفوق العدو عليه بسلاح الفرسان، فعلى اعتبار أن الطرق كافة كانت مسدودة ولا سبيل للحصول على أي تعزيزات من المقاطعة الرومانية أو من إيطاليا فقد أرسل عبر الراين من يطلب له المساعدة من القبائل الجرمانية التي كان قد أخضعها له في حملات سابقة وحصل منها على قسم من سلاح فرسانها يرافقها عناصر المشاة الخفيفة التي تقاتل دائماً بين صفوف الفرسان، ولما كانت خيول الجرمان غير مناسبة لأداء المهمة المطلوبة منها فقد جعل الفرسان الجرمان يمتطون خيولاً ثم طلبها من التريبونات العسكريين ومن فرسان نبلاء رومان آخرين يخدمون معه ومن المتطوعين الذين انتهت فترة تطويعهم.

كان الغاليون خلال هذا الوقت كله يحشدون القوات التي كانت تعمل في بلاد الأرفيونيين وعناصر الفرسان التي تمت تعبئتها من شتى أرجاء غاليا، وقد اجتمع الآن لديهم عدد هائل من الفرسان.

وبينما كان قيصر يزحف عبر الجزء الجنوبي الشرقي لإقليم اللينجونيين *Lingones* في طريقه إلى إقليم السيكوانيين كي يصبح في موقع أفضل ولتعزيز قوات المقاطعة الرومانية أقام فيرسينجيتوركس لنفسه ثلاثة معسكرات تبعد قرابة عشرة أميال عن الرومان، ودعى ضباط سلاح فرسانه للاجتماع وخاطبهم بالقول: (ها قد زفت ساعة النصر، فالرومان يتخلون عن غاليا ويهربون إلى المقاطعة الرومانية، لكن، على الرغم من أن هذا سيضمن لنا حريتنا مبدئياً إلا أننا نحتاج إلى أكثر من ذلك من أجل سلام المستقبل وإلا فإنهم سيعودون إلينا بقوة أضخم ويواصلون الحرب إلى ما لا نهاية، لذا دعونا نهاجمهم أثناء مسيرهم وهم مثقلون

بأمتعتهم فإذا توقف كامل رتل مشاتهم ليقدم المساعدة ويقوم بالإنقاذ فإنهم لن يستطيعوا متابعة سيرهم، وإذا تخلوا عن أمتعتهم وحاولوا النجاة بأرواحهم – وهو الأمر الذي أرجع حدوثه على نحو أكيد – فإنهم سيجردون من مؤنهم التي بدونها لا يستطيعون العيش، بالإضافة إلى ما سيلحق بهم من الخزي والعار، أما بالنسبة لعناصر فرسانهم فإنه ما من رجل منهم سيتجرأ حتى على التزحزح قيد أنملة خارج الرتل، وهو أمر عليكم أن تعرفوه كما أنا أعرفه، ولتشجيع رجالكم فإنني سأقوم بصف كل قواتي أمام المعسكرات لتهويل العدو وترهيبه) فصاح عناصر الفرسان بصوت عالٍ قائلين بأن عليهم جميعاً أن يقسموا يميناً مقدساً بأن لا يسمحوا لأي رجل منهم لا يمتطي جواده، ويخترق به رتل العدو مرتين بدخول بيته ثانية أو رؤية زوجته أو أولاده أو أهله، وقد استحسن هذا الاقتراح وأقسم الجميع اليمين على نحو ما ينبغي.

وتم في اليوم التالي تقسيم عناصر فرسانهم إلى ثلاثة أقسام: قسمان منهما أخذا يستعرضان عضلاتهما ويبديان استعدادهما لخوض المعركة، عند جناحي الرتل الروماني، بينما قام القسم الثالث باعتراض طريق طلائع الرتل، وقسّم قيصر أيضاً سلاح فرسانه إلى ثلاثة أقسام وأمرها جميعاً بالتقدم ضد العدو.

فحدثت معارك متزامنة، في وقت واحد على طول خط الرتل الروماني الذي توقف وشكل مربعاً فارغاً أودعت الأمتعة في داخله، وكلما كان قيصر يرى أن الفرسان في مواجهة موقف صعب في أي موقع من مواقع الاشتباكات أو الضغط عليهم شديداً، كان يحرك بعض عناصر المشاة ويشكل خط المعركة الذي كان يعيق مطاردة العدو للعناصر الرومانية ويشجع الفرسان من خلال توكيد الدعم، وتمكنت عناصر المشاة الجرمانية في نهاية المطاف من كسب قمة أحد المرتفعات على الجانب الأيمن وطردت العدو منها ولاحقته مكبدةً إياه خسائر فادحة إلى أحد الأنهار حيث تركزت هناك عناصر مشاة فيرسينجيتوريكس وعند هذه المرحلة ولت عناصر فرسانه الأدبار خشيةً من أن تحاصر وتشتت بإعداد صغيرة في مختلف أرجاء الميدان، وأحضر إلى قيصر كأسرى ثلاثة من الايديوويين من أرفع المراتب: أولهم قائد سلاح الفرسان كوتوس *Cotus* الذي كان منافساً لكونفيكتوليتافيس على منصب الحاكمية خلال الانتخابات الأخيرة، وثانيهم كافاريلوس *Cavarillus* الذي كان قد عين قائداً لسلاح المشاة الايديووي بعد أن تخلى ليتافيكوس عن القضية الرومانية، وثالثهم كان ايبوريدوريكس *Eporedorix* قائد الايديوويين في حربهم مع السيكوانيين قبل وصول قيصر إلى غاليا ما بين (٧٠ و ٦٥) قبل الميلاد.

٥- محاصرة اليشيا *Alesia* والاستيلاء عليها عام (٥٢ ق.م)

بعد الهزيمة المنكرة التي لحقت بسلاح فرسان فيرسيجيتوريكس سحب قواته من مواقعها أمام المعسكرات وزحف بها متجهاً مباشرة إلى إليشيا، وهي قلعة للمانديوبيين *Mandubii* بعد أن أعطى أوامره اللازمة بخصوص حزم أمتعة الجيش مباشرة وإحضارها إليه بعده، أما قيصر، فما أن فرغ من نقل أمتعة جيشه إلى أقرب هضبة وعين لحراستها اثنين من فيالقه حتى تتبع خطى العدو بقدر ما كان يسمح به ضوء النهار وقتل قرابة ثلاثة آلاف عنصر من عناصر مؤخرة قواته، كان الغاليون في غاية رعبهم وهلعهم نتيجة ما حل بسلاح فرسانهم من هزيمة ساحقة وهو السلاح الذي عدوه العمود الفقري لجيشهم وعليه جل الاعتماد، تبعاً لذلك، وبعد أن استطلع قيصر موقع المدينة طلب من جنوده الشروع بتنفيذ المهمة الصعبة التي اعتادوا تنفيذها في مثل هذه الظروف الجغرافية وهي مهمة تطويق المدينة بمنشآت الحصار، كان من الواضح أن المدينة منيعة وحصينة وما من مجالٍ أخر لسقوطها إلا بالمحاصرة لأنها كانت تتوضع على ارتفاع شاهق فوق قمة هضبة تغسل جانبيها الشمالي والجنوبي مياه الجداول وتحيط بها وعلى نحو متقارب جداً هضاب أخرى لها نفس ارتفاع هضبة المدينة باستثناء جهتها الغربية حيث يوجد سهل يمتد لمسافة ثلاثة أميال، وكان كامل المنحدر الواقع تحت أسوار المدينة من الجهة الشرقية مشغولاً لمعسكر احتشدت فيه القوات الغالية التي كانت قد قامت بتحصينه بخندق وبجدار ارتفاعه ستة أقدام، وكانت أعمال الحصار التي أخذ الرومان ببنائها تشكل محيطاً لدائرة بطول عشرة أميال وأقيمت ثمانية معسكرات رومانية في مواقع استراتيجية ارتبط بعضها ببعض بتحصينات بُني على طولها ثلاثة وعشرون معقلاً دفاعياً، وكانت تشغل هذه المعاقل خلال النهار مفارز طوارئ تمنع حدوث أي هجوم مفاجئ عند أية نقطة، أما في الليل فقد كانت تعسكر في هذه المعاقل حاميات قوية ترافقها مجموعات من خفراء الحراسة المناوبة.

وحدثت أثناء عملية بناء منشآت الحصار معركة قاسية بسلاح الفرسان دارت رحاها فوق الرقعة السهلية الممتدة لمسافة ثلاثة أميال بين التلال وحينما رأى قيصر أن رجاله يواجهون بعض الصعوبة في مقارعة العدو عززهم بزج عناصر الفرسان الجرمان بالمعركة وصف فيالقه أمام معسكراتها، فتشجع فرسان قيصر نتيجة هذا الدعم وهزموا العدو هزيمة ساحقة إذ راح عناصره يفرون من الميدان تعيقهم كثرة أعدادهم، وطاردهم الجرمان بحرارة متقدة حتى وصلوا إلى تحصينات معسكر فيرسينجيتوريكس حيث تكدس بعضهم فوق بعض في المداخل الضيقة لهذه التحصينات وتكبدوا خسائر فادحة وتخلى بعض الفرسان عن خيولهم وحاولوا الزحف

سريعاً فوق الخندق والتسلق إلى أعلى السور، فأمر قيصر فيالقه المتمركزة أمام أسوار المعسكرات بالتحرك قليلاً إلى الأمام الأمر الذي جعل الغاليين داخل المعسكر يرتعدون خوفاً شأنهم في ذلك شأن فرسانهم المنهزمين، وتوقعوا هجوماً رومانياً سريعاً ضدهم، فأطلقوا صيحة لحمل السلاح واندفع بعضهم نتيجة رعب أصابه نحو المدينة مباشرة، وكان فيرسينجيتوريكس قد أمر سلفاً بإغلاق بوابات المدينة خشية من أن يترك المعسكر دون حراسة، وقبل أن يعود الجرمان إلى قواعدهم قتلوا الكثيرين من الهاربين وغنموا عدداً كبيراً من الخيول.

قرر فيرسينجيتوريكس في هذه المرحلة أن يصرف كل عناصر فرسانه تحت جنح الظلام قبل أن تستكمل التحصينات الرومانية، طالباً منهم أن يذهب كل رجل إلى بلاده ويجبر على الخدمة العسكرية كل من هم في سن الخدمة، ووضح لهم كم هم مدينون له، وحثهم على أخذ سلامته بعين الاعتبار، فبعد كل ما قدمه في سبيل قضية الحرية القومية الأجدر بهم أن لا يتخلوا عنه ليفترسه انتقام عدو متوحش، وأضاف قائلاً: إنهم إن يتوانوا في أداء واجبهم فإنهم سيحكموا على ثمانين ألف رجل من خيرة الرجال بالموت معه، وقال إنه قام بجرد مخزون الحنطة لديه وأنه بالتقنين الشديد سيغطي حاجته لمدة شهر أو أكثر من ذلك بقليل إن يخفض من حصص الجنود اليومية منها، وبعد أن حمل الفرسان هذه الوصايا صرفهم بصمت من خلال فجوة كانت في التحصينات بعد منتصف الليل بقليل، وأمر كل عناصر الحامية عندئذ، تحت طائلة العقوبة بالموت، تسليمه كل الحنطة الموجودة في حوزتهم وشرع بتوزيعها على الجند بتقتير شديد بين الحين والآخر، أما الكمية الكبيرة من الدواجن والمواشي التي كان الماندوبيون *Mandubii* قد أحضروها له فقد تم تقاسمها بين الأفراد في الحال، وطلب من القوات المتمركزة خارج المدينة كافة بالدخول إليها، وبذلك استعد فيرسينجيتوريكس لمواصلة الصراع حتى يحين موعد وصول التعزيزات إليه.

حينما علم قيصر بهذه التطورات على صعيد فيرسينجيتوريكس من قبل بعض الآبقين والسجناء، شرع يشيد منشآت حصار أكثر إحكاماً لتضييق الخناق على المدينة، فحفر خندقاً بعرض عشرين قدماً، اتساعه عند أسفله هو نفس اتساعه عند قمته نظراً لتعامد أجنابه، أما أعمال الحصار الأخرى فقد نفذت جميعها خلف هذا الخندق بمسافة ستمائة وخمسين ياردة، وذلك من أجل حمايتهم من هجوم مباغت، فعلى اعتبار أن امتداد الأرض التي كان عليهم تطويقها كان واسعاً ومن الصعوبة تغطية كامل الدائرة بالرجال فقد كان هناك خطر من أن يقوم العدو بهجوم على الخطوط أثناء الليل، أو يقذف بالرماح خلال النهار عندما يكون الرجال منشغلين حتى أعناقهم بتنفيذ أعمالهم، لذلك قام قيصر بحفر خندقين ضمن

هذه المسافة لهما العمق نفسه، وعرض الواحد منهما خمسة عشر قدماً وملأ الخندق الداخلي منها بالماء الذي تم تحويله إليه من السواقي عند نقطة مروره برقعة الأرض المنخفضة من السهل، وشُيد خلف الخنادق سور من أوتاد خشبية قوية بلغ ارتفاعه اثني عشر قدماً تم تدعيمه بمتراس ذي فتحات لإطلاق القذائف يبلغ ارتفاعه ارتفاع الصدر وله فروع متشعبة ضخمة تبرز حينما تنضم إلى السور في إعاقة العدو إذا حاول التسلق فوقه، ووضعت أبراج على طول دائرة التحصينات الحصارية ضمن أبعاد متساوية لا تتجاوز المائة والثلاثين ياردة.

وكان لزاماً على قيصر لاستكمال أعمال حصاره للمدينة إرسال مجموعات من جنوده خارج التحصينات باستمرار للبحث عن الخشب والحنطة، وعلى اعتبار أن أداء هذا الواجب كان يقتضي منهم الابتعاد في الحقول فقد نقص عدد الرجال المتوفرين لبناء التحصينات الضخمة المطلوبة، وقد حاول الغاليون، علاوة على ذلك، ولمرات عديدة مهاجمة التحصينات من خلال قيامهم بإغارات كثيفة وشديدة انطلاقاً من عدة بوابات من بوابات المدينة وفي التوقيت ذاته فلذلك قرر قيصر أن الواجب يملي عليه تقوية تحصيناته أكثر فأكثر كي يجعل أمر الدفاع عنها ممكناً حتى ولو بقوة صغيرة، فأمر بقطع جذوع الشجر أو الفروع الكبيرة منها وانتزع من رؤوسها اللحاء وسُننت حتى أصبحت حادة جداً ثم قام الجند بتثبيتها داخل خنادق طويلة حفرت بعمق خمسة أقدام وربطت نهاياتها السفلى معاً كي يصبح من غير الممكن اقتلاعها، وجعلت الفروع ثابتة، وكان في كل خندق خمسة صفوف منها، الواحد منها يلامس الأخر ويتشابك معه، بحيث أن أي إنسان يعلق ما بين هذه الصفوف لا بد أنه سيميت نفسه فوق الرؤوس المسننة الحادة أشبه بمن يموت على الخازوق، وقد أطلق عليها الجنود اسم مراكز حدودية وحفرت أمامها حفر بعمق ثلاثة أقدام يتناقص هذا العمق تدريجياً نحو أسفلها حتى يصبح مستدقاً، وقد رتبت هذه الحفر ضمن صفوف مائلة لتشكل مربعات أو مستطيلات بحفرة عند كل زاوية وبواحدة خامسة في الوسط وقد طمرت فيها أزناد من جذوع الشجر، ملساء سماكة الواحد منها تعادل ثخن فخذ الرجل، تسننت نهاياتها وتم إحراقها إحراقاً طفيفاً، ولا يظهر منها فوق الأرض سوى ثلاثة إنشات، ومن أجل إبقاء أزناد الخشب السميكة هذه ثابتة بقوة في مكانها فقد ألقي التراب في الحفر وتم دوسه بالأقدام حتى أصبح مستوى التراب فيها بعمق قدم واحد، أما بقية القسم الفارغ من الحفرة فقد ملئ بغصينات الشجر المقطوعة لإخفاء المصيدة، وقد انتشرت هذه الحفر ضمن مجموعات تشتمل كل منها على ثمانية صفوف يتباعد الواحد منها عن الأخر مسافة ثلاثة أقدام وقد لقبت بالسوسنات نظراً لتشابهها مع تلك الزهرة، وركزت أمام هذه الصفوف أيضاً قوالب خشبية طول كل منها

قدم واحد، ثبتت فيها كلاّبات حديدية أطلق عليها الجنود اسم (الأشواك) وقد أنزلت هذه إلى الأرض ضمن أماكن تجعلها ثابتة لا تتزحزح ونثرت بكثافة في كل مكان.

وعندما اكتملت هذه الدفاعات أنشأ قيصر خطاً مشابهاً من التحصينات يتجه نحو الخارج إضافة إلى ذلك الذي يتجه نحو الداخل، وقد رسم هذا الخط دائرة بطول أربعة عشر ميلاً تمر على طول الأرض المنبسطة التي أمكن العثور عليها في المنطقة المحيطة بالمدينة كان الهدف منه صد أية هجمات أو إغارات من الخارج، وبذلك يصبح من غير الممكن، حتى ولو حشد سلاح فرسان فيرسينجتيوريكس قوةً ضخمة جداً، محاصرة القوات المدافعة عن منشآت الحصار ولكي يتجنب قيصر خطر اضطراره لإرسال مجموعات من جنده لتبحث عن العلف والحنطة في وقت تكون فيه قوة الخلاص المعادية على مقربة منه، فقد أمر كل رجل أن يوفر لنفسه مؤونة شهر من الحنطة وعلف الماشية.

كانت القبائل الغالية في تلك الأثناء قد عقدت اجتماعاً لقادتها وزعمائها الذين قرروا عدم تبني خطة فيرسينجيتوريكس المتعلقة باستدعاء كل من هو قادر على حمل السلاح للالتحاق بصفوف المقاتلين، وذلك لأنهم خشيوا مع مثل هذا الحشد الهائل من الأفراد المختلفين انتماءً وطبقةً أن لا يكونوا قادرين على ضبط فرقهم أو فصلها عن بعضها أو ترتيب موضوع مدها بالمؤن الكافية من الحنطة، ولذلك طلبوا من كل قبيلة عدداً محدداً من الرجال وفق الجدول التالي:

- الايديوويون (والقبائل التابعة لهم)[1] ٣٥,٠٠٠ رجل.
- الأرفيرنيون *Arverni* (والقبائل التابعة لهم)[2] ٣٥,٠٠٠ رجل.
- السيكوانيون *Sequani* والسينونيون *Senones* والبيتوريجيون *Bituriges* والسانتونيون *Santoni* والروتينيون *Ruteni* والكارنوتيون *Carnutes* ١٢,٠٠٠ رجل من كل منهما.
- البيلوفاسيون[3] *Bellavoci* والليموفيسيون *Lemovices* ١٠,٠٠٠ رجل من كل منهما.

---

(١) القبائل التابعة للأرفيرنيين هي: قبيلة السيجاسيافيين *Segusiavi* وقبيلة الامبيفاريتيين *Ambiverti* وقبيلة الأوليدسي برانوفيسيين *Aulerci Brannovices* وقبيلة البلانوفيين *Blonnavii*.

(٢) القبائل التابعة للأرفيرنيين هي: الايلوتيتيون *Eleuteti* والكادورسيون *Cadurci* والجبليون *Gabali* والفيلافيون *Vellavii*.

(٣) لم يرسل البيلوفاسيون كامل الفرقة التي طلبت منهم لأنهم قالوا إنهم يعتزمون مقاتلة الرومان على مسؤوليتهم وبطريقتهم الخاصة، وإنهم لا يقبلون تلقي الأوامر من أحد، لكنهم استجابة لطلب كوميوس *Commius* واحتراماً لما تربطهم معه من صداقة فإنهم سيرسلون ألفي (٢٠٠٠) رجل مع بقية الفرق الأخرى المتجهة إليهم.

- البيكتونيون *Pictones* والطورونيون *Turani* والبارسيون *Parisii* والهيلفيتيون *Helvitii* ٨٠٠٠ كل منها.

- السوسيونيون *Suessiones* والامبيانيون *Ambiani* والميديوماتريسيون *Mediomatrici* والبيتروكوريون *Petrocorii* والنيرفيون *Nervi* والمورينيون *Morini* والنيتيوبروجيون *Nitiobroges* والأوليرسي سينومانيون *Aulerci Cenomani*، ٥٠٠٠ كل منها.

- الاتريباتيون *Atrebates* ٤,٠٠٠ رجل.

- الفيليوكاسيون *Veliocasses* والأوليرسي ايبوروفيسيون *Aulerci Eburvoices* ٣,٠٠٠ رجل كل منها.

- الروراسيون *Rauraci* والبواويون *Boii*، ١٠٠٠ كل منها.

- القبائل الأريموديكانية[1] ٢٠,٠٠٠ رجل.

وبعد أن اجتمعت في بلاد الايديوويين ثمانية آلاف عنصر من الفرسان وقرابة مائتين وخمسين ألف عنصر من المشاة بدأ زعماء القبائل المختلفة وقادتها بمهمة استعراض هذه الحشود وعدها واختيار ضباط لها، وقد عهدت القيادة العامة بجيش الخلاص هذا إلى كوميوس الاتريباتي[2] *Commius the Atrebation* والايديوريان فيريدوماروس *Viridomarus* وايبوريدوريكس *Eporedrix*، والآرفيرني فيركاسيفيللونوس *Vercassivellaunus* وهو واحدٌ من أبناء عم فيرسينجيتوريكس.

ورافق هؤلاء القادة ممثلون عن مختلف القبائل، كان دورهم بمثابة لجنة استشارية فيما يخص إدارة الحملة، واتجه الجميع إلى إليشيا تعتلج في صدورهم الحماسة والثقة.

فقد اعتقد كل فرد منهم أن مجرد مشاهدة الرومان لمثل هذه الجحافل من المشاة والفرسان ستجعلهم يولون الأدبار ويطلقون سيقانهم للريح، ولا سيما وأنهم سيهاجمون العدو

---

(١) المقصود هنا كل القبائل البحرية وهي: قبيلة الكوريوسوليتيين *Coriosolities* وقبيلة الريدونيين *Redones* وقبيلة الامبيباريين *Ambibari* وقبيلة الكاليتيين *Caleti* والأوزيسميين *Osismi* والفينيتيين *Veneti* والليكسوفيين *Lexovii* والفينيلليين *Venelli*.

(٢) كان كوميوس *Commius* في سنوات سابقة قد قدّم لقيصر خدمة وفية ومخلصة كانت ذات فائدة كبيرة في بريطانيا، وكان قيصر بالمقابل قد أصدر أوامره اللازمة لإعفاء قبيلة كوميوس من الضرائب واسترجع لها استقلالها وجعل كوميوس سيداً على المورينيين إلا أن أفراد الشعب الغالي برمته كانوا متحدين بعزمهم وتصميمهم على تحرير أنفسهم واسترجاع هيبتهم العسكرية السابقة إلى حد أنهم لم يسمحوا لفضائل الآخرين عليهم أو لعلاقات صداقتهم معهم بالتأثير عليهم، وكان الجميع مكرساً كل طاقاته وإمكاناته لمواصلة الحرب.

الروماني من جبهتين حيث سيشكل الجبهة الثانية المحاصرون داخل المدينة الذين سيبدؤون هجومهم من المدينة بنفس اللحظة التي يشاهدون فيها قدوم جيش الخلاص إليهم.

غير أن المحاصرين في إليشيا لم يكونوا على دراية بأي شيء عن هذه الاستعدادات فالوقت الذي توقعوا فيه الخلاص قد ذهب وولى، وما لديهم من مؤونة الحنطة قد استنزفت.

ولذلك دعوا إلى عقد اجتماع فيما بينهم لتدارس ما سيكون عليه مصيرهم، وكان من بين الخطباء الذين تحدثوا في الاجتماع من نصح بالاستسلام، ومنهم من أوصى بالقيام بغارة مفاجئة على العدو وهم ما يزالون يمتلكون القدرة على ذلك، ومن ثم جاءت خطبة كريتوغناتوس *Critognatus* وهو أحد النبلاء الآرفيرنيين الذي لاقى رأيه احتراماً عالياً من المجتمعين، وتستحق خطبته أن تسجل ليحفظها التاريخ لما كان فيها من وحشية وشر لا نظير لهما، إذ قال: (إنني لا أعتزم الإدلاء بأي تعليق على آراء أولئك الذين ينصحون بالاستسلام وهي كلمة استخدموها للإشارة إلى أبشع وأخزى أنواع الخضوع للاستعباد، وفي رأيي الأجدر بنا أن لا ننظر إليهم بوصفهم مواطنين أو نسمح لهم بحضور هذا الاجتماع إنني من جانبي معنيّ فقط برأي أولئك الذين أيدوا القيام بإغارة مفاجئة على العدو، وعليكم جميعاً أن تؤيدوا اقتراحهم لنبيّن أننا لم ننسَ بعد سجل شجاعتنا التقليدية الفذة التي انتقلت إلينا عبر أجيال، لكنها ليست شجاعة وبسالة بل ضعف ووهن أن لا نكون قادرين على تحمل فترة قصيرة من الحرمان إنه من السهل أن تجد رجالاً يفضلون المجازفة بأنفسهم لأنياب الموت طوعاً من أن تجد رجالاً يتحملون العناء والمعاناة بصبر وجلد، حتى ولو كان الأمر كذلك فإنني أدعم اقتراحهم — مع كل احترامي وتقديري لما لهم من سلطة ونفوذ إن لم يتضمن خسارات أخرى إضافية لخسارة حياة كل منا — إلا أننا في صنع قرارنا علينا أن نأخذ بعين الاعتبار كل أبناء بلادنا الذين دعوناهم لمد يد العون لنا، فإن يُقتل منا ثمانون ألف رجل في معركة واحدة، أية شجاعة وأية قلوب جريئة تفترضون أن أهلنا وأقرباءنا يمتلكونها حينما يجبرون على مقاتلة العدو فوق أجسادنا؟ فلا تدعوهم يتابعون النضال لوحدهم في وقت هم عدوا الخطر على حياتهم لا قيمة له من أجل خواطركم، ولا تدمروا غاليا برمتها نتيجة حماقة أو طيش أو نتيجة تهور، أو نتيجة افتقارنا إلى القرار وتخضعونها إلى عبودية أبدية، أبسبب أنهم لم يأتوا لنجدتنا في اليوم المحدد نشك في ولائهم وإخلاصهم لقضيتنا؟ يا للعجب! أتتصورون أن الرومان يعملون جاهدين يوماً بعد آخر بهذه التحصينات الضخمة التي تحيط بنا من أجل أن يسلوا أنفسهم ويتمتعوا بأوقاتهم؟ فلطالما أن أهلنا وأبناء بلادنا غير قادرين على إرسال رسل إلينا عبر هذا النطاق المضروب حولنا ليؤكدوا لنا أنهم قادمون إليكم في الحال، صدقوا ما يخبركم به العدو من خلال مايفعله،

فما يفعله العدو ليلاً ونهاراً وبكرٍ وكدحٍ لا مثيل لها يعبر عن خوفه من قدومهم، أية نصيحة عليّ أن أقدمها لكم؟ إنني أعتقد أن علينا أن نفعل ما فعله أجدادنا من قبلنا في حرب كانت أقل خطورة وشدة من هذه الحرب ما بين عام (١٠٩ – ١٠٢) قبل الميلاد) إنهم حينما أُكرهوا على اللجوء إلى قلاعهم على يد السيمبريين *cimbri* والتوتونيين *Teutoni* وأهلكتهم المجاعة مثلنا بدلاً من أن يستسلموا حافظوا على أنفسهم أحياءً من خلال أكلهم لحوم من كانوا غير قادرين على القتال منهم كباراً أم صغاراً حتى ولو لم تكن لدينا سابقة لمثل هذه الحرب، إنني اعتقد أنه حينما تكون حريتنا في خطر حقيقي فإنه يكون تصرفاً نبيلاً أن نجعل من أسلافنا قدوة وعبرة، فهذا الصراع صراع حياة أو موت مختلف تماماً عن الحرب مع السيمبريين الذين رغم أنهم خرّبوا غاليا ودمروها، ورغم أنهم تسببوا لها بحزن أليم وموجع، جلوا في نهاية المطاف عن البلاد ورحلوا إلى مكان آخر وتركونا رجالاً أحراراً لنعيش فوق أرضنا، وفي ظل قوانيننا وكل منا يمتلك حقوقه، لكننا نعرف أن للرومان هدفاً مختلفاً تماماً، الحسد هو الدافع الذي يحركهم نحو ما يفعلون، فهم يعرفون أننا قد اكتسبنا شهرة عالية بقوتنا العسكرية ولذلك فهم يقصدون مما يفعلون التعسكر في أراضينا ومدننا وشد نير العبودية فوق رقابنا إلى أبد الآبدين، إنهم على هذا النحو يعاملون أعداءهم دائماً شعوب البلاد التي يفتحونها، فأنتم لا تعرفون الكثير ربما عن وضع الشعوب في المناطق البعيدة، لكن لكي تعرفوا ذلك فلا حاجة لكم إلا أن تنظروا إلى ذلك الجزء من غاليا الواقع على حدودكم والذي ضم بقوة السلاح إلى المقاطعة الرومانية. فقوانين جديدة وأعراف مختلفة قد فرضت عليه، والأرض تحت أقدام الفاتحين الحديدية قد أصبحت في حالة من العبودية الدائمة).

وعندما اختتمت المناقشات في الاجتماع تقرر أن يرسل خارج المدينة كل من هم غير قادرين على القتال، سواء بسبب كبر في السن أو بسبب عجز جسماني، وتم تبني اقتراح كريتوغناتوس ليكون ملاذهم الأخير، إذا أخفقت التعزيزات بالوصول إليهم وغدت الأمور أسوأ مما هي عليه الآن، بحيث يصبح عليهم الاختيار ما بين ما قاله كريتوغناتوس والاستسلام، أو القبول بأي شروط سلام تملى عليهم من قبل الرومان، وهكذا أكره السكان المانديبيون الذين ادخلوا الغاليين الآخرين إلى مدينتهم على ترك المدينة مع زوجاتهم وأولادهم، وتوجهوا نحو التحصينات الرومانية والدموع تملأ أحداقهم، وتوسلوا للجنود قبولهم كعبيد لديهم مقابل تخليصهم مما هم فيه من جوع، لكن قيصر ركز حراساً على السور الروماني وأمر برفض طلب السماح لهم بالدخول.

وفي تلك الأثناء وصل كوميوس والقادة الآخرون إلى أمام مدينة اليشيا على رأس كامل جيش الخلاص وأقاموا معسكرات لهم فوق إحدى التلال خارج الخطوط الرومانية ولا تبعد عنها سوى ميل واحد تقريباً وفي اليوم التالي أطلقوا فرسانهم واحتلوا قطعة الأرض السهلية الممتدة بطول ثلاثة أميال على نحو ما ذكرنا آنفاً، وحركوا مشاتهم إلى مسافة أبعد قليلاً وركزوها فوق منحدرات تلك التلة، ولما كانت المدينة مطلة على السهل فقد شاهد المحاصرون داخلها القوات التي جاءت لنجدتهم فتجمهروا معاً تفيض نفوسهم بالبهجة والاهتياج وفرحوا فرحاً غامراً، وهنأ بعضهم البعض بخلاصهم، وأخرجوا بعد ذلك قواتهم العسكرية وجعلوها تتخذ لنفسها مواقعاً أمام المدينة ملأوا أقرب الخنادق بحزم العيدان الطويلة والتراب وغدوا مستعدين للقيام بالهجوم ومتأهبين لكل المخاطر التي قد تنجم عنه.

ووزع قيصر عناصر مشاته كافة على طول خطي التحصينات كي يكون كل واحد منهم عارفاً لموقعه عند الحاجة ويقوم بشغله ثم أعطى أوامره لسلاح الفرسان بالتوجه إلى المعركة، كان السهل واضحاً للجميع من كل المعسكرات الواقعة على قمم التلال المحيطة، وكان كل الجيش يراقب بتركيز مجريات القتال ليرى ما ستسفر عنه المعركة، كان الغاليون قد نشروا رماة سهامهم ومشاتهم الخفيفة هنا وهناك بين عناصر الفرسان ليقدموا الدعم لهم إن اضطر الواحد منهم إلى التراجع في وجه العدو، ولمساعدتهم على صد هجمات فرساننا، وقد استطاع هؤلاء مفاجأة عدد من رجالنا وإجبارهم على الانسحاب من المعركة بعد إصابتهم ببعض الجراح، واعترى الغاليون شعور بالثقة بأن سلاح فرسانهم أخذ بكسب المعركة لأن تفوقهم العددي بالفرسان كان جلياً حيث كان يحيط بالفارس الواحد من فرساننا عدد كبير من فرسانهم فقاموا من الجانبين، المحاصرون وجيش الخلاص بتشجيع بعضهما بعضاً بالصيحات والنداءات، وعلى اعتبار أن القتال كان يجري على مرأى من الجميع فما من مأثرة باسلة أو عمل بطولي خارق أو تصرف جبان كان يمكن أن يمر دون ملاحظة الآخرين له، وكان التعطش للمجد والخوف من العار محركان أساسيان لكلا طرفي القتال، كانت المعركة قد استمرت منذ منتصف النهار حتى قبيل الغروب، وكانت النتيجة لا تزال غير محسومة، بعد حينما قام الفرسان الجرمان بزج كل سراياهم عند نقطة واحدة وهاجموا الغاليين وأجبروهم على التقهقر سريعاً نحو الخلف، وبعد أن تفرق عناصر فرسانهم وولوا الأدبار من الميدان تم تطويق رماة السهام وقتلهم، وتقدمت نحو المكان بقية عناصر فرساننا من نقاط أخرى وراحت تطارد الهاربين وتلاحقهم حتى بلغوا معسكرهم دون منحهم أي فرصة للتوقف أو التجمع ثانية، والغاليون الذين كانوا قد خرجوا خارج المدينة عادوا عندئذ إليها وقد أصابهم إحباط مرير وخيبة أمل قاتلة، وغدوا فاقدين لكل أمل بالنجاح.

لكن جيش الخلاص، مع ذلك، وبعد فاصل زمني كانت مدته يوماً واحداً فقط، حضّروا خلاله كمية كبيرة من حزم العيدان الطويلة والسلالم وكلابات التسلق، تحرك بصمت خارج المعسكر عند منتصف الليل وتقدم نحو التحصينات المضروبة حول السهل وأطلقت عناصر الجيش صيحة هادرة مفاجئة ليعلموا المحاصرين داخل المدينة بأنهم قادمون وبدأوا بإلقاء حزم العيدان الطويلة إلى داخل الخنادق وأجبروا الرومان على الانكفاء عن السور باستخدامهم السهام، والحجارة التي كانت تقذف بالأيدي أو بالمقلاع واستعملوا كل حيلة وكل وسيلة للهجوم في تلك الأثناء وبعد أن سمع فيرسينجيتوريكس صيحات جيش الخلاص أمر بإطلاق أبواق النفير وقاد رجاله خارج المدينة تحرك الرومان نحو المواقع التي كانت قد خصصت لكل منهم في التحصينات وألزموا الغاليين على البقاء بعيدين عنهم باستخدام حجارة المقلاع والكرات الصغيرة والحجارة الكبيرة والخوازيق التي كانت أصلاً جاهزاً ومنصوبة ضمن المسافات المحددة لها على طول السور، هذا بينما كانت المدفعية تعصف بهم بقذائفها كان من الصعوبة البالغة رؤية ما يحدث بسبب الظلام الداكن، وكانت الخسائر جسيمة من الطرفين، وقام الجنرالان مارك أنطوني*Mark Antony* وغيوس تريبوينوس *Gaius Trebonius* اللذان أعهد لهما أمر الدفاع عن هذا القطاع بالذات بتعزيز النقاط التي كانا يعرفان أن المقاتلين فيها في مواجهة ضغط شديد من العدو من خلال مدهم بعناصر كانت تجلب من المعاقل الواقعة خلف خط القتال مباشرة، وعلى اعتبار أن الغاليين ظلوا على مسافة من خطوط التحصينات الرومانية فقد أكسبهم ما طرحوه من رماح نحونا بعض الفائدة، لكنهم حينما اقتربوا من التحصينات وجدوا أنفسهم وعلى نحو مفاجئ ضمن الكابلات الحديدية التي أطلق عليها الجنود الرومان اسم (الأشواك) وقد اخترقت أجسادهم ومنهم من وقع في الحفر وأمات نفسه بينما قتل آخرون برماح الحصار الثقيلة التي قذف بها من فوق السور ومن الأبراج، كانت خسائر العدو جسيمة في كل القطاعات، عندما حل الفجر كانوا قد فشلوا تمام الفشل باختراق الدفاع عند أي نقطة، ولذلك خشيوا من أن تتم إبادة جناحهم الأيمن بهجوم روماني من المعسكرات الواقعة فوق الأرض المرتفعة، فتراجعوا على عجل للانضمام إلى بقية قواتهم، في حين أضاع المحاصرون الكثير من الوقت في عملية إخراج الأدوات والوسائل التي كان فيرسينجيتوريكس قد أعدها للقيام بهجوم مفاجئ وفي عملية سد الإمدادات الأولى للخنادق، وبلغت مسامعهم قبل وصولهم إلى التحصينات الرومانية الرئيسية أنباء تقهقر جيش الخلاص، ولذا انكفأوا عائدين إلى المدينة دون تحقيق أي شيء يذكر.

بعد هذا الصد الثاني للهجوم — وقد كان صداً كلفهم كثيراً وأصابهم بالخيبة — قرر

الغاليون عقد مجلس حرب من خلال استدعائهم لبعض الرجال الذين كانوا على دراية بطبيعة الأرض وجغرافيتها تحققوا من مواقع معسكراتنا المرتفعة ومن طبيعة دفاعاتها.

كانت هناك في الجهة الشمالية تلة ذات امتداد مائل، كانت عريضة الانحدار لم يتمكن الرومان من ضمها إلى داخل دائرة تحصينات الحصار التي شيدها لذا اضطر الرومان إلى بناء المعسكر هناك فوق ارض شبه منحدرة، أي في موقع يعتبر عادة سيئاً أو غير مؤات من الناحية العسكرية، ووضعت في هذا المعسكر حامية تألفت من فيلقين تحت قيادة كل من الجنرالين: غيوس انتيستيوس ريجنيوس *Gaius Antistius Reginus* وغيوس كانينيوس ريبلوس *Gaius Caaninius Rebilus* وبعد أن أرسل قادة العدو مجموعات من الكشافة لاستطلاع الأرض اختاروا من كامل جيشهم العرمرم ستين ألفاً من الرجال الذين ينتمون إلى قبائل ذاع صيتها بالشجاعة والجرأة وحددوا سراً ودون علم من الآخرين هدفهم وخطة عملهم وأمروهم ببدء الهجوم عند الظهيرة وتحت قيادة الآرفيرني فيركاسيفللونوس *Vercassive Ilaunus* وهو واحد من الجنرالات الأربعة الذين اختيروا لقيادة جيش الخلاص وقريبا لفيرسينجيتوريكس وبعد أن غادر فيركاسيفللونوس المعسكر في الساعات الأولى من المساء استكمل القسم الأكبر من زحفه قبل الفجر ووجه أمره لقواته بالاستراحة تحت غطاء التلة بعدما أصابهم من عناء المسير الليلي، وحيثما وجد أن النهار قد أصبح في منتصفه زحف متجهاً نحو المعسكر الروماني الذي أسلفنا الحديث عنه في حين تحركت عناصر الفرسان الغالية نحو التحصينات الموجودة في السهل وقامت بقية عناصر الجيش باستعراضات قوة أمام المعسكر التابعة له.

وعند رؤية فيرسينجيتوريكس لهذه التحركات من قبل القوات الغالية وهو في قلعة اليشيا أطلق قواته على عجل تحمل حزم العيدان الطويلة والأعمدة الخشبية وكلابات التسلق وصناديق الألغام والأدوات الأخرى التي كان فيرسينجيتوريكس قد أعدها لهذا الغرض، ودار القتال في الوقت ذاته في كل أنحاء الميدان، وجرب الغاليون كل وسيلة وطريقة خطرت في أذهانهم وكانوا يكثفون قواتهم عند النقاط الأضعف من الدفاعات الرومانية، ولما كان الغاليون قد توزعوا بهذا الشكل على طول خطوط امتدت بعيداً فقد وجد الرومان أن من الصعوبة عليهم صد هجمات متواقتة في أماكن عديدة ومختلفة، كما أنهم كانوا فاقدين لشجاعتهم ورباطة جأشهم من خلال ما كانوا يسمعونه من صيحات خلفهم أثناء قتالهم، الأمر الذي دل على أن حياة كل منهم لم تكن في يديه هو بالذات وإنما تعتمد على جرأة الآخرين وبسالتهم وغالباً ما تكون المخاطر غير المنظورة هي الأكثر ترعيباً وترهيباً.

وعثر قيصر على نقطة مراقبة جيدة يستطيع منها تتبع تطور العمليات في كل جزء من الميدان حيث كان يرسل المساعدة اللازمة إلى المكان الذي يجد فيه أن الموقف يستدعي ذلك، وإدراك الطرفان أن هذا الوقت بالذات هو أهم من كل الأوقات وأن الموقف فيه يقتضي بذل أعظم الجهود وإظهار أرفع درجات الإقدام والبطولة، فالغاليون يعرفون أنهم إن لم يخترقوا الخطوط الرومانية سيضيعون، والرومان يعرفون أن نهاية كل متاعبهم وشدائدهم مبنية على مقدرتهم على التمسك بمواقفهم.

وكان أشد الخطر عند خطوط التحصينات فوق التلة حيث إلى هناك كان قد أرسل فيركاسيفللونوس وانحدار الأرض نحو الأسفل في تلك البقعة أثقل بسلبيته على صدور المقاتلين الرومان، فبعض الغاليين كانوا يقذفون برماحهم نحوهم بينما تقدم آخرون للهجوم وقد غطوا رؤوسهم بتروسهم المتلاصقة، وكانت قوات جديدة تدخل الميدان، على نحو مستمر لتحل محل من كان يتعب منهم، وقاموا جميعهم برمي التراب فوق التحصينات الأمر الذي مكنهم من تسلق السور والتغلب على العقبات المخفية في الأرض، وأخيراً، عندما شاهد قيصر أن رجاله قد أصبحوا على وشك أن يضعفوا أمام العدو، وأن أسلحتهم تكاد تنفذ بعث بلابينوس *Labienus* لنجدتهم على رأس ست كتائب موصياً إياه بالبقاء في حالة دفاعية إن أمكن، لكنه إن لم يستطع الاحتفاظ بالمعسكر بأي وسيلة عليه أن يسحب بعض الكتائب من مواقعها ويقوم بهجوم مضاد وقام قيصر نفسه بزيارة أجزاء أخرى من الخطوط وحث رجاله على الصمود قائلاً لهم إنه على هذا اليوم وعلى هذه الساعة بالذات تتوقف نتيجة كل ما خاضوه من معارك سابقة.

يئس الغاليون من المحاصرة أخيراً من اختراق التحصينات الضخمة الموجودة في السهل، وحاولوا اقتحام واحد من الجدران المنحدرة فيها فحملوا إلى هناك كل الأدوات التي زودوا أنفسهم بها، واستطاعوا طرد المدافعين عن الأبراج بواسطة رشقات من القذائف، وملأوا الخنادق بالتراب وحزم العيدان الطويلة ومزقوا سياج الأوتاد الخشبية والمتاريس التي بلغ ارتفاعها صدر الإنسان بواسطة كلاّباتهم وخطافاتهم فأرسل قيصر بادئ بدء بعض الكتائب للإنقاذ تحت إمرة الشاب بروتوس *Brutus* ثم أرسل إلى ذات المكان كتائب أخرى تحت إمرة الجنرال غيوس فابيوس *Gaius Fabius* وعلى اعتبار أن الصراع بين الجانبين استمر بشراسة وضراوة مطردتين، فقد قاد قيصر أخيراً كتيبة بنفسه واتجه إلى المكان وقد جدد وصول هذه القوات تباعاً القتال ونجحت في صد الهجوم.

وتحرك قيصر بعدئذ نحو القطاع الذي كان قد أرسل إليه لابينوس مصطحباً معه أربع كتائب من أقرب المعاقل، وأمر جزءاً من سلاح الفرسان أن يتبعه، وطلب من كتيبة أخرى من الفرسان أن تمتطي جيادها حول الخطوط الخارجية وتهاجم العدو من المؤخرة، ولما وجد لابينوس أن الأسوار والخنادق لا تستطيع كبح جماح الهجوم الغاضب والضاري للغالبين كان لحسن طالعه قادراً على جمع نحو إحدى عشرة كتيبة من أقرب المواقع إليه، وأرسل إلى قيصر بهذه اللحظة بالذات يقول له بأنه يعتقد أن وقت المعركة الفاصلة قد حان، فأسرع قيصر ليصل إليه في الوقت المحدد لبدء المعركة وهي معركة الحسم، وعرف العدو أن قيصر قادم إلى المكان إذ ميّزه بعباءته القرمزية الفضفاضة التي اعتاد ارتداءها أثناء المعارك لتمييز شخصه، وحينما شاهدوا سرايا الفرسان الرومانية والكتائب تتبعه هابطة من المنحدرات التي كانت مرئية بوضوح من المرتفعات التي كانوا يقفون عليها انضموا للمعركة، وأطلق كلا الجانبين الهتافات والتهليل وردت عليها هتافات وتهليلات مشابهة من الرجال فوق السور وعلى طول خطوط التحصينات، وألقى الرومان برماحهم جانباً وأخذوا يقاتلون بسيوفهم، ورأى الغاليون وعلى نحو مفاجئ عناصر الفرسان الرومانية عند مؤخرتهم وشاهدوا أن كتائب جديدة تزج بالمعركة من الأمام فتشتتوا وفروا لكنهم وجدوا أن تراجعهم معاق بسلاح الفرسان الروماني فسحقوا وتم قتلهم بأعداد كبيرة ومن غير رحمة، وكان من بين من قتل سيدولوس *Sedullus* زعيم وقائد الليموفيسيين *lemovices* بينما أخذ فيركاسيفللونوس أسيراً أثناء الهزيمة المنكرة وأحضرت إلى قيصر أربع وسبعون راية حيث قلة قليلة من الرجال فقط – من بين عناصر الجيش الغالي الضخم كله – تمكنت من العودة إلى معسكرها دون أن تصاب بأذى، وحينما شاهد الغاليون المحاصرون في المدينة أن أبناء بلادهم يذبحون أثناء فرارهم قطعوا كل أمل لهم بالخلاص واستدعوا قواتهم من عند التحصينات وسرعان ما هربت قوات الخلاص من المعسكر ولم لم تكن القوات الرومانية متعبةً ومنهكةً بعد يوم من العمل الطويل تم خلاله استدعاؤهم عدة مرات للقيام بنجدة من كان عليهم الضغط العادي شديداً من رفاقهم لكانت إبادة العدو برمته قد تمت ولتم محقه عن بكرة أبيه، وما كان عليه الحال الآن هو أن عدداً هائلاً من أفراد العدو قد أخذ أسيراً أو قتل على يد الفرسان الذين أرسلوا لمطاردته واستطاعوا إدراك مؤخرته بعيد منتصف الليل ومن ظل منهم على قيد الحياة تفرق كل باتجاه بلاده.

وفي اليوم التالي خاطب فيرسينجيتوريكس مجموع الحاضرين في جلسة عقدت بعد الهزيمة قائلاً: (إنني لم أتول أمر الحرب على سبيل مصالح أو أهداف خاصة، وإنما دفاعاً عن

قضية الحرية القومية، ولطالما عليّ الآن أن أقبل بقدري ومصيري فإنني أضع نفسي تحت تصرفكم أصلحوا الوضع مع الرومان واقتلوني أو سلموني لهم حياً على نحو ما ترونه مناسباً) وأُرسِل وفدٌ ليحيل المسألة إلى قيصر الذي أمرهم بتسليم أسلحتهم، وأحضر إليه زعماء القبائل وجلس قيصر فوق تحصيناته أمام المعسكر وإلى هناك اقتيد الزعماء تم تسليم فيرسينجيتوريكس وألقيت الأسلحة أرضاً.

وفصل قيصر الأسرى الايديوويين والآرفيرنيين عن البقية أملاً أنه قد يستفيد منهم في عملية استرجاع ولاء قبائلهم له، أما البقية فقد تم توزيعهم كغنائم حرب على شتى عناصر الجيش الروماني وتخصص كل منهم بواحد من الأسرى.

توجه قيصر بعدئذ إلى بلاد الايديوويين الذين قدموا له الطاعة والخضوع بمجرد وصوله، وكان بانتظاره هناك أيضاً مبعوثون من القبيلة الآرفيرنية تعهدوا باسم قبيلتهم بإطاعة أية أوامر يصدرها بشأنهم فطلب منهم تقديم عدد هائل من الرهائن وأعيد إلى الايديوويين والآرفيرنيين قرابة عشرين ألف أسير، ووزع قيصر أخيراً فيالقه على معسكراتها الشتوية: فأرسل فيلقين مع قسم من سلاح الفرسان إلى بلاد السنكوانيين بأمرة لابيوس، وجعل ماركوس سيمبرونيوس *Marcus Sempronius* يرافق لابينوس ليكون تحت إمرته، ووضع فيلقين أخيرين تحت قيادة فابيوس *Fabius* وباسيلوس *Basilius* بين الريميين *Remi* لحمايتهم من أي أذى قد يتعرضون إليه على يد جيرانهم البيلوفاسيين *Bellovaci*، وأرسل ريجينوس *Reginus* إلى الامبيفارتيين *Ambivareti* وتيتوس سيكتيوس *Titus Sextius* إلى البيتيوريجيين *Bituriges* وكانينيوس *Caninius* إلى الروتينيين *Ruteni* كل على رأس فيلق وأقام سيسيرو *Cicero* وصولبيسيوس روفوس *Sulpicius Rufus* في منطقتين ايديوويتيين ماكون *Macon* وشالون – سون *Saone–chalon* لجمع الحبوب. أما قيصر نفسه فقد قرر قضاء فصل الشتاء في بيبراكت *bibracte* وعندما نقلت رسل قيصر ورسائله أنباء نتائج حملة هذا العام إلى روما، أصدر مجلس الشيوخ الروماني قراراً يقضي بالاحتفال بعيد شكرٍ لمدة عشرين يوماً.

التمرد الأخير

(٥٢ – ٥١ق.م)

١ - ثورات البيتيوريجيين والكارنوتيين والبيلوفاسيين ما بين (٥٢ – ٥١ ق.م)

أصبحت غاليا الآن بأكملها بلاداً رازحة تحت سلطان الفتح الروماني، وقد مضى على قيصر يقاتل وعلى نحو شبه متواصل منذ صيف السنة الماضية ، لذا رغب بعد هذا العناء الطويل أن يمنح جنوده استراحة شتوية لاستجماع طاقاتهم، إلا أنه سمع بأن العديد من القبائل ترسم المكائد وتحيك المؤامرات معاً من أجل تجديد الأعمال القتالية ، وقد قدّم له مخبروه تعليلاً لهذا التصرف اعتبره الأرجح والأكثر واقعية: فالغاليون يدركون الآن أنه ليس بمقدوهم مقاومة الرومان حتى ولو حشدوا لهم أكبر الجيوش إذا كانت هذه الجيوش تقاتل مجتمعة في ميدان واحد، لكنهم اعتقدوا أنه إن يقم عدد من القبائل بهجمات متزامنة – بذات الوقت – وفي أماكن مختلفة فإنه لن يكون لدى الرومان ما يكفيهم من الرجال والعتاد لمواجهة هذه القبائل جميعاً بنفس الوقت، وطُرحت فيما بينهم فكرة أن القبيلة التي ستتحمل العواقب وتكون الضحية في هذه المواجهة عليها أن تكون مستعدة للقبول بمصيرها وقدرها إذا استطاعت أن تمكن بقية القبائل من خلال تأخيرها للعدو، من فرض حقها بالحرية والدفاع عن هذا الحق.

لم يشأ قيصر أن يعزز هذه الفكرة في أذهان الغاليين، لذا ترك قسطوره مارك أنطوني *Mark Antony* مسؤولاً عن مركز قيادته في بيبراكت وانطلق مع مرافقة من الفرسان في التاسع والعشرين من كانون الأول للالتحاق بالفيلق الثالث عشر الذي كانت معسكراته الشتوية في إقليم البيتوريجيين وليس ببعيد كثيراً عن الحدود الايدويووية، وتم تعزيز هذا الفيلق بالفيلق الحادي عشر الذي كان أقرب الفيالق إليه، وترك من كل فيلق كتيبتين لحراسة الأمتعة وقاد البقية عبر أكثر الأجزاء خصوبة من بلاد البيتيوريجيين.

كان لهذه القبيلة عدد من المدن والأراضي الشاسعة الواسعة بحيث لا يمكن للفيلق الوحيد الذي يعسكر في نزله الشتوية بينهم أن يكون قادراً على منعهم من حياكة المؤامرات والتخطيط للحرب، ولما كان زحف قيصر إليهم مفاجئاً فقد وجدهم غير متأهبين لأي شيء، متبعثرين هنا وهناك يحرثون الحقول دون أدنى فكرة عن خطر محتمل، فأمسكت بهم عناصر الفرسان طبعاً قبل أن يتمكن أي واحد منهم من الهرب أو اللجوء إلى المدن.

حتى أنهم لم يعطوا الإشارة المعتادة للإنذار بهجوم معادٍ وهي مشاهدة أبنية تحترق لا سيما وأن قيصر قد أمر بعدم إضرام النار بأي شيء، كي يتجنب إعطاءهم إنذاراً بقدوم الرومان ولكي يوفر الحنطة والقش في الحقول، وهما مادتان سيحتاج إليهما إذا قرر التقدم أكثر من ذلك، وقد سبب أسر آلاف كثيرة من البيتيورجيين رعباً كبيراً في النفوس في شتى أنحاء بلادهم، فمنهم من نجح بالإفلات بعد الهجوم الأول وراح يركض باتجاه القبائل المجاورة متكلين على بعض أصدقاء شخصيين لهم وليتوسطوا السماح لهم بدخول القبيلة أو متوخين أن تمنحهم السلطات القبلية الحماية، وذلك لأن الجميع كانوا متضافرين ضد الرومان ولهم الموقف نفسه، غير أنهم أصيبوا بخيبة أمل وقنوط لأن قيصر أحبط لهم مخططهم هذا من خلال قيامه بزحف عسكري وفي مختلف الاتجاهات وقواته ضمن تشكيل قتالي، الأمر الذي جعل القبائل كافة منشغلة بحماية نفسها دون غيرها إلى حد أن ما من قبيلة مجاورة كان عندها الوقت لتفكر بسلامة أي قبيلة أخرى وأي فرد آخر يتبع لقبيلة غير قبيلتهم ومن خلال هذا التحرك السريع والمفاجئ توثق قيصر من ولاء القبائل الصديقة وخلق الرعب والفزع في قلوب المتذبذبين وأكرههم على قبول شروط السلام التي فرضها عليهم، وعندما وجد البيتيوريجيين أن رحمة قيصر ورأفته تمنحها الفرصة لاستعادة صداقته، وأن ما من عقوبة قد فرضت على القبائل المجاورة التي أعلنت خضوعها له وقدمت الرهائن، فضلوا الاستفادة من هذه الفرصة وحذوا حذو الآخرين.

وكمكافأة للجنود على ماقاسوه في هذه الحملة الشاقة وهم بأعلى درجات الصبر والجلد والتحمل والمثابرة – إذ كان زحفهم خلال أيام الشتاء القصيرة فوق طرقٍ غاية في السوء والعسر وفي جو من البرد القارس الذي لا يطاق – وعد قيصر كل جندي منهم بمنحه جنيهين بدلاً من الغنيمة وكل قائد مائة عشرة جنيهات.

وأرسل فيالقه حينئذ عائدةً إلى مراكزها الشتوية وعاد هو إلى بيبراكت بعد غياب دام أربعين يوماً.

وبينما كان قيصر هناك منشغلاً بالاستماع لدعاوى الناس وحججهم وقضاياهم جاء إليه مبعثون من البيتوريجيين يشتكون من أن الكارنوتيين قد قاموا بشن هجوم عليهم وأنهم يطلبون المساعدة في صدهم فقام قيصر على الفور عندئذ وعلى الرغم من أنه لم يكن قد استراح في بيبراكت أكثر من ثمانية عشر يوماً باستدعاء الفيلق الرابع عشر والفيلق السادس وهما الفيلقان اللذان كانا في ساون *Saone* يقومان بتدبير الحنطة، وزحف على رأسهما نحو الكارنوتيين لمعاقبتهم، وحينما سمع هؤلاء بأن الجيش الروماني قادم إليهم أخذوا عبرة من المصير الذي حل ببقية القبائل فهجروا قراهم ومدنهم، حيث كانوا يعيشون في بيوت صغيرة كانت قد بنيت على عجل لمواجهة الحاجة الملحة للملاجئ شتوية (وذلك لأن هزيمتهم الأخيرة قد تضمنت خسارتهم للعديد من مدنهم) وهربوا متشتتين بمختلف الاتجاهات، لم يشأ قيصر أن يُعرض رجاله إلى شدائد الطقس ولا سيما في ذلك الوقت من فصل الشتاء حيث يكون فيه أسوأ حال، ولذلك قرر إقامة معسكر له في سينابوم *Cwnabum* عاصمة الكارنوتيين فأنزل بعض عناصر الفيالق في بيوت تتبع للغاليين في حين تمت حماية البقية في ملتجآت نصبت لتغطي خيام الجند وتم إسقافها بالقش على نحو من السرعة البالغة، إلا أن عناصر الفرسان والقوات الاحتياطية فقد أرسلت لتتعقب العدو حيثما تبلغ بأنه قد ذهب، وهي سياسة كانت تبررها نتائجها حيث كانوا يعودون غالباً وهم محملين بالغنائم.

وكانت معاناة الكارنوتيين شديدة بسبب قسوة الشتاء، وقد تم ترهيبهم وترويعهم على يد قواتنا إلى أقصى حدود الترهيب والترويع، فبعد أن طردوا من بيوتهم لم يتجرؤوا على المكوث طويلاً في أي مكان أخر، ولم تمنحهم الغابات ملاذاً مناسباً نظراً لقسوة الطقس الذي كان غالباً عاصفاً حتى تبعثروا أخيراً وبعد تكبدهم لخسائر جسيمة بين القبائل المستقرة على حدودهم.

في هذا الوقت من العام، أي في فصل الشتاء البارد، حيث كان القيام بالحملات أمراً شائكاً، اعتقد قيصر أن من الكفاية له منع قيام العدو بهجوم معادٍ للرومان من خلال تشتيت قواته التي كانت تتجمع لشن ذلك الهجوم، وأصبح الآن، بصواب تفكير وحصافة رأي، متأكداً من أنه لن تحدث أي ثورة خطيرة هناك قبل فصل الصيف، ولذلك وضع الفيلقين اللذين كانا معه تحت إمرة تريبوينوس *Trebonius* وأسكنهما في مراكز شتوية في سينابوم، وانكب على دراسة القضية التالية التي كانت تستدعي اهتمامه، فوفود كثيرة قد جاءت إليه من الريميين تحذره من أن البيلوفاسيين *Bellovacies* – وهم أفضل المقاتلين في غاليا كلها حتى أنهم يبزون بقية البلجيين في ضراوة قتالهم – يتأهبون للحرب بالتضامن مع قبائلهم

ويحشدون قواتهم بكثافة وتركيز تحت قيادة قائدهم كوريوس ***correus*** والاتريباتي كوميوس *Commius* وقيل أنهم يعتزمون القيام بهجوم منظم ومدبر ضد السوسيونين *Suessione* الذين وضعوا تحت السيادة الريمية، واعتبر قيصر أن الشرف والحكمة تقتضيان منه حماية حلفاء سبق لهم أن قدّموا لروما خدمات جليلة ولذلك استنفر الفيلق الحادي عشر وأعلم غيوس فابيوس برسالة بعثها إليه أن يزحف على رأس فيلقه باتجاه إقليم السوسيونيين، وبعث للابينوس أن يرسل إليه واحداً من الفيلقين اللذين كانا تحت قيادته، وبهذه الطريقة، وبقدر ما كان يسمح به التوزيع الشتوي للقوات والضرورة العسكرية، استدعى قيصر الفيالق بالدور والتناوب للمشاركة بعبء الحملات في هذا الفصل بينما لم يسترح هو أبداً.

وحينما تجمعت القوات التي طلبها، زحف قيصر ضد البيلوفاسيين وأقام لنفسه معسكراً في أراضيهم وأطلق سرايا الفرسان في كل الاتجاهات للإمساك ببعض الأسرى الذين استطاع قيصر من خلالهم معرفة نوايا العدو، وبعد أن نفذت عناصر الفرسان أوامره نقلت إليه أن قلة قليلة من الرجال قد وجدت في البيوت، وأن هذه القلة لم تتخلف عن البقية بحراثة الأرض (لأن بلاد البيلوفاسيين بأكملها قد أخليت من السكان) وإنما أرسلت لتقوم بأعمال تجسسية وسأل قيصر الأسرى عن مكان تواجد القوات الرئيسية للجيش البيلوفاسي وعن الخطط التي قد رسموها، فأخبره هؤلاء بأن كل رجالهم القادرين على حمل السلاح إضافة إلى الأمبيانيين *Ambiani* والأوليرسيين *Aulerci* والكاليتيين *Caleti* والفيليوكاسيين *Veliocasses* والاتريباتيين يعسكرون معاً فوق إحدى الأراضي المرتفعة في غابة تحيط بها إحدى السبخات، وإنهم قد نقلوا ممتلكاتهم كافة إلى غابات أكثر بعداً من الغابة التي هم فيها، وأضافوا قائلين أنه كان بين الزعماء الأكثر تأييداً للتمرد والثورة والأكثر تشدداً نحو هذا الموضوع كان كوريوس *Correus* الذي جذب انتباه البيلوفاسيين بما عرف عنه من مقت وكراهية لاسم روما وكان كوميوس *Commius* قد غادر المعسكر قبل بضعة أيام – حسبما قال هؤلاء الأسرى – وتوجه لطلب المساعدة من القبائل الجرمانية القاطنة على مقربة منهم والتي تمتلك طاقة بشرية غير محدودة، وأخيراً شرح هؤلاء الرجال لقيصر الخطة التي تمت الموافقة عليها من قبل الزعماء بالإجماع والتي حظيت بدعم حماسي متقد من قبل أفراد الشعب، وأردف هؤلاء قائلين أنه إذا كان ما نقل عن قيصر بأنه قادم على رأس ثلاثة فيالق فقط صحيحاً فإنهم يعتزمون النزول لمقاتلته كي يتجنبوا اضطراهم لمقاتلته لاحقاً تحت ظروف أكثر قسوة وأشد وطأة وضمن شروط غير مؤاتية حينما يجتمع الجيش الروماني بأكمله في الميدان، أما إذا جاء على رأس قوة ضخمة فإنهم سيلتزمون بموقعهم الذي

اختاروه وسينصبون الكمائن لمنع الرومان من الحصول على الحنطة والعلف وبقية المؤن الأخرى (لا سيما وأن العلف في مثل هذا العام نادر ولا يمكن العثور عليه إلا في أماكن متفرقة هنا وهناك).

وتم التثبت من صحة هذه الحقائق بشهادة عدد من الأسرى وقد كان لخطة العدو في حملته الحالية المضادة للرومان الأثر البالغ في ذهن قيصر من حيث أنها مدروسة تماماً ومختلفة كثيراً عن الخطط المتهورة والارتجالية التي تتميز بها الشعوب البربرية، ولذلك قرر قيصر بذل كل ما في وسعه لجرهم للقتال سريعاً من خلال جعلهم يعتقدون بأنهم قادرون على الاستخفاف بالقوة التي يقودها ضدهم، كان قيصر في الواقع يمتلك ثلاثة فيالق من المقاتلين المتمرسين ذوي العراقة في التجربة، والحنكة في التصرف، تميزهم عن غيرهم شجاعة نادرة وهم الفيلق السابع والفيلق الثامن والفيلق التاسع، علاوة على الفيلق الحادي عشر الذي يتألف من نخبة من الشبان في ربيع العمر مضى عليهم الآن في الخدمة تحت ظل قيصر سبع سنوات، ويعلق قيصر عليهم أسمى آماله على الرغم من أنهم لا يمتلكون بعد ما يمتلكه الآخرون من خبرة قتالية أو سمعة على مستوى الشجاعة الفذة، وبعد أن استدعى ضباطه ونقل إليهم كل المعلومات التي تلقاها وطلب منهم تشجيع عناصرهم من خلال نقل هذه المعلومات إليهم، وعلى أمل تحريض العدو على النزول إلى الميدان ومباشرة القتال بواسطة إعطائه الانطباع بأن قيصر لا يصطحب معه سوى ثلاثة فيالق فقط أمر فيالقه الثلاثة المؤلفة من العناصر المتمرسة أن تزحف جنباً إلى جنب ضمن صفوف متراصة في المقدمة، تتبعها قافلة الأمتعة وبدا جسم القوة بأكملها حتى بعد ضم قافلة الأمتعة إليها، صغيراً للغاية على نحو ما كان عليه الأمر عادة في مثل هذه الحملات، وطلب قيصر من الفيلق الحادي عشر أن يشكل مؤخر القوات، ووفق هذا التنظيم سيكون العدو قادراً فقط على مشاهدة عدد الفيالق الذي أعلنوا بأنهم راغبون في مواجهته.

وأصبح رتل القوات الرومانية على مرأى من القوات المعادية في وقت أبكر مما توقعه الغاليون، ولمحوه على نحو مفاجئ يتقدم بخطى وئيدة وحثيثة وثابتة وقد تشكل تقريباً ضمن مربع فارغ الوسط وكأنه متأهب للقتال مباشرة، وعلى الرغم مما أظهره الغاليون من مظاهر الشجاعة مبدئياً إلا أنهم لم يتركوا المرتفع الذي كانوا يحتلونه، ولربما كان السبب في ذلك خشيتهم مما كان في أذهانهم من تصور حول المعركة أو لربما فوجئوا بالظهور غير المتوقع لقواتنا، أو لربما كانوا بانتظار رؤية ما سوف نفعله، لكنهم لم يقوموا بأي شيء سوى الانتشار أمام معسكرهم، كان قيصر قد عقد العزم على دخول المعركة لكنه فوجئ لما رأى كم كانت قوية حشودهم، ولذلك أقام لنفسه معسكراً مقابلاً لهم على الجانب الآخر

من وادٍ عميق الاتساع، وأحيط المعسكر الروماني بسور ارتفع اثني عشر قدماً، وبمتراس بارتفاع مناسب، وبخندقين عرض الواحد منهما خمسة عشر قدماً لهما انحدار عمودي قائم وبأبراج لكل منها ثلاث طبقات نصبت ضمن مسافات متقاربة، وقد تم الوصل بينهما جميعاً بواسطة دهاليز أرضية محمية من الخارج بمتاريس صنعت من أغصان الشجر الصغيرة اللدنة والمجدولة، وعلى هذا النحو يمكن للمعسكر، إضافة للخندق المضاعف أن يحرس بصفين من المدافعين: واحدٌ منهما على طول الدهاليز الأرضية حيث يكون المدافعون أقل تعرضاً للكشف من قبل العدو نظراً لارتفاع مكانهم وبالتالي يكون بإمكانهم إطلاق قذائفهم بثقة أكبر وجعل هذه القذائف تصل إلى مدى أبعد، والآخر فوق السور حيث يكون المدافعون، رغم أنهم أقرب إلى العدو، محميين من القذائف المعادية بواسطة الدهاليز، ورُكبت لمداخل المعسكر أبواب أُحيطت من جانبيها بأبراج عالية على نحو خاص، وكان لهذه الدفاعات المحكمة هدفان: أولهما أن قيصر كأن يتوخى أن يجعل الغاليين يتخيلون بأنه خائف منهم وبالتالي يمنحهم ثقة أكبر. وثانيهما أن هذه الدفاعات ستجعل المعسكر الروماني، في الوقت ذاته قوياً ومحصناً إلى حد أن قوة صغيرة يمكنها الدفاع عنه في حين تتفرغ بقية القوات للتطواف في البلاد بحثاً عن العلف والقمح.

وحدثت مصادمات متكررة بين عناصر العدو ومجموعات صغيرة من جنودنا كانت تركض مسرعةً باتجاه الأرض السبخية الواقعة بين المعسكرين، كما كانت بعض عناصر الاحتياط الغالية أو الجرمانية تقوم أحياناً بعبور السبخة وتطارد العدو بكل حماسة ونشاط، وكان العدو نفسه أحياناً يقوم بعبور السبخة ويدفع بدوره برجالنا إلى الخلف لبعض المسافة، ومن الحتمي طبعاً أن تحدث أثناء قيامنا بحملاتنا اليومية بحثاً عن العلف عمليات تطويق لمجموعات معزولة وصغيرة من أفرادنا في أماكن كان من الصعوبة عليهم الخروج منها وذلك لأن المزارع التي كان يمكنهم الحصول على القش منها كانت قليلة وبعيدة عن المعسكر، وعلى الرغم من أن هذا لم يكن ليعني سوى خسارتنا لقلة قليلة من خدمنا وماشيتنا، إلا أنه أثار آمالاً حمقاء وواهية في أذهان البيلوفاسيين حول النصر، ولا سيما، حينما وصل كوميوس عائداً من المهمة التي ذهب فيها إلى القبائل الجرمانية وبرفقته سرية من عناصر الفرسان، ومع أن عدد هؤلاء العناصر لم يكن ليتجاوز الخمسمائة عنصر إلا أن مجرد فكرة وصول العون الجرماني إليهم كان كافياً لجعل البيلوفاسيين يطيرون تيهاً وغروراً وخيلاءً.

ومع مرور الأيام ظل العدو ملتزماً بمكانه في المعسكر، وقد كان معسكره محمياً بالسبخة التي تم الحديث عنها آنفاً وبقوة موقعه إذ كان من الواضح أن من الصعوبة البالغة

مهاجمته بدون كفاح دامٍ، ولتطويقه بالقوات كان الأمر يحتاج إلى جيش ضخم، ولذلك أرسل قيصر أوامره اللازمة إلى تريبونيوس *Trebonius* كي يستدعي بالسرعة القصوى الفيلق الثالث عشر الذي كان يمضي شتاءه تحت قيادة تيتوس سيكسيتوس بين البيتوريجيين ويلتحق بقيصر بعد أن يكون قد شكل جيشاً من ثلاثة فيالق بزحف سريع ومتواصل، وفي تلك الأثناء استخدم قيصر عدداً كبيراً من فرسانه الذين كان قد دعاهم للالتحاق بالجيش من الريمين واللينجونيين وقبائل أخرى بالتناوب مع القوات الأخرى بمرافقة مجموعات البحث عن العلف والحنطة وتصد أي هجوم مفاجئ يقع عليها، وبعد تنفيذهم لهذا الواجب لعدة أيام أصبحوا لا مبالين على نحو ما يحدث عادة عندما يستمر روتين القيام بنفس العمل لفترة من الزمن، واكتشف البيلوفاسيون الأماكن التي كانت تذهب إليها مجموعات البحث عن العلف كل يوم، ونصبوا لهم كميناً من نخبة مشاتهم في نقطة تكسوها الأشجار، وأرسلوا في اليوم التالي بعض عناصر فرسانهم إلى هناك لتقوم باستجرار رجالنا وإيقاعهم في الشرك وبالتالي يتم تطويقهم وقتلهم، وصادف أن يكون الريميون هم من يقع في المصيدة على اعتبار أنه كان دورهم للقيام بذلك الواجب في ذلك اليوم أي واجب مرافقة جماعات البحث عن العلف فحينما لمحوا، وعلى نحو مباغت، مجموعة صغيرة من فرسان العدو أخذوا بمطاردتنا وتعقبنا بحرارة لاهبة معتقدين بأنهم في مأمن تام نظراً لتفوق عددهم، ولكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم محاطين بعناصر مشاتهم الذين كانوا متسترين في كمين تحت الشجر، ودب فيهم الرعب والهلع عندئذ فتراجعوا على عجل وباندفاع متهور أكثر مما يحدث عادة أثناء تقهقر عناصر الفرسان من معركة قتالية، وكانت خسارتهم قائدهم فيرتيسكوس *Vertiscus* الحاكم الأول للقبيلة الذي كان بسبب كبره في السن غير قادر حتى على موازنة جسمه فوق سراج جواده، لكنه كأي غالي رفض أن يكون سنه عذراً له للتخلي عن أمر القيادة، وأصر على أخذ دوره في القتال وملأ هذا الفوز الذي تضمن موت حاكم رئيسي وقائد الريميين نفوس العدو بالكبرياء والبهجة، وتعلم رجالنا من خلال هذه البلية التي نمّت عن حظ عاثر للريميين أن من الواجب عليهم أن يستطلعوا الأماكن التي يقيمون فيها مواقعهم بدقة أكثر وحذر أشد وتعلموا أيضاً أن يكونوا أكثر تروياً وتعقلاً في مطاردتهم لعدو متراجع.

واستمر القتال بهذا الشكل على نحو يومي على مرأى من العسكريين وفي مواقع يمكن فيها خوض السبخة، وفي إحدى هذه المصادمات تقدمت عناصر المشاة الخفيفة كافة التي كانت قد أحضرت من ألمانيا للقتال ما بين صفوف الفرسان الرومان، بخطى حثيثة فوق السبخة وبجرأة متميزة وقتلت عناصر المجموعة الغالية التي كانت تتصدى لها وطاردت البقية

بنشاط وهمة عالية، فصعق الرعب قلوب الأعداء وهربوا كالجبناء، وليس فقط أولئك الذين تمت مهاجمتهم في مواقع قريبة أو جرحوا بالقذائف بل حتى العناصر الاحتياطية التي كانت تتمركز كالعادة على مسافة لا بأس بها عن نقطة الاشتباك، وتم طردهم جميعاً من كل جزء من المرتفع الذي حاولوا التوقف فوقه وظلوا يتراكضون حتى بلغوا معسكرهم، حتى أن بعضاً منهم كان يشعر بالخجل من النظر إلى وجوه رفاقه في المعسكر فاستمر يعدو إلى مسافة أبعد، وجعلت هذه التجربة القتالية الخطيرة كامل الجيش البيلوفاسي يحس باليأس وذلك لأن هؤلاء الغاليين الذين يجعلهم أي فوز تافه مغرورين مختالين قد أرعبتهم وبسهولة واضحة هذه النكسة البسيطة.

واستمر أفراد العدو ولعدة أيام تلت في معسكرهم لكنهم حينما بلغ مسامع قادتهم خبر أن تريبونيوس وفيالقه على وشك الوصول إلى المكان اعتراهم خوف شديد من أن يُضرب حولهم حصار شبيه بذلك الذي حوصر فيه فيرسينجيتوريكس في اليشيا.

ولذلك قاموا ليلاً بإبعاد كل من كان منهم عثرة في مواجهة العدو - الكبار في السن غير القادرين على القتال وأولئك الذين لا يحملون سلاحاً - عن المعسكر مصطحبين معهم كل الأمتعة الثقيلة للجيش، وكانوا لا يزالون منشغلين بتشكيل هذه العناصر غير المقاتلة التي أخذت أجسامها ترتجف رعباً وفزعاً ضمن قافلة مضطربة يعوزها كل تنظيم ونظام (حيث أن الغاليين يرحلون دائماً ضمن موكب طويل من العربات حتى عندما يقتضي منهم الأمر الرحيل بأمتعة خفيفة) حينما أدركهم ضوء النهار، ولذلك اضطروا إلى صف قسم من جيشهم أمام المعسكر لمنع الرومان من مطاردة رتل هؤلاء المرتحلين ولمنحهم الوقت الكافي للابتعاد مسافة لا بأس بها عن المعسكر؟، ولم يعتقد قيصر أن من الحكمة مهاجمة قوات العدو في هذه المرحلة طوال ما هي ملتزمة بالجانب الدفاعي، لا سيما وأن ذلك سيعني التقدم فوق تلة منحدرة، وأراد بذات الوقت أن يحرك فيالقه نحو نقطة أقرب إلى المعسكر المعادي ليتمكن من تهديدهم بخطورة أكبر ويجعل من المجازفة المحفوفة بالموت مغادرتهم موقعهم، كان من الصعوبة اجتياز السبخة الواقعة بين المعسكرين كما كانت ستعيق قيام قواتنا بمطاردة سريعة لأفراد العدو لكن كان على الجانب الأخر من السبخة هضبة تكاد تلامس تلك التي يتوضع فوقها معسكر الغاليين، إذا لم يكن ليفصله عنها سوى وهد صغير ضيق، وبناءً على ذلك وضع قيصر مسالك فوق السبخة وقاد فيالقه عبرها وسارع للوصول إلى سهل واسع فوق قمة الهضبة تحميه من الجانبين منحدرات شديدة الميلان، وبعد أن أعاد قيصر هناك تشكيل قواته على نحو ما كانت عليه سابقاً تقدم نحو حافة السهل المرتفع وصف عناصره

ضمن خطوط المعركة في مكان تكون فيه تشكيلات العدو المتراصة المتلاصقة ضمن مدى قذائفها.

ولما كان العدو واثقاً من القوة الدفاعية لموقعه فقد كان راغباً في مقاتلة الرومان إذا حاولوا صعود التلة التي يقع فوقها معسكره، إلا أنه لم يجرؤ على تجزئة قواته بإرساله كتائب إلى هنا وهناك خشية من أن يضعف من معنوياتهم ويحط من روحهم القتالية، ولذلك ظلوا مصفوفين في المكان الذي هم فيه، وحينما شاهد قيصر أنهم لا ينوون التزحزح من موقعهم حدد مساحة مناسبة لإقامة معسكر له ولقواته فوق الهضبة التي صعد إليها، وأبقى عشرين كتيبة في حالة من الجاهزية القصوى للقتال، وكلّف البقية في عمل التحصينات اللازمة للمعسكر الجديد، وحينما اكتمل العمل فيها رتب عناصر مشاته أمامها وركز عناصر مختارة من سلاح الفرسان في نقاط مختلفة مع خيولهم مسروجة جاهزة، لم يتمكن البيلوفاسيون من قضاء ليلتهم في الموقع الذي كانوا فيه ولم يعد بمقدورهم في الواقع البقاء آمنين هناك أكثر من ذلك، ولما شاهدوا أن الرومان على أتم الاستعداد لمطاردتهم إذا غادروا مكانهم لجأوا إلى خديعة لتغطية رحليهم عن المكان.

كان لديهم في المعسكر عدد كبير من حزم القش والأماليد الصغيرة أو الغصينات كانوا طوال الوقت يستخدمونها للجلوس عليها، ومرروا هذه الحزم من يد إلى يد حتى وضعوها أمام خط القتال لديهم، وعند المساء أعطي الأمر بإشعال النار فيها جميعاً، وبذلك أخفى ستار من الدخان الكثيف وألسنة اللهب المتصاعدة المفاجئة كل جيشهم عن الرومان، وكانت لدى الغاليين الفرصة للهرب بأقصى سرعة ممكنة، وعلى الرغم من أن هذا الحاجز من النار منع قيصر من مشاهدتهم فعلياً يذهبون إلا أنه حزر بأن الهدف منه تغطية هروبهم، ولذلك أرسل بعض عناصر فرسانه لملاحقتهم، كما انه حرّك الفيالق إلى الأمام وبحذرٍ شديد لأنه خشي أن يكون الغاليون قد دبروا مصيدة أو نصبوا كميناً لهم فنية العدو قد تكون التمسك بموقعه ومهاجمة قيصر بعنف في موقع سيء، وقد اعترى معظم عناصر الفرسان الرومان الخوف من دخول ذلك الطوق الكثيف من الدخان والنيران، ومن كانت لديهم الشجاعة الكافية منهم لمحاولة القيام بذلك وجدوا أنهم بالكاد يستيطعون رؤية رؤوس خيولهم، إضافة إلى أنهم هم أيضاً كان يشكّون في أن يكون العدو وقد حضر لهم مصيدةً، فتركوا العدو ينسحب دون أي مضايقة أو إزعاج، وقد مكنهم هذا الانسحاب الذي أملاه عليهم في الحقيقة خوفهم – إنما نُفّذ بأعلى درجات المهارة والبراعة والإبداع – من الوصول وبدون أي خسائر إلى موقع قوي جداً لا يزيد في بعده عن موقعهم الأول أكثر من عشرة أميال، حيث هناك أقاموا معسكرهم.

ومـن هنـاك اسـتمر البيلوفاسـيون بـإطلاق مجموعـات مـن فرسـانهم ومشـاتهم الـتي استطاعت من خلال نصبها للكمائن هنا وهناك تكبيد المجموعات الرومانية الباحثة عن العلف خسائر جسيمة، وقد تصاعدت هذه الهجمات على نحو متكرر من حين إلى آخر – وعلم قيصر أخيراً من أحد الأسرى أن كوريوس قد حشد نخبة من قواته تتألف من ستة آلاف من أشجع عناصر مشاته مع ألف من عناصر الفرسان عزم على استخدامها في كمين في منطقة توقّع غزارة الحنطة والقش فيها أن تجذب الرومان إليها، تبعاً لذلك أرسل قيصر إلى هناك عناصر فرسانه التي كانت دائماً ترافق المجموعات الرومانية الباحثة عن العلف والحنطة وأرسل معهم بعض عناصر المشاة الاحتياطية الخفيفة التي تنتشر بين صفوف عناصر الفرسان، وقاد قيصر نفسه قوة فيالقه التي تألفت من عناصر ذوي شجاعة فذة وتقدم بها إلى أقرب ما يمكن من الموقع.

كان الغاليون قد اختاروا لكمينهم منطقة سهلية لا يتجاوز اتساعها ميلاً مربعاً تحيط بها من كل جانب غابات من العسير اختراقها ونهر غاية في العمق، وقد طوقوها بجنودهم وعناصر فرسانهم. كان رجالنا يعرفون ما كان ينبغي عليهم أن يتوقعوه، فلذا كانوا على أهبة الاستعداد لمواجهة أي هجوم، لا سيما وأنهم قد تسلحوا على نحو جيد وعالمين بأن الفيالق مقبلة إلى المكان خلفهم. فامتطوا جيادهم وتوجهوا إلى ذلك السهل سرية إثر سرية، واعتقد كوريوس أن هذه هي فرصته ليوجه ضربته الموجعة للعدو الروماني فخرج من مخبئه مع قوة صغيرة في بادئ الأمر، وهاجم أقرب الوحدات إليه. واجه رجالنا هجومه بحزم وثبات ولم يتجمهروا معاً – وهي خطيئة غالباً ما ترتكب أثناء المعارك بسلاح الفرسان من خلال ما يصيب العناصر المقاتلة من رعب وخوف – فعندما تكون صفوف المقاتلين متراصة يصبح من الحتمي تكبد الخسائر، واتخذت سرايا الفرسان الرومانية مواقع منفصلة لها وكانت مجموعات صغيرة من الرجال تقاتل بالتناوب الواحدة منها تغطي أجنحة الأخرى كي لا يكون بمقدور الغاليين محاصرتهم، وبينما كانت قوة كوريوس لا تزال مشتبكة مع عناصرنا خرجت بقية فرسان العدو من الغابات، ووقعت معارك حامية الوطيس في أجزاء مختلفة من الميدان ودامت لوقت طويل دون أن تحسم النتيجة إلى أن ظهرت القوة الرئيسية لمشاة العدو تدريجياً من مخابئها ضمت تشكيل المعركة وأكرهت فرساننا على التقهقر، لكن سرعان ما تم دعم فرساننا بالمشاة الخفيفة التي أرسلت معهم أمام الفيالق، ونشرت عناصر المشاة نفسها بين سرايا الفرسان وقاتلت بصمود نادر، وظلت المعركة لبعض الوقت متعادلة ثم اتخذت أخيراً المنحى التقليدي لمثل هذه الاشتباكات. وحقيقة أن قواتنا قد تجاوزت الصدمة

الأولى دون كارثة، على الرغم من أن الكمين قد اصطادها والمباغتة قد أدهشتها، ولكن منحتها فائدة كبيرة ففي تلك الأثناء كانت الفيالق تقترب منها والرسل تصل إلينا تباعاً حتى سمع كلا الطرفين المتقاتلين وفي الوقت نفسه تقريباً أن القائد العام للجيوش الرومانية على وشك الوصول إلى المكان على رأس قواته متأهباً لدخول المعركة، أخذ رجالنا عندئذ يقاتلون بطاقات مضاعفة واثقين من دعم الفيالق لهم في حال استمرت المعركة إلى حين وصولهم، إلا انهم عقدوا العزم على كسبها بدونهم إذا استطاعوا ذلك كي يحتفظوا بكل المجد لأنفسهم، وخارت الروح القتالية للعدو الذي حاول الهرب في كل الاتجاهات إلا أن الهرب النسبة لهم كان أمراً مستحيلاً لأنهم وقعوا بالشرك من خلال ذات العثرات التي أملوا أن يقع بها الرومان، لكنهم بعد أن ضعفت معنوياتهم بسبب الهزيمة وأحسوا باليأس وفقدان الأمل نظراً لخسارتهم لأكثر من نصف عددهم ولوا الأدبار كيفما اتفق نحو الغابات والنهر الذي أشرنا إليه سابقاً، فقط كي يتم ذبحهم على يد مطارديهم الرومان الذين كانوا يتبعونهم على أعقابهم، لكن ما من كارثة يمكن لها أن تثني كوريوس عن تنفيذ قراره، فهو لا يريد ترك المعركة، كما لا يريد اللجوء إلى الغابات ولا يرغب بالاستسلام حينما مُنحت له فرصة الإبقاء على حياته، وإنما ظل يقاتل ببطولة خارقة يوزع الجراح يمنة ويسرة إلى أن أثار غضب الرومان المنتصرين فأصابوه بسهم وقتلوه.

كانت المعركة لتوها قد انتهت حينما وصل قيصر مع فيالقه، وتوقع أن تجعل أنباء هذه الهزيمة المدمرة الغاليين يتركون معسكرهم الذي قيل بأنه لا يبعد عن مكان المجزرة سوى ثمانية أميال، واعتماداً على ذلك، على الرغم من أن النهر اعترض سبيله بعض الشيء، مكن قيصر جيشه من العبور وأخذ بالتقدم نحو معسكر العدو، ووصلت في تلك الأثناء حفنة من الهاربين الجرحى الذين حمتهم الغابات من الموت إلى معسكر العدو تحمل أول أنباء الكارثة، وحينما سمعوا أن كل شيء قد مني بالإخفاق، وأن كوريوس قد لاقى حتفه، وأن سلاح فرسانهم وزهرة مشاتهم قد فقدوا وواجهوا مصيراً أسود تيقن البيلوفاسيون وحلفاؤهم بأن الرومان لابد في طريقهم الآن إليهم ليقوموا بشن هجوم على المعسكر، فدعي سريعاً إلى اجتماع عام من خلال نداءات الأبواق وأصر الجنود على أن الضرورة تقتضي إرسال مبعوثين ورهائن إلى قيصر، وحينما تمت الموافقة على ذلك بالإجماع هرب كوميوس *Commius* إلى القبائل الجرمانية التي كان قد استمد منها بعض التعزيزات العسكرية، أما الباقون فقد أوفدوا مبعوثين إلى قيصر فوراً وتوسلوا إليه أن يكتفي بالعقوبة التي أُنزلت بهم، وهم يُعدونها على وجه التأكيد عقوبة أشد وطأة وأثقل وزناً من أي عقوبة أخرى قد يوجهها، وعلى نحو

متعمد، رجل امتلك ما يمتلكه قيصر من شفقة ورحمة ومشاعر إنسانية، حتى ولو لعدو لم يسبق له أن عوقب وقال المبعوثون: (لقد سُحقت قواتنا في المعركة التي شنتها ضد فرسانك وفقدنا الآلاف من خيرة جنودنا ومقاتلينا لدرجة أن أحداً منهم لم ينجُ ليروي لنا حكاية المذبحة، مع ذلك، يجب علينا أن نكون، في مثل هذا الظرف، ممتنين شاكرين لأي نعم صغيرة وأي مشاعر بالرأفة والشفقة) وأضافوا قائلين: (لقد عادت علينا المعركة بشيء من الفضل وحسن الحظ على كل حال: فكوريوس الذي كان المهيج العام للموقف والداعية الرئيسي الذي أثار مشاعر الشعب نحو الحرب، وكان مسؤولاً عنها بصورة أساسية قد قتل، وطوال الفترة التي كان فيها كوريوس حياً كان مجلس شيوخنا دائماً محكوماً من قبل الجهلة من الرعاع) ورداً على هذه المناشدة وضحّ قيصر للمبعوثين بأن البيلوفاسيين قد لعبوا دوراً كبيراً في الانتفاضة العامة التي وقعت في العام المنصرم، وأنهم قد يتمادون في عدائهم للسلطة الرومانية أكثر من أي قبيلة أخرى بدلاً من أن يحكموا العقل ويأخذوا العبرة من استسلام وخضوع تلك القبائل، وقال إنه من السهل جداً طبعاً إلقاء اللوم فيما ارتكبوه من أخطاء عند عتبة من مات، لكن ما من أحد مهما يكن قوياً ولو حاز على دعم جماهير العامة يستطيع أن يبدأ ويواصل حرباً ضد إرادة زعماء القبائل وفي وجه معارضة المجلس القبلي وكل الأفراد الوطنيين، لكنه مع ذلك سيكتفي بالعقوبة التي هم جلبوها على أنفسهم.

ونقل المبعوثون بعد أن عادوا إلى أبناء بلادهم ليلاً رد قيصر على ما طرحوه وجهزوا العدد المطلوب من الرهائن، أما مندوبو بقية القبائل الأخرى التي كانت تنتظر لدى أي نجاح سيحرزه البيلوفاسيون فقد أسرعوا الآن يعلنون عن خضوعهم لقيصر والسلطة الرومانية ويقدمون ما يُطلب منهم من رهائن ويستجيبون للأوامر التي تفرض عليهم، فقط كوميوس ظل خارج دائرة هؤلاء خائفاً من أن يعهد بأمر حياته لأي إنسان، وذلك لأن لابينوس كان قد اكتشف في السنة الماضية حينما كان قيصر في إيطاليا الشمالية يعقد جلساته الدورية أن كوميوس يحيك المؤامرات ويدبر المكائد مع عدة قبائل أخرى ضد قيصر، وقد قرر لابينوس أنه لن يكون من الغدر سحق مثل هذا الخائن، كان أمراً لا جدوى منه استدعاؤه إلى المعسكر، فلو استدعي لما جاء، ولكانت دعوته إلى هناك ستجعله يتخذ احتياطاته وحذره، ولذا أرسل لابينوس فولوسينوس *Volusenus* محملاً إياه الأوامر بإجراء مقابلة صورية خادعة مع كوميوس وقتله، وقد تم انتقاء عدد من قادة المئة اختيروا لهذا الغرض وذهبوا معه، وأثناء المقابلة أعطى فولوسينوس الإشارة المتفق عليها مسبقاً من خلال الإمساك بيد كوميوس إلا أن قائد المئة الذي ضرب أول ضربة بالسيف أخفق في قتله نهائياً، إنما أصابه بجرح بليغ في رأسه،

وربما لأن شجاعته قد خانته لأنه ليس معتاداً على القيام بمثل هذا العمل، أو ربما لأن أصدقاء كوميوس كانوا سريعين في المجيء إليه وسحب الطرفان أسلحتهما وهدف كليهما الخروج من المكان سالماً أكثر مما كان بهدف القتال، فالرومان اعتقدوا بأن كوميوس قد جرح جرحاً مميتاً، والغاليون أدركوا انهم اقتيدوا إلى مصيدة فخشيوا أن يحيط بهم عدد أخر من الرومان يكون متخفياً في مكان ما، وبعد هذه التجربة التي واجهها كوميوس قيل بأنه قد قرر عدم الظهور إطلاقاً في مكان يتواجد فيه روماني.

٢- المواجهات الأخيرة والاستيلاء على أوكسيلودونوم *Uxellodunum* عام (٥١ ق.م)

الآن وبعد أن تم إخضاع معظم القبائل النزاعة للحرب، لم يعد هناك احتمال آخر أن تتشكل مقاومة غالية منظمة ضد السلطة الرومانية في أي مكان، لكن على اعتبار أن الكثيرين من أبناء البلاد كانوا يغادرون مدنهم وأراضيهم المحروثة لتجنب العيش تحت راية الحكم الروماني أطول مدة ممكنة، قرر قيصر إرسال كتائب من فيالقه إلى مختلف أنحاء البلاد، فاحتفظ لنفسه بالفيلق الثاني عشر وبقسطوره مارك أنطوني، وأرسل غيوس فابيوس على رأس فيلقين من الفيالق وخمس كتائب إلى أقصى الغرب الغالي لأن بعض القبائل هناك، حسبما نقل إلى قيصر، كانت ثائرة على السلطة، وقد لا يكون بمقدور الفيلقين الموجودين في تلك المقاطعة تحت قيادة كانينيوس *Caninius* ضبطهم وتقييد تحركاتهم نظراً لكونهما دون مستوى الكفاءة القتالية المطلوبة.

واستدعي لابينوس للانضمام إلى قيصر، بينما أرسل الفيلق الخامس عشر الذي كان يمضي شتاءه تحت قيادة لابينوس إلى الشمال الإيطالي لحماية الجاليات الرومانية هناك من أن يقع عليها الأذى، على نحو ما حصل لسكان تريست *Treste* في السنة الماضية عندما هاجمتهم غارة مفاجئة شنها البرابرة عليهم، وانطلق قيصر نفسه مع ما يصحبه من قوات لتخريب ونهب إقليم الايبيوروني امبيوريكس *Ambioria The Eburonian* الذي فرّ يعتريه الخوف والفزع، وبذلك لم يكن بالإمكان إكراهه على الخضوع، وفكر قيصر أن السبيل الأمثل التالي لإحراز الرضى الذي تتطلبه منه رفعة مقامه وشرف سمعته هو تجريد البلاد من السكان وقطعان الماشية والمباني بشكل كامل إلى حد أن أي من الايبيورونيين الذين سيكون لهم حظ طيب بالنجاة سيمقتون امبيوريكس ويكرهونه كرهاً شديداً لما جلبه عليهم من كوارث ونكبات وبالتالي لن يسمحوا له بالعودة إلى بلادهم ثانية، وطافت كتائب من الفيالق ومن القوات الاحتياطية في كل أنحاء البلاد تقتل وتأسر أعداداً ضخمة من الأهالي وتحرق المنازل

وما حولها وتحمل الغنائم إلى أن اكتمل تدمير البلاد وتخريبها عن بكرة أبيها، وأرسل قيصر عندئذ لابنتوس مع فيلقين ضد التريفيريين وهم الشعب الذي يقطن على مقربة من الحدود الجرمانية، وبالتالي اعتاد على القتال في كل يوم من أيام حياته وأصبح إلى حد بعيد شرساً وعنيفاً بقدر ما هم عليه الجرمان ورافضاً لأي شيء يُطلب منه إلا إذا أجبر على فعله بالقوة المسلحة.

تلقى كانينوس في تلك الأثناء رسائل وكتباً من ديوراتيوس *Duratius* الذي كان دائماً صديقاً وفياً لروما على الرغم من أن قسماً من أبناء بلاده قد تمردوا على السلطة الرومانية يخبره فيها أن حشوداً ضخمة من العناصر المعادية قد تجمعت في بلاد البيكتونيين *Pictenes* ولذلك انطلق كانينيوس مع القوات التي كانت لديه إلى مدينة ليمونوم *Lemonum* وحين اقترابه منها حصل على معلومات أكثر دقة عن هذا الموضوع من الأسرى، حيث قالوا إن ديوراتيوس قد حوصر في المدينة على يد جيشٍ تألف من آلاف عديدة تحت إمرة دومناكوس *Dumnacus*، قائد الأنديين *Andes* ولم يتجرأ كانينوس على المجازفة بدخول معركة مع هذا الجيش، على اعتبار أن فيالقه لم تكن ضمن المستوى المناسب للقدرة القتالية، ولذلك اتخذ لنفسه موقعاً قوياً وأقام معسكر فيه، وعند بلوغ دومناكوس خبر اقتراب فيالق كانينوس حوّل كل ما لديه من قوات نحوهم للقيام بمواجهتهم، وحاول أن يعصف بالمعسكر لكنه وبعد أن قضى عدة أيام وهو يحاول القيام بذلك وتكبد أفدح الخسائر بالرجال دون التمكن من كسر طوق الدفاعات الرومانية عند أي نقطة عاد أدراجه ليواصل حصاره لمدينة ليمونوم *Lemonum*.

وتلقى فابيوس خضوع عدد من القبائل وتسلم منها الرهائن كضمانة لبقائها موالية، وحينما وصل رسوله بعث إليه كانينوس يبلغه بما يجري بين صفوف البيكتونيين انطلق فابيوس لإنقاذ ديوراتيوس فقرر دومناكوس عند هذه المرحلة أن موقعه ميؤوس منه، إذ ليس باستطاعته الصمود في وجه هجوم يشنّ عليه من الخارج وبذات الوقت يبقي عينيه مفتوحتين ليراقب بعناية وحذر التحركات التهديدية الخطيرة التي تقوم بها حامية ليمونوم. ولذلك انسحب على عجل معتقداً أن فرصته الوحيدة لضمان سلامته تكمن في جعل قواته تعبر نهر اللوار *Loire* الذي كان نظراً لاتساع مجراه صعب الاجتياز إلا فوق أحد الجسور. لم يكن فابيوس قد أصبح ضمن مدى رؤية العدو له أو التقى مع كانينوس بعد، إنما المعلومات التي وردته من أناس يعرفون المنطقة جدياً قادته إلى توقع اتخاذ الغاليين الذين صعق الرعب قلوبهم وغدوا في حالة من الهلع الشديد الوجهة التي كانوا يتخذونها فعلاً وبدقة متناهية، ولذا زحف

على رأس قواته نحو الجسر نفسه الذي كان دوميناكوس يتوجه إليه، وأطلق عناصر فرسانه أمام الفيالق بعد أن أخبرهم أن يكونوا في غاية الحذر وأن لا يبتعدوا كثيراً، إذ يجب عليهم عدم إرهاق خيولهم كي يكونوا قادرين على العودة إلى المعسكر الذي كانوا سيشاركون فيه عناصر الفيالق، وقد تم تنفيذ هذه الأوامر بالدقة المطلوبة، وأدرك الفرسان مؤخرة رتل دومناكوس وهاجموه بضراوة، فضعفت معنويات الغاليين الفارين وأعاقت طريقهم الأمتعة التي كانوا يحملونها وقتل الكثيرون منهم وتم الاستيلاء على قدر كبير من الغنائم، وبعد أن أحرز الفرسان الرومان هذا النجاح الباهر عادوا أدراجهم نحو المعسكر.

وفي الليلة التالية أرسل فابيوس سلاح فرسانه خارج المعسكر بعد أن أعطاه أمراً بالاشتباك مع العدة وتأخير زحفه حتى وصول فابيوس إليه، وقد أكدّ كوينتوس أتيوس فاروس *Quintus Atius Varus*، آمر سلاح الفرسان الرومان وهو رجل ذو شجاعة نادرة ونباهة عقلية خارقة أهمية هذه التعليمات لعناصره، وحينما أدرك رتل قوات دومناكوس ركزّ بعض سرايا فرسانه في مواقع مناسبة ليكونوا بمثابة احتياط للسرايا المشتبكة مع العدو.

وبدأت المعركة مع فرسان العدو وكانت حامية الوطيس، إذ دخل فرسان العدو المعركة بثقة غير عادية حيث توقف كامل رتل الغاليين كي تتمكن عناصر مشاتهم من تقديم الدعم للفرسان ضد فرساننا.

واستمرت المعركة بضراوة وشراسة متصاعدتين: فرجالنا كانوا ينظرون إلى العدو باستخفاف وازدراء بعدما هزموه في اليوم السابق، ولما كانوا عارفين بأن فيالقنا على وشك الوصول إليهم وليست ببعيدة كثيراً عنهم فقد شعروا أن من الخجل ترك مواقعهم، وأرادوا أن ينهوا المعركة بأنفسهم، ولذا قاتلوا مشاة العدو بشجاعة يائسة، أما بالنسبة للعدو فإن تجربته في اليوم السابق قادته للافتراض أن قواتنا ستكون بدون دعم أو تعزيز، واعتقدوا أن لديهم الفرصة لإبادة سلاح فرساننا. وحيث أن القتال دام طويلاً وبقسوة شديدة فقد قام دومناكوس بصف عناصر مشاته ضمن خطوط معركة منظمة كي يتمكنوا من حماية كل سرية من سرايا فرسانهم كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وعلى نحو مفاجئ بدت للعيان طلائع فيالقنا، وما أن شاهدهم العدو حتى أصيب بصدمة أفقدته كل عزيمة ورباطة جأش حتى أن مشاته وفرسانه معاً شرعوا يولون الأدبار من الميدان مشتتين شذر مذر يطلقون صرخات رعب هادرة، تاركين خلفهم قافلة أمتعتهم في فوضى لا أول لها ولا آخر، وبذلك حصل فرساننا الآن على المكافآت التي أرادوها على ما بذلوا من جهود بطولية في قهر مقاومة العدو، وجن جنونهم فرحاً بنجاحهم وفوزهم، فراحوا يعدون مبتهجين إلى الأمام منتشرين في كل مكان وهم

يطلقـون هتافـات النصـر، وطوقـوا الغـاليين المتقهقـرين وقتلـوهم بـدون توقـف إلى أن أرهقـت جيادهم وتعبت اليد اليمنى لكل منهم، وقد تم ذبح أكثر من اثني عشـر ألفـاً، حتى أن بعضاً منهم واجه موته وهو لا يزال يحمل سلاحه بيديه، بينما آخرون ألقوا بأسلحتهم أرضاً بسبب ما اعتراهم من الخوف وتم الاستيلاء على قافلة الأمتعة بأكملها.

بعد الهزيمة المنكرة التي مُني بها الجيش الغالي وصلت إلى الرومان أخبار مفادها أن درابس *Drappes* وهو من السنونيين *Senonia* ولوكتيريوس *Lucterius* وهـو كادوركـاني[1] *Cadurcan* يزحفان باتجاه المقاطعة الرومانية على رأس قوة صغيرة يبلغ تعدادها ألفي عنصر كحد أقصى، تمت للمتهم من الهاربين، سارع كانينوس لملاحقتهم وبصحبة فيلقين من الفيالق الرومانية، معتقداً أنه سيكون من الخزي والعار أن تلحق بالمقاطعة الرومانية أي أضرار أو أن يصاب سكان المقاطعة بالذعر بسبب ما سيقوم به هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق من أعمال نهب وسلب.

وانطلق فابيوس الذي كان قد انضم عند هذا الوقت إلى كانينيوس مع بقية الجيش باتجاه أراضي الكارنوتيين والقبائل الأخرى التي كانت قد تكبدت خسائر جسيمة في المعركة مع دومناكوس، واعتقد فابيوس أنها بعد هزيمتها الأخيرة ستكون أكثر تقبلاً للخضوع للسلطة الرومانية وإعلان استسلامها، لكنها إن تعطى فرصة للاستراحة فإن دومناكوس قد يتمكن من تحريضها واستحثاثها نحو القتال من جديد، والذي حدث هو أن فابيوس قد نجح نجاحاً منقطع النظير في جرها سريعاً نحو الخضوع، فالكارنوتيون الذين غالباً ما واجهوا صعوبة كبيرة في إعلان خضوعهم ولم يسبق لهم أن طلبوا شروطاً لذلك عرضوا الآن الرهائن واستسلموا والقبائل الآروموريكانية *Aremorican* التي تقطن على الساحل الأطلنطي في أقصى الغرب حذت حذو الكارنوتيين وخضعت لمطالب فابيوس فور ظهوره مع جيشه هناك. ونفي دومناكوس خارج البلاد وأجبر على الهرب لوحده متوارياً من مكان إلى مكان حتى بلغ أبعد زاوية في غاليا.

وحين سمع درابس ولوكتيريوس بأن كانينوس أصبح قريباً خلفهما، أدركا أنها ستكون كارثة محققة لهما إن يدخلا المقاطعة الرومانية وعلى أعقابهما جيش يلاحقهما،

---

(١) داب درابس على شن إغارات على قوافل الأمتعة والمؤن الرومانية منذ بداية تمرد فيرسينجيتوريكس ترافقه عصابة من المجرمين اليائسين جمعها من كل أنحاء البلاد تشتمل على عبيد وعدهم بمنحهم حريتهم، وخارجين على القانون من مختلف القبائل، إضافة إلى قطاع طرق ولصوص، أما لوكتيريوس فقد سبق أن حاول غزو المقاطعة الرومانية أثناء المرحلة الأولى للتمرد التام.

وأدركا أيضاً أنه لم يعد بإمكانهما القيام بالتجول في أنحاء البلاد كيفما يشاءان، يرتكبان شتى أعمال النهب واللصوصية، ولذا توقفا في إقليم الكادورسين أبناء بلاد لوكتيريوس ومواطنيه، حيث كان للوكتيريوس سلطة كبيرة على القبيلة الكادورسية خلال أيام ما قبل هزيمة فيرسينجيتوريكس ولا يزال الداعية ذو النفوذ يثير مشاعر الجهلة من عامة الناس من أهالي البلاد، أما الآن فقد قام مستخدماً قواته وقوات درابس باحتلال أوكسيلودونوم *Uxellodunum* وهي مدينة تتمتع بموقع ذي قوة طبيعية كبيرة وسبق لها أن كانت واحدة من المدن التابعة للوكتيريوس، وبإقناع سكانها بإلحاح شديد للانضمام إليه.

توجّه كانينيوس إلى أوكسيلودونوم على الفور لاستطلاع المكان، كانت المدينة محمية من كل جانب بكتل صخرية شديدة الانحدار تجعل من العسير جداً على مقاتل يحمل سلاحه تسلقها حتى ولو لم تواجهه أي مقاومة أثناء التسلق، ومن ناحية أخرى، لن يكون من السهل على الغاليين داخل المدينة إخلاءها خلسة أو سراً بالنظر للسبب نفسه، واستطاع كانينيوس رؤية أن الغاليين يمتلكون كمية كبيرة من الأمتعة الثقيلة التي لا يمكن لها أن تخرج من المدينة دون أن تكون مكشوفة للهجوم من قبل عناصر فرساننا وفيالقنا، فشكل قواته ضمن ثلاث فرق ونصب ثلاثة معسكرات فوق تلال شاهقة وأخذ انطلاقاً من هذه المعسكرات يبني تحصيناته ويشق خنادقه حول المدينة بأقصى سرعة ممكنة، وبما كان متوفراً لديه من عدد رجال محدود.

وسكان المدينة الذين ما تزال تسكن في أفئدتهم ذكرى الحوادث المأساوية المفجعة التي وقعت في اليشيا بدؤوا الآن يشعرون بالخوف من أن يلاقوا نفس المصير نفسه إذا حوصروا، ولوكتيريوس بالذات الذي سبق له أن مر بتجربة الحصار السابق ظل ينبههم إلى ضرورة ترتيب موضوع مؤن الطعام، وقرر القادة بالإجماع إبقاء جزء من قواتهم في المدينة والخروج بأنفسهم على رأس قوة مسلحة تسليحاً خفيفاً للحصول على الحبوب، وفي الليلة التالية تركوا ألفي رجل مسلح داخل المدينة وانطلق درابس ولوكتيريوس مع البقية، وتمكنوا خلال بضعة أيام من الحصول على كمية كبيرة من الحبوب من بلاد الكادورسيين. جزء منها كتبرعات طوعية من السكان والجزء الآخر نتيجة مطالبة مسلحة، كما أنهم قاموا من حين إلى آخر بشن بعض الهجمات الليلة العرضية ضد مواقع كانينوس المحصنة. قرر كانينوس على أثرها استكمال خط التحصينات والخنادق الدفاعية التي كان يقيمها لبعض الوقت وذلك لأنه رأى بأنه سيكون مكرهاً إما على ترك جزء من الخط دون حراسة وإما على جعل المواقع الفردية ضعيفة وعرضة للخطر إذا وزّع رجاله على عدد هائل من النقاط القوية.

واتخذ درابس ولوكتيريوس أخيراً لهما موقعاً يبعد قرابة عشرة أميال عن المدينة معتزمين نقل ذخيرتهما الضخمة من الحنطة إلى المدينة شيئاً فشيئاً، وتوزعوا الإشراف على تنفيذ هذا العمل فيما بينهما بحيث يبقى درابس لحماية المعسكر مع قسم من القوات بينما يقود لوكتيريوس قافلة الخيول المحملة بالحنطة إلى داخل المدينة، فركز لوكتيريوس نخبة رجاله عندئذ في نقاط مختلفة، وحاول قبيل الفجر تهريب الحنطة إلى داخل المدينة سالكاً ممرات ضيقة عبر الغابات، إلا أن الضجيج الذي أحدثه مرور القافلة جذب انتباه خفراء الحراسة المناوبين في المعسكر الروماني وأرسلت على الفور مجموعات الكشافة الرومانية خارج المعسكر لترى ما كان يحدث، وما أن تلقى كانينوس تقريرهم حتى استدعى الكتائب التي كانت مستنفرة بعتادها الكامل ومتأهبة للتحرك من أقرب المراكز إليه وهاجم القافلة لحظة انبلاج ضوء النهار، خبلت المفاجأة الغاليين فتشتتوا مصعوقين برعب شديد ينشدون حماية عناصر النخبة لهم، وحالما وقعت عيون الرومان على رجال يحملون أسلحة في أيديهم هاجموهم بضراوة بالغة وعنف مضاعف رافضين منح رحمتهم وهوادتهم لأي منهم، وهرب لوكتيريوس من المكان مع حفنة من الرجال إلا أنهم لم يستطيعوا شق طريق عودتهم إلى المعسكر.

وعلم كانينيوس بعد نجاحه الباهر هذا، من الكثيرين من الأسرى الذين استجوبهم كل على حدة كي يتثبت من صحة أقوالهم، بأن قسماً من قوات العدو قد استبقي في المعسكر تحت إمرة درابس على بعد نحو اثني عشر ميلاً عن مكان الموقعة، والآن وبعد أن أكره أحد القائدين على الفرار ينبغي أن يكون من السهل، على نحو ما اعتقد كانينيوس، مفاجأة البقية الباقية منهم وتهويلهم وكانت لدى كانينوس فرصة ذهبية لتنفيذ ذلك، إذ إن أحداً من رجال لوكتيريوس لم يكن بعد قد هرب عائداً إلى المعسكر، بناءً على ما توفر لكانينوس من معلومات آنئذ، لينقل خبر الهزيمة إلى درابس على أي حال لم يرَ كانينيوس أي خطورة في تنفيذ هجوم مباغت على العدو، ولذلك أرسل كانينوس أمامه نحو معسكر العدو كل عناصر فرسانه والمشاة الجرمان الذين كانوا غاية في الرشاقة وسرعة الحركة، ومن ثم وزّع الفيالق بين المعسكرات الثلاثة وقاد هو الفيلق الآخر الذي تسلح تسلحاً خفيفاً لخوض المعركة، وحينما أصبح على مقربة من العدو جلبت له عناصر كشافته التي أرسلها أمامه نبأً مفاده أن درابس، تبعاً للتقليد الغالي المعتاد، قد غادر التلة ونصب لنفسه معسكراً فوق ضفة أحد الأنهار، وأن المشاة الجرمان وعناصر الفرسان قد انقضت عليه مباغتة وهاجمت المكان، فقاد كانينوس عناصر مشاته على الفور بها نحو الأمام وهي مصطنعة ضمن تشكيل المعركة وأسلحتهم بأيديهم وعند إعطائهم الإشارة المتفق عليها قاموا بسرعة باحتلال كامل

المنطقة المحيطة بالتلة، وعند مشاهدة الجرمان والفرسان رايات فيالقهم زادوا من ضغط هجومهم بقوة أكثر، وشرعت عناصر الفيالق تهاجم من كل ناحية فقتلت وأسرت كل الغاليين واستولت على كمية من الغنائم، وكان درابس نفسه من بين الأسرى. وبذلك أحرز الرومان نجاحاً غامراً دون تكبد أي خسائر تذكر، وبعد أن تخلص كانينيوس من عدوه في العراء عاد لمحاصرة أوكسيلودونوم، إذ كان حتى ذلك اليوم يخشى استكمال حصاره للمدينة وتوزيع قواته على عدد كبير من نقاط الحراسة، أما الآن وبعد أن فرغ من عدوه فقد أعطى أوامره اللازمة للاستمرار في العمل بدأب وجد في كل مكان، وعاد جيش فابيوس في اليوم التالي من حملته ضد الكارنوتيين وشغل قطاعاً من أعمال حصار اوكسيلودونوم.

كان قيصر في تلك الأثناء قد ترك أنطوني على رأس خمس عشرة كتيبة في إقليم البيلوفاسيين لمنع البلجيين من رسم أي خطط جديدة للثورة، وقام هو نفسه بزيارة القبائل القاطنة في الغرب الغالي، وطلب من بعضها تقديم رهائن أخرى. إلا أن همه الأول والرئيسي من تلك الزيارة كان إعادة طمأنة تلك القبائل وتبديد مخاوفها وكان خوف الكارنوتيين واضحاً، بشكل خاص لأنهم يعرفون بأنهم كانوا مذنبين بجريمة سفك الدماء الأولى عند بداية التمرد الكبير، ولكي يريح قيصر القبيلة الكارنوتية بأجمعها من أي قلق أو توتر أو مخاوف جديدة طلب منها تسليم غويتواتر *Gutuater* لينال قصاصه وكان غويتواتر الرجل المسؤول بصورة أساسية عن الاعتداء الوحشي الذي وقع، وعن انتهاك حرمة السلطة الرومانية، كما كان المثير الرئيسي للحرب، وكان هذا الرجل قد رحل عن القبيلة يعتريه خوف شديد على حياته حتى أنه لم يدع أياً من أهالي بلده يعرف مكانه، لكنهم بعد قيامهم ببحث دؤوب عنه عثروا عليه وأحضروه سريعاً إلى المعسكر الروماني، وعلى الرغم من أن قيصر كان دائماً ضد اتخاذ عقوبات قاسية بحق أي إنسان إلا أنه أكره على إعدامه كي يرضي الجنود الذين تجمهروا حوله واتهموا غويتواتر بالمسؤولية عن كل المخاطر والخسائر التي عانوا منها في القتال، ونتيجة لذلك جلد غويتواتر بالسياط حتى الموت وقطع رأسه عن جسده.

وتلقى قيصر خلال فترة تواجده في بلاد الكارنوتيين عدة رسائل كانت شبه قتالية من كانينيوس يخبره فيها بما كان قد حدث لدرابس ولوكتيريوس وعن العزيمة والتصميم اللذين يظهرهما المدافعون عن أوكسيلودونوم في صمودهم في وجه الرومان.

وعلى الرغم من أن أعداد هؤلاء كانت ضئيلة وغير ذات اعتبار إلا أن قيصر فكر أنه ينبغي معاقبتهم بشدة على عنادهم وقساوة رؤوسهم، وإلا فالغاليون أجمعين قد يفترضوا بأن إخفاقهم في هزيمة الرومان لم يكن نتيجة حاجتهم إلى القوة، وإنما بسبب حاجتهم إلى المثابر

والمواظبة وبالتالي قد تقوم القبائل المتوضعة في مواقع مؤاتية بالحذو حذو سكان أوكسيلودونوم وتشرع بالمطالبة بالحرية، وجميعهم يعرفون أن فترة قيادة قيصر ستنتهي بعد صيف أخر، وبالتالي فإذا كان باستطاعتهم الصمود حتى ذلك التاريخ فإنه لن يكون أمامهم أي شيء يخافونه، ولذلك قام قيصر بالتقدم بأقصى سرعة على رأس فرسانه للانضمام إلى كانينيوس بعد أن أعطى أمره إلى جنراله كوينتوس كالينوس *Quintus Calenus* مع الفيلقين اللذين كانا تحت إمرته باتباعه ضمن سرعة زحف عادية.

كان وصول قيصر إلى أوكسيلودونوم مفاجأة للجميع، وكان طوق الحصار حول المدينة قد استكمل في هذا الوقت والرومان قطعوا عهداً على أنفسهم أن يواصلوا الحصار بأي ثمن وما أن علم قيصر من الآبقين بأن حامية المدينة تمتلك مخزوناً ضخماً من المؤن حتى قرر القيام بمحاولة قطع وأخذ مياههم، كان سكان أوكسيلودونوم يحصلون على الماء من نهر كان يجري على طول الوادي العميق الذي يطوّق معظم الجبل الذي تتوضع فوقه المدينة، ولم يكن هناك مجال لتحويل مياه النهر عن مجراها بالنظر إلى طبيعة موقع النهر، وكانت المياه تنساب منخفضة نحو سفح الجبل إلى حد أنه كان من المتعذر حفر أقنية لصرفها عن مجراها.

إلا أن الطريق إليها نزولاً من المدينة كان في غاية الانحدار والصعوبة، حتى أن أي اعتراض من قبل الرومان سيجعل من المستحيل على المدافعين عن المدينة الوصول إلى الماء دون خوض غمار مجازفة قد تعرضهم للقتل أو للإصابة بجروح، أو العودة سالمين بدون ماء صعوداً نحو قمة ذلك الانحدار، فقرر قيصر بناءً على ذلك تركيز رماة السهام وضاربي المقلاع عند نقاط مختلفة لمنعهم من الاقتراب من النهر، حتى أنه صوّب مدفعيته نحو بعض أسهل الطرق نزولاً نحو الأسفل وأصبح الآن على المحاصرين جميعاً عند الحاجة إلى الماء الذهاب إلى نقطة واحدة لا غير واقعة عند أسفل سور المدينة تماماً حيث يوجد هناك نبع غزير تتدفق مياهه خارجة من جوف الأرض، كان هذا النبع على ذلك الجانب الوحيد الذي لا يطوقّه النهر من المدينة، وكان يمتد لمسافة ثلاثمائة قدم تقريباً، وكان رجالنا تواقين لإيجاد طريقة يجبرون فيها العدو على الابتعاد عن النبع، لكن قيصر لوحده كان يرى كيف يمكن أن يتم ذلك، فقد دفع بخطٍ من الواقيات النقالة يرتفع نحو المنحدر مقابل ذلك المكان، وشرع يبني مصطبة، وهو أمرٌ لم يتضمن الكثير من العناء والكد والجهد فحسب وإنما تضمن أيضاً قتالاً متواصلاً، وذلك لأن العدو أسرع يركض نحو الأسفل يرمي بقذائفه من الأعلى وهو على مسافة آمنة من قواتنا، وبذلك جعل محاولات رجالنا الذين عقدوا العزم على صعود المنحدر تكلفهم الكثير من الخسائر لكنهم على الرغم من ذلك، دفعوا بالواقيات النقالة نحو الامام

وتغلبوا على صعوبات الأرض وتضاريسها من خلال العمل الدؤوب لتنفيذ ما أوكل إليهم من مهمات وقاموا في الوقت ذاته بحفر أنفاق نحو النبع والغدران التي تغذيه، ولم ينطو هذا العمل على أي مخاطر تعرضت لها قواتنا نظراً لأنه كان بالإمكان تنفيذه دون أن يسترعي انتباه العدو إليه.

وتم رفع المصطبة إلى ارتفاع تجاوز ستين قدماً وتركز فوقها برج من عشر طبقات ليس بهدف الوصول إلى مستوى أسوار المدينة، وهو أمر لا يمكن لأية أعمال حصار أن تقوم به، وإنما بغرض الهيمنة على النبع والإطلال عليه، ثم رفعت المدفعية إلى البرج وصوبت نحو الطريق المؤدي إلى النبع وغدا من الخطورة البالغة الذهاب إلى هناك للحصول على الماء حتى أنه ضمن وقت قصير لن تتعذب بالعطش قطعان الماشية وخيول التحميل فحسب وإنما العدد الهائل من سكان المدينة أيضاً.

وأصاب المحاصرون يأس قاتل نتيجة هذه المشكلة فقاموا بتعبئة براميل بالودك — أي الشحم الحيواني — وبالقار — أي الزفت — وبقطع من شرائح الخشب، وبدحرجتها بعد إضرام النار فيها نحو منشآتنا الحصارية وبشن هجمات عنيفة وضارية في الوقت نفسه كي يكون جنودنا مضطرين لحماية أنفسهم وغير قادرين على إطفاء ألسنة اللهب.

فاشتعلت الواقيات النقالة والمصطبة على الفور لأن أي شيء كان يقذف من أعلى المنحدر كان لا بد له إلا أن يصيبها، وكان من السهولة جداً أن تلتهب بسبب المواد الحارقة التي انسكبت فوقها، وكان على رجالنا القتال بشراسة تحت سقف حالة من الخطر الشديد، زيادة على أن طبيعة الأرض التي يقاتلون فوقها كانت ضدهم، إلا أنهم واجهوا كل هذه الصعاب والعقبات بكل شجاعة فذة، فقد كانوا فوق مواقعهم المرتفع قادرين على رؤية بقية الجيش وكلا الطرفين كان يطلقان الهتافات العالية والتهليل لتشجيع المقاتلين، وهكذا كي يثبت كل رجل منهم حماسته ونشاطه وجلده أمام هذا العدد الكبير من الشهود حاول أن يجعل نفسه محط الأنظار بقدر ما كان بإمكانه، في تعريض نفسه لخطر الأذى من جروح أو حروق.

وبعد أن لاحظ قيصر أن الخسائر التي تتكبدها قواته جسيمة وفادحة أمر الكتائب بتسلق الصخور من أي مكان يستطيعون تسلقها منه، وأثناء ذلك عليهم إطلاق صيحات عالية كي يعطوا للعدو انطباعاً بأنهم يحاولون إيجاد موطئ قدم لهم فوق السور عند نقاط مختلفة ومتعددة، حيث بهذه الطريقة اضطرت الحامية التي كانت لوحدها القادرة على أن تكون بيّنة مما كان يحدث على الجوانب الأخرى من المدينة إلى استدعاء قواتها — نتيجة ما أصابها من

الخوف والرعب – من هجومها على منشآتنا الحصارية لترسل بها إلى فوق الأسوار، وبعد أن تحرر جنودنا من اضطرارية القتال الذي كانوا يخوضونه ضمن تلك الشوط بعد انكفاء العدو عن الهجوم شرعوا مباشرة بإخماد ألسنة اللهب في بعض الأماكن، وعزل الأجزاء التي كانت لا تزال مشتعلةً، إلا أن سكان المدينة استمروا يقاومون بعناد وعزيمة وصمود حتى بعد أن ماتت أعداد كبيرة منهم نتيجة العطش إلى أن سدت أنفاقنا أخيراً الجداول التي تصب في النبع وحولتها عن مجراها، ووضع هذا الجفاف المفاجئ لذلك المورد المائي الذي لم يسبق له أبداً أن شح أو تضاءلت مياهه في حالة من اليأس والقنوط حتى أنهم لم يدركوا أن جفافه قد حدث نتيجة لمكر عدوهم، وإنما اعتقدوا أنه حدث نتيجة مشيئة قوى فوق طبيعية فاستسلموا إذعاناً للضرورة.

رأى قيصر أن كل ما فعله في غاليا قد لا ينتهي أبداً إلى نتيجة ناجحة إذا سمح لثورات كهذه أن تندلع على نحو متواصل في أماكن متفرقة من البلاد، وكانت رحمته ورأفته ذائعة الصيت في كل مكان إلى درجة أن أحداً لن يعده وحشياً إذا اتخذ مرة إجراءات قاسية وأليمة بحق بعض الناس، ولذلك قرر ردع كل القبائل الأخرى عن طريق جعل المدافعين عن أوكسيلودونوم مثلاً يتعلم منه الجميع ويضعوه نصب أعينهم، فكل من حمل السلاح منهم قطعت يداه وسمح له بالانصراف كي يرى كل من يشاهده أي عقوبة ستحل بالأشرار من الناس، أما بالنسبة لدرابس فإنه بعد أن قبض عليه كانينوس حرم نفسه من الطعام حتى مات جوعاً، والسبب في ذلك يعود إما لعدم استطاعته تحمل الإذلال والخزي من خلال تقييده بالسلال، وإما لخشيته من عقوبة أشد من التقييد بالسلاسل أما لوكتيريوس فإنه بعد هروبه من المعركة خارج أوكسيلودونوم فكر أن من الخطورة على حياته البقاء في أي مكان بعد أن استحق كراهية قيصر الشديدة له، الكراهية التي لا تسمح لقيصر أن يصفح عنه، فأجبر بالتالي على أن يعهد بحياته لواحد بعد الأخر إلى أن وقع أخيراً تحت سلطة أرفيرني يدعى ايباسناكتوس *Epasnactus* الذي قام بدون أي تردد البتة بتقييده بالسلاسل وإحضاره إلى قيصر لأنه كان أحد المناصرين المتحمسين للرومان.

كان لابينوس في تلك الأثناء قد خاض معركة ناجحة بسلاح الفرسان في بلاد التريفيريين وأنزل بهم وبحلفائهم الجرمان الذين كانوا على أهبة الاستعداد دوماً لتقديم العون لكل من يقاتل ضد الرومان خسائر جسيمة، واسر زعماء التريفيريين وأسر معهم الزعيم الايديووي الوحيد الذي كان لا يزال يحمل السلاح ضد روما سوروس *Surus* وهو رجل ذو منبت لامع وشجاعة متميزة.

أصبح الوضع الآن مقبولاً ومرضياً في كل أنحاء بلاد الغال، فخلال عدة سنوات من الحملات المتتالية غدت غاليا برمتها بلاداً مفتوحة خاضعة للسيادة الرومانية، لكن لما كان قيصر لم يقم بزيارة اكويتانيا *Aquitania* بعد وعلى الرغم من أنها كانت قد أخضعت للسلطة الرومانية جزئياً على يد بوبليوس كراسوس *Publius Crassus* فقد قرر التوجه إليها على رأس فيلقين من فيالقه لقضاء القسم الأخير من فصل الصيف هناك، ونفذ الحملة ضمن سرعته المعتادة وبفوزه المعتاد: حيث أن جميع القبائل الأكويتانية أرسلت مبعوثين عنها إلى قيصر وقدمت الرهائن إشعاراً بولائها، وبدأ بعد ذلك برحلة إلى ناربون *Narbonne* ترافقه مجموعة حراسة من الفرسان تاركاً جنرالاته ليقوموا بتوزيع الجيش على مآويه الشتوية فوضعت أربعة فيالق في الإقليم البلجيكي تحت قيادة مارك أنطوني وتريبونيوس *Trebonius* وبوبليوس فاتينيوس *Publius Vatinius* وأودع فيلقان في بلاد الايديوويين – وهم أكثر القبائل نفوذاً وتأثيراً في غاليا – واثنان بين الطورونيين *Turoni* على حدود إقليم الكارنوتيين لضبط كل القسم الغربي من غاليا حتى الساحل الأطلسي، أما الفيلقان المتبقيان فقد أرسلا إلى مراكزهما الشتوية في بلاد الليموفيسيين *Lemovices* القريبة من الحدود الأرفيرنية، وبهذه الطريقة لم يترك جزء من غاليا بدون قوات رومانية، مكث قيصر في المقاطعة الرومانية بضعة أيام وهو يمر سريعاً من مدينة إلى أخرى يعقد جلساته الدورية ويحل النزاعات السياسية ويمنح المكافآت لمن يستحقونها وكانت لديه فرص طيبة لمعرفة الموقف الذي تبناه كل زعيم منهم من التمرد العام، حيث أن المساعدة المخلصة التي قدمتها المقاطعة خلال هذا التمرد وقد مكنه من الصمود في وجهه، وعند استكمال قيصر لهذا العمل عاد وانضم إلى فيالقه التي كانت في نزلها الشتوية بين البلجيين، وأمضى الشتاء في نيميتوسينا *Nemetoccenna* وهناك سمع قيصر كيف أن كوميوس *Commius* التريباني قد تعامل مع مجموعة من الفرسان الرومان. كان أنطوني قد وصل إلى المآوي الشتوية هناك وكان الاتريباتيون هادئين إلا أن كوميوس منذ أن جرح أثناء لقائه مع فولوسينوس *Valusenus* وهو مستعد دائماً للتصرف كمهيج للشعور العام وداعية للفتنة وزعيم للتمرد في أي مؤامرات أو مكائد حربية قد تدبر بين مواطنيه من أبناء القبائل ضد الرومان.

وعلى اعتبار أن الاتريباتيين كانوا في الوقت الراهن خاضعين للسيطرة الرومانية وليس هناك مجال لإثارة مشاعرهم فقد نظم كوميوس مجموعة صغيرة من الخيالة وأعال نفسه واتباعه بما استطاعوا سلبه ونهبه نتيجة أعمال لصوصية وقطع طرق، وراحوا يعترضون بإغاراتهم المفاجئة سبيل قوافل عديدة متجهة نحو المعسكر الروماني هناك، فأختير

فولوسينوس الذي أُلحق بفيلق أنطوني خلال فصل الشتاء كآمر لسلاح الفرسان -المهمة مطاردة خيالة كوميوس، وكانت تناسب فولوسينوس نظراً لما كان عليه من شجاعة نادرة، وتقبل قيامه بها بكل رغبة واستجابة بسبب أنه كان يمقت كوميوس ويبغضه شديد البغض.

لذا، نصب له الكمائن في أماكن مختلفة وشن عدداً من الهجمات الناجحة على الخيالة، حتى بذل فولوسينوس وبعض رجاله أخيراً جهوداً حثيثة لإلقاء القبض على كوميوس نفسه بعد مصادمة كانت عنيفة وضارية بشكل خاص من خلال اللحاق به ومطاردته وهم على مسافة قصيرة منه. ابتعد كوميوس على ظهر جواده وجرّهم وراءه لبعض المسافة، ثم استغاث حينئذ بأتباعه على نحو مفاجئ وطلب منهم، بالنظر لما يكنه لـ فولوسينوس من كراهية شديدة، مساعدته ليثأر للجرح الذي أصيب به نتيجة غدر وخداع، واستدار بجواده ومضى متقدماً نحو مطارديه لوحده وأخذ يهاجمهم، وحذا اتباعه حذوه حيث لم يكن أمام فولوسينوس وحفنة من الرجال الذين كانوا معه سوى الفرار وهم مطاردون من قبل الغاليين استخدم كوميوس مهمازاً نخس به جواده الذي راح يعدو مقترباً كثيراً من فولوسينوس ورمحه بيده مسدداً نحوه وسرعان ما قذف به بقوة وأصاب به فخذ فولوسينوس، وعندما رأى عناصر فولوسينوس أن قائدهم قد جرح أطلقوا العنان لجيادهم دون لحظة تردد واستداروا إلى الخلف وصدوا مطارديهم فصرعوا عدداً من الغاليين وأسقطوهم أرضاً بعد أن أصابوهم بجراح نتيجة عنف الهجوم ومنهم من سحق تحت أقدام الجياد خلال المطاردة أو أخذ أسيراً – إلا أن كوميوس نجا من مصيرٍ كهذا نتيجة سرعة جواده، وهكذا كانت لرجالنا الغلبة في القتال، لكن فولوسينوس حمل عائداً إلى المعسكر وقد أصابه جرح بليغ وبدا وكأنه قد يصير ميتاً وكوميوس الذي إما لأنه قد رضي بما حققه من انتقام أو لأنه فقد الكثيرين من أتباعه ولم يعد بإمكانه مواصلة الشجار أكثر من ذلك، أرسل إلى أنطوني على كل حال، مبعوثاً يمثله وعرض تقديم الرهائن كضمانة على أنه سيعيش في أي مكان يطلب منه العيش فيه وأنه سيفعل كل ما يؤمر بفعله، كان رجاؤه الوحيد تسليماً بالخوف الذي يسكنه أن لا يطلب منه الحضور إلى مكان يتواجد فيه روماني وقرر أنطوني أن مخاوفه مسوغة ولذلك استجاب لالتماسه وقبل رهائنه.

وخلال فصل الشتاء الذي قضاه قيصر في القسم البلجيكي من غاليا جعل هدفه الوحيد المحافظة على القبائل مواليةً للسلطة الرومانية ورؤية أن أحداً منهم ليست لديه الذريعة أو الحجة ليقوم بالتمرد أو الثورة أو يأمل بالكسب منها، وكان الشيء الذي لم يرغب قيصر بحدوثه بالدرجة الأولى هو أن يضطر للقيام بحملات إخضاع قبيل مغادرته، حيث أن ذلك

سيعني ترك غاليا في حالة من التمرد في وقت يكون فيه قد حان موعد سحب جيشه، وكل القبائل ستكون تواقة بشغف لحمل السلاح حينما يمكنها أن تفعل ذلك دون خوض أي مجازفة مباشرة ولذلك جعل قيصر شروط خضوعهم أقل وطأة وأكثر تقبلاً وأخف تحملاً من خلال مخاطبته للحكومات القبلية بعبارات إطرائية فيها الكثير من المجاملة والمديح، ممتنعاً عن فرض أي أعباء جديدة عليهم وواهباً هداياه السخية للمواطنين الأوائل والزعماء، وكان من السهولة بهذه السبل إغراء واستمالة شعب أرهقته هزائم كثيرة نحو العيش بسلام.

الملاحظات المتعلقة

بفصول الرواية

الفصل الأول - الجزء الأول:

١ – هناك الكثير من الأمثلة في رواية قيصر عن نزاعات حربية نشأت بين أفراد العائلة الواحدة، مثال ذلك ديفيشياكوس وشقيقه دومنوريكس (في الجزء الأول من الفصل الثاني، وفي الجزء الثالث من الفصل السادس) وفيرسينجيتوريكس وعمه غوبانيتيو *Gobannitio* (في الجزء الأول من الفصل السابع).

٢ – لا يبدو أن المجلس البلدي للدورويديين *Druids* والذي كان يتمتع بالثروة والسلطة قد لعب أي دور له شخصية اعتبارية في المقاومة الوطنية ضد الرومان، على الرغم من أن بعض أفراد هذا المجلس – كالأيديووي ديفيشياكوس – كانوا ذوي نفوذ سياسي مهم.

٣ – كان الفرسان الغاليون من النبلاء وكانت معظم القبائل السلتية *Celtic* (باستثناء قلة قليلة منهم والقبائل البلجيكية) إبان زمن قيصر قد تخلت عن الملكية، وتحكمها عموماً حكومات أقلية من هؤلاء النبلاء الذين تصرفوا كحكام وقضاة وأعضاء في المجالس القبلية وأحاطوا أنفسهم بحشود من الخدم والأقنان والأتباع شأنهم في ذلك شأن البارونات الإقطاعيين.

٤ – الأب ديس *Father Dis*: كان إله الموت وملك العالم السفلي المظلم ومن هنا تبرز أهمية الليل في حسبان الغاليين للزمن.

الفصل الأول – الجزء الثاني:

١ – من الواضح أن المقصود (بالثور الشبيه بالأيل) هو حيوان الرنة، وهو من الأيائل، لكن للرنة في الحقيقة قرنين والحديث هنا عن أيل له قرن واحد في منتصف رأسه – وحقيقة أن الألكة – وهو أكبر الأيائل الموجودة في أوروبا وآسيا – ليس له مفاصل في ساقيه وينام مستنداً إلى الشجر ما هي طبعاً إلا من حكايات الجن - أما بالنسبة للطريقة المزعومة

للإمساك بهذا الحيوان فإن من الصعوبة أن نعتقد بأن قيصر كان يأخذ مثل هذه الخرافات بعين الجد.

الفصل الثاني - الجزء الأول:

١ – كانت قبيلة الهيلفتيين السلتية الكبيرة ولنحو نصف قرن واقعة تحت ضغط متواصل من الجرمان، وأصبحت الآن محصورة ضمن أراضي سويسرا الحديثة ولربما بسبب خوفها من هجمات جرمانية جديدة، بعد دخول اريوفيستوس إلى غاليا، قررت البحث عن موطنٍ لها في الغرب الفرنسي.

٢ – إن القناة الواصلة بين جبال جيورا *Jura* ونهر الرون *Rhone* هي مضيق ايكلوس *Ecluse* الذي يمر منه الطريق من جنيف إلى ليون.

٣ – كان يصنع النير من رمحين مثبتين نحو الأعلى بزاوية قائمة ومن ثالث يثبت أفقياً عبرهما على ارتفاع يجبر الجنود المهزومين أثناء المرور تحته على الأنحاء إشارة لخضوعهم.

٤ – لما كان الطريق عبر إقليم السيكوانيين يمتد خارج حدود المقاطعة الرومانية فإنه لم يكن لقيصر الحق بتاتاً بالتدخل أكثر من ذلك، إنما الخطر الذي يتحدث عنه قيصر هنا ربما كان خطراً حقيقياً (على الرغم من أن أراضي السانتونيين *Santoni* كانت تبعد مائة وثلاثين ميلاً عن حدود المقاطعة الرومانية تقريباً) وكانت هناك سابقة لمثل هذا العمل الوقائي من جانب الحكام المحليين.

كان من بين الفيالق الأربعة التي خصصت لقيصر من أقاليمه وهي (الفيلق السابع والثامن والتاسع والعاشر) واحد أصلاً في ترانسلباين غاليا، والثلاثة الأخرى هي تلك التي قام بسحبها لتوه من مراكزها الشتوية في أكويليا *Aquileia* وإنْ نضيف الفيلقين الجديدين اللذين قام الآن بتجنيدهما وهما (الفيلق الحادي عشر والفيلق الثاني عشر) يصبح المجموع الكلي للفيالق ستة فيالق، وهي التي ستقوم بمواجهة الهليفيتيين.

٥ – إنه لأمر يناسب هدف قيصر أن يصور دومنوريكس على أنه مجرد مغامر طموح إلا أن الحقائق تفترض أنه كان في الحقيقة زعيماً لحزب جماهيري عارض نتيجة اهتمامه بالمصلحة الوطنية سياسة النبلاء الايديوويين المناصرة للرومان.

٦ – كانت كتيبة المقاتلين عند الجرمان والغاليين تتألف من حشد من القوات ضمن صفوف متراصة ومتلاصقة يتم تشكيلها على امتداد عمق ضخم ويتم تسليحها – بغض النظر عما كان عليه شكلها الأصلي لدى المقدونيين – برماح طويلة كي تصوب للعدو أجمة كثيفة

من رؤوس الرماح، وحينما تم تبني هذا التشكيل للكتائب المقاتلة من قبل الغاليين والجرمان كانت العناصر الواقفة في الصف الأمامي تمسك بتروسها على نحو يتداخل فيه الواحد مع الأخر أمام أجسادها.

٧ – طريقة القتال التي يتحدث عنها قيصر هنا كانت أسلوباً تقليدياً يتم اتباعه في الحروب القديمة – مهاجمة الجناح الأيمن لقوات العدو إذا كان الأمر ممكناً – وذلك لأن قوات العدو لا تستطيع بسهولة عند ذلك الجانب أن تحمي نفسها بتروسها.

الفصل الثاني – الجزء الثاني:

١ – حرب العبيد التي يشار إليها هنا وقعت ما بين ٧٣ و ٧١ قبل الميلاد – حيث أن مُجالد[١] ثراسي[٢] *Thracian* اسمه سبارتاكوس *Spartacus* حشد قوة ضخمة وهزم العديد من الجيوش الرومانية، وسحق أخيراً على يد كراسوس *Crassus* الذي أصبح فيما بعد عضواً في الحكومة الثلاثية.

٢ – السهل الذي عسكر فيه قيصر وأريوفيستوس هو سهل الألساس *Alsace*.

٣ – تبعاً لمخطوطات قيصر فإن نهر الراين كان يبعد قرابة خمسة أميال عن ميدان المعركة.

لكن على الرغم من أن من غير الممكن تحديد موقع المعركة على نحو من الدقة إلا أن ما من واحد من المواقع المحتملة للمعركة يبعد اقل من اثني عشر ميلاً عن الراين، ولربما ينبغي أن يكون عدد الأميال *XV* خمسة عشر بدلاً من *V* خمسة أميال.

٤ – يمكننا التسليم والافتراض بأن المعسكرات الشتوية للفيالق القيصرية في بلاد السيكوانيين كانت بيزانسون *Besancon* وحقيقة أن قيصر لم يقم بسحبها إلى المقاطعة الرومانية لإمضاء فصل الشتاء وهناك تجعل من الواضح وللمرة الأولى أن قيصر كان يعتزم فتح غاليا، وبصرف النظر عن طموحه الشخصي فإن ما كان يستحث ذلك الفتح هو أن الطريقة الوحيدة لمنع أي إغارات جرمانية جديدة كانت السيطرة على حدود الراين.

---

(١) المجالد: شخص وبخاصة أسير أو عبد يقاتل حتى الموت لإقناع الناس في روما القديمة. المترجم.

(٢) ثراس: *Thrace* إقليم واقع جغرافياً إلى الشمال من بحر إيجه والجنوب الغربي من البحر الأسود وأقصى الشمال الشرقي لليونان. المترجم.

الفصل الثاني — الجزء الثالث:

١ — كان الفيلقان الجديدان اللذان شكلا في شتاء عام (٥٨ ق.م) هما الفيلق الثالث عشر والفيلق الرابع عشر، وبهذه الإضافة الجديدة للفيالق السابقة أصبح لدى قيصر ثمانية فيالق، وظل الأمر على هذا الحال حتى عام (٥٤ ق.م).

٢ — إن التقدير الذي يقدمه الريميون حول عدد القوات البلجيكية لا شك أنه مبالغ به كثيراً لكن ولو كان الأمر كذلك فإنهم لا بد كانوا متفوقين على الرومان عددياً بكثير.

ديفشياكوس *Diviciacus* ملك السوسيونيين *Suessiones* كان طبعاً شخصاً آخر مختلفاً عن ديفيشياكوس الايديووي الشهير الذي يحمل نفس الاسم.

٣ — كان قيصر يستخدم النيوميديانين *Numidians* عادة كعناصر فرسان إلا أنه على نحو يذكر في مقطع لاحق من هذا الفصل استخدمهم كعناصر مشاةٍ خفيفة.

الفصل الثاني — الجزء الرابع:

١ — المدينة التي كان الأتيوايتوسيون *Atuatuci* يدافعون عنها كانت إما في نامور *Namur* أو في مونت فالهايز *Mont Falhize* الواقعة في منتصف الطريق بين نامور ولييج *Liege*.

٢ — بناءً على ما كان قيصر يبعث به من رسائل ورسل متفائلة إلى مجلس الشيوخ الروماني يبدو أن الجميع في روما قد اعتقدوا أن فتح غاليا قد اكتمل فعلياً.

الفصل الثاني — الجزء الخامس:

١ — كان الممر الجبلي الذي اعتزمت حملة جالبا*Galba* فتحه هو ذلك الذي يذهب عبر مضيق القديس بيرنارد الأكبر *Qreat ST, Bernard*.

الفصل الثالث - الجزء الأول:

١ — بعد أن أمضى قيصر فصل الشتاء في شمال إيطاليا وإيليريا *Illyria* حضر مؤتمر أعضاء الحكومة الثلاثية في لوكا *Lucca* ومن ثم عاد مباشرة إلى غاليا.

وهناك دليل يبين أن تخطيط قيصر للقيام بحملة ضد بريطانيا كان قديماً قدم عام (٥٧ ق.م) ولربما كانت معرفة الفينتيين لهذا الأمر ما حرضهم على التمرد والثورة حيث أن الفينتيين كانوا أقوى القبائل البحرية في غاليا وتربطهم ببريطانيا علاقات تجارية هامة.

٢ — إن ذريعة قيصر في معاملته الهمجية للفينتيين المحاصرين تعد ذريعة واهية، فالرومان الذين احتجزوا من قبلهم وقبل جيرانهم لم يكونوا سفراء وإنما ضباطاً مطلوبين للخدمة.

إن ما أراد قيصر تعليمه للفاليين فعلاً هو أن من الخطورة البالغة التمرد ضده.

الفصل الثالث — الجزء الثاني:

١ — يقول قيصر في محتوى هذا الجزء أنه أراد منع الأكيتانيين من إرسال مساعداتهم للمتمردين في غاليا السلتية، وعلى اعتبار أن من غير المحتمل لهؤلاء أن يتصرفوا على هذا النحو، وليس هناك ما يرجح ذلك بتاتاً، فإن عمله الهجومي ضدهم يبدو أنه كان عدواناً لا مسوغ له، وكان توجيه وإدارة بوبليوس كراسوس *Publius Crassus* للعملية ناجحاً ومثيراً للإعجاب.

كان لوسيوس مانليوس *Lucius Manlius* حاكم ترانسلباين غاليا عام (٧٨ ق.م) وشارك في الحرب ضد سيرتوريوس *Sertorius* في إسبانيا وأجبر على التراجع إلى اكويتانيا قام أهالي البلاد بمهاجمته والتغلب عليه.

الفصل الثالث — الجزء الثالث:

١ — على الرغم من أن قيصر يصرّح في القسم الأول من هذا الجزء أنه انطلق لمهاجمة كل من المورينيين والمينابيين فإن ما تذكره الرواية في الصفحات التي تلت هذا التصريح وفي نفس هذا الجزء إذا ما ربطناه بذلك الجزء الذي يصف فيه قيصر العمليات الحربية التي وقعت في السنة التالية في هذه المنطقة (نهاية الجزء الأول من الفصل الثاني) يبيّن أن قيصر قد قام بغزو إقليم المورينيين فقط وهم الذين يسيطرون على أقرب الموانئ إلى بريطانيا، ولم يقم بمهاجمة المينابيين.

٢ — نهر الميوس *Meuse* لا ينبع من سلسلة جبال الفوج المنخفضة *Vosges* وإنما من سهل لانغرس *Langers* ويقع هذا السهل ضمن أراضي اللينجونيين، أما جبال الفوج فلا تقع ضمنها.

وفي قوله أن نهر ميوس يصب في نهر الراين يقصد قيصر (أو الجغرافي الذي كان قيصر يستقي معلومات منه) بوضوح أنه يصب في نهر الوال *Waal* الذي ينضم إلى الراين عند نقطة لا تبعد كثيراً عن آرنيهم *Arnhem* ونهر ميوس الآن يلتقي مع نهر الوال على بعد أربعين

ميلاً عن البحر فقط إلا أن النهرين يقتربان من بعضهما كثيراً عند النقطة التي أشار إليها قيصر، ولربما كانا في ذلك الوقت مرتبطين ببعضهما بواسطة قناة.

٣ – كانت هذه الواقعة ضارة بسمعة قيصر، فاعتقاله للمبعوثين الجرمان الذين جاؤوا ليشرحوا له سبب خرقهم المزعوم للهدنة – والذي ربما لم يكن معتمداً أو جدياً – انتقد بإنصاف وعدالة على أنه مخالف لقواعد القانون الدولي الذي كان قيصر لتوه قد طالب بالتمسك به إبان أزمة الفينتيين (الجزء الأول من الفصل الثالث) صحيح أن عدو قيصر كاتو *Catto* اقترح بالفعل ضرورة استسلام قيصر للجرمان وعدم الاعتراف بشرعية سلطته إلا أن هذا لم يكن دون شك سوى تحرك سياسي لم يسترع انتباه أحد.

٤ – إن ترجمة الجملة التي تقول: (إنهم وصلوا إلى نقطة التقاء نهري الموسيل *Moselle* والراين) تعتمد على تصحيح للنص يعتبر أن هذين النهرين هما الميوس والراين، وهذا بدوره سيعني أن ميدان المعركة كان في هولندا في مكان ما قريب من نهر الوال *Waal*، وبهذه الحالة لابد أن يكون الجرمان قد تراجعوا لمسافة بعيدة نحو الشمال قبل المعركة، وإذا كان التصحيح صائباً فإنهم لا بد قد تقدموا باتجاه جنوب شرق عبر مقاطعة الأردينيين *Ardennes*.

في الدفاع عن مذبحة قيصر المعتمدة والمبيّنة لسائر الجيش الجرماني يمكن القول أن شبح هذه المجزرة في غاليا – إذا كانت بالفظاظة التي وصفها بها قيصر – كان ينذر بالتهديد والوعيد، إضافة إلى أن عمله هذا المتطرف بقسوته وعنفه قد وضع حداً نهائياً لكل التهديدات الجرمانية للسلام الغالي.

الفصل الرابع – الجزء الثاني:

١ – ربما كان الجسر الذي بناه قيصر يقع جغرافياً في مكان ما بالقرب من كوبلنز *Goblenz*.

٢ – على الرغم من الاستعدادات الواسعة المحكمة لهذا الغزو ضد ألمانيا، فمن المحتمل على نحو ما يقترحه قيصر، أنه لم يكن هادفاً لأي شيء آخر سوى القيام بإغارة تأديبية واستعراض للعضلات والقوة، وإذا ساورت قيصر في لحظة من اللحظات فكرة القيام بفتح ألمانيا فإن رأيه كان حكيماً في إلغائها من مخيلته.

الفصل الخامس - الجزء الأول:

١ – على الرغم من أنه كانت هناك علاقات واتصالات بين غاليا وبريطانيا إلا أن العون العسكري الذي تلقاه الغاليون حسبما يقول قيصر من البريطانيين لا يمكن أن يكون هو الدافع الحقيقي وراء غزوه لبريطانيا حيث أن هذه المساعدة العسكرية البريطانية للغاليين لم تكن على الإطلاق ذات أهمية بالغة، على أي حال فالرومان الآن بعد فتحهم لغاليا غدوا يسيطرون على القنال لربما كان باعثه الرئيسي لقيامه بغزو بريطانيا كسب المجد والفخار من خلال قيادته لجيش إلى النصر في جزيرة بعيدة مجهولة فإن صيت ثروتها أكبر بكثير مما كانت عليه تلك الثروة فعلاً، وكان قصد قيصر من حملته الأولى ضد بريطانيا والتي دامت قرابة ثلاثة أسابيع فقط مجرد استطلاع البلاد بهدف القيام بغزو جدي لها في السنة التالية.

٢ – أبحر قيصر مع عناصر المشاة من بولون *Bouylogne* أما سلاح الفرسان فقد أبحر من أمبيليتوس *Ambleteuse* الواقعة على بعد ستة أميال شمال بولون وأول مكان تم الوصول إليه على الساحل البريطاني هو بالقرب من دوفر *Dover* أما الترجل من السفن والنزول إلى اليابسة فقد كان في منطقة تقع بين ديل *Deal* وقلعة وولمر *Walmer*.

٣ – كانت راية الفيالق نسراً فضياً مرفوعاً على عمود قائم.

٤ – كانت المراكب الحربية البريطانية تتألف من عجلتين ويجرهما حصانان وقد عثر على بقايا لهذه المراكب في القبور البريطانية، ووجد عدد أكبر منها في فرنسا، لكن من الواضح أن الغاليين داخل غاليا كانوا قد تخلوا عن هذه المركبات لصالح سلاح الفرسان وذلك قبل زمن من الفتح القيصري.

الفصل الخامس — الجزء الثاني:

١ – أبحرت السفن التي بنيت في بلاد الميلديين *Meldi* (المجاورة لنهر مو *Meau*) أول الأمر نحو أسفل نهر مارن *Marne* ومن ثم نحو السين *Seine* لكنها حينما انجرفت إلى الخلف بفعل رياح معاكسة لا بد أنها عادت إلى مصب نهر السين.

٢ – كان الغزو الثاني لبريطانيا مشروعاً طموحاً، فحجم القوات التي استخدمت فيه يفترض أن قيصر قد خطط لفتح الجزء الجنوبي من البلاد مهما تكن الظروف، وبهذه الحال فإن الفشل في تحقيق هذا المشروع كان لا بد سيعتبر نكسة حقيقية لقيصر وللأسلحة الرومانية.

لابد أن الرسو كان في مكان ما بين ساندويتش *Sandwich* وديل *Deal* ومن الواضح أن معارك الفرسان قد جرت على ضفاف نهر ستاوت *Stout* القريب من كانتربيري *Conterbury*.

٣ – كان للحضارة البريطانية سمات كثيرة مشتركة بينها وبين الحضارة الغالية، بما في ذلك الديانة والطقوس الدرودية *Druidism* إلا أنها كانت أقل تطوراً من الحضارة الغالية، وكانت الملكية لا تزال الشكل السائد للحكومة.

أن نقول إن القصدير موجود (داخل البلاد) يُعد طريقة غريبة للإشارة إلى مناجم القصدير الشهيرة في كورن وول *Corn Wall* التي كان الغاليون والكارثاجينيون *Carthaginiams* يستثمرونها لقرون طويلة، فمن الجلي جداً أن قيصر – أو المستند الذي كان يعتمد عليه – لم يكن يعرف من أي جزء من البلاد كان يأتي القصدير، كما أنه أخطأ في ما قاله بأن النحاس لم يكن يستخرج من مناجم النحاس في بريطانيا، وأن خشب الزان لا ينمو هناك، والحديد الذي وجد على مقربة من الساحل هو ذلك الحديد الذي تم الحصول عليه من مناجم الحديد القديمة في سوسيكس *Sussex*.

سيكون من الواضح بالنسبة للقراء الإنكليز أن وصف قيصر للسواحل البريطانية قد تم على نحو خاطئ أو غير دقيق، وأنه قد بالغ كثيراً في ما أعطاه من أرقام حول أطوالها.

ففكرة أن الشمال الإسباني يقع إلى الغرب من بريطانيا وأن ايرلندا واقعة بينهما ناتجة عن مفاهيم خاطئة كان يشترك فيها معظم الجغرافيين القدماء، فقد كانوا يعتقدون:

أ – أن ساحل غاليا يمتد باتجاه جنوب غرب بخط يكاد يكون مستقيماً من الراين حتى سلسلة جبال البيرينيس *Pyrenees*.

ب – وأن الساحل الجنوبي لبريطانيا مواز له تقريباً.

ج – وأن سلسلة جبال البيرينيس تمتد شمالاً وجنوباً.

د – وأن الساحل الشمالي لإسبانيا لا يمتد باتجاه الغرب وإنما باتجاه شمال غرب انطلاقاً من سلسلة جبال البيرينيس، وأنه أقرب إلى بريطانيا مما هو عليه الحال فعلاً.

- يطلق قيصر هنا على (جزيرة الإنسان) *The Isle of Man* اسم (مونا) *Mona* على الرغم من أن كتاباً آخرين قدامى كانوا دائماً يستخدمون هذا الاسم للإشارة إلى انجليسي *Anglesey* وهي جزيرة في شمال غرب الويلز *Wales*.

٤ – كانت مملكة كاسيفيللونوس *Cassivellanus* في ميدل سيكس *Middle sex* وهيرتفوردشاير *Hertfordshire* وقد أعتقد سابقاً بأن قلعته كانت فيرولاميوم *Verulamiun* بجانب سينت ألبانز *ST, Albans* لكن، على الرغم من أن فيرولاميوم كانت بالتأكيد المدينة

الرئيسية لابنه ولخليفته تاسيوفانوس *Tasciovnus* يحتمل أن تكون قلعة كاسيفيللونوس واقعة في ويتها مبستيد *Wheathampstead* المتوضعة في شمال- شمال شرق سينت البانز.

وعلى اعتبار أن الرومان لم يتركوا لهم قوات في بريطانيا بعد رحيلهم عنها لم يحتفظوا بسيطرة حقيقية على هذه القلعة، ولربما امتلاك الرومان للرهائن البريطانيين كان لضمان دفعهم للضريبة مؤقتاً، لكن حتى ذلك لا شك توقف بعد رحيل قيصر عن غاليا.

الفصل السادس - الجزء الأول:

١ — كان الفيلق صاحب المصير المشؤوم تحت قيادة سابينوس، وكوتا هو الفيلق الرابع عشر وليس معروفاً إلى أي فليق أو فيالق تتبع الكتائب الخمس.

٢ — إن من المثير للدهشة والعجب أن ترى سابينوس يمشي بعدم اكترات وتهور نحو المصيدة التي نصبها له أمبيوريكس حيث أنه في جملته ضد الفينيليين *Venelli* عام (٥٦ق.م) (الفصل الثالث — الجزء الأول) كاد يضيع فرصة فوزه وانتصاره من خلال حذره الشديد واحتراسه المفرط، ومن ثم أنقذ الموقف باستخدامه لخديعة مشابهة هو بنفسه.

٣ — لقد راح ضحية الخطأ الفاضح الذي ارتكبه سابينوس. ستة آلاف من عناصر الفيالق على الأقل، ويقال أنه حينما سمع قيصر بالنبأ ترك شعر رأسه ولحيته يطول إشارة إلى حداده على من ذهبوا، وظل هكذا حتى تم الثأر لهزيمة سابينوس لم يتطرق قيصر أثناء وصفه للكارثة إلى وصف المسرح المكاني لها، إلا أنه في مقطع أخر ظهر فيما بعد في الجزء الثاني من الفصل السادس يبيّن أنها كانت في ايتواتوكا *Atuatuca* في بلجيكا.

الفصل السادس — الجزء الثاني:

١ —يزعم قيصر أن النيرفيين قد أبيدوا أو محقوا تقريباً نتيجة هزيمتهم عام ٥٧ ق.م ويقول من ظل منهم على قيد الحياة ونجا من الإبادة أنه بالكاد بقي من النيرفيين خمسمائة رجل قادرين على حمل السلاح (الجزء الرابع من الفصل الثاني) وتظهر الرواية في أجزاء لاحقة أن هذه التصريحات كانت مجرد مبالغات على الرغم من أن الكثيرين لا شك ممن شاركوا في الهجوم على معسكر سيسيرو كانوا قد بلغوا السن العسكرية عام ٥٧ ق.م.

لا يمكن تحديد الموقع الجغرافي لمعسكر سيسيرو لكنه لا بد كان في نقطة ما على نهر سامبر *Sambre* أو بالقرب منه، ولا يمكن أن يكون على مسافة أقل من ثمانين ميلاً عن ساماروبريفا *Samarobrida* حيث كان يوجد قيصر.

٢ – تبين الرواية أن قيصر كان يمتلك فيلقاً واحداً حينما انطلق من ساماروبريفا لنجدة سيسرور، لا بد لهذا الفيلق أن يكون ذلك الذي كان يقضي شتاءه في ساماروبريفا تحت قيادة تريبونيوس *Trebonius*.

الفصل السادس – الجزء الثالث:

١ – هذه هي المرة الأولى التي يمضي فيها قيصر شتاءه في غاليا والفيالق الثلاثة التي ذهب معها إلى المراكز الشتوية في ساماروبريفا كانت:

أ – فيلق كراسيوس الذي كان قيصر قد تركه في ساماروبريفا حينما انطلق من هناك لنجدة سيسيرو.

ب – فيلق تريبونيوس الذي اصطحبه قيصر معه إلى معسكر سيسيرو.

ج – فيلق سيسيرو.

٢ – كان لدى قيصر ما بين (٥٧ و ٥٤ ق.م) ثمانية فيالق والقوات التي فقدت تحت قيادة سابينوس ربما لم تتجاوز عناصر فيلق كامل، الأمر الذي يبقي لدى قيصر سبعة فيالق فقط، واحدٌ من الفيلقين اللذين تمت تعبئتهما في شمال إيطاليا حديثاً (خلال شتاء عام ٥٤ق.م) اتخذ اسم الفيلق الرابع عشر وهو رقم الفيلق الذي دُمر بقيادة سابينوس، أما الفيلق الأخر فقد سمي بالفيلق الخامس عشر أما النسبة للفيلق الذي استعاره قيصر من بومبي *Pompey* فقد كان الأول، على الرغم من أن قيصر غيّر ترقيمه فيما بعد (انظر الجزء الأول من الفصل الثامن).

وقد جعل هذا التعزيز الجديد عدد الفيالق يصل إلى عشرة فيالق.

تولى بومبي سلطة نائب القنصل كحاكم اسمي على إسبانيا (انظر المقدمة).

وخلال قنصليته عام (٥٥ ق.م) منح بعض السلطات والصلاحيات الخاصة التي كانت تؤهله من تجنيد قوات حتى في الأقاليم الواقعة تحت سلطة حكام آخرين.

الفصل السادس – الجزء الرابع:

١ – إن ما أنجزه هذا الغزو لألمانيا كان ضئيلاً بقدر ما أنجزه الغزو السابق، وربما كي يصرف قيصر انتباه القراء عن تفاهة نتائج هذا الغزو ضمن روايته عند هذه النقطة استطراداً طويلاً حول عادات وتقاليد وأعراف الغاليين والجرمان تم نقله إلى الفصل الأول من هذه الترجمة لتحاشي قطع تسلسل الرواية.

الفصل السادس — الجزء الخامس:

١ – نهر السيكلات *The Scheldt* لا يصب الآن في نهر الميوس *The Meuse* لكن هنالك سبب للاعتقاد بأن هذين النهرين كانا في وقت ومن الأوقات متصلان ببعضهما بالقرب من مصبيهما.

٢ – لا بد أن يكون قد رافق الألفي عنصر من سلاح الفرسان السوغامبري *Sugambri* عدد مماثل من عناصر المشاة تبعاً للتقليد الحربي الجرماني، وذلك على اعتبار أنهم نظروا باستخفاف وازدراء إلى قوة رومانية تجاوزت الألفي عنصر بكثير.

٣ – كلما جيء على ذكر كوينتوس سيسيرو *Quintus Cicero* أثناء الحديث عن الحرب الغالية نجد أن قيصر يعامله معاملة غاية في الرقة واللطف والحنان متوخياً من وراء ذلك مكافأة أخيه ماركوس سيسيرو *Marcus Cicero* الذي كانت صداقته للرومان مفيدة جداً لقيصر، وفي هذا المقطع من الرواية نراه يعفو عنه بعد توبيخ أقل قسوة مما كان يستحق، ويذكر كل الظروف المخففة التي وردت إلى مخيلته إبان ذلك، فسيسيرو كان بالتأكيد مهملاً ومتمرداً وقد ذكر قيصر ذلك بوضوح في رسالة خاصة بعث بها إلى ماركوس.

٤ – كانت الطريقة الرومانية القديمة في تنفيذ حكم الإعدام تتضمن الجلد أولاً ثم قطع الرأس، ومن خلال تنصيب نفسه حاكماً على الغاليين له كامل الصلاحية ليفعل ما يشاء يبدو من الواضح تماماً أن قيصر كان يعاملهم معاملة سكان فتحت بلادهم وهم تحت نير السلطة الجديدة.

الفصل السابع - الجزء الأول:

١ – إن زحف قيصر غير المتوقع عبر جبال السيفينس *Cevennes* في منتصف فصل الشتاء أحدث الكثير من الخلل في الخطة الاستراتيجية لفيرسينجيتوريكس والتي كانت تهدف إلى البدء بثورة عامة في وسط وغرب غاليا قبل أن يتمكن قيصر من الانضمام إلى جيشه بعد زيارته الاعتيادية إلى الشمال الإيطالي، وبنفس الوقت ليهدد بغزو المقاطعة الرومانية.

الفصل السابع — الجزء الثاني:

١ – رأى فيرسينجيتوريكس لما كان يتمتع به من مزايا الجندي الصالح أن من غير المفيد الآن خوض معركة ضارية وحاسمة ضد الرومان أو محاولة الاستيلاء على حصن بعد

الآخر، وقرر تبني الاستراتيجية الوحيدة التي ربما كانت ناجحة: تجويع الرومان من خلال سياسة الأرض المحروقة، لكن أتباعه لم يستطيعوا رؤية أن من الفعالية والجدوى مواصلة عملية التدمير على هذا النحو، وبدون هوادة وبالتالي لم تكن لديه الوسائل لإجبارهم على الاقتناع بذلك.

الفصل السابع — الجزء الثالث:

١ — كشف عمليات التنقيب عن الآثار التي نفذت ما بين ١٨٦١ و ١٨٦٥ بناءً على توجيهات الإمبراطور نابليون الثالث، عن بقايا للمعسكرين الرومانيين وعن الخندق المزدوج الذي يربط بينهما.

٢ — كان لدى قيصر ستة فيالق في جيرغوفيا، اثنان منها وضعا في المعسكر الصغير فوق التلة التي احتلت منذ البداية، إلا أن القسم الأعظم من هذه الحامية من الواضح، أنه سُحب فيما بعد، على اعتبار أن حامية المعسكر الصغير كانت في المرحلة الأخيرة من الحصار تتألف من بضع كتائب فقط، وبهذا الشكل استطاع قيصر أخذ أربعة فيالق تقريباً لتتعامل مع الايديوويين وترك فيلقين لحماية المعسكر الرئيسي تحت قيادة فابيوس.

٣ — من الصعوبة أن نصدق ما جاء في تصريح قيصر من حيث أن هدفه الوحيد من هذه المعركة كان الاستيلاء على ثلاثة معسكرات غالية شبه خالية من المقاتلين وعلى الأرجح أنه على ما يظهر أمل في الاستيلاء على المدينة بفعل هجوم مباغت وأطلق صفارات استدعاء القوات فقط حينما أدرك أن ذلك أمر لا يمكن القيام به.

٤ — كانت تلك هي الهزيمة الوحيدة التي مني بها قيصر على يد الغاليين واللوم في ذلك يقع عليه كما يقع على قواته، فإطلاق للأبواق لإعطاء إشارة فيها الحسم والفصل في مكان لا تستطيع فيه القوات الموجهة إليها هذه الإشارة سماعها كان خطيئة ارتكبها قيصر نفسه أما خطيئة قواته فقد كانت عدم إطاعتهم لأوامر جنرالاتهم وتريبوناتهم العسكريين المتواجدين معهم.

الفصل السابع — الجزء الرابع:

١ — كان لابينوس قد أرسل على رأس أربعة فيالق ضد الباريسيين والسينونيين مباشرة بعد سقوط أفاريكوم *Avaricum*.

٢ – من الواضح أن ايبوريدوريكس الذي كان قد قاد الإيديوويين ضد السيكوانيين ليس هو نفس ايبوريدوريكس الايديووي الذي يحمل ذات الاسم والذي جيء على ذكره مرات عدة في هذا الفصل وإنما رجل أخر.

الفصل السابع – الجزء الخامس:

١ – لقد كشفت عمليات التنقيب التي قام بها نابليون الثالث عن مواقع المعسكرات الرومانية الثمانية، وخمسة من الثلاثة والعشرين معقلاً دفاعياً التي أقامها قيصر حول اليشيا.

٢ – إن قصة تجويع الماندوبيين قد جعلت مثيرة على نحو فظيع ورهيب من خلال ما لا تحكيه هذه القصة، فلم يكن لدى قيصر طبعاً ما يكفي من الغذاء لنجدتهم وإراحتهم دون التعرض إلى مجازفة نقص الغذاء لديه ولقواته. واستناداً إلى ما يذكره مؤرخ أخر في وقت لاحق فإن قيصر كان يأمل أنه سيسمح لهم بالدخول إلى المدينة ثانية لكن ما حدث هو أنهم تركوا خارج المدينة ليموتوا جوعاً.

٣ - هكذا انتهت السيرة الموجزة لوطني عظيم كانت رائعة ومثيرة للإعجاب، وقيصر نفسه كان يقدّر عالياً ما تمتع به فيرسينجيتوريكس من خصائص القيادة التي مكنته من تدعيم سلطته على أتباعه ومن نفخ الحياة مجدداً في نفوسهم وتشجيعهم لحظة الهزيمة، لكن تلك الخصائص لم تستطع أو بالأحرى لن تستطيع حمايته فيما بعد من ملاقاة المصير الذي استلزمه التقليد الروماني بالنسبة لبربري مهزوم حيث عرض فيرسينجيتوريكس، بعد ست سنوات من الأسر، للجماهير المحتشدة في روما أثناء الاحتفالات بانتصارات قيصر ونفذ به حكم الإعدام.

الفصل الثامن - الجزء الأول:

١ – الفصل الأخير من الرواية ليس من عمل قيصر نفسه وإنما نتاج واحد من أصدقائه اسمه ألوس هيرتيوس *Aulus Hirtius* جيء على ذكره في المقدمة، وقد استهل ألو س هذا الفصل ببعض الكلمات المتواضعة التي تبيّن تحليله الشخصي للأحداث.

فهو عالم تماماً حسبما يقول كم سيبدو إنشاؤه ضعيفاً بجانب ما قد خطه قيصر في رائعته، وأنه استجابةً فقط لمناشدات متكررة من قبل أصدقائه قبل تنفيذ هذا العمل.

كان قيصر يعرف حق المعرفة أن الكثيرين من الوطنيين الغاليين ما يزالون يرفضون الرضوخ لهزيمتهم كحل أخير، وكان تواقاً لإنهاء الحرب في أبكر وقت ممكن، ولذلك ظل

في غاليا وقضى فعلاً القسم الأكبر من فصل الشتاء في حملات نشطة، بدأت الحملة ضد البيتوريجيين في التاسع والعشرين من كانون الأول عام (٥٢ ق.م) وفقاً للتقويم الروماني الذي كان قيد الاستخدام، لكن ذلك التقويم كان متقدماً عن المواعيد الحقيقية لبداية الفصول، والتاريخ الفعلي لتلك الحملة كان أبكر من ذلك بأربعة أسابيع تقريباً.

٢ – في هذا الفصل يتم أول ذكر للفيلق السادس، وهناك سبب للاعتقاد بأن قيصر قد خصص هذا الرقم للفيلق الذي استعاره من بومبي في شتاء عام ٥٤ ق.م والذي كان حتى وقت تسلم قيصر له يدعى بالفيلق الأول.

الفصل الثامن – الجزء الثاني:

١ – تبرهن الشهادة الجماعية لمعاصري قيصر أنه كان يتمتع بسمعة الرجل الشفوق الذي يعرف الرأفة والرحمة، ومن المؤكد أنه خلال الحرب الأهلية قد عامل أعداءه المغلوبين بسخاء وكرم متميزين، لكن في التعامل مع البرابرة كان لا يعرف التقليد الحربي الروماني أي رحمة وشفقة ولا سيما في حالة أوكسيلدونوم، حيث كان هناك عذر إضافي لاتباع ذلك التقليد، لأن حامية المدينة كانت تشتمل على مجرمين ومغامرين معدمين كانوا يشكلون خطراً دائماً على السلام في غاليا، وقد كان مثل هذا الإرهاب شائعاً بين الغاليين أنفسهم أيضاً، فقد كان أمراً عادياً بالنسبة لفيرسينجيتوريكس مثلاً معاقبة من كانت حماستهم فاترة في مناصرة القضية القومية بالموت على الخازوق أو بالبتر والتشويه.

٢ – جرت حملة كراسوس *Crassus* ضد أكويتانيا عام ٥٦ ق.م (انظر الجزء الثاني من الفصل الثالث).

كان العدد الإجمالي للفيالق التي توزعت على الملاجئ الشتوية في هذا الوقت عشرة فيالق، وكان الفيلق الخامس عشر قد أرسل مسبقاً إلى الشمال الإيطالي، ولذا كان لدى قيصر عند هذا الوقت أحد عشر فيلقاً كمجموع عام، في حين كان لديه عشرة فيالق فقط في حملة عام (٥٢ ق.م) ربما كان الفيلق الإضافي هو الفيلق الخامس الذي من المعروف أن قيصر قد قام بتجنيده عند هذا الوقت في ترانسلباين غاليا.

وقد كان أمراً استثنائياً تماماً في هذه الفترة أن تتم تعبئة فيلق من خارج إيطاليا أي من غير المواطنين أبناء الدولة الرومانية.

٣ – لقد كان للتعامل الاسترضائي الذي سلكه قيصر في غاليا عموماً بعد معاقبته المرعبة لأخر المتمردين العنيدين أثاره المتوخاة، وظل الغاليون في حالة من الهدوء لفترة طويلة، بعد ذلك لم يقوموا، خلالها بالتسبب بأية إزعاجات للسلطة الرومانية.

بقي قيصر في نيمتيوسينا *Nemetocenna* حتى صيف عام (٥٠ق.م) وحينما عاد إلى هناك في بداية الخريف بعد زيارة إلى الشمال الإيطالي لقضاء مهمة سياسية جمع كل فيالقه في إقليم التريفيريين وقام باستعراضها ثم اصطحبها لتنفيذ بعض عمليات المسير الطليق بغية المحافظة على قدراتها الجسدية ضمن اللياقة المطلوبة، وكان أخر ما قام به في غاليا توزيع الفيالق على مواقعها لقضاء الشتاء التالي، واحدٌ منها كان في شمال إيطاليا، وكان على قيصر التخلي عن فيلقين إطاعة لأمر صدر عن مجلس الشيوخ بخصوص حملة مقترحة إلى بارثيا *Parthia* وهي حملة لم تدخل حيز التنفيذ، ومن الثمانية فيالق المتبقية أربعة وضعت تحت قيادة تريبونيوس بين البلجيين – وهم أشجع المقاتلين في غاليا – وأربعة بين الايديوويين وهم أكثر القبائل نفوذاً سياسياً في البلاد، وهكذا انتهت الحرب الغالية، وخلال أقل من شهرين[1] زحف قيصر على رأس قواته عبر نهر روبيكون *Rubicon* الذي يشكل الحدود الجنوبية لمقاطعة سيزالباين غاليا – وغزا إيطاليا وبعبارته (سبق السيف العذل) كانت الحرب الأهلية قد بدأت.

---

(١) في العاشر من كانون الثاني عام (٤٩ ق.م) وفقاً للتقويم الروماني (التوقيت الفعلي كان حوالي ٢٢ تشرين الثاني عام (٥٠ق.م).

فهرس بأسماء القادة والزعماء والقبائل والمواقع التي ذكرت في الرواية

مرتبة حسب تسلسلها في فهرس الكتاب الذي اعتمدته هذه الترجمة

١ — آكاو *Acco*: واحدٌ من الزعماء السنينونيين *Senones*.

٢ — أدماجيتوبريجا *Admagetobriga*: موقع معركة جرت بين أريوفيستوس والغاليين عام (٦١ ق.م) لا يمكن تحديد هذا الموقع جغرافياً على نحو من التأكيد، إلا أنه من المحتمل أن يكون في الساس *Alsace* (التي كانت وقتئذ جزءاً من الإقليم السيكواني)

٣ — الايديوويون *Aedui*: قبيلة كبيرة قطنت في المنطقة الوسطى من فرنسا، بين اللوار والساون *Saone* (انظر المقدمة).

٤ — أجيدنيكوم *Agedincum*: مدينة للسينونيين تقع على بعد حوالي ٦٥ ميلاً جنوب شرق باريس وتتوضع جغرافياً ضمن حدود الإقليم السينوني.

٥ — اليشيا *Alesia*: قلعة للماندوبيين على سهل مونت أوكسوا *Mont Auxois* على بعد ثلاثين ميلاً عن شمال غرب ديجون *Digon*.

٦ — الألوبروجيون *Allobroges*: قبيلة ذات سلطة ونفوذ امتد إقليمها بين الرون وايزير *Isere* وبحيرة جنيف وشكّل الجزء الشمالي الأقصى للمقاطعة الرومانية من ترانسلبابين غاليا (انظر المقدمة).

٧ — الامبيانيون *Ambiani*: قبيلة بلجيكية تعيش على ضفاف نهر السوم *Somme* إلى جوار ساماروبريفا.

٨ — امبيوريكس *Ambiorix*: ملك الايبيورونيين اقتسم الملكية بينه وبين كاتوفولكس *Catuvolcus*.

٩ — الأنديون *the Andes*: قبيلة تقطن إلى الشمال من نهر اللوار الأدنى في أنجو *Anjou*.

١٠ – مـارك أنطـوني أو مـاركـوس انطونيـوس *Marcus Antonins*: خـدم تحـت لـواء قيصـر في غاليـا كجنـرال عـام (٥٢ ق.م) وكقسـطور عـام (٥١ ق.م) وفي الحـرب الأهلية وبعـد مـوت قيصـر ببضـع سـنوات حكـم انطـوني وأوكتافيـان *Octavian* (الـذي أصـبح فيمـا بعـد الإمبراطور أوغوسطوس) وماركوس ايميليوس ليبـدوس *Marcus Ameillius Lepidus* العـالم الروماني من خلال الحكومة الثلاثية الثانية، واندلعت في وقت لاحق، الحـرب بين أوكتـافيون وأنطوني الذي وقع بعد عـام (٤٠ق.م) تحت سلطة ونفوذ كليوباترا، وفي عـام (٣١ ق.م) هـزمـه أوكتافيان في معركة أكتيوم *Actium* وانتحر عام (٣٠ق.م) في مصر.

١١ – اكويليـا *Aquileia*: مدينـة تقـع علـى رأس البحـر الأدريـاتيكي في مقاطعـة سيزالباين غاليا.

١٢ – الأكويتانيون *Aquitani*: مجموعة مـن القبائل تتكلم اللهجات الإسبانية وتعيش في أكويتانيـا المتوضـعة في الزاويـة الجنوبيـة الغربيـة مـن فرنسـا بـين نهـر الجـارون *Garonne* وسلسلة جبال البيرينية*Pyrenees* .

١٣ – القبائل اللأريموريكانيـة *Aremorican Tribes*: مجموعـة مـن القبائـل تعـيش في نورمنديا *Normondy* وبريتانيا *Brittany*.

١٤ – اريوفيستوس *Ariovistus*: ملك قبيلة سوبي *Subi* الجرمانية (انظر المقدمة).

١٥ – المدفعية *Artillery*: آلات تشبه القوس والنشـاب، أو المرجام وتستمد طاقتها مـن ارتداد أوتار من شعر خيول مجدول بشدة وتقذف الحجارة أو الرماح المكسوة بألريش.

١٦ – آرفيرنـي *Arverni*: قبيلـة قويـة تسـكن جنـوب الوسـط الفرنسـي في منطقـة جبـال أرفيرن *Arverne*، (انظر المقدمة).

١٧ – الاتريبـاتيون *Atrebates*: قبيلـة بلجيكيـة تقطـن في شمـال فرنسـا بجـوار مدينـة الأراس *Arras*.

١٨ – كوينتوس أتريوس *Quintus Atrius*: ضابط روماني.

١٩ – اتيواتوكا *Atuatuca*: قلعـة للايبـورونيين *Eburones* (وليس للأيتواتيوسـيين علـى الرغم من تشابه الاسم) وربما كانت تونغريس *Tongre* الواقعة في القسم الشرقي من بلجيكـا وتبعـد اثني عشـر ميلاً عـن شمـال – شمـال غـرب مدينـة لييج *Liege* المتوضـعة علـى نهـر ميوس *Meuse*.

٢٠ – الأوليرسـيون *Aulerci*: مجموعـة مـن القبائـل تقطـن في المنطقـة الواقعـة بـين نهـر السين الأدنى ونهر اللوار الأدنى.

٢١ – الأتيواتيوسيون *Atuatuci*: قبيلة عاشت في جنوب شرق بلجيكا وبصورة خاصة الضفة اليسرى لنهر الميوس *Meuse*.

٢٢ – أفاريكوم *Avaricum*: مدينة البيتيوريجيين الرئيسية في منطقة بورج *Bourge* على مسافة ستين ميلاً عن أورلينز *Orleans* باتجاه جنوب – جنوب شرق.

٢٣- بوبليوس سيكستيوس باكولوس: *Publius Sextius Bacilus*: واحدٌ من رؤساء قادة المئة.

٢٤ – لوسيوس مينوسيوس باسيلوس: *Lucius Minucius Basilus*: ضابط روماني.

٢٥ – البيلجيون *Belgae*: أحد الفروع الرئيسية من القبائل الغالية، قطنت في شمال فرنسا وبلجيكا وجنوب هولندا وفي الجزء الجرماني الواقع إلى الغرب من نهر الراين (انظر المقدمة).

٢٦ – البيلوفاسيون *Bellovaci*: قبيلة بلجيكية قوية لكنها كانت تسكن في منطقة صغيرة نسبياً واقعة في شمال فرنسا وهي الإقليم المحيط ببوفيه *Beauveus*.

٢٧ – بيبراكت *Bibract*: المدينة الرئيسية للايديوويين المتوضعة فوق مونت بوفاري *Beuvary–Mont* وتبعد ١٢ ميلاً غرب أوتون *Autun*.

٢٨ – بيبراكس *Bibrax*: مدينة الريمين *the Remi* واقعة إلى الشمال قليلاً من نهر ايسن *Aisen* بين مدينة لون *Loon* (شمال فرنسا) ومدينة ريمز *Rheims* (في شمال شرق فرنسا).

٢٩ – البيتيوريجيون *Bituriges*: قبيلة قطنت في غرب الوسط الفرنسي بجوار أفاريكوم.

٣٠- البوويون *Boii*: قبيلة سلتية نزحت باتجاه الغرب مع الهيلفيتيين *Helvetii* واستقرت بعد ذلك في الوسط الفرنسي، ريما بين نهري اللوار والآليير *Allier*.

٣١ – براتوس بانتيوم *Bratus Pontium*: قلعة للبيلوفاسيين ريما وقعت بين مدينة أمييز *Amiens* (شمال فرنسا على ضفة نهر السوم *the Somme*) ومدينة بوفيه *Beauvois* (شمال غرب فرنسا).

٣٢ – ديسيموس جونيوس بروتوس *Decimus Junius Brutus*: خدم تحت قيادة قيصر في الحروب الغالية والأهلية إلا أنه كان أحد قتلة قيصر وبعد موت قيصر قام باحتلال سيزالباين غاليا، حاصره مارك أنطوني في مودينا *Modena* إلى أن خلصه أوكتافيان وقناصله

عام (٤٣ق.م) الذين كان أحدهم اولوس هيرتيوس *Aulus Hirtius* مؤلف الكتاب الثامن حول (الحرب الغالية) وقتل بروتوس بناءً على أمر أصدره انطوني في وقت متأخر من ذلك العام (٤٣ ق.م).

٣٣ – الكادورسيون *Cadurci*: قبيلة تقطن في منطقة تقع في جنوب غرب فرنسا، توازي تقريباً مقاطعة نهر لوت *Lot*، وهو نهر في جنوب فرنسا يتجه غرباً إلى جارون *Garonne*.

٣٤ – لوسيوس يوليوس قيصر *Lucius Julius Caesar*: (جيء على ذكره في الفقرة الرابعة من الفصل السابع): أحد الأقرباء البعيدين لغيوس يوليوس قيصر *Gaius Julius Caesar* – قائد الجيوش الرومانية – وواحدٌ من جنرالاته في الحملات الغالية الأخيرة، وشغل منصب قنصل عام (٦٤ق.م)

٣٥ – كوينتوس فوفيوس كالينوس *Quintus Fufius Colenus*: واحد من جنرالات قيصر.

٣٦ – كامولوجينوس *Camulogenus*: قائد يتبع إلى قبيلة الأوليرسيين.

٣٧ – كانينيوس (غيوس كانينيوس ريبيلوس) *Gaius Caninius Rebilus*: أحد جنرالات قيصر.

٣٨ – الكانتابريون *Contabrri*: قبيلة قطنت على الساحل الشمالي لإسبانيا.

٣٩ – الكارنوتيون *Carnutes*: قبيلة في الجنوب الشرقي من باريس بين السين واللوار.

٤٠ – كاسيفيللونوس *Cassivellounus*: قائد البريطانيين خلال الغزو الثاني لقيصر ضد بريطانيا.

٤١ – كاتوفولكوس *Catuvolcus*: ملكٌ على الايبيورونيين *Eburones* يقتسم الملكية مع أمبيوريكس.

٤٢ – كافاريلوس *Cavarillus*: أحد النبلاء الايديوويين.

٤٣ – كافارينوس *Cavarinus*: ملك السنونيين.

٤٤ – سيلتيلوس *Celtillus*: والد فيرسينجيتوريكس.

٤٥ – سينابوموCenabum : مدينة الكارنوتيين الواقعة في منطقة أورلينز *Orleans*.

٤٦ – شيروسي *Cheruci*: قبيلة جرمانية ربما قطنت بين نهر الإلب *Elbe*. (الذي ينبع من تشيكوسلوفاكيا ويتجه نحو الجهة الشمالية الشرقية عبر ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية إلى بحر الشمال بجانب هامبرغ) ونهر الويزر *The Weser* (الذي يجري عبر شمال غرب ألمانيا باتجاه بحر الشمال).

٤٧ – كونيتوس طوليوس سيسيرو *Quiutus Tullius Cicero*: الأخ الأصغر لماركوس طوليوس سيسيرو، الخطيب الشهير خدم تحت قيادة قيصر ما بين (٥٤ – و ٥٢ ق.م) وأثناء الحرب الأهلية كان إلى جانب بومبي، أعدمه أنطوني كما أعدم أخيه عام (٤٣ ق.م).

٤٨ – سيمبري *Cimbri*: (انظر المقدمة – الفقرة الثالثة).

٤٩ – قائد المئة *(Centurion)*: (انظر المقدمة – الفقرة الرابعة).

٥٠ – سينجيتوريكس *Cingetorix*: أحد زعماء القبيلة التريفيرية ومنافس لحموه (والد زوجته) إيندوتيوماروس *Indutiomarous*.

٥١ – سينجيتوريكس *Cingetorix*: أحد ملوك كنت الأربعة (انظر الفصل الخامس – الجزء الثاني).

٥٢ – سيزالباين بروفينس *Cisalpine Parovince*: (الفصل السابع – الجزء الأول): مقاطعة سيزالباين الغالية، (انظر المقدمة – الفقرة الأولى).

٥٣ – كلوديوس (بوبليوس كلوديوس بولشر) *Publius Clodius Pulcher*: (الفقرة الأولى من الفصل السابع): شريف روماني خليع كان العدو اللدود لماركوس سيسيرو، استخدمه قيصر كوسيلة لتنفيذ أغراضه الخاصة ومن ثم اغتيل في كانون الثاني من عام (٥٢ ق.م) على يد ميلو *Milo* الذي كان عضواً في عصابة سياسية منافسة.

٥٤ – كتيبة *Cohart*: (انظر المقدمة الفقرة الرابعة).

٥٥ – كوميوس *Commius*: ملك الأتريباتيين *the AtreBates*.

٥٦ – قنصل *Consul*: كان القنصلان اللذان يتم انتخابهما سنوياً هما الحاكمين التنفيذين الرئيسين في الجمهورية الرومانية، وكانت الجيوش الرومانية الموجودة في إيطاليا تحت قيادتهما وبعد انتهاء فترة حكمهما – وهي عام كامل – (حيث كان يعرف كل عهد باسم كل منهما) كانا يشغلان عادة منصب نائب القنصل في حكومة المقاطعة (انظر المقدمة).

٥٧ – كونفيكتوليتافيس *Convicitolitavis*: أحد الحكام الايديوويين.

٥٨ – كوريوس *Correus*: أحد زعماء البيلوفاسيين.

٥٩ – لوسيوس أورونكلوليوس كوتا: *Lucius Aurunculeius Cotta*: واحدٌ من جنرالات قيصر.

٦٠ – ماركوس ليسينيوس كراسوس *Marcus Licinius Crossus*: الابن الأكبر لكراسوس عضو الحكومة الثلاثية كان قسطوراً عام (٥٤ ق.م) وخدم في غاليا ما بين (٥٤ و ٥٣ ق.م).

٦١ – بوبليوس ليسينيوس كراسوس *Publius Licinius Crassus*: الابن الأصغر لكراسوس عضو الحكومة الثلاثية، خدم تحت لواء قيصر كأحد ضباطه خلال الحملات الأولى.

٦٢ – كريتوغناتوس *Critognatus*: أحد النبلاء الآرفيرنيين.

٦٣ – ديسيشيا *Decetia*: مدينة ايديووية تقع على ضفاف نهر اللوار في منطقة ديسايز *Decize*، تبعد عشرين ميلاً تجاه جنوب شرق مدينة نيفير *Nevers* الموجودة في الوسط الفرنسي والمتوضعة على ضفاف نهر اللوار أيضاً.

٦٤ – ديفيشياكوس *Diviciacus*: ايديووي مناصر للرومان، شقيق دومنوريكس *Dumnorix*.

٦٥ – ديفيشياكوس *Diviciacus*: ملك السينونيين في عام (١٠٠ ق.م) تقريباً.

٦٦ – ديفيكو *Divico*: (الفصل الثاني – الفقرة الأولى) أحد قادة الهيلفيتيين.

٦٧ – درابس *Drappes*: أحد قادة السينونيين.

٦٨ – دومناكوس *Dumnacus*: أحد قادة الآنديين *the Andes*.

٦٩ – دمنوريكس *Dumnorix*: ايديووي معادٍ للرومان، شقيق ديفيشياكوس.

٧٠ – دوروكورتوروم *Durocortorum*: مدينة للريميين تقع في منطقة ريمز شمال شرق فرنسا.

٧١ – ديوراتيوس *Duratius*: زعيم نيكتوني مناصر للرومان، *Pictones*.

٧٢ – الإيبيورونيون *The Eburones*: قبيلة بلجيكية تقطن فوق رقعة أرض واسعة إلى الغرب من الراين الأدنى على ضفتي نهر ميوس *The Meues* تشتمل على جزء من الشرق البلجيكي وعلى قطعة أرض طويلة وضيقة من الغرب الألماني.

٧٣ – ايبوريدوريكس *Eporedorix*: (في الجزأين الثالث والخامس من الفصل السابع) أحد النبلاء الايديوويين.

٧٤ – ايبوريدوريكس *Eporedorix*: (في الجزء الرابع من الفصل السابع) نبيل ايديووي آخر.

٧٥ – ايراتوس ثينز *Eratosthenes*: عالم إغريقي من القرن الثالث قبل الميلاد (كان رئيس المكتبة في الإسكندرية، رجلٌ ذو ثقافة واسعة ومتنوعة ولا سيما في مجالي الرياضيات والجغرافيا، وقد حسب محيط الأرض وكان الرقم الذي أعطاه لا يختلف عن الرقم الحقيقي سوى قرابة مائتي ميل.

٧٦ – غيوس فابيوس *Gaius Fabius*: أحد جنرالات قيصر.

٧٧ – لوسيوس فابيوس *Lucius Fabius*: أحدقادة المئة في الجيش الروماني.

٧٨ – كوينتوس فابيوس ماكسيموس *Quiutus Fabius Maximus*: قنصل في عام (١٢١ ق.م) وفاتح بلاد الآرفيرنيين *Arverni*.

٧٩ – جالبا *Galba*: ملك السوسيونيين *Suessiones*.

٨٠ – سيرفيوس صولبيسيوس جالبا *Servius Sulpicius Galba*: أحد جنرالات قيصر.

٨١ – جيرغوفيا *Gergovia*: قلعة للأرفيرنيين على سهل ارتفاعه ١٢٠٠ قدم واقع عند النهاية الشمالية لجبال أوفيرن *Auvergne* قرابة أربعة أميال جنوب كليرمونت – فيراند *Clermont – Ferrand*.

٨٢ – غورغوبينا *Gorgobina*: (الجزء الأول من الفصل السابع) مدينة للبوويين *the Boii* في وسط فرنسا بجانب مدينة نيفير.

٨٣ – غوتيواتر *Gutuater*: أحد زعماء الكارنوتيين.

٨٤ – الهاروديون *The Harudes*: قبيلة جرمانية ربما قطنت إلى جوار هامبورغ *hamburge*.

٨٥ – الهيلفيتيون *Helvetii*: قبيلة كبيرة تقطن في سويسرا.

٨٦ – الهيلفيون *Helvii*: قبيلة تسكن في مقاطعة ترانسلباين غاليا، عند النهاية الشمالية لجبال السيفينس *Cevennes*.

٨٧ – غابة هيرسينيان *Hercynian Forest*: (الفصل الأول – الجزء الثاني): أرض شاسعة من غابة في وسط أوروبا، قيل أنها امتدت من منابع الدانوب حتى بوهيميا *Bohemia*.

٨٨ – إكسيوس *Iccius*: أحد الزعماء الريميين.

٨٩ – إيليريا *Illyria*: مقاطعة واقعة على الجانب الشرقي للبحر الإدرياتيكي (انظر المقدمة).

٩٠ – إيندوتيوماروس *Indutiomorus*: أحد زعماء التريفيريين، ومنافس لصهره سينجيتوريكس *Cinogtorix*.

٩١ – تيتيوس لابينوس *Titus Labienus*: أقوى جنرالات قيصر في الحرب الغالية؟، قاتل ضد قيصر في الحرب الأهلية ومات في الحملة الأخيرة عام ٤٥ ق.م.

٩٢ - الفيلق *Legion*: (انظر المقدمة – الفقرة الرابعة).

٩٣ – ليمونوم *Lemonum* (الجزء الثاني من الفصل الثامن): مدينة للبيكتونيين *Pictones* في منطقة البواتييه *Poitiers*.

٩٤ – الليموفيسيون *Lemovices*: قبيلة تحتل إقليم ليموزين *Limousin* إلى الغرب من جبال أوفيرن *Auvergne*.

٩٥ - الليكسوفين *The Lexovii*: قبيلة تحتل ساحل نورماندیا على مقربة من ميناء كين *Caen* في شمال فرنسا وليزيو *Liseux*.

٩٦ – اللينجونيون *The Lingonnes*: قبيلة تقطن في فرنسا الوسطى على مقربة من لانغريس *Langers* وديجون *Digon*.

٩٧ – ليسكوس *Liscus*: حاكم ايديووي.

٩٨ – ليتافيكوس *Litaviccus*: أحد النبلاء الايديووين.

٩٩ – لوكتيريوس *Lucterius*: أحد زعماء الكادورسيين *Caderci*.

١٠٠ – لوتيشيا *Lutetia*: مدينة للباريسيين، نواة باريس، تتوضع (فوق جزيرة المدينة) في السين *Siene*.

١٠١ – الماندوبيون *The Mandubii*: قبيلة تقطن في وسط فرنسا، شمال غرب ديجون.

١٠٢ – ماندوبراسيوس *Mandubracies*: أحد زعماء الترينوفانتيين.

١٠٣ – الواقيات المتحركة: *Manthets*: عبارة عن سقائف خشبية ضخمة، عادةً بطول ١٦ قدماً وعرض ثمانية أقدام تنصب على عجلات، كانت تتوضع ضمن صف طويل بحيث يكون ظهر الواحدة منها للأخرى، وكانت غالباً ما تستخدم لحماية الجنود المنشغلين بتجهيز المواد اللازمة لبناء مصاطب الحصار.

١٠٤ – غيوس ماريوس *Gaius Marius*: (الجزء الثاني من الفصل الأول): زعيم ديمقراطي شغل منصب قنصل سبع مرات ما بين (١٠٧ – ٨٦ ق.م) ومحارب فذ (انظر المقدمة) وهو من أعاد تنظيم الجيش الروماني الذي حوّله من قوات ميليشيات مؤلفة من مواطني البلاد إلى جيش محترف.

١٠٥ – الميلديون *The Meldi*: قبيلة تقطن على ضفاف نهر مارن *Marne* بجانب مو *Meaux* (خمسة وعشرون ميلاً إلى الشرق من باريس).

١٠٦ – الميناپيون *The Menapii*: قبيلة بلجيكية تقطن بصورة رئيسية في الجنوب الهولندي.

١٠٧ – ميتلوسيدوم *Metlosedum*: مدينة تتبع للسينونيين *The Senones* تتوضع فوق جزيرة في نهر السين بجانب منطقة ميلون *Melun* (خمسة وعشرون ميلاً جنوب – جنوب شرق باريس).

١٠٨ – التريبونات العسكريون (انظر المقدمة – الفقرة الرابعة) *Military Tribunes*.

١٠٩ – المورينيون *The Merini*: قبيلة تسكن على ساحل بلجيكا وشمال فرنسا بين زيبرغ *Zeebrugge* وبولون تقريباً *Boulogne*.

١١٠ – االنانتيواتيون *Natuates*: قبيلة تعيش في جنوب غرب سويسرا على ضفاف الرون الأعلى على مقربة من سينت موريس *St. Mourice*.

١١١ – نيميتوسينا *Nemetocenna*: مدينة للأتريباتيين في منطقة الآراس *Arras*.

١١٢ – النيرفيون *The Nervii*: قبيلة بلجيكية قوية تقطن شرق سكيلدت في وسط بلجيكا.

١١٣ – النيتيوبروجيون *The Nitiobroges*: قبيلة تعيش في جنوب غرب فرنسا في منطقة نومارکت *Neumarkt*.

١١٤ – نوريكان *Norican*: أحد أبناء نوريكوم *Noricum* (جزء من النمسا).

١١٥ – نوفيودونوم *Noviodunum*: حصن للسوسيونيين *The Suessiones* (الفصل الثاني – الجزء الرابع) يكاد يبعد ميلين فقط عن مدينة سواسون *Soissons* باتجاه شمال غرب وسواسون مدينة في شمال فرنسا على ضفاف نهر ايسن *Aisne*.

١١٦ – نوفيودونوم *Noviodunum* (الفصل السابع – الجزء الأول والجزء الثاني): مدينة للبيتوريجيين في الوسط الغربي ربما بجانب منطقة نوفي – سور بارانجيون *Neuvy – Sur – Barangeon* (ثمانية عشر ميلاً شمال – شمال غرب بورجيه *Bourges*).

١١٧ – نوفيودونوم *Noviodunum*: (الفصل السابع – الجزء الرابع): مدينة ايدويووية على نهر اللوار، ربما ضمن منطقة مدينة نيفير *Nevers* في وسط فرنسا على نهر اللوار.

١١٨ – نوميديان *Numidian*: أحد ابناء نوميديا (الجزائر).

١١٩ – أوسيلوم *Ocelum*: (الفصل الثاني – الجزء الأول) مدينة على الحدود الشمالية الغربية لإيطاليا. ربما هي أفيغليانا *Avigliane* على الضفة الجنوبية لـ دورا ريباريا *Dora Riparia* (ثمانية عشر ميلاً إلى الغرب من تورين *Turin*).

١٢٠- اوكتودوروس *Octodurus* (الفصل الثاني – الجزء الخامس): مدينة للفيراغريين *the Veragri* تتوضع بجانب مارتغني *Martigny* في جنوب غرب سويسرا.

١٢١ – أورجيتوريكس *Orgetorix* (الفصل الثاني – الجزء الأول): أحد النبلاء الهيلفيتيين *Helvetian*.

١٢٢ – الأوسيزميون *the Osismi*: قبيلة تقطن في بريتانيا بجوار ميناء بريست *Brest* في شمال غرب فرنسا.

١٢٣ – الباريسيون *the Parisii*: قبيلة تقطن بجوار لوتيشيا *Lutitia* وهي مدينة في منطقة باريس.

١٢٤ – كونيتوس بيديوس *Quintus Pedius*: أحد جنرالات قيصر.

١٢٥ – البيكتونيون *the Pictones*: قبيلة تسكن على الساحل الغربي لفرنسا على الضفة الجنوبية لنهر اللوار، ومدينة ليمونوم *Lemonum* (أي بواتيه *Poitiers* – المشتقة من البيكتونيين) كانت ضمن أراضيهم.

١٢٦ – لوسيوس كالبورنيوس بيزو *Lucius Calpurnius Piso* (الفصل الثاني- الجزء الأول): قنصل عام (١١٢ ق.م) قتل في معركة مع الهيلفيتيين عام (١٠٧ ق.م).

١٢٧ – لوسيوس كالبورنيوس بيزو (الفصل الثاني – الجزء الأول): قنصل عام (٥٨ق.م) حفيد بيزو الذي ذكر أعلاه، ووالد زوجة قيصر كالبورنيا *Calpurnia*.

١٢٨ – بيزو *Piso* (الفصل الرابع – الجزء الأول) أحد النبلاء الأكويتانيين

١٢٩ – لوسيوس موناتيوس بلانكوس *lucius Munatius Plancus*: واحد من جنرالات قيصر.

١٣٠ – بومبي *Pompey*: نيوس بومبيوس ماغنوس *Gnaeus Pompeius Magnus* (انظر الفقرة الأولى من المقدمة).

١٣١ – نيوس بومبيوس *Gnaeus Pompeius*: (الفصل السادس – الجزء الأول) مترجم كان يستخدمه سابينوس *sabinus*.

١٣٢ – بورتوس إيتيوس *Portus Itius*: ربما كان ميناء بولون *Boulogne* في شمال فرنسا (ومن المحتمل أن يكون ويسّانت *Wissant* الذي يبعد أحد عشر ميلاً تجاه الشمال عن بولون).

١٣٣ – المقاطعة *The Province*: مقاطعة تراتسلباين غاليا (انظر المقدمة – الجزء الأول).

١٣٤ – القسطور *Quaestor*: كانت القسطورية منصباً يشغله في بادئ الأمر أشخاص رومان يتم اختيارهم لأغراض سياسية، ففي عهد قيصر كان يتم سنوياً انتخاب عشرين قسطوراً، كان بعضهم يستخدم في إيطاليا ضمن نطاق أعمال مالية بصورة رئيسية أما الباقون فكانوا يلحقون بالجنرالات في ميادين القتال، أو بحكام المقاطعات، وغالباً ما كان دورهم

إما كصرافين للرواتب أو كمستلمين لمصادر الدخل والضرائب، إلا أنهم كانوا أحياناً يستخدمون للقيام ببعض الواجبات العسكرية، وفي عام (٥٤ ق.م).

كان لدى قيصر قسطورين يخدمون تحت قيادته وهو أمر استثنائي.

١٣٥ – غيوس انيتيستيوس ريجينوس *Gaius Antistius Reginus*: واحد من جنرالات قيصر.

١٣٦ – الريميون *The Remi*: قبيلة بلجيكية قوية تعيش على جانبي نهر أيسن *Aisne* على مقربة من ريمز *Rheims* وهي مدينة في شمال شرق فرنسا.

١٣٧ – الفارس الروماني *Roman Knight* (انظر المقدمة).

١٣٨ – لوسيوس روسيوس *Lucics Roscius*: خدم في غاليا كقسطور عام (٥٤ ق.م).

١٣٩ – الروتينيون *The Ruteni*: قبيلة تقطن في جنوب فرنسا، جزء في المقاطعة الرومانية والجزء الأخر إلى الشمال منها قليلاً.

١٤٠- كوينتوس تيتوريوس سابينوس *Quintus Titurius Sabinus*: أحد جنرالات قيصر.

١٤١ – ساماروبريفا *Samarobriva*: مدينة الامبيانيين *the Ambiani* في منطقة أمينز *amiens* (وهي مدينة في شمال فرنسا على نهر سوم *Somme*).

١٤٢ – السانتونيون *The Sautioni*: قبيلة من الغرب الفرنسي تقطن بجانب نهر شارينت *Charente*، ومدينة سينتس *Saints* اشتق اسمها من السانتونيين.

١٤٣ – السيدونيون *the Seduni*: قبيلة تعيش في جنوب غرب سويسرا على ضفاف نهر الرون الأعلى ومدينة سوان *Soin* اشتق اسمها من السيدونيين.

١٤٤ – ماركوس سيمبرونيوس روتيلوس *Marcus Sempronius Rutilus*: واحدٌ من ضباط قيصر.

١٤٥ – مجلس الشيوخ الروماني: (انظر المقدمة – الجزء الأول).

١٤٦ – السينونيون *The Senones*: قبيلة تعيش جنوب شرق باريس على مقربة من أجيدينكوم *Agedincum*.

١٤٧ – السيكوانيون *The Sequani*: قبيلة تقطن في شرق فرنسا بين ساون *Saone* وسلسلة جبال الجيوا *Jura* والفوج *Vosges*.

١٤٨ – كونيتوس سيرتوريوس *Quiutus Sertorius*: (الفصل الثالث – الجزء الثاني): أحد المناصرين للديموقراطيين الرومان، وضع نفسه عام (٨٠ ق.م) على رأس القبائل الإسبانية

المتمردة واستطاع بمساعدة المنفيين الرومان تحدي جنرالات مجلس الشيوخ الروماني بما فيهم بومبي *Pompey* ولثماني سنوات حتى تم اغتياله على يد واحد من ضباطه.

١٤٩ – تيتوس سيكستيوس *Titus Sextius*: واحدٌ من جنرالات قيصر.

١٥٠ – مصطبة الحصار: وهي عبارة عن مصطبة تتألف من أجزاء من جذوع الشجر يتم ترتيبها بطبقات تحوي داخلها التراب والحصى. يبدأ العمل في إقامة هذه المصاطب على مسافة بسيطة من سور المكان المراد حصاره، ومن ثم يأخذ العمل بالتقدم نحوه، ويكون طول المصطبة عادةً بزاوية قائمة مع السور، وتنصب فوق المصاطب أبراج خشبية عالية بعدة طبقات يتركز فيها ما أسميناه، بالمدفعية والقناصين.

١٥١ – ماركوس جونيوس سيلانوس *Marcus Junius Silanus*: واحدٌ من جنرالات قيصر.

١٥٢ – السوتياتيون *the Sotiates*: قبيلة من جنوب غرب فرنسا تقطن بجوار مدينة سوس *Sos* التي اشتقت اسمها من السوتياتيين في إقليم لوت – ري غارون *Garonne–Lot – et* .

١٥٣ – السويبيون *The Suebi*: شعب جرماني قوي ظل يتوسع تدريجياً ولمدة قرن تقريباً قبل عهد قيصر باتجاه جنوب غرب انطلاقاً من بلاده في الشمال الألماني.

١٥٤ – السوسيونيون *The Suessiones*: واحدة من القبائل البلجيكية تقطن في منطقة نهر أيسن *Aisne*، بجوار مدينة سواسون *Soissons* الواقعة في الشمال الفرنسي، والتي اشتقت اسمها من اسم هذه القبيلة.

١٥٥ – السوغامبريون *Sugambri* قبيلة جرمانية تقطن على الضفة الشرقية لنهر الراين بين نهر روهر *Ruhr* ونهر سيغ *Sieg* (الذي اشتق اسمه من اسم القبيلة سوغامبري).

١٥٦ – لوسيوس كورنيليوس سولا *Lucius Cornelius Sulla*: (انظر الجزء الأول من المقدمة).

١٥٧ – بوبليوس سولبيسيوس روفوس *Publius Sulpicius Rufus*: واحدٌ من جنرالات قيصر.

١٥٨ – التاروساتيون *Tarusates*: إحدى القبائل الأكويتانية *Aquitania*.

١٥٩ – تاسجيتيوس *Tasgetius*: واحدٌ من النبلاء الكارنوتيين *Carnutes*.

١٦٠ – التينكثيرون *Tencteri*: قبيلة جرمانية قامت بالاشتراك مع اليوسيبتيين *Usipetes* بغزو غاليا عام (٥٥ ق.م).

١٦١ – التوتونيون *Teutoni*: (انظر المقدمة – الفقرة الثالثة).

١٦٢ – غيوس تريبونيوس *Gaius Trebonius* : أحد جنرالات قيصر.

١٦٣ – غيوس تريبونيوس *Gaius Trebonius* : فارس روماني من النبلاء خدم في غاليا.

١٦٤ – التريفيريون *Treveri* : قبيلة تقطن إلى الغرب من نهر الراين في جنوب شرق بلجيكا ولوكسوم بيرغ وجزء من بروسيا الواقع في منطقة نهر الراين ومدينة تريفيس *Treves* ما تزال تحتفظ باسم هذه القبيلة.

١٦٥ – الترينوفانتيون *Trinovantes* : قبيلة تقطن في مقاطعة ايسكس *Essex* جنوب شرق إنكلترا، كانت مدينتهم الرئيسية كامولودونوم *Camulodunum* في منطقة مدينة كولشيستر *Colchester* شرق إنكلترا.

١٦٦ – الطورونيون *Turoni* : قبيلة تعيش على ضفاف نهر اللوار بجانب مدينة تور *Tours* التي اشتقت اسمها من اسم القبيلة.

١٦٧ – اليوبيون *Ubii* : قبيلة جرمانية تعيش على الضفة الشرقية لنهر الراين بين نهر سيغ *Sieg* ونهر مين *Main*.

١٦٨ – اليوسيبتيون *Usipetes* (انظر: التينكثيريون *Tencteri*).

١٦٩ – اوكسيلودونوم *Uxellodunum* : قلعة للكادورسيين *Cadurci* في جنوب غرب فرنسا، ولربما اسم التلة بوي – دي – اسولو *Puy D' ISsolu* بجانب فيراك *Vayrac* في مقاطعة لوت *Lot*.

١٧٠ – غيوس فاليريوس كابوروس *Gaius Valerius Caburus* : أحد أبرز الشخصيات الهيلفية *Helvi*، والد غيوس فاليريوس بروسيللوس *Procillus* ·الفصل الثاني – الجزء الثاني) وغيوس فاليريوس دومنوتوروس *Domnotaurus* (الفصل السابع – الجزء الرابع).

١٧١ – غيوس فاليريوس فلاكوس *Gaius Valerius Flaccus* : (الفصل الثاني – الجزء الثاني): حاكم مقاطعة ترانسلباين غاليا عام (٨٣ ق.م).

١٧٢ – غيوس فاليريوس تروسيللوس *Gaius Valerius Troucillus* : (الفصل الثاني – الجزء الأول): أحد ألمع الرجال في مقاطعة ترانسلباين غاليا.

١٧٣ – بوبليوس فاتينيوس *publius Vatinius*: (الفصل الثامن – الجزء الثاني) أحد جنرالات قيصر.

١٧٤ – فيللونودونوم *Vellounodunum* : مدينة للسينونيين في وسط فرنسا، ربما كانت مونتا رجيس *Montargis* الواقعة بين أورلينز وسانس *Sens*.

١٧٥ – الفينيلليون *Venelli* : قبيلة تقطن على ساحل نورمانديا على مقربة من تشيربورغ *Cherbourg*.

١٧٦ – الفينيتيون *Veneti* : قبيلة عاشت في إقليم موربيهان *Morbihan* في بريتانيا *Brittany*.

١٧٧ – الفيرا غريون *Veragri* : قبيلة عاشت في جنوب غرب سويسرا حول الرون الأعلى بجوار مارتيغني *Martigny*.

١٧٨ – فيركاسيفللونوس *Vercassivellaunus* (الفصل الثامن – الجزء الخامس): أحد زعماء الآرفيرنيين، ابن عم فيرسينجيتوريكس *Vercingetorix*.

١٧٩ - فيرسينجيتوريكس *Vercingetorix* : أرفيرني، كان القائد العام لثورة سنة (٥٢ق.م).

١٨٠ – فيرتيكو *Vertico* : (الفصل السادس – الجزء الأول) هارب نيري في *Nervian* استخدمه سيسيرو أثناء حصار معسكره.

١٨١ – فيرتيسكوس *Vertiscus* : (الفصل الثامن – الجزء الأول): الحاكم الرئيسي وآمر سلاح الفرسان لدى الريميين *The Remi*.

١٨٢ – فيريدوماروس *Viridomarus* : أحد زعماء الايديوويين.

١٨٣ – فيريدوفيكس *Viridorix* : أحد زعماء الفينيليين *The Venelli*.

١٨٤ – الفيروماندويون *Viromandui* : قبيلة تقطن حول أعلى نهر سوم *Somme* إلى جوار مدينة سينت كوينتين *ST. Quentin*.

١٨٥ – الفوكاتيون *Vocates* (الفصل الثالث – الجزء الثاني): قبيلة أكويتانية.

١٨٦- الفولكيون *Volcae* : قبائل تعيش على الساحل ما بين البيرينيه *The Pyrenees* والرون *The Rhone*.

١٨٧ - غيوس فولوسينوس كوادراتوس *Gaius Volusenus Quadratus*: أحد التريبونات العسكريين، وقائد سلاح فرسان قيصر خلال الحملات الأخيرة.

الفهرس

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

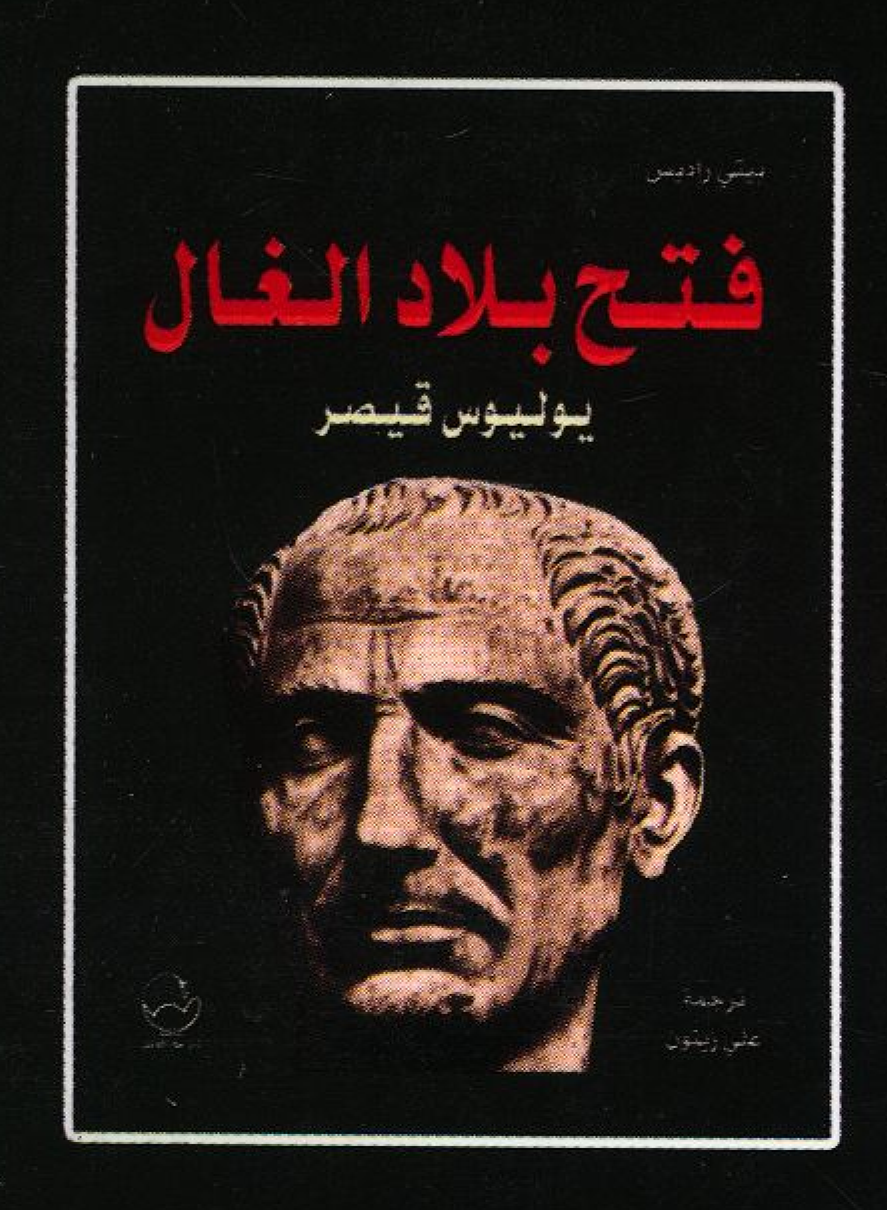
الفصل الثامن

من منشورات دار علاء الدين

- السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية
جان كلود مارغرون
- أسرار الآلهة والديانات
أ. س. ميغوليفسكي
- هرم ستونهينج الافتراضي
افزينوفيف ا.ا.زينوفيف
- تاريخ اليابان من الجذور حتى هيروشيما
ادوين أولدفاذر ريشاور
- رموز ومعجزات
ارنست دوبلهوفر
- المسيحيون الأوائل والإمبراطورية الرومانية
إس.سفينسيسكايا
- دراسات حول الأكراد
ب. ليرخ
- التاريخ السري
بروكوبيوس
- الجنس في العالم القديم
بول فريشاور
- من هم الموحدون الدروز
جميل ابو ترابي
- أميرات سوريات حكمن روما
جودفري تورنون
- أساطير في أصل النار
جيمس فريزر
- الاقتباس والجنس في التوراة
خالص مسور
- نقد النص التوراتي الكتاب الأول
د. إسماعيل ناصر الصمادي
- التأريخ التوراتي.. والتاريخ الكتاب الثاني
د. إسماعيل ناصر الصمادي
- التأريخ التاريخي ما بين السبي البابلي وإسرائيل الصهيونية الكتاب الثالث
د. إسماعيل ناصر الصمادي
- اليوم الآخر ونهاية الزمان
د. خالد صناديقي
- الإله والإنسان وأسرار جنائن بابل
د. ماجد عبد الله الشمس
- الحضارة والميثولوجيا في العراق القديم
د. ماجد عبد الله الشمس
- في أصل العرب ومواطنهم
د. ماجد عبد الله الشمس
- القاهرة وبيت المقدس ودمشق
دافيد صمونيل مارجوليوث
- سلسلة الأساطير السورية ديانات الشرق الأوسط
رينيه لابات
- أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة
س. بريوشينكين
- طقوس الجنس المقدس عند السومريين إينانا ودوموزي
س. كريمر
- بنو معروف في التاريخ
سعيد الصغير
- التشريعات البابلية
عبد الحكيم الذنون
- بدايات الحضارة
عبد الحكيم الذنون
- تاريخ القانون في العراق
عبد الحكيم الذنون
- الأسطورة في بلاد الرافدين الخلق والتكوين
عبد الحميد محمد
- أسرار بابل
فـ. أ. بليافسكي

من منشورات دار علاء الدين

- الشعوب الإسلامية في القفقاس وروسيا وآسيا الوسطى
  ....مجموعة من المؤلفين
- ستالينغراد ملحمة العصر
  ....ف. تشويكوف
- الحضارات القديمة ١-٢
  ....ف. دياكوف / س. كوفاليف
- غريغوري راسبوتين حياة قديس آثم وموته
  ....ف. ل. تيليتسين
- صراع بين الحرية والاستبداد
  ....فارس الحناوي
- الأسطورة والمعنى
  ....فراس السواح
- التاو تي تشينغ إنجيل الحكمة التاوية في الصين
  ....فراس السواح
- الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم
  ....فراس السواح
- الرحمن والشيطان
  ....فراس السواح
- الوجه الآخر للمسيح
  ....فراس السواح
- آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي
  ....فراس السواح
- تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود
  ....فراس السواح
- جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة
  ....فراس السواح
- دين الإنسان
  ....فراس السواح
- لغز عشتار
  ....فراس السواح
- مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة سوريا أرض الرافدين
  ....فراس السواح
- مدخل إلى نصوص الشرق القديم
  ....فراس السواح
- موسوعة تاريخ الأديان ١-٥
  ....فراس السواح
- سلطان باشا الأطرش تاريخ وطن
  ....فريد عبد الكريم فياض
- الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى
  ....فضل عبد الله الجثام
- نهاية راسبوتين ذكريات الأمير فيليكس يوسوبوف
  ....فيليكس يوسوبوف
- المصادر التاريخية العربية في الأندلس
  ....ك. بويكا
- سحر الأساطير دراسة في الأسطورة التاريخ الحياة
  ....م. ف. البيديل
- حكايات وأساطير من مصر القديمة
  ....مارغريت ديفين
- معجم الأساطير
  ....ماكس شابيرو، رودا هندريكس
- شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق القديم
  ....مجموعة من المؤلفين
- كليوباترا وعصرها
  ....مجموعة من المؤلفين
- الاثنولوجيا دراسة عن المجتمعات البدائية
  ....محمد الخطيب
- الحضارة الفينيقية
  ....محمد الخطيب
- الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية
  ....محمد الخطيب



فتح بلاد الغال

يوليوس قيصر

هذا الكتاب...

قد يكون هذا الكتاب شبيهاً بقطعة فريدة نادرة، لأنه ما من قائد عظيم آخر عبر العصور القديمة خلّف لنا سيرته الذاتيّة أو مذكّرات عن حملاته وحروبه.

هذا العمل هو جزء من مذكرات يوليوس قيصر الشخصيّة التي سجّلت لنا حملاته على مناطق بلاد الغال المختلفة: بلغاريا، سويسرا، فرنسا، ألمانيا وأجزاء من هولندا، كما أنه غزا بريطانيا مرّتين.

وبالإضافة إلى ما يحتويه هذا الكتاب من وصف ... ودقيق لحروب قيصر وحملاته يدفعنا للإ... بنشوة قيصر، وشعوره العارم بالطُّغيان الذي ... انتصارات.

... الناشر

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا ـ دمشق ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١